صور من البطولات العربية والأجنبية

د. حسين مؤنس

اهداءات ٢٠٠١
المستشار/ رابح لطفي جمعة
القاهرة

صور من البطولات العربية والأجنبية

اسم العمل الفنى : تكوين   التقنية : زيت على توال
مقاس العمل : ١٠٠ × ٧٠ سم

مصطفى الرزاز (١٩٤٢) :

فنان بارز احتل مكانة مرموقة فى حركة الفن المصرى الحديث ، واعتلى مع زملائه تجربة تحديث الفن بإحياء الصورة الإدراكية من خلال انخراطه مع جماعة المحور ـ١٩٨٠ (النشار ـ نوار ـ فرغلى ـ الرزاز) .

وهو فنان من طراز شامل ، فهو مصور ورسام وخزاف ، ونحات ، وحفار ، ومثقف حاذق ، شفاف الرؤية ، وقد أخضع الرزاز تجربته دائمًا للعقل الذى هو سيد المعرفة . وشاع اسم الرزاز بتوليفاته التوريقية وعناصره الظلية التى تشكل الكيان البيئى الفارق بين المساحات وبعضها، حتى لتبدو الصورة للمشاهد كما لو كانت قصًا ولصقًا من طراز فريد حقًا ، لم نعهده فى تجارب فنانين عديدين . استطاع الرزاز أن يختط فى رسومه نهجًا مميزًا ، بحيث جعل تصاويره جزءًا من كيان البيئة التى نحياها ، فما من طائر أو حيوان أو زاحفة إلا وجعلها لصيقة بتلك الوجوه التى أنجزها منذ أنهى تجربته التصويرية المميزة عن السد العالى فى الستينيات .

أحمد فؤاد سليم



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

صور من البطولات

العربية والأجنبية

د. حسين مؤنس

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

« كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة » . . تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ، ومكتبة الأسرة »، والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر ، الذى كانت الثقافة والإبداع محور حياته منذ فجر التاريخ .

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير، وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنوانًا فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحًا وإقبالاً جماهيريًّا منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها .

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى ، فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الأثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءًا ، إلى جانب السلاسل الراسخة «الإبداعية والفكرية والعلمية والروائع ، وأمهات الكتب الدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة «سوزان مبارك» نحو مصر الأعظم والأجمل .

د. سمير سرحان

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخـــــل

بدأت هذا الكتاب على أن يكون صوراً من البطولة العربية فحسب ، ولكنى رأيت أثناء الكتابة أننى لابد أن أتناول صوراً من البطولة غير العربية ، لأننا لا نستطيع أن نفصل العرب عن بقية العالم ، فبدأت فى تناول شخصيات غير عربية ، ولكن أثرها على العرب عظيم ، فنحن لا نستطيع أن نهمل ترفانتيس مؤلف كتاب الدون كيخوتى الذى يعتبر من أعاظم الكتب العالمية وكذلك كتاب غراميات، وعلى ذلك أصبحت الشخصيات عربية وغير عربية وأصبح الكتاب جميلاً متكاملاً وهاهو ذا بين يديك تستطيع أن تستمتع به ، وأحسست أن الناس أحبت الكتاب إذ أن طبعته نفدت فطبعته للمرة الثانية فى نفس العام. وها أنت ذا ترى طبعته الثالثة وأرجو أن تعجبك أيضاً .

ومثل هذا الكتاب عسير جداً لأن كل فصل منه لابد أن يكون وكأنه كتاب مستقل وأنت لابد أن تقرأ الكتاب قراءة تامة لكى تكتب ملخصاً محترماً .. لهذا فإن ذلك الكتاب يعتبر من أعاظم كتبى وأهمها وأرجو ألا تظن من هذا الكلام أننى مغرور بكتبى ولكن الحقيقة أننى أعرفك بقدر الكتاب ، لأن الكتب عندى ليست مجرد كتب بل هى دراسات .

هذه مقدمة صغيرة أرجو أن تعجبك لأننى أهتم جداً بكتبى وأبذل فى كتابتها جهوداً ضخمة ، والله سبحانه وتعالى معين على ذلك .

والســـلام،،،

د . حسين مؤنس

١٩٩٢/٤/٢٨

فكرة الكتاب

هذه الصفحات أعرض فيها صوراً من حياة طائفة من الناس وفقهم الله إلى تيمم الهدف الأسمى للإنسان من حياته ، وهو إسعاد الناس . وليس لى من وراء هذا العرض إلا غاية واحدة ، هى أن يعلم الناس أن امتياز إنسان على إنسان غيره من الناس فى خصلة من الخصال ، أو اقتداره على القيام بأعمال كبار تشتغل بها أذهان معاصريه ، أو تصديه لأنداده وخصومه ومغالبتهم طلباً للنصر والظفر .. كل أولئك أمور لا تهيىء للإنسان مكاناً بين العظماء أو الأبطال أو الخالدين ، لأن العظمة الحقة هى خدمة الخير ، والبطولة الحقة هى تضحية الإنسان نفسه فى سبيل الناس ، والخلود الحق إنما يكون فى قلوب البشر .

وكأيِّنْ من رجل وُهب من الذكاء ما يكاد أن يستشف به حجب الغيب، ومن الاقتدار ما يهز به الأرض هزاً ، فلا يزال يغالب الناس ويستذلهم ، ويتعاظم عليهم ويروِّع أمنهم حتى يمضى عنهم وكأنه كان إعصاراً خبيثاً اقتلع شجراً ههنا وهدم داراً ههنا ، وأثار موجاً هنا وأغرق سفيناً هناك ، ثم مضى مخلفاً وراءه الخراب والآلام فى حيث كان !

وكأيِّن من رجل بسيط لم يكن أحد من أهل عصره ليحفل له ، أنفق أيامه فى دأب متصل عادت جدواه من بعده على الناس أجمعين ؛ كهذا الطبيعى المصرى الحسن بن الهيثم قضى حياته يجرب فى الهندسة والبصريات ويشقى بعنت معاصريه وأنداده ، حتى لقد قضى معظم أيامه مشرداً أو سجيناً ، ثم مضى وقد خلف وراءه للإنسانية من الخير مالم يخلِّفه المئات من عظماء عصره وأصحاب الجاه فى أوانه .

وكهذا المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى : قضى حياته يسجل أحداث عصره ويلقى فى سبيل ذلك من الوصب ما يعرفه كل من ألم بطرف من حياته ، ثم مضى وقد خلف لنا من التراث مالم يوفق إليه أنداده ممن أنفقوا أعمارهم فى طلب الجاه والسلطان .

وكهذا الكيميائى الفرنسى لوى باستير : قضى العمر مجرباً باحثاً يتعقب الميكروب فى صبر وجلد يهزان النفس هزاً ، ولقى من عداء معاصريه وتخذيلهم إياه ما كان حرياً أن يعدل به عن هذا المطلب الأسمى ، ولكنه مضى يعمل فى سبيل خير الناس حتى فتح لهم الله على يديه من آفاق الخير والسعادة ما ينعم به اليوم كل إنسان .

وكهذه الأجيال من طلبة العلم وهواة الفنون والصناع والزراع وأهل الحرف التى يسرت للناس ـ بجدها الدؤوب المتصل ـ العيشَ على هذه الأرض ، لا يقلل من عظمتها بساطة أعمالها واندراج أفرادها فى ألفاف النسيان ، لأن آثار أعمالها إنما هى تراث مطلق للبشر أجمعين . ونحن لا يعنينا فى تقدير الناس أن يكونوا من ذوى العبقريات النادرة ، وإنما بحسبنا أن يكون الواحد منهم قد ساهم مخلصاً فى تحسين ظروف الناس على وجه الأرض بأبسط نصيب لكى نضعه بين بناة التاريخ .

والحضارة لم تبنها العبقريات بقدر ما بنتها المساهمات المتواضعة التى قدمها أناس مجهولون ، مازال كل منهم يضيف جهده إلى جهود الآخرين حتى ارتفع صرح الحضارة البشرية على أكتافهم شامخاً ، وَمَثلهم فى ذلك مثل الجنود فى جيش : يساهم كل منهم فى المعركة بشىء يسير جداً ، وتجتمع هذه الأشياء اليسيرة ليكون منها النصر العظيم .

وليس يحتاج الإنسان إلى أن يكون موهوباً خارق الذكاء ولا نادر المواهب لكى يكون عظيماً ، وإنما يكفى أن يكون إنساناً ذا قلب حى يشعر بأن الحياة لا تكون حياةً إلا إذا أُنفقت فى جهد متصل فى سبيل الخير ، وأن الإنسان الجدير بلقمة العيش التى يتبلّغ بها هو الذى يؤدى حقها بالعمل الدؤوب على قدر ما تساعف الظروف ، لأننا على هذه الأرض لنعمِّرها ونجملها ، لا لطِلاب الراحة والنعيم ، ولأن الله خلقنا لنشكر آلاءه علينا بالعمل فيما فيه خير الأرض وخير أهلها . والعمل عبادة ، وطِلاَبُ الخير سيادة . ولن تجد إنساناً ذليلاً ساعياً فى خير أبدا ، ولن تجد إنساناً ذا همة وجِدٍ وقصدٍ للخير إلا عزيزاً أبداً متفضلاً أبداً ، ولو بدا لنا عمله بسيطاً متواضعاً : ليكن خبازاً أو بناء ، وليكن زارعاً أو صانعاً ، فلن تجده إلا كريما حراً ، لأنه قوة من قوى الخير والرخاء ، ولأن الناس لن يؤدوا إلا جانباً يسيراً من حقه عليهم ؛ فهو صاحب فضل وصاحب خير ، وهذا فى عرفنا هو العظيم .

على هذا الأساس تخيرت هذه الحفنة من العظماء الذين أعرض عليك بعض جوانب حياتهم فى هذا الكتاب ، ليس فيهم واحد إلا تصدى لعمل كريم يعود خيره على الناس أجمعين ، أفنى فيه نفسه وأنفق أيامه صابراً متجلداً راضياً بما لقى فى سبيله من الإعنات والأذى ، لأن إيمانه بالعمل وحرصه على خير الناس صرفاه عن التفكير فى أمر نفسه ، وخلقا له عالماً داخلياً حافلاً ، هو أجمل عنده وأغنى من عالم الناس الذى عاش فيه .

وقد مضى وفات ذلك الزمان الذى كان الناس يرددون فيه بالإعجاب البالغ بيتى أبى الطيب :

مصر القديمة إلى ذروته ، فهو يأخذ مكانه فى مطلع هذا الكتاب على أنه بانٍ من بناة الحضارات ، وإن كانت الحرب إحدى وسائله فى ذلك البنا.

ولا تحسبن المجد زقا وقينة ... فما المجد إلا السيف والفتكة البكر

وتركك فى الدنيا دوياً كأنما ... تداول سمع المرء أنمُلُه العشر

حاسبين أن هذا الكلام إنما هو لباب فلسفة الحياة ، وما هو فى الواقع إلا كلام حسن الصياغة لم يصدر عن إيمان بالخير أو حب للناس .

نعم ، مضى زمان الفتكات البكر والصيت المدوى الذى لا يغر إلا كل فارغ النفس سقيم الوجدان .

مضى ذلك الزمان وأقبل زمان العمل الكريم والخير المتصل ، ولم تعد الدنيا للمحارب الفاتك وإنما للعامل الكريم المخلص الذى يعمل على توفير الخير على قدر ما يستطيع .

وقد يبدو أننى خالفت هذه القاعدة فيما ذكرت من سير أبطال محاربين ، من أمثال تحتمس الثالث وبطليموس الثالث الملقب بيورجيتيس وآخيل والإسكندر العظيم ، ولكن الحقيقة أننى التزمتها فى هذه التراجم ولم أغفلها ، لأننى لم أذكرها لأمجد انتصاراتهم وإنما للمعانى التى قصدوا إليها من وراء الحروب .

فتحتمس الثالث رائد من رواد الحرية فى التاريخ ، وعلم من أعلام الحضارة الإنسانية حمى بلاده ورد عوادى الأعداء ، وحمل نور الحضارة المصرية إلى آسيا ، ووصل بمجد

مصر القديمة إلى ذروته ، فهو يأخذ مكانه فى مطلع هذا الكتاب على أنه بانٍ من بناة الحضارات ، وإن كانت الحرب إحدى وسائله فى ذلك البناء .

وكذلك الإسكندر ، لم أذكره للفتوح العظيمة التى قام بها ، وإنما للفكرة العليا التى دفعته إلى خوض غمار الحروب ، فكرة مؤاخاة الشرق والغرب على بساط الحضارة والعمران.

وبطليموس الثالث ذكرته لمجد الفتح الذى قام به وحمل به حضارة مصر وحضارة الإغريق إلى حدود الهند ، وذكرته لأنه بطل مصرى مجهول ، وواحد من الكثيرين الذين ساهموا فى بناء وطننا ، وهو أعز شىء فى هذا الوجود .

تخيرت هذه الصور جميعاً ـ مصرية وغير مصرية ـ مُثُلاً من الجهاد الكريم ، كى يؤمن من يقرؤها بجلال الخير وجلال الإيثار . ولكى أوجه نفوس قومى إلى الوجهة الوحيدة التى تهيىء لهم العيش الكريم العزيز الذى يرتجون ؛ هذه الوجهة هى الإيمان بأن الخير هو غاية الحياة العليا ، فمن آمن بذلك فقد أمن الذل والهوان ، ومن نسيه عاش فى ألفاف الخوف والعوز ، ولن ينجو به منهما بعد ذلك مال ولا جاه ولا صيت .

وليس إلى الشك سبيل فى أننا ـ نحن المصريين ـ كنا طوال تاريخنا من جنود الإنسانية ، ولاشك كذلك فى أن الناس عرفوا لنا فضلنا فى أحيان وأغفلوا أمره فى أحيان ، فعولت على إبراز بعض جوانب هذا الفضل الخافية ، وحرصت على أن أضيف بضع تراجم وصور من تاريخنا تؤكد للناس كريم مساهمتنا فى بناء صرح الحضارة الإنسانية .

تلك هى فكرة هذا الكتاب ، وعلى ضوئها أحب أن تقرأه ، لأنها لباب حياة كل واحد ممن سنستعرض قصصهم فى هذه الصفحات .

وقد قسمت هذه التراجم أقساماً ثلاثة :

الأول : صور من البطولة فى العصر القديم .

والثانى : صور من البطولة الإسلامية .

والثالث: صور من البطولة فى العصر الحديث ، بعضها أوروبى وبعضها أمريكى .

وختمت الكتاب بصورة لبطل مصرى كريم هو الأميرالاى محمد عبيد ، كما بدأته ببطل مصرى قديم هو تحتمس الثالث بطل مجدو .

وذيَّلتُ الكتاب بثبت للمراجع : جعلت لكل فصل فى الكتاب مراجعه على حدة ورتبت الفصول ترتيباً زمنياً . ولما كانت هذه الصور قد كتبت فى فترات متباعدة وفى ظروف شتى فقد جاءت مراجع كل صورة بحسب المكان الذى كُتبتها فيه ، ولست أشك فى أن معظم ما أوردته من الكتب الألمانية موجودة فى ترجمات إنجليزية أو فرنسية .

وقد تفضل بمعاونتى فى مراجعة تجارب هذه الطبعة صديقى الأستاذ يحيى سيد حسين والدكتور محمد زينهم فلهما خالص الشكر .

والحمد لله رب العالمين .

حسين مؤنس

مايو ١٩٩٢

القسم الأول

صور من البطولة
فى العصر القديم

فى سهل مجدّو

تحتمس الثالث

كان من المألوف عند أمراء مصر القديمة أن يهب بعضهم نفسه لخدمة الدين ، فيعتزل الدنيا ، ويزهد فى ما يخلعه المُلك عليه من ترف وجاه ، وينتظم فى سلك كهان أحد المعابد ، ليقضى أيامه كاهناً صغيراً كغيره من صغار رجال الدين .

وكان تُحُتمس ـ الذى ارتقى العرش فيما بعد باسم تحتمس الثالث ـ أحد أولئك الأمراء الذين نذروا أنفسهم منذ صباهم الباكر لخدمة المعبود آمون . وكانت هذه الخدمة تعتبر فى نظرهم لوناً من ألوان الاستعداد للمُلك إذا سنحت له سانحة ، لأن الملك عندهم كان الكاهنَ الأعظم ، ولم يكونوا يتصورون مَلكاً لا تزينه هذه الصلة بالدين .

ومضى تحتمس الصبى يخدم المعبود آمون فى رضا واطمئنان ، وكان أبعد شىء عن أن يخطر بباله هو ارتقاؤه ذلك العرش الذى استوى عليه فيما بعد ، لأن أمه إيزيس لم تكن زوجاً رسمية شرعية لأبيه تحتمس الأول .

وفى يوم من أيام الأعياد ، وبينما هو جالس مع بعض الكهنة فى قاعة الأعمدة الشمالية بساحة أبيه تحتمس الأول فى معبد آمون ، إذ ترامت إلى سمعه أصوات الكهنة يرتلون ، وكان بعضهم قد حملوا تمثال آمون وجعلوا يطوفون به فى أرجاء المعبد وفقاً للطقوس . وكأنما حلَّت روح آمون فى التمثال ، فجعل يتحرك ويسير بالكهنة من مكان لمكان كالذى يبحث عن شىء ، فما راعه إلا اتجاه التمثال نحو مجلسه ، ووقوفه أمامه لا يتحول أو يريم ، فوثب من مجلسه فرمى بنفسه عند قدميه ، فمد التمثال يده إليه فأنهضه ، ثم أخذ بيده وسار به حتى وصل إلى « المقعد الملكى » بالمعبد ، فرفعه إليه وأجلسه عليه .

وكان أبوه تحتمس الأول مايزال على عتبة المعبد ، بعد أن أدى عبادته المعتادة لآمون ،

فلم يكد الكهنة يحملون إليه النبأ حتى أشرق وجهه ، وأقبل يشتد فى خطوه نحو ابنه ، ولم يكد يرى المعبود يباركه حتى تهلل فرحاً ، وأقبل يعفر وجهه بتراب آمون ، ثم ضم ابنه إليه وثبته على العرش ، وخلع عليه ألقاب المُلك وشاراته ، وأعلن إلى من حوله أنه يعتزل العرش من تلك اللحظة ، تاركاً إياه لمن اختاره آمون بنفسه ...

وكان تحتمس الأول شيخاً كريماً ، قضى أيامه يرتب شئون الدولة بعدما أصابها من أذى الهِكْسُوس ، فأثار اعتزاله العرشَ رنة أسى بين رعيته أجمعين ، ولكنهم تفاءلوا جميعاً بمقدم ابنه ، لأن آمون شرفه باختياره ، ولا يختار آمون إلا من يرضى عنه ويتوسم فيه البركة والخير.

أما الفرعون الفتى فكان جميلاً ظاهر الفتوة ، تقياً لا يكاد يقصر فى شىء من واجبات العبادة ، ومازال منذ ملك يقيم المعابد ويصلح ما وهى منها ، وهو إلى ذلك ذكى لا يكاد يخفى عليه من أمور الدولة شىء ، محارب لا يشق له فى الميادين غبار ، مؤثر لصالح الناس على صالح نفسه حتى لينساها فى سبيل الآخرين ! .

ولقد ساس الأمور بدهاء وكرم ، فقد نازعته حتشبسوت ـ أخته لأبيه ـ هذا الحق الذى وهبه إياه الإله ، وانضم إليها نفر من أنصارها ، وكاد الأمر ينتهى إلى فتنة ، ولكنه لم يحاربهم ولم يصر على أن يستبد بالأمر ، ونزل عن حقه فى العرش لأخته التى كانت فى الوقت نفسه زوجته ، ورضى بأن يكون شريكها فيه لا أكثر .

وكانت حَتْشِبْسوت امرأة ذكية معجبة بنفسها ، فلم تزل كل يوم تعدو على حق من حقوق تحتمس حتى لم يعد أحد يسمع به إلى جنبها ، وكان فى تصرفه هذا صبوراً عاقلاً كريما ، فقد كان يعرف أنها أسن منه ، وأنها امرأة ، وأن من حقها أن تستمتع بنصيبها من أبهة الملك قبل أن يتقدم بها الزمان .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، فإن الملك القصير الأمد تحتمس الثانى بن تحتمس الأول ، كان فى أول الأمر رجلاً ضعيفاً خاملاً لا يكاد أحد يحسب له حساباً ، فلما تحسن حاله بعض الشىء ووجد أخته تستبد بالعرش استفاقت مطامعه ، فمضى يستعين بأبيه تحتمس الأول ـ وكان قد انفرد بنفسه للعبادة بعد نزوله عن العرش لتحتمس الثالث ـ ومازال به حتى شد ساعده وطلب له المُلك من أخته حتشبسوت وأخيه تحتمس الثالث ، فلم يتردد

تحتمس الثالث فى أن يتخلى عنه لأخيه العليل ، بل أقنع أخته وزوجته حتشبسوت بذلك وبهذا خلا العرش لهذا المسكين الضعيف ، فاستمتع به لحظة ثم مضى إلى حيث يمضى كل الناس .

وعاد تحتمس الثالث وحتشبسوت إلى العرش ، فعادت هذه سيرتها الأولى ، واستبدت بكل شىء ، وكان تحتمس يثق فى حسن سياستها واقتدارها فترك لها الأمر ، وكان ناصحها ومستشارها «سِنمُوت » أستاذاً له فى الصغر ، فاستحيى تحتمس أن ينازع أستاذه الأمر . والحق أن حتشبسوت ورجالها كانوا من خيرة من عرفتهم بلادنا حسن إدارة وقدرة على سياسة الأمور ، ولقد استطاع « جابوسْتِب » وزيرها العظيم ورئيس كهنة آمـون ، أن يدبر الأمور أحسن تدبير ، وأن ينهض بكل ما عهد إليه به من تبعات الدولة الجسام .

ثم انقضى ذلك كله : مضت حتشبسوت هى أيضاً إلى حيث يمضى كل الناس وتفرق أنصارها ، وعاد تحتمس الثالث إلى القوة والسلطان بعد اثنتين وعشرين سنة من التضحية والإيثار ، عاد إلى القوة بعد هذا العمر الطويل من الخبرة والتأمل ، عاد كأتم ما يكون الملوك نضجاً والرجال خبرةً والفراعين سياسةً وكياسةً ...

وكانت حتشبسوت قد صرفت همها كله إلى البناء والتعمير والتجميل ، شأنها فى ذلك شأن كل امرأة تعتلى العرش : يكون أول ما يشغلها شئون السلم والرخاء ، وقد كان فى هذا خير كبير لبلادنا ، لأن الهكسوس كانوا قد خرَّبوها تخريباً شديداً ، وكان لابد من جهد كبير لتعمير البلاد وإعادة الرخاء إلى أرجائها . وكانت حتشبسوت خير من يقوم بهذا ، لأنها كانت سلطانة عظيمة تعشق الجمال والأبهة والزينة والتعمير والرفاهية ، وربما لو قد استبد تحتمس الثالث بالأمر من دونها لما التفت إلى شىء من ذلك ، لأنه كان محارباً لا يعدل بالحرب والميادين شيئاً ...

تولى هذا الفرعون الجليل فى وقت كانت ظروف الدولـة كلها تتطلب قيامَه على العـرش فقد كانت أملاك مصر فى آسيا تتهددها الأخطار لطول ما تغيب جنودها عنها . وكان أهل آسيا قوما محاربين أشداء لابد من تَوَلِّيهم بالغزوات حتى يخضعوا ويلينوا ، وكانت مصر لاتستطيع أن ترفـع يدها عن تلك المناطق الواقعة بين حدودهـا ونهر الفرات ، فقد كان

أهل هذا الإقليم قبائل لا تألف النظام ولا تعرف السكون ، ولا تزال تتطلع بعين الطامع إلى جنان مصر ورياضها الزاهرة وخيرها الكثير ، شأنها فى ذلك شأن النوبيين فى الجنوب والليبيين فى الغرب ، فكان لابد لمصر من أن تداوم على حربهم ، وأن تكون على الأهبة للقائهم ، وإلا عدوا عليها وخربوها كما فعل الهكسوس .

فى هذه الظروف تولى تحتمس الثالث ... ولم يكن أحد ليتصور أنه قائد ماهر لم تنجب مصر إلى يومه محارباً أمهر منه ولا أقدر ؛ وسنجتزىء هنا من الجهاد الرائع الذى سجلته له الأيام بالحديث عن حملته الكبرى لإخضاع الثائرين على مصر بزعامة أمراء بلاد ميتانى شرقى الفرات .

كانت أمة الميتانى حاقدة على مصر متخوفة سلطانها ، وقد بذل فرعون مصر جهده فى التودد إلى أهلها محاولاً كسبهم إلى جانبه ، ولكنهم أصروا على الأذى ، ومازالوا يغرون شعوب الشام ويؤلفون بينها حتى استطاعوا تكوين حلف مركزه قادش ، وما أن تم لهم ذلك ، حتى بدأوا يدفعون الحلف على الكيد لمصر وتهديد مصالحها ...

ولم يكن جيش مصر إذ ذاك بالكبير ، لأن إهمال شئون الحرب أيام حتشبسوت هبط به وأشاع الاضطراب فى نظامه أعواماً متوالية ، فلما نهض تحتمس للغزو بدأ يعد الجيش وينظمه ، ولم يكن أمامه من الوقت متسع للاستكثار من الجند ، فجعل همه تدريب العشرين ألفا الذين يتكون منهم جيشه تدريباً كاملاً دقيقاً ، حتى لقد كانوا يشعرون عند خروجهم من مصر أنهم ـ بفضل النظام وحسن الاستعداد ـ يعدلون مئات الألوف .

غادر الجيش مصر مع الربيع (١٩ أبريل سنة ١٤٧٩ ق . م) وأسرع فى السير فوصل إلى غزة فى تسعة أيام ، ووافق وصوله إليها يوم الذكرى الثانية والعشرين لانتخاب آمون لتحتمس فرعوناً على مصر على النحو الذى وصفناه ، واقتصر فرعون فى الاحتفال بهذه الذكرى على حفل بسيط نهض الجيش فى صباحه فسار محاذياً ساحل البحر الأبيض المتوسط ، واخترق سهل شارُون ، وعسكر فى سفح جبال الكَرْمِل بعد أن قطع مسافة طويلة من غير أن يشعر بشىء كثير من الجهد أو التعب ، وذلك بفضل ما أبداه فرعون من القدرة والخبرة والجلَد ، فقد كان يسير فى مقدمة جيشه كأى واحد من أفراده ...

وكان العصاة قد تجمعوا أثناء ذلك يقودهم ملك قادش ، وتحصنوا فى حصن مجدّو على المنحدر الشمالى لجبال الكرمل ، ولم يلبث فرعون أن استبان أن خصمه ملك قادش خبير بالحرب ذو بصر بشئونها ، ولهذا تخير هذه المدينة الحصينة التى تقع بين سلسلتى جبال الكرمل ، وتهيمن على الطريق المؤدى من مصر إلى وادى الفرات .

وعقد فرعون مجلساً من كبار ضباطه ، ومكث وإياهم ساعات طويلة يتداولون فى أحسن خطة يمكن انتهاجها ، وكانت هناك طرق ثلاث تؤدى إلى هذه المدينة : اثنتان طويلتان مأمونتان ، والأخرى قصيرة محفوفة بشىء من الخطر . ونصح الضباط باتباع إحدى الطريقين الطويلتين التماساً للأمان ، ولكن فرعون كان أبعد منهم بصراً ، فقد كان الوقت أهمَّ من الأمان فى نظره فى هذه اللحظة ، لأن العدو كان يجمع قواته ، وكانت أعمال تحصينه سائرة فى جد ، فاستحسن فرعون أن يسرع فيفجأه على غرة ، ويشتت قواه قبل أن تتجمع وتشتد . وكان القواد المصريون يخشون وثوب العدو على الجيش واعتراضه له فى مخارم الجبل الضيقة ، وطالت المناقشات وبدأت أخبار اختلاف الآراء تصل إلى أسماع الجند ، فجعل الكهنة المرافقون للجيش يصلون لآمون أن يلهم فرعون الرأى الصحيح . وإذا بفرعون يخرج إلى جنده فيخاطبهم فى حنان الأب الرءوف ، وحزم القائد المجرب قائلاً: « أى جنودى البواسل ، سأسير أمامكم لأدلَّكم على الطريق .. فاتبعوا خطاى ولا تخشوا بأساً ! » .

وملأت بسالة فرعون قلوب جنده ثقة ، فمضوا فى صف طويل يلاحق بعضهم بعضاً مخترقين المضايق والخوانق ، يطوون اليوم واليومين وهم سائرون لا ينال من نفوسهم خوف ولا يدركهم تعب . ولم تكد مقدمة الجيش تصل إلى نهاية الممر الجبلى الضيق ، وتشرف على سهل جِزْرِيل حتى لقيها فريق من الأعداء ، ما كاد فرعون يراهم حتى انقض عليهم بحفنة من أبطاله ، فما هى إلا ساعة حتى بددهم وفرقهم بين قتيل وأسير . ثم أفضى إلى السهل فمضى بجيشه على مهل ليتيح لجنده أن يريحوا أجسامهم من وعثاء التوقل والانحدار فى تلك الجبال القاسية . ولم يكد الليل ينتصف حتى كان يضرب معسكره على مرأى من مجدو، وتحمست نفوس الجند واستعدت للقتال ، فأمرهم فرعون أن يستريحوا ، فمالوا بجنوبهم إلى الأرض ساعاتٍ حتى طلع النهار ...

ومن غرائب المقادير أن ملكَ قادش وأصحابه حسبوا أن فرعون مصر آت إليهم من الطريق الطويلة التى تمر بمدينة طآخ ، فضربوا معسكرهم على هذا الطريق وأقاموا ينتظرونه ، فلو أن فرعون استمع لنصح قواده للقيه الأعداء على مبعدة من عاصمة ملكهم وربما حدث مالا تحمد عقباه ، فأما وقد سار فى الطريق الضيق فقد باغتهم ونزل على مقربة من عاصمتهم وهم بيعدون عنها . ولم يكد النهار يطلع حتى استيقظ فرعون وجنوده كالأسود الضارية ، وإذا فرعون على ظهر جواده يعبىء قواه ويصفها للمعركة الحاسمة ، متنقلاً به من ناحية لناحية وقد ارتفعت هامته وعلت وجهه بشائرُ النصر ، ومن حوله قواده أسودُ الوغى يكاد كل منهم يتعجل الوقت شوقاً إلى القتال والتضحية فى سبيل وطننا المصرى العزيز ..

وجعل فرعون جيشه جناحين وقلباً ، فكان الجناح الأيمن كتلةً من البواسل يحصنون جانبهم بتَل يقع جنوبى غدير كينا ، وكان الجناح الأيسر يسير كتلةً متراصة من المشاة والرماة وراكبى العجلات الحربية ووجهته مجدو على مسافة قصيرة ، أما القلب فكان يقوده فرعون وكانت مهمته شد أزر الجناح الأيسر المهاجم .

ولم يكد أهل مجدو يرون ذلك حتى اندفعوا فى الفجوة بين الجناح الأيسر والقلب ، يريدون أن يفصلوا جناحنا هذا عن بقية الجيش لينفردوا به ، وفاتهم أن فرعون ينتظر هذه الفرصة ، فما هو إلا نفذت طلائعهم فى هذه الفجوة حتى كر عليهم فرعون بعجلته الحربية المتألقة ومن خلفه خيرة جنده فشطرهم شَطراً . وباغتتهم هذه الحركة وساد صفوفهم الذعر، ومضى فرعون وجنوده يعملون فيهم الحراب والنبال ، ومضت عجلاته ـ ولا مثيل لها فى الدنيا ـ تفرى جندهم فريا، وأخذ من أفلت من القتل منهم يتراجع نحو مجدو ، واستطاع أن يدخل أسوارها منهم مَن استطاع ، وأقفلت أبواب الحصن ، فأخذ الباقون يتسلقونه على حبال أدلاها لهم مواطنوهم . وكان فى استطاعة جند فرعون أن يقتحموا الحصن فى تلك الساعة ، لولا أن الإجهاد كان قد نال منهم ، فانصرفوا عن ملاحقتهم ، وأخذوا يجمعوا الغنيمة العظيمة التى خلفها المنهزمون فى الميدان .

وخاف فرعون أن يفوت الوقت والجند مشتغل بالأسلاب ، فأصدر أمره بالهجوم على

مجدو ومحاصرتها . وكان كل الملوك الثائرين قد لجأوا إليها ، فاشتدت رغبة فرعون فى الاستيلاء عليها للقضاء على أعدائه جملة ، وخاطب جنده قائلاً : « لو مضيتم فى الهجوم واستوليتم على هذه المدينة ، لقدمت اليوم قرباناً عظيماً للإله رع ... » وكان فى هذا النداء كفاية ، فقد امتلأت النفوس حماسة وفاضت القلوب رغبة فى إنفاذ ما أمر فرعون ، فترك الجند ما فى أيديهم ، وطوقوا المدينة بسور من الشجر الأخضر ، وأحاطوا بها إحاطة السوار بالمعصم ، وعاهدوا فرعون على أن يقوموا على هذا الحصار حتى يستسلم البلد ومن فيه .

وأقام المصريون على الحصار خمسة أسابيع متوالية ، كان يتبادل القيام به فريق منهم بعد فريق ، وأعانهم على الاستمرار فيه ما كانوا يصيبونه من خيرات السهل المحيط بالبلد . أما أهل مجدو فقد أجهدهم الحصار ، ونفذت أقواتهم ، وأخذت الدلائل تدل على أنهم مسلمون بلدهم بين لحظة وأخرى ، ولم يكن يمنعهم من ذلك غير الخوف من انتقام فرعون. فلم يكد فرعون يعلم بذلك حتى عجب منه وقال لرسلهم : « ننتقم منكم ؟ كيف » إن رحمتنا تسعكم ، لأنكم تصبحون من رعايانا ! » فدهش القوم وقالوا : « فأنتم إذن لستم كأهل آشُور ... إذا استسلم لهم بلد خربوه وقتلوا أهله وطمسوا معالمه ؟ » ... فقال فرعون: « لا ... لسنا كأهل آشور ... إنما نحن مصريون فينا عطف ورحمة » .

فلم يكد أهل البلد يتسامعون بذلك حتى طلبوا من وفدهم أن يستغفر فرعون ويرجوه أن يقبل البلد وأهله رعية مخلصة طيعة ، قال رجالهم : « اسمح لنا ياذا الجلالة أن نقدم لك الجزية اللازمة ! » ثم رجوه أن يبقى على حياتهم ، فرد جلالته قائلاً : « سمحَت لكم عظمتى أن تبقوا أحياء ... ! » ، فكان ذلك من دلائل رحمة فرعون المظفر ، ولو غيره مكانه ما غفر ولا رحم ، ولَوضَع السيف فى الناس والنارَ فى البلد حتى أحالهم وأحالها هشيماً تذروه الرياح ...

ولكن فرحة فرعون لم تتم ! إذ لم يلبث أن تبين أن ملك قادش ليس بين الأسرى ، فقد استطاع أن يفر من البلد الذى أثاره وألقى به فى النار ، فرَّ تاركاً البلد تنعى من بناها ، ومخلفاً أهلها تحت رحمة العدو ، وقد أسف فرعون لذلك ، لأنه كان يريد أن يقضى على هذا الرجل الذى أثار ذلك الشر كله .

ولم يسمع أحد بمثل الغنائم التى وقعت فى أيدى فرعون وجنده بعد هذا الانتصار العظيم فى مجدو ، فقد كان منها تسعمائة عجلة حربية ، بينها عجلتا ملكى قادش ومجدو ، وثلاثون ومائتان وألف حصان ، ومائتان من أفخم الزرود ، فيها زردا الملكين المهزومين ، ومقادير لا تحصى من آنية الذهب والفضة ، وأعداد لا حصر لها من الماشية . وبعد أن استراح الجند قليلاً أمرهم فرعونُ بأن يحصدوا الحبوب فى السهل استعداداً لسير طويل وغزو متتابع ، فاجتمعت لهم بذلك مؤونة كبرى كانت لهم فيما بعد عوناً عظيماً ...

ومضى فرعون يُخضع البلاد بلداً بعد بلد ، ويتلقى طاعة الشعوب شعباً بعد شعب ، حتى دان له سهل الشام كله ، وألقت جبال الكرمل وأهلها بيد الطاعة ، فقبل فرعون منهم ما عرضوا ، وعزل من حكامهم من شك فى ولائه لمصر ، وأقام حكاماً جدداً من أنصاره والموالين له ، واستقدم أبناءهم معه إلى مصر ، وعهد إلى المربين فى تربيتهم وتنشئتهم ، حتى يشبوا على حب مصر وينموا فى أعطاف حضارتها الباهرة ..

وعاد فرعون وجيشه المظفر إلى مصر مع الخريف ، بعد ستة أشهر من الحرب والتضحية فى سبيلها ، عاد تحدوه آلاء النصر وترفرف فوق رأسه الأعلام ، فلم يبق مصرى لم يخرج لاستقبالهم ، ولم تبق نفس لم تشرئب لتملأ عينيها من بهجة الجيش المنتصر وجلال فرعون الخالد .

كان ذلك يوماً من أيام الدنيا ، فيه أصبحت مصر سيدة العالم بأسره ، وأصبح فرعونها سيد الأرضين . من ذلك اليوم اطمأن الناس إلى عدلنا ، وسار أمرنا فى الناس بالعدل الشامل ..

شاعر الأبطال

هوميروس

لعلك صاحبته مثلى زماناً ، ولعلك استمعت إلى قصصه الساحر وشعره البديع ، ولعلك أعجبت بهذا العقل العبقرى الجليل الذى ظهر والإنسانية صبية تمشى نحو اليَفَاع، يبتسم لها الوجود ويستخفها طرب الحياة الدافقة فتتغنى بكل ما تجد ، وترسل من نفسها على السجية قصيداً حلواً ساذجاً يصور حلاوة الحياة فى ذوقها وسذاجة الإحساس فى قلبها: تتغنى بالحرب إذا سارت إلى الحرب ، وتتغنى بالحب إذا أحست لواعج الهوى ، وتنتقل من حال إلى حال والقيثارة بيدها ، تنشد آمالها وآلامها ، فيردد الدهر منشداً .

وكان هوميروس قيثارة الإنسانية الصداحة وصدى صوتها المردد ، لم يخطر ببالها خاطر إلا حوَّله إلى نشيد ، ولم يجر عليها حادث إلا استحال فى فمه إلى نغم ، ولم تكن الدنيا فى ذلك الزمان كدنيانا الراهنة : جهاداً متصلاً فى سبيل العيش وحرباً لا تخمد فى سبيل البقاء ، بل كانت سهلة ذلولا ...

كان الإغريق شعباً يتوقد حيوية وتفاؤلاً ، كان شعباً حراً جميلا ـ وكل حر جميل ـ يعيش فى أرض جميلة توحى بالحرية والجمال ، هى شبه جزيرة اليونان وآسيا الصغرى وجزائر بحر إيجه . ولم تكن هذه الأرض قد أقفرت على النحو الذى صارت إليه الآن بعد عشرات القرون من الحروب والمصائب ، بل كانت روضاً يانعاً وغابات متراصة الأشجار فى تناسق لا تبدعه إلا يد الخالق جل جلاله ، وجبالاً سوامق يتوج الثلج الناصع هاماتها ، فكان الإغريقى يعيش فى أعطافها فى جو من السحر والفتنة ، وانطبعت صورها فى خياله فأصبح لا يرى شيئاً إلا أحاله إلى سحر وجمال وفتنة ، فاتخذ له من الجبال والأنهار والرياض آلهة رسمها رسماً جميلاً خفيفاً ، وابتدع خياله لكل شىء إلهاً أو آلهة : فهذا إلـه البحر ، وتلك إلهة الصيد، وهذا إله الحب ، وتلك إلهة الجمال .

ولكنه لم يقدس هذه الآلهة ويخضع لها خضوع العابد للوثن ، بل ظل يشعر أنها من خلق خياله ، فهو يُشركها معه فى مشاعره وآلامه : وهو غيران منها حيناً ، وهى غيرى منه حيناً ، وهى تميل إلى فريق من الناس على فريق ، بل هى قد تعشق من البشر إنساناً وتمضى تطلبه وقد لا تفوز به ! وهو لهذا قد يغضب على هذه الآلهة ويكفر بها ويناصبها العداء ، ولا يزال ينازعها وتنازعه ، وقد يغلبها ! حتى أصبحنا لا نفرق فيما يَروى لنا الإغريق فى قصصهم بين إنسان وإله : فهم يزعمون لك أن فلاناً هذا هو ابن الإلهة فلانة ، وأن الإله فلان أبوه من البشر ! .

ذلك كله طريف جميل ، ففيه خفة وفيه دعابة ، ولكنك لا تستطيع أن تأخذه مأخذ الجد الخالص ولا تستطيع صياغته فى نثر منطقى جامد ، ولابد لك من شعر طروب تعوضك موسيقاه وأوزانه ما ينقصك من دقة المنطق ، ولا يستطيع أن يفعل هذا كل شاعر ، بل لابد من عبقرية طلقة فياضة ترسل الشعر فى يسر كأنها تتنفس . وكانت الحوادث نفسها كفيلة بأن تخلق الشاعر المجيد وتصقل خياله ، فإن حرب طِرْوادة كانت قد ثارت بين الإغريق فشغلت نفوسهم وأذهانهم ، وطال مداها وتعددت أطوارها ، وتناولها القُصاص بما قدر عليه خيالهم ، حتى أصبحت أسطورةً فيها من الفن والابتكار أكثر مما فيها من الحق والتاريخ .

وانتهى قصص القصاصين إلى هوميرُوس هذا ، وكان ذا خيال خصب وشاعرية فياضة تتحول الحياة على لسانه إلى قصيد ، ويتحول القصيد على قيثارته إلى نغم . وكانت الحياة قد حرمته نعمة البصر ، وعوضته عنها ذلك الخيال الطائف ، فأخذ ينظم قصائد طوالاً يجمع فيها شتات الحوادث فى نسق قصصى طريف . وتناول الرواة قصيده ومضوا يرددونه ويضيفون إليه على قدر ما استطاع خيالهم ، حتى تضخم القصيد واختلط فيه كلام هوميروس بكلام غيره ، واجتمع ذلك كله فى قصيدتين طويلتين هما « الإلياذة » و« الأوديسّا » تُنسبان لهوميروس .. ولا يعلم إلا الله أين كلامه فيهما من كلام غيره ، ولكن أساسهما على كل حال من صوغ خياله ولحن نشيده ، فهو أبو الشعر ورائد القصيد .

فهؤلاء الشعراء كلهم من بنيه وأحفاده ، ليس منهم إلا من أخذ عنه ودرس عليه وغذى

شاعريته من سحر بيانه وفيض عاطفته ورحاب خياله . وهؤلاء الرسامون كلهم عيال عليه وعلى أبطاله ، يأخذون منه ويثبتون على الألواح ، وينقلون عنه وحى الفكر فيسجلونه صوراً ذات ألوان . وهؤلاء الفلاسفة الأول تلاميذه ، على أضوائه كشفوا فلسفاتهم وأفكارهم التى اتخذت الدنيا منها مبادىء للحياة وأنظمة للعيش . وهؤلاء نحن بعد عشرات القرون نروى حديثه ونردد أفكاره ونعيد أشعاره ، فكأنها بنات اليوم أو نظم الأمس وكأنها الحق الذى لا يخلُق والصدق الذى لا تنال منه الأيام : تلك هى الإلياذة الخالدة ، فى كل سطر منها بطل وفى كل بيت منها بطولة ، وهى فى مجموعها ديوان الأبطال الذى لا يمل قراءته من تطلع إلى سماء الأبطال ، فلنلق نظرة فيها علَّنا نقبس من جمالها شيئاً :

هـذا « آخيل » فى خبائـه معتكفـاً مغضباً . لقـد غصبـه « أجـامِمْنُون » حبيبته الرقيقـة «بْريسًا » . وهؤلاء هـم اليونـان فى طريقهم إلى طروادة ليثأروا مـن ملكها « برِيَام » وابنـه «باريس » الذى اختطف منهم هيلانة الجميلة ، ولكن الآلهة لا ترضى عنهم ، وترسل إليهم من مياه البحر شراً عاصفاً لأنهم أغضبوا آخيل ! فهل رأيت ألطف من هذا الخيال الأسطورى البديع الذى يخلط الحرب بالحب والآلهة بالناس ، ويثير فى النفس صوراً ضاحكة عابسة توقظ الخيال وتملأ النفس مرحاً وطرباً ؟

إن الإله « أبولُّون » يحـب آخيل لأنـه ابـن ثِيتِس الفاتنـة التى اختصم فيها إلهـان همـا : « زِيِيُوس » سيد الآلهة و « بُوزَيْدُون » إله البحر ، ولم يدركها أحدهما ، وإنما كانت من نصيب « ببليُوُس » كما سترى فى حديث آخيل . إن أبولون يحبه ويعجب به ، وهو لهذا لا يرضى أن يغصبه البشر حبيبته بريسا ، وينزل عن عرش ألوهيته ويمضى إلى المعركة الجارية بين البشر مناصراً لآخيل معيناً له على إدراك صاحبته ! ولم يقف « بوزيدون » ساكناً فإن آخيل عزيز عليه لأنه ابن ثِيتس التى طالما أعجب بها ، وهو يكره ذلك الغاصب أجاممنون لأنه لم يستح رغم تقدم سنه أن يغصب فتى يافعاً مثل آخيل فتاة يافعة مثل بريسا وهو لهذا يثير البحر على الإغريق ليمنعهم من أن تطأ أقدامهم أرض آسيا الصغرى وفيها طروادة ، بلد هيلانة الجميلة . ثم يمضى إلى الآلهة فيجعلها تعلن أن أول من يمس الأرض من الإغريق ميت لا محالة !

وإذ هم فى سفنهم يضطربون خوفاً ، وكل منهم يخشى أن يخطو إلى الأرض المحرمة

فيهلك ، إذا بفتى جرىء القلب منهم يرضى أن يبذل نفسه ضحية كريمة حتى لا تقول الآلهة إن اليونان ليس فيهم فتى واحد شهم يحمل رأسه على كفه ! إنه ليخطو إلى الأرض ، فإذا سهم رائش يستقر فى أحشائه ، فيسقط هاتفاً باسماً ، ولا يكاد هتافه يتردد حتى يتشجع الإغريق فينحدرون من السفن كالسهام المارقة أو السيول الجارفة : وتعجز الآلهة عن ردهم ، ويمضى الإغريق خفافاً سراعاً حتى يدركوا أسوار طروادة . وهناك تبدأ الحوادث التى تقص الإلياذة علينا من أحداثها ما وقع فى الخمسين يوماً الأخيرة منها ، تقصها فى بضعة آلاف من أبيات الشعر الجميل !

هل يوفق الإغريق إلى النصر بغير آخيل ؟ إن الأيام لتطول بهم ، وإن الهزائم لتتردد فى صفوفهم ، وإن أبطالهم ليتساقطون صرعى حتى تفزع الآلهة وتخشى عليهم العاقبة ، لأن الآلهة تحب الإغريق رغم غيرتها منهم ، وهذا هو موضع الطرافة فى هذه الآلهة الإغريقية ، فهى إغريقية دماً وروحاً ، وهى لا ترضى أن ينهزم الإغريق فى حرب ولو كانوا هم العداة الغاصبين ، وهى لا ترضى من آخيل هذا الاستمرار فى الغضب وتأبى عليه تركَ مواطنيه فى قبضة الردى من أجل امرأة ، وهى لهذا تهرع إليه ترجوه أن ينهض للحرب فيأبى ، فتوحى إلى صاحبه « بِتُرُكْلِس » أعز أصدقائه ليستعطفه ويرجوه . ولكنه يصر على الإباء ، فإذا يئس منه سأله درعه لكى يخرج بها (أى بتركلس) إلى المعمعة حتى يقع الخوف فى قلوب الأعداء ، فيرضى . ويخرج بتركلس ويصول ويجول ، ثم يبرز له « هِكْتُور » سيد أبطال طروادة ، فلا يزال يقاتله حتى يصيبه فى مقتل ويخر بتركلس ميتاً .

أحب أن تصغى معى إلى أناشيد هوميروس ، أحب أن تشاركه أحزانه على بتركلس العزيز ، إنه يرسلها على ألسنة الحور ، ويصورها بدموع الوالهات الباكيات ، فلا يكاد آخيل يسمع النشيد حتى يمتلىء قلبه حزناً على صاحبه ، وتثور نفسه حمية له ، فينتضى سلاحه ويمضى إلى الميدان معجلاً ، وهناك ترجح الكفة وترضى الآلهة عن اليونان ، ويعود النصر العزيز . فلا يلبث الطرواديون أن يعودوا إلى مدينتهم ويحتجزوا بها ، ثم يشتد بهم الأمر حتى كادوا يسلموا أنفسهم لأعدائهم .

ولكن بطلهم باريس يعرف سراً لا يعرفه غيره ، إنه يعرف أن آخيل محصن من الموت ممتنع على الفناء ، لأن أمه غمسته وهو حدث فى ماء الخلود ، ولكنها نسيت منه جزءاً لم

يمسسه هذا الماء وهو عَقِبُه ، ذلك أنها أمسكته منه حين أدلته في الماء ، فأصبح عقبه المنفذ الوحيد الذى يصيبه منه الموت . إن باريس ليعرف ذلك ، وإنه ليتحرق شوقاً للأخذ بثأر صديقه هكتور الذى أرداه آخيل ميتاً ، فيسدد سهمه المسموم إلى عقب آخيل ، ويفوّقه ويشده ثم يرسله يحمل الموت الزؤام إليه ، وهذا آخيل يسقط صريعاً يشخب دمه ، وتتفرق نفسه وتذوب حياته ، ولكنه يبتسم للموت ويلقاه راضياً سعيداً ، وهؤلاء حوريات الخلد يستقبلنه بأناشيد عذبة فيها فرح وفيها حزن ، إنهن سعيدات بلقاء هذا البطل الكريم ، ولكنهن حزينات لمصاب قومه فيه .

وكان هوميروس يعبر عن شعور الإغريق عامة بفرق من المنشدات ، هن فى رأيه أهل اليونان ، فأناشيد المنشدات هى صوت اليونان إذن ، وحزنهن أو فرحهن هو شعور الإغريق إزاء هذه الكارثة . وعن أشعار هيرميروس هذه أخذ كتاب اليونان أسلوبهم الطريف هذا فى التعبير عن رأى الجماعة أو عن رأى الكاتب نفسه فى أحيان كثيرة ، فالجوقة عند سُوفُوكْلِيس أو يُوريبيدِيس أو أَرِيستُوفانِيس ما هى إلا شعب اليونان نفسه .

هؤلاء هم الإغريق يطوون الحسرة بين ضلوعهم على فقدهم آخيل رغم ما وفقوا إليه من نصر على الطرواديين ، وهاهم ينشرون الأشرع ، ويعودون إلى بلادهم ، وإن نفوسهم لتتفرق حسرات .

أى سحر فى هذه القطعة الفريدة التى يبلى الزمان ولا تبلى ! أى حديث حلو عذب تسمعه فى أطوائها على ألسنة الأبطال والحكماء والزعماء !

لو تلوت بضع صفحات من هذه الإلياذة أو من أختها الأوديسا ، لعرفت أى عقل هذا الذى صاغهما ونفث فيهما الخلود ، ولتبينت أنه لا يمكن أن يكون عقلاً واحداً بل هى عقول ، إنهم جيل من الشعراء ، وإنه صوت شعب كامل لا صوت رجل واحد ، إنه شعب مصوّر وعالم حى متحرك يفيض بالحيوية والنشاط والقوة والتوفز . وهذا رأى أغلب دارسى الآداب اليونانية :

إن هوميروس لم يكن رجلاً واحداً ، بل هو عَلَمٌ على عبقرية اليونان الشعرية . لقد نظم مئات من شعراء اليونان أشعارهم ونسبوها إلى هذا الاسم ، إنها عبقرية شعب اجتمعت فى اسم فرد ، إنه جهد شعراء أبطال انتهى إلى رمز شعرى واحد وتلك صفة تكاد تتصف بها

الأشعار الشعبية عند شعوب الأرض قاطبة : لا تستطيع أن تنسب قصيدة « رُولاَن » ولا قصيدة « السيِّد » ولا ملحمة « بيوولْف » ولا أشعار أبى زيد الهلالى أو قصة الظاهر بيبرس إلى مؤلف واحد ، لأن هذه القصائد والأقاصيص كلها إن هى إلا أصوات الشعوب تعبر به عن نفسها تعبيراً صادقاً ساذجاً يفيض جَداً وجمالاً .

ثم تأتى الأوديسا ، هذه القصة الساحرة التى لا ينساها فتى يقرؤها ، ولا تنساها فتاة تظهر عليها ، إنها قصة أودِيسْيُوس (أو أُلِيسِيس) ومغامراته وحبيبته بنيلوبى : لقد ذهب أوديسيوس مع غيره من أبطال الإغريق واشترك فى حرب طروادة ، ولكن سفينته ضلت سبيلها أثناء العودة واستبدت بها الأمواج فمضت به إلى حيث لم يمض أحد ، وألقت به الأمواج على شواطىء مخوفة تغص بالمهالك ، ولكن البطل يصارع الأبطال والوحوش والساحرات ، ويأتى من صور البطولة ما يثير الخيال ويبعث الإلهام ، وتنقضى الأعوام وخطيبته بنلوبى تنتظره أمينة على عهده وفية له . وإن المعجبين والمحبين والراغبين فى زواجها ليترددون على دارها عشرات يزاحم بعضهم بعضاً ، وهى تمنيهم وتعدهم بأن تنظر فى أمرهم حينما تخلص من نسجها .

وتمضى اليوم عاكفة على خيوطها وإبرتها ، فإذا أقبل الليل حلت ما عقدته وبدأت فى اليوم التالى من جديد ! .. وهكذا حتى ييأس الطامعون وينفد صبرهم من هذا النسج الذى لا يتم ! .. ويشتد بهم الغضب ويأخذون يأتمرون بالفتاة وينصبون لها الشباك ؛ فإذا أشرفوا على التنفيذ وحاق الخطر بالحبيبة ، أقبل أوديسيوس بعد الغياب الطويل ، واشتبك مع المتنافسين وأصلاهم عذاباً أليماً ، وخُتمت القصة بين أفراح الحب وأفراح الناس .

هذه نظرة عابر ، هذه خطوة سائر ، لا تمس حقيقة هذا القصص البديع إلا مساً رقيقاً، ولا تصور خيال القطعتين إلا تصويراً بسيطاً سطحياً ، فما بالك بالأصل ؟

ألك فى قراءة حلوة تملؤك رجولة وتملأ خيالك شعراً ؟ ألك فى ساعات تقضيها مع ناس كأنهم الآلهة ، وآلهة كأنهم الناس ؟ ألك فى أستاذ يلقى إليك قصصاً حسناً وكلاماً رائعاً وعبرا صادقة ؟ ألك فى عالم من الأبطال ودنيا من الرجال ؟ ..

عليك إذن بهوميروس ، عليك بدواوينه الزاخرة وأشعاره الجميلة ، عليك بأبطاله الخالدين وآلهته العظام ، عليك بالإلياذة ثم عليك بالأوديسا ...

بطل من عالم الأساطير

آخيـــل

كانت ثِيتِس أمه من الآلهة ، وكان أبوه من الناس ، وإنما تزوجت أمه رجلاً لأن زيُوس سيدَ الآلهة وبُوزَيْدُون إله البحر اختصما فيها ، وتقدم كل منهما يطلب يدها ، وإنهما لفى هذا إذ بلغهما أن ابنها سيكون خيراً من أبيه وأعظم ، فكف الإلهان عن السعى غيرة من هذا الابن الخطير ، ثم تقدم لها بيليوس فرضيت به كارهة ، فكان لها منه هذا البطل العظيم «آخيل » .. تأنقت الآلهة فى تصويره فاكتمل على يديها صبيًّا بارع الحسن بادىَ الفتنة ، أدرك الإنسانية فى فجرها فأصاب نصيباً وافراً من الفطرة الهادية والطبيعة الصافية ، وأدركته عيون عيون الإلهات فأحببنه واختصمن فيه ، طلبته هِيرا واشتهته أثينا ، ولكنه كان رجلاً إغريقياً ، والإغريقى يعرف الحب ويميل إليه ولكنه لا يسلمه قياده ، ويرى أن الرجولة لا تتم لفتى إذا هو استذلته عيون المها ، أو بكت عيناه من فرط الصبابة ! . وليست النساء فى نظره مما يؤبه له ويجاهَد فى سبيله ، فانصرف آخيل عن الهوى وتعلق بالمجد والحرب ، وكانت أمه قد جلبت له شِيرُون ليعلمه الحرب ، وفُونِكْس ليلقنه البلاغة ، فأدرك من الفنين أوفر نصيب .

خيرته أمه بين أن ينعَم بحياة طويلة مطمئنة ، أو يحيا حياة قصيرة تفيض بالمجد والفخر، فصاح : « بل المجد يا أماه ! » .

فإذا أيفع وأدرك أشده ، خافت عليه أمه سورة شبابه ـ ولعلها خافت عليه أوار الحرب حين قامت الخصومة بين الإغريق والطرواديين ـ فحملته إلى سِيرُوس وخبأته بين فتيات ملك نيكوُمِيد ، فخفى فيهن حتى لم تكن العين لتستطيع أن تميزه منهن لفرط حسنه ، ثم مر بالجزيرة أوديسيوس فى إحدى رحلاته باحثاً عنه ، وارتأى أن يقدم لفتيات ملك نيكوميد

هدايا من الجوهر ، فألقى لهن بعضها وفيها سيف ، فلم يكترث آخيل للجواهر ، وإنما أسرع فأخذ السيف ، فعرفه أوديسيوس ، واستصحبه معه إلى الحرب .

فى تلك الأيام كانت المقادير تؤذن بلاد اليونان بشر مستطير ، كانت الآلهة قد سخطت على البشر لطول سكونهم ، واستكثرت عليهم العيش الهادىء فى ظلال السلم الوارف ، وأدركها الحسد للناس ـ شأنها معهم بين الحين والحين ـ فأحبت أن ترميهم ببلية تحيل أمنهم خوفاً وسلمهم حرباً ، وأخذت تتدبر فى سبيل توقع به الحرب بين الناس حتى اهتدت إلى ما كانت تريد .

كانت هيلانة ابنة زيوس سيد الآلهة تختار لنفسها زوجاً ، وكانت قد شدت رحالها إلى بلاد الإغريق لبعض أمرها ، فخرج لها ملوك الإغريق يطلبون ودها ، فاختارت من بينهم ملكاً اسمه مِنِلاوس ، فأثار هذا فتى من خطابها اسمه باريس ، وكان أميراً على طروادة فى آسيا الصغرى ، وكان راعياً مشهوداً له بالحسن والفتنة ، وكانت الإلهة أفروديِت تميل إليه ، لأنه حكم لها بالتفرد فى دولة الحسن حين اختصمت إليه هى وأثينا وهيرَا ، فقضى لها ! وكانت قد وعدته أجمل بنات زمانه جزاءً له على هذا الإنصاف ، فلما وجد هيلانة الفاتنة تصير إلى منيلاوس ، أدركه الغضب ، وانطلق إلى أفروديت وسألها أن تحقق له ما وعدت ، فكانت عند حسن ظنه ، ومضت فأوحت إلى مينلاوس أن يستضيف باريس فى قصره ففعل . وإذ قد نزل باريس فى قرب هيلانة فقد سعى إليها ، وكانت أفروديت قد يسرت له الأمر فلم يكن أسهل عليه من إغرائها والفرار بها إلى بلده .

وكان هذا مثار الحرب : هاج منيلاوس ، وغضب له أخوه أجَامِمْنُون أكبر ملوك الإغريق وثار للأمر ملوك الإغريق واحداً واحداً ، وأجمعوا أمرهم على الحرب ومعاقبة باريس وتخريب طروادة ، ونُفِخ فى النفير أن قامت الحرب ! وتهافت الفتيان إلى ميدان الشرف ، وانطلق أوديسيوس ينادى الشبان ويتخيرهم ويجمعهم ، حتى عثر بآخيل بين بنات نيكوميد كما أسلفنا .

دارت رحى الحرب عشر سنين ، كان آخيل فيها بطلاً مظفراً ومحارباً باسلاً . كان عميدَ الإغريق وموئل اليونان ، يرمون له به كل صعب عسير فلا يلبث أنْ يسهل ويهون بين يديه

وتحدث الناس بأخبار بلائه وأنباء شجاعته ، حتى صار معبود الشباب المتوفز وحامل لواء النصر ، لا يكاد يخذل أبداً . واستبسل الطرواديون أمام اليونان ، وكان يقودهم هِكْتُور ابن ملكها ، وانقسمت الآلهة شيعتين : شيعة مع الطرواديين وشيعة مع الإغريق . كانت هِيَرا وبوزيْدون وأثينا توالى حزب أرْتميس إلهة الصيد ، لأن أجاممنون أصاب غزالاً من غزلانها فى طروادة ، وكانت قبل أن تنضم إلى الطرواديين قد سعت لتنتقم لنفسها : فقطعت الريح عن سفن الإغريق ، فوقفت سفنهم على العُباب لا تستطيع حراكاً ، فمضوا يترضونها ويقدمون لها الضحايا حتى يعطفوا قلبها عليهم ، فأطلقت لهم الريح ، ولكن نفسها كانت ما تزال غضبى ، فمضت تكمل انتقامها فى صف الطرواديين .

وكانت لأجاممنون قينة اسمها كْرِيسا ، ولآخيل صاحبة اسمها بْريسا ، فإذا كانت الحرب فى عنفوانها غضب زيوس سيد الآلهة على أجاممنون غضباً شديداً ، لأنه أتى من الأمر ما ساءه وخالف مشيئته وجر على قومه المصائب ، بما أبدى من العناد ، فلم يكن بد لأجاممنون من أن يقدم لسيد الآلهة قرباناً ليرضى عنه ويحول بينه وبين الانضمام إلى صف الطرواديين . وكان القربان قينته كريسا ، فلما رضى زيوس عنه ، التفت أجاممنون يبحث لنفسه عن قينة بدل التى ضيعها ، فلم يجد أجمل من بريسا صاحبة آخيل ، وكان مولعاً بها منذ حين ويشتهى أن تكون له ، وكان آخيل فى حسابه شاباً فتاناً للنساء لا يعنيه أن يفقد واحدة ، فغصبه إياها . وثار آخيل وتوعد ، ولكن أثينا رجته أن يملك نفسه ، وألا يسترسل مع الغضب ، لأن قومه فى حرب ولا يليق به أن يخاصم قومه فى مثل هذا الوقت لسبب صغير ، فسكت كارهاً ، ولكنه أقسم لا يشترك فى الحرب بعد هذا أبداً .

اشتد الأمر على الإغريق بعد أن قعد عنهم آخيل ، وغلبهم الطرواديون على أمرهم حتى كادت تذهب ريحهم ، وكان اعتزال آخيل قد زاد فى قوة هكتور وباريس ، فأصابا من الإغريق كل مُصاب ، وأمعنا فى التنكيل بهم حتى ثارت حليفتهم أثينا ، فانطلقت إلى زيوس ضارعة إليه أن يقف هذه الحرب ويرحم الإغريق ، وأنكرت أن ينزل بهم هذا البلاء كله بسبب حماقة ارتكبها أجاممنون .

وقد كان زيوس خليقاً بأن يرد على أجاممنون جاريته ، ويأمره بأن يرد بريسا إلى آخيل

حتى ترضى نفسه ويعود للحرب وترجح كفة الإغريق من جديد ، ولكنه كان ـ فيما يبدو ـ سعيداً يتسلى بتأمل الحرب وأحداثها ، فلم يشأ أن يرد الجارية ، ولكنه قَبِل أن يوقف الحرب إذا استطاع محاربو الإغريق البروز لهكتور فى الميدان ، واشترط أن يدوم ذلك حتى يغلبه واحد منهم ! وكان يعرف أن هكتور لا يكاد يُغلب ، ولهذا أحب أن يشبع لذة الانتقام من الإغريق فى نفسه برؤية مصارع أبطالهم . وأخذ شباب الإغريق يخرجون لهكتور ، فلا يكاد أحدهم يستقيم أمامه حتى يرديه ، ولو لم يدركهم أريس إله الحرب برحمةٍ لأوردهم الطراوديون موارد الهلاك .

عقدت الآلهة مجلساً وعقد الإغريق مجلساً ، فأما الآلهة فقد طلب إليهم رئيسهم زيوس أن يلزموا الحيدة فلا ينحازوا لأحد من الفريقين ، وكان يرجو من وراء ذلك أن يطيل بلاء الإغريق ، وأن يتلذذ بهزائمهم ، وطلبت أثينا أن يسمح لها بأن تعين الإغريق برأيها ، فسمح لها . وأما الإغريق فقد قرروا أن يندبوا من بينهم وفداً ليرجو آخيل أن يعود إلى الحرب ، وذهب الوفد إلى آخيل وعلى رأسه أستاذه فونكس ، وكان آخيل منفرداً بنفسه فى خبائه منصرفاً إلى اللهو والشراب والموسيقى ، وقد اعتزلت لاعتزاله فئة من الجند كانت تحبه وتحارب من أجله . وخاطب فونكس آخيل فيما جاء له فرد على أستاذه رداً رقيقاً وأعاد الوفد بإحسان ، ولكنه لم يجبه إلى رجائه .

عاد الوفد خائب المسعى ، فعادت الحرب إلى سابق عهدها ، وتوالت الهزائم على الإغريق حتى ريعت هيرا لمصابهم ، وانطلقت إلى زيوس فعاتبته فى هذا عتاباً شديداً ، وطلبت إليه أن تنزل الميدان ، وأن تحارب مع الإغريق وأن تنفعهم بعقلها ورأيها ، فلم يأذن لها . فلما رأته مصراً على عناده ، سعت بالحيلة حتى تصرفه عن تتبع الحرب وتصريفها كيف شاء ، وكان على عِظَم مكانته أميَل إلى الشرّ يودّ لو استمرت الحرب بين الناس دهرًا ، فحسبت هيرا أن إبعاده عن الحرب يسكّن أوارها ، ولجأت إلى إله النوم ، فأعارها شملته ، فأرسلتها على زيوس ، فنام نوماً عميقاً ، ثم أسرعت إلى الإغريق فشدت عزمهم ، فعاد النصر إلى جانبهم حتى لقد أصابوا هكتور فجرحوه جرحاً بليغاً .

وكان لآخيل صديق يحبه ويدنيه من نفسه اسمه بِترُكْلِس ، وكان بطلاً فى قومه محبباً إليهم وله رأى فى مجامعهم ، وكانت الحسرة تأكل قلبه لما أصاب قومه ، فانطلق إلى آخيل

يرجوه أن ينهض لعونهم ، فقد نزلت بهم الهزيمة وليس لهم غيره يقيل عثرتهم ويغسل عارهم ، فأبى آخيل ، فرجاه بِتْرُكْلِس أن يأذن له فى أن يستعير درعه ويركب عربته ويصطحب رجاله إلى الميدان ، علَّ هذا يخلع عليه بعض شجاعة آخيل فيقيم أمر الإغريق فقبل آخيل ، فانطلق بتركلس فى هذه الهيئة وهذا السلاح يحوطه هذا الجمع العزيز من الأنصار ، فأثار الحماسة فى نفوس الإغريق ، فتدفقوا حتى كادوا يقضون على الطرواديين . واستيقظ زيوس ، فلم يكد يرى ذلك حتى ملأت الحفيظة نفسه وخاف أن ينتهى الأمر بنصر الإغريق ، فبعث أحد أتباعه ليرد بتركلس عما كان ماضياً فيه ، فلم يكترث بتركلس لتابع زيوس وضربه فأماته ، فغضب زيوس ، وعاقب بتركلس على هذا بأن نزع عنه سلاحه وهو فى الميدان ، فبدا أعزل ، فأسرع إليه هكتور فأصابه .

هنالك ثار آخيل ، وكان بتركلس عزيزاً عليه أثيراً عنده : كانا رفيقى صبا ونديمى شراب ، فوقع موته من نفس آخيل موقعاً شديداً ، وأقسم لينتقمن له ، ونهض يستعد للحرب ، وقد نسى ما بينه وبين أجاممنون من خصومة . ذهب يلتمس سلاحه فلم يجده ، لأن بتركلس كان قد ذهب به ونزعه زيوس عنه ، فطفق يبكى ، إذ كان لا يجد سلاحاً يليق به ، وسمعت أمه بكاءه ـ وكانت فى مقامها بقاع النهر ! ـ فأقبلت تسعى إليه ؛ فسألها أن تلتمس له سلاحاً ، فأسرعت إلى إله النار فصنع لها درعاً عجيبة ، وحملتها إلى آخيل فادّرعها ومضى إلى الحرب مسرعاً .

نسى آخيل خصومته مع أجاممنون فى سبيل صديقه ، فأكبر فيه أجاممنون هذه الرجولة ، وذهب إليه يصافحه فقبل آخيل صلحه ، وعادت الصحبة بينهما إلى ما كانت عليه قبل الحرب ، واستقر رأيه على الحرب فى صفوفهم من جديد ، وفرح به قومه فدعوه إلى وليمة طيبة أقاموها احتفالاً بمقدمه ، فأقسم لا يأكل ولا يغتسل حتى يمحو عار صديقه ، فما زالوا به حتى أقبل فأكل شيئاً من الطعام ، ثم قام فانطلق إلى الحرب ثائراً يتوفز إلى النزال توفزاً .

ريع الطرواديون لهذا واضطرب أمرهم ، وأشفق زيوس عليهم وخاف أن تدركهم الهزيمة بعد أن ردها عنهم زماناً طويلاً ، ورأى أنهم أمام خصم لا قبل لهم بمنازلته ، فأذن للآلهة أن تعود إلى الاشتراك مع الناس فى الحرب ، وهو إنما فعل ذلك حتى لا يجد على نفسه

حرجًا من أن يعين الطرواديين برأيه ؛ وهكذا يعبث سيد الآلهة ، ويحير الناس والآلهة معه ! وتلاحم الفريقان وحمى الوطيس ودارت على ساقها الحرب ، وتهاوى القتلى ، حتى الآلهة لم تسلم من أن يكون منها جر حى .. برزت أثينا لأريس إله الحرب فصرعته ! ـ وتلك سخرية طريفة من خيال الإغريق أن يجعلوا إلهة مدينتهم تغلب إله الحرب فى الدنيا جميعاً ـ وأدركته أفروديت لتنجو به مخافة أن تقضى أثينا عليه ، وبرزت هيرا لأرتميس إلهة الصيد فنزعت عنها قوسها ، فأسقط فى يد الإلهة المسكينة ومضت تستعطف !

وتقدم آخيل بجنوده حتى أشرف على أبواب طروادة ، وشدد الهجوم وتفانى جنوده فى الحرب حتى كاد يقضى على جندها المحاربين خارج الأسوار ، لولا أن سارع ملكها الشيخ بْرْيَام ، فأمر بالأبواب ففتحت حتى يدخل المحاربون ويطمئنوا داخل الأسوار . وفتحت الأبواب فتسارع إليها الجند إلا هكتور ، فإنه أبى أن يفر منهزماً ، وأما باريس فقد أسرع فاعتلى السور وتناول نشابه وجعل يتصيد جند العدو ، وكان رامياً ماهراً لا يخطىء الهدف ، فجعل يتصيد كماة الإغريق بسهامه ، وهو آمن بأعلى السور .

وأثار ذلك نفس آخيل ، وود لو قضى على باريس هذا وأراح الإغريق منه ، فأسرع صارخاً مرعداً ، فلما اقترب من هكتور خارج السور ، أدرك الخوف هكتور وتمشت فى نفسه الرعدة ، وخشى أن يلقى آخيل ففر أمامه منهزماً . وأقبل زيوس يعينه فأبت عليه أثينا ذلك، واشتد الأمر بهكتور فأصابه آخيل فى مقتل ، فارتمى على الأرض ، فلما كادت روحه تفارق جسده ، رجا آخيل ألا يمثل بجثته ! . وأنى لآخيل أن يجيب هذا الرجاء ، إنه موتور من هكتور يتمنى أن يمثل به أشنع تمثيل ، وأن ينتقم منه أشد الانتقام ، فربط هكتور إلى عجلته وانطلق بجثته يسحبها على الأرض سحباً ..

وشهد بريام هذا ـ وكان ملك طروادة ووالد هكتور ـ فأكلت الحسرة فؤاده ، وأسرع إلى آخيل والدمع يجرى على خديه يستحلفه أن يرد عليه ولده . ورق آخيل لرجاء بريام ، فقد كان الرجل يبكى بكاءً مراً ، فأعطاه جثة ابنه . وعاد بريام إلى قومه محزوناً أسفاً ، يندب ابنه البطل الشهيد بعبارات لا يملك من يطالعها عند هوميروس إلا أن يفيض قلبه بالحزن ، فقد عرف أبو الشعراء كيف يصور حسرات والد ثاكل فَقَد ابنه ووريثه فى شرخ الشباب

وعنفوان الفتوة . وقد بلغ من تأثر الناس ببكاء بريام أن آخيل كاد ينسى مصابه فى صاحبه بتروكلس ومضى يبكى هكتور ويأسف على ما صنع به ! ومضى يرثيه ويشيد بشجاعته كأنهما لم يكونا إلى الأمس القريب عدوين تتأجج بينهما الخصومة ، وهكذا الأبطال أبداً : لا يكاد عداؤهم يصرفهم عن إعجاب بعضهم ببعض ..

وقد كان هكتور ـ كغيره من أبطال الإلياذة ـ جديراً بكل إعجاب ، فقد استبسل فى الحرب والدفاع عن بلده استبسال من يقدس الوطن ويعرف كيف يفنى فى سبيله ، وقد قتل من الإغريق كثيراً جداً ، وظلت طروادة فى أمن ما عاش ، فأما وقد توفى فقد هيض جناحها وضعف أمرها وملكها آخيل من حيث لم يكن يستطاع رده ، وبات أمله فى النصر قوياً .

غضب باريس لموت صاحبه هكتور ، وآلى على نفسه ليقتلن آخيل ، فحمل قوسه وسهامه واندفع خلفه ، وكانت أم آخيل قد غمرته وهو صبى فى ماء بئر سحرى ، فأصبح جسمه لا تؤثر فيه السيوف والسهام ، ولكنها نسيت أن تغمر كعبه ، ذلك أنها كانت أمسكته منه حين دلته فى الماء ، فأصبح الجزء الوحيد من جسمه الذى تؤثر فيه الرماح والسهام ، أما ما عدا ذلك فصلب تتكسر دونه الأسنة ؛ وكان ذلك سر قوته . وكان باريس يعرف هذا ، فسدد إليه سهماً أصابه فى عقبه فمات لتوه .

أقبلت ثيتس أم آخيل تحمل جسد ابنها الشهيد وانطلقت به ـ وإن فؤادها ليتفرق حسرات ـ إلى مصب الدانوب فوارت جسده فى جزيرة هناك ، وأقامت تندبه وترثيه وحيدة ، حتى رقت لها بنات الماء وخرجن إلى شاطىء النهر يَنُحْن معها على ابنها . واستطال الحزن أياماً ، وأقبلت الآلهة تواسى ثيتس ـ وكانت هى أيضاً إلهة ـ وعرضت عليها الآلهة أن تعيد إليه الروح ، على أن يظل فى عزلة بعيداً عن الناس . وفرحت ثيتس بذلك ، واستقام الفتى حياً من جديد ! فمضت أمه وبنات الماء يغنين غناء عذباً جميلاً . ولم تشأ أمه أن تدعه وحيداً ، فخطبت له فتاة شهيدة مثله هى إفيجينيا أجمل بنات الإغريق ، وكان أبوها قد قدمها قرباناً لأرتميس إلهة الصيد ، يوم غضبت على الإغريق وأوقفت سفنهم فى الماء على مقربة من شواطىء أوليس ، وكانت أرتميس قد رقت لها وأبقتها فى قيد الحياة راهبة .

خُطبت إفيجينيا الشهيدة إلى آخيل الشهيد ، ومضيا ينعمان بحياة سعيدة فى عالم الخلود . وقد خلد جيته قصة إفيجينيا فى درامتين من أبدع ما كتب ، وتناولها الأدباء بعد ذلك حتى أصبحت من أشهر شخصيات الأساطير .

هذه صور من البطولة أقل ما يقال فيها إنها جميلة ساذجة ، تشتمل على طائفة طيبة من صفات الرجولة البشرية فى أصفى صورها . فقد رأينا آخيل خلال هذه الحرب كلها يحارب للفكرة ، ويجاهد فى سبيل بلاده وأصحابه . وأما غضبه من أجل صاحبته بريسافلون من ألوان السذاجة التى تزيد الإنسان به إعجاباً ، فآخيل بطل شاب لم تغير الأيام نفسه ، ولم تخرج به متاعب الحياة عن سذاجة الطفولة البريئة ، وغضُبه غضب ساذج لا شرَّ فيه كذلك . فهو لا ينقلب على أصحابه ولا يتخون الإغريق ، وإنما يسكت عن القتال ليعرفوا فضله ، وإن قلبه ليتفطر أسى لما يصيبهم من الهزيمة ، وهو يرجو أن ينصفه أجاممنون ، ويرد عليه بريسا حتى ترتد إليه كرامته ويعود إلى القتال ، ولكن أجاممنون كان شيخاً أنانياً لا تخلو نفسه من الشر ، وكان يرى من كرم آخيل ما يخفف من وطأة حبه لنفسه ، فيعيد إليه بريسا . وقد عاقبته الآلهة فيما بعد عقاباصارماً ، فقُتل على يد زوجه كليتمنسترا ـ وكان لهذا قصة أخرى خلدها سوفوكليس فى إحدى مسرحياته (إليكْترا) .

ولم تكن هيلانة صاحبته ، وإنما كانت إغريقية اختطفها أجنبى ، وكان هذا حسب آخيل لينهض إلى الحرب ، ويشمر عن ساعده ، ففى جهاده معنى من معانى الوطنية والاعتزاز بكل ما يتصل بالوطن ، والثورة لكل ما يصيبه ولو كان أمراً تافهاً لا يستحق أن تثار من أجله الحروب . وكان آخيل شريفاً فى خصومته ، لم يستعن بأمه وصواحبها من الآلهة لينتقم من أجاممنون ، وكان فى إمكانه أن يفعل هذا .. إن بطولته بطولة طاهرة يمارسها صاحبها لنفسها وكأنها فن يمارسه لذاته ، ولم يكن آخيل يطلب لنفسه مجداً ولا ملكاً ، فقد كان أعلى من الملوك بهذه النسبة الطيبة إلى الآلهة .

ومثل آخيل غيرُه من أبطال الإلياذة : شباب حر كريم شجاع ، يقضى الحياة فى ميدان الحرب ، لا يهاب الموت ولا يرهب الجراح . فهكتور بطل طروادة لا يكاد يُغمد سيفه فى قرابه طول يومه ، وهو يقوم على أسوار بلده كالأسد لا يكاد يقربها عدو إلا قضى عليه ، وهو مع ذلك لطيف ساذج يعجب به أعداؤه ويتحدثون بشجاعته كأنه واحد منهم .

وحتى باريس نفسه ، لم يكن بالشرير ولا الغاصب ، وإنما كانت هيلانة قد أعجبته ، وكان يعرف أنها تحيا حياة مجهدة مع منيلاوس ، فقد كان غليظ القلب جافى الطبع لا يعرف كيف يعاملها وهى الرقيقة الفاتنة التى تهافت عليها ملوك الإغريق أجمعون . ثم إن الذنب ليس ذنبه وحده ، بل شاركته فيه أفروديت وهى إلهة ، وكانت أحرى منه بأن تعرف ما ينبغى ومالا ينبغى ، ولعلها دفعته إلى هذا دفعاً ، حتى تشتجر الحرب بين البشر وتستمتع برؤية الناس فى شقاء وَهَمٍّ مقيمين !

وأما عواطف الأبوة والأمومة فهى معروضة عرضاً بديعاً جميلاً ، تراها فى أحزان بريام على ابنه هكتور ، وتراها فى آلام ثيتس على ابنها آخيل ، فتشعر ـ وأنت تقرأ هوميروس ـ جلال الأبوة وتفانى الأمومة على نحو فريد حقاً .

ثم إن رثاء بريام لابنه ليس رثاء كهذه المراثى التى اعتدناها ، وإنما هو وصف لطيف ساذج لمشاعره وأحزانه ، وكذلك أغنيات ثيتس وبنات الماء . وما أحرانا بأن نقرأ هذا كله عند هوميروس ، فإن فيه من منابع الإلهام ما يبعث الشاعرية ويملأ الخيال .

كانت سيرة آخيل درساً يلقن لناشئة الإغريق حتى تتهذب نفوسهم وتُشرب أرواحهم حب البطولة . كانت سيرته تفتنهم ، فيأخذون أنفسهم بالنسج على منوالها ، وكان هذا حافزاً لهم على ما أتوه فى تاريخهم من أعمال البطولة والتضحية .

وليس بغريب، أن يكون الإغريق ما كانوا وهذا منهاجهم فى الحياة ومثلهم الأعلى . لاغرابة أن يصبح تاريخهم سجلاً حافلاً بالأبطال والرجال !

ألست ترى أثر الإلياذة وأبطالها بادياً فى حرب الإغريق والفرس مثلاً ؟ أكان يقدَّر لهذه الفئة الإغريقية القليلة أن تصد هذا الجحفل الفارسى الزاحف لو لم يكن فى نفوسها إلهام قوى ونزوع شديد إلى البطولة مصدره بطولة آخيل وسحر هوميروس ورجاله وأشعاره ؟ ..

أكان يقدر للإسكندر هذا الظفر الخالد ، والصيت الطائر ، بغير هذا الخيال الشامل الذى سرى فى نفوس الإغريق من شعر هوميروس وسير أبطاله ؟ أليس طبيعياً أن يكتب لهذه الأمة الصغيرة هذا الديوان الحافل من البطولة والنصر ، وقد كان لشبابها ورجالها خير

ملهم من هذه السير الساحرة التى أبدعها هوميروس ، أو الشعراء الذين اصطلح التاريخ الأدبى على أن يسميهم هوميروس ؟.

بل لقد كان آخيل أبعد أثراً من هذا : قرأ الرومان سيرته فسحرتهم بطولته ، وانبرى شاعرهم فيرجيل فأبدع على مثال الإلياذة ملحمة جميلة هى الإنيادة .

مازالت الإلياذة حية فى كل قلب حساس شاعر ..

ولا يزال يقرؤها كل من حفزته نحو البطولة نازعة أو ربطه بالخيال البديع نسب ..

مازالت ديوان الشاعر والأديب والمؤرخ والقصصى والجندى ، ومازالت منبعاً يستقى منه كل من أجرى قلماً على ورق أو عبث بأصابعه على معزف ..

كانت مصدر الإلهام لجيته وشكسبير وشيلر وشلى وجيرودو ، وكانت مصدر النغم لموتسارت وبيتهوفن وجلوك وشتراوس ..

إنها ديوان الدواوين وكتاب الأبطال ومصدر الإلهام . !

أسد فى ثوب إنسان

ليونيـداس

« إن نفوس الآلهة لأضعف من أن تحمل قلب هذا الرجل . وإن الطبيعة البشرية لتضعف عن أن تحمل فضيلته ... »

(سيمونيدس)

وما عسى خيال الشعراء أن يبلغ فى وصف هذا الرجل ؟ وما عسى الألفاظ أن تستطيع فى تصوير إنسان كهذا ؟ وهل تستطيع هذه الكلمات القلائل التى نقشها سيمونيدس على قبر ليونيداس أن تمثل للناس هذا البطل كما ينبغى أن يتمثله الناس ؟ لعل حقيقة أمره أن تكون إغراقاً فى الخيال ، ولعل حديثه أن يكون إسرافاً فى المبالغة ، فما يصدّق العقل البشرى أن رجلاً يثبت لجيش عدته ألف ألف وتزيد ، يثبت لهم ثبات الصخر الصلد الذى لا يلين حتى لقد زعموا أنه كان محتمياً بجبل مسنداً إليه ظهره ، فلما انجلت الموقعة رأى الناس أن الجبل تزحزح إلى الوراء قليلاً ، أماليونيداس فلم يبرح مكانه ومات حيث كان ! .

كان هذا قبل الميلاد بخمسة قرون ، وقد أقبل إجزرسيس ملك فارس على رأس جيش كأنه قطع الليل .. وكانت فارس قد أغارت على بلاد اليونان مرتين ، وارتدت عنها فى كل منهما تنوء بالخيبة القاصمة ، فلم يكد إجزر سيس يخلف أباه « دارا » حتى شمر للحرب ونفخ فى صورها ، فخفت إليه القبائل تسعى والجحافل تترى ، فنظمها فى جيش عدته ألف ألف رجل ، وازدادوا نصف هذا العدد فى الطريق ، مزودين بما كانت فارس ـ سيدة الدنيا فى ذلك الأوان ـ تستطيع من عدة الحرب التى لم يبلغها بالغ من قبل ولا من بعد فى العصر القديم ، ثم ساقهم إلى بلاد اليونان سيلاً لما بلغ أوله بحر إيجه كان آخره على ضفاف الفرات كما يقول الرواة ! وأقام لنفسه نُزلاً من الرخام على ضفاف البسفور ليشهد بعينيه عبور جيشه سبعة أيام بلياليها .

فلما هبط بلاد اليونان روع الإغريق من هذا الحشد الهائل الذى يزحف عليهم حاملاً الموت والدمار والعار ، وكان إجزرسيس قد آلى على نفسه ليمحونّ من العالم بلاد الإغريق محواً ، إذ كانت الدنيا بأسرها قد دانت لسلطانه ، ولم يبق غير هذه الدويلات المنثورة المتفرقة تناوئه العداء وتأبى أن تخفض له جناح الذل والامتثال ، وكان يحسبها مسرعة إليه باذلة الطاعة حين تجده مقبلاً عليها بهذا الجحفل اللجب . ولكن شيئاً من هذا لم يكن ، إذ أن الناس كانوا يهجرون الأرض ويتقهقرون فى عجلة لكى يتجمعوا أمامه جيشاً واحداً ويلقوه لقاء رجل واحد ، فما كان إجزرسيس يطأ إلا خراباً ولا يمر إلا بيباب .

ترى كيف يكون احتيال الإغريق لهذا الأمر العظيم ؟ لو احتشدوا كلهم جيشاً واحداً لما صاروا فى عدد جيش الفرس . ولكن ، أيطلبون صفح إجزرسيس ويشترون الحياة بهذا الذل الذى لا يمحى ؟ أم تراهم يهجرون الأرض جملة وفى بلاد الله رحاب واسعة لمن طلب الحرية؟ حاشى للإغريق أن يفعلوا هذا أو ذاك وهم يعتقدون أنهم خلاصة البشر ، وأنهم الأقربون إلى قلوب الآلهة ومراتبها .. حاشاهم أن يتركوا أثينا ومعبدها ليفعل به إجزرسيس ما يريد .

ترددت هذه الآراء فى مجالسهم الحربية ، ونادى بها بعض زعمائهم ، لأن الخطر المحدق كان جسيما ، ولأن كل تفكير فى المقاومة كان يبدو كأنه ضرب من الجنون لا يقدم عليه إلا غر لا يحسن النظر فيما أمامه ؛ ولكن التقهقر وترك البلاد ـ وفيها أقداس الآلهة ، وتراث الأجداد ، وملاعب الصبا ، وجنان الحياة ـ أمر لايطيقه إلا جافى الطبع ، الذى لا تعمر نفسه من الإنسانية خالجة . وكان الإغريق يرون أنفسهم سادة البشر وخلصاء الآلهة ، وكانوا لا يشكون فى أن واحدهم يعدل العشرات من غيرهم ، وكانت سيرتهم على ألسن أهل زمانهم أحدوثة تفيض بالمجد والعزة والكرامة ، وقوم هذا شعورهم بأنفسهم وهذا مكانهم فى الناس لا يسهل عليهم قبول الذل مهما عظمت التضحية فى دفعه ، فانتهى بهم الرأى ـ بعد طول تدبر وتشاور ـ إلى وجوب الوقوف للعدو والدفاع عن أرض الوطن العزيز.

ولم يكن من الميسور لقاء العدو فى ساحة عريضة مترامية الجوانب ، لأن بضعة الآلاف الذين يستطيع الهيلينيون حشدهم لن يلبثوا أن يختفوا فى هذا الخضم الحافل الذى كان

الفرس مقبلين به ، ولم تكن هناك إلا وسيلة واحدة لدفع الخطر ، هى الوقوف فى برزخ كورنثه حيث يضيق المجاز ويختنق الطريق ولا يستطيع الفرس الاستفادة من جحافلهم ، لأن برزخ كورنثه خانق ضيق لايجوزه الإنسان إلا على شريط من الأرض ينحصر بين الجبل والبحر ، وكان إغريق فُوكيا قد أقاموا على وسط هذا الشريط حائطاً يحميهم من غارات التّساليين شمال البرزخ ، وكانت هناك قرية صغيرة خافية على سفح الجبل عند مخرج البرزخ من الجنوب تسمى ألبينوس ، فحصنها الإغريق واتخذوها متكأ يعين جيشهم على الثبات .

وندب الإغريق قائداً من أقوى محاربيهم قلباً لكى يقف ببعضهم على هذا الممر فى وجه الجحفل الأسيوى المقبل ، ذلك هو « ليونيداس » بن أنَا كْسَاندريداس ملك إسبرطة وفتى الإغريق المشار إليه فى كل ملمة . وكان ليونيداس سليل بيت من الأُسد توارث القيادة والنصر فيه آباءٌ عن أجداد ، فلم يكد مجلس الحرب يندبه لهذا العمل حتى خف معجلاً بسبعة آلاف من خيرة محاربى الإغريق ورماتهم . وكان ليونيداس يعرف أن الفرس إذا عبروا المجاز فقد أفضوا إلى أثينا قدس الإغريق وأحالوها ترابا ، ثم يفضون بعد ذلك إلى ولايات لوكريس وأرْجوليس وإخايا وأركاديا من بلاد الإسبرطيين التى نجملها نحن اليوم تحت لفظ «المورة » فعول لهذا على الاستشهاد دون أن تمس قدم الطاغية المغير أرض وطنه العزيز .

وأقبل الأسطول الفارسى فى مئات من السفن محملة بالجند والعتاد ، أرادت أن تدخل فى خليج ماليا لتهدد جناح الإغريق الأيمن ، فما تسامع الأثينيون بذلك حتى أرسلوا ثلاثمائة مركب ونيفاً من أسطولهم لكى تقف فى خليج ماليا ، وترد العدو . وأقبل أسطول الفرس ينساب كالحية بين الخلجان ، وألقى مراسيه عند رأس أرتيميسيوم ليحول بين أسطول اليونان والدخول ، ثم انتقل إلى أقيتية لكى يكون فى مأمن من العواصف ، فاستحال بذلك على الأسطول الإغريقى أن يتصل بليونيداس ورجاله ، واضطربت أفئدة الإغريق جميعاً خوفاً عليهم ، فبرز من بين الصفوف فتى أيدٌ تعمر الوطنية قلبه ، فألقى نفسه فى الماء وسبح عشرة أميال ـ من معسكر ليونيداس على شاطىء البحر إلى أرتيميسيوم حيث يرسو الأسطول ـ ليحمل الأخبار ، سبحها دفعة واحدة غير مبال بالموت والأمواج ، فشابه بذلك فتانا المصرى « شَمَايل » الذى سنراه فى أخبار أبطال دمياط يسبح من المنصورة إلى دمياط ،

ويخترق النيل بين سفن الفرنج ورماتهم لكى يحمل الأنباء إلى مواطنيه المحصورين فى دمياط ..

فى هذه الفترة كان ليونيداس يحصن مركزه فى مضيق ترموبيلى ، فتخير ألفاً من الأبطال وبعثهم ليقفوا عند مخرج ممر جبلى آخر كان الفرس يستطيعون النفاذ منه ومهاجمة الإغريق من خلف ، ووقف هو مع ستة آلاف مستعداً لكل تضحية فى سبيل المطلب الأعلى الذى ارتهن به حياته . وتعجب إجزرسيس من جرأة هذا الإسبرطى الرابض أمامه ، ولم يشكَّ فى أن الرعب لا يلبث أن يملكه فينسحب برجاله من هذه المهلكة ، ولكن ليونيداس لم يفكر إلا فى شىء واحد : رد العدو ، والموت دون تراب الوطن العزيز .

وانتظر عاهل الفرس أربعة أيام ، لكى يعطى الإسبرطى فرصة يراود فيها نفسه قبل أن يهلك . وفى اليوم الخامس بدأ الهجوم ، وأطلق رماة الفرس على الإغريق سيلا من الموت تلقوه فى صبر وجرأة ، وانقضوا على الرماة بحرابهم فزعزعوهم عن مكانهم وقتلوا منهم نفراً غفيرًا ، فريع إجزرسيس واستثاره الغضب والحزن لمصاب جنده ، حتى لقد « قفز عن عرشه ثلاث مرات » كما يقول هيرودوت . واستبان قواده أن زحزحة هذه الحفنة الإغريقية عن أماكنها مطلب لا يرام ، فلم يبق إلا إرسال فرقة من الجند تخترق الممر الثانى وتفجأ ليونيداس ورجاله من خلف ، فندب إجزرسيس عشرة آلاف من خيرة الجند وأرسلهم ليقوموا بهذه المهمة ..

وقد حدثتك بأن ليونيداس كان قد احترس لهذا الخطر بألف من رجاله أرسلهم ليقفوا عند مخرج الممر ، فانقضت هذه الآلاف العشرة بغتة على أولئك الرجال وأنزلت بأكثرهم مذبحة مروعة ، وتفرق بقيتهم فى الجبال ، وبهذا انكشف ظهر ليونيداس وتهدده الخطر من أمام ومن خلف . ولو أن رجلاً آخر كان يقود الإغريق فى ترموبيلى لتقهقر وترك الدفاع ، لأن الثبات كان يعد فى هذه الحالة ضرباً من الجنون . واجتمع مجلس الحرب من رجال ليونيداس ، وقرر بعض القادة أن ينسحبوا لينجوا برجالهم من هذه المذبحة ، وانسحبوا . ولكن ليونيداس أبى ، لأن شرفه كإغريقى وجندى أبى عليه أن يخلى بين العدو وبلاده ، فثبت فى ألف وأربعمائة من رجاله ، لكى يحارب جيشاً تقرب عدته من ألف ألف ! وفرق

جنده على الممرات ومواضع الخطر ومحارس الجبل ، وبقى فى ثلاثمائة من الرجال ليصيد الفرس .

وربما كان الصواب فى مثل هذا الموقف أن تقف القلة المحصورة موقف الدفاع ، عسى ذلك يطيل أمد الحرب فتتاح الفرصة لبعض إمدادات إغريقية لكى تأتى . ولكن ليونيداس لم يطق الصبر ، وأخذته حمية الفتوة ، فحمل على الفرس بمن معه ، وظل يقاتل حتى وقع فى الميدان صريعاً بعد أن قتل أخوين لإجزرسيس نفسه ، وأحاطت البقية الباقية من رجاله بجسده يدافعون عنه سيل الأعداء الذين ودوا لو مزقوه إرباً . واستمرت المعمعة وقتاً طويلاً، وهذه الحفنة من الأبطال التى لا يزيد عدد رجالها على بضع عشرات تقاتل حتى فنيت عن آخرها ، ولكنها كبدت العدو من الخسائر بضع عشرات من الألوف ! ... وعبر إجزرسيس المضيق على جثث الأبطال الخالدين وعلى جثث مواطنيه ، فكأنما آلى ليونيداس ورجاله أن لا تمشى جحافل المغير على تراب الوطن حتى تخوض فى دماء جنوده الأمجاد !

وتسامع الإغريق جميعاً بما فعل ليونيداس ورجاله ، فامتلأت نفوسهم حمية وإيماناً ، ونظر إجزرسيس إلى من سقطوا من رجاله فريعت نفسه لهذه الكارثة ، وأنشأ يسائل نفسه : كيف السبيل إلى مغالبة قوم بهذه الشجاعة وهذا التفانى ؟ كان قد هلك من جيشه إلى الآن عشرات الألوف ، وتحطمت من سفنه مئات ، وهو بعدُ مازال على أبواب بلاد الإغريق لم يطأ من أرضها إلا بقعة لا تغنى .

نعم لقد أفضى الفرس إلى أثينا ودخلوها فيما بعد ، ولكن ثبات ليونيداس أعطى مواطنيه وقتاً يستجمعون فيه قواهم ويتدبرون الخطة التى ينبغى أن تتخذ أمام عدوهم ، حتى استبان لهم أن خير السبل إنما هى ملاقاة الفرس فى البحر ، وتحطيم أسطولهم الذى كان يسير بإزاء جيشهم على الساحل يمده بالعون والمؤن . وكان ثيموستوكليس على رأس أسطول الإغريق ، فبدا له أن ينقل الحرب من البر إلى البحر ، ولم يكن عند اليونان إذ ذاك أسطول يستطيع لقاء أسطول فارس العظيم ، وكان لابد من وقت لبناء سفن جديدة ، فنقل أهل أثينا إلى جزيرة مجاورة نأياً بهم عن ذل الفرس . وكان لابد لذلك كله من وقت ، فلو لم يكن ليونيداس قد ثبت بجنده وأوقف الفرس هذه الفترة الطويلة لاجتاح العدو البلاد ،

ولما استطاع ثيموستو كليس جمع الإغريق لبناء الأسطول وهزيمة الفرس فى سلاميس .

لقد مات ليونيداس ، ولكن موته كان موت الخلود ..

نجت به بلاد الإغريق من بلاء العدو المهاجم ، وتمهد به السبيل لنصر خالد لها على الأيام .

يوم سلاميس

ثمستوكليس

٥٢٥ ـ ٤٦٠ ق . م

كأن هؤلاء الناس ليسوا من البشر ، إنهم خلق آخر غير طغام الناس وعامة الآدميين ، في حياتهم هزل هو أقرب إلى أن يكون جداً ، وفى تاريخهم جد لا ينهض به غير الأمم الأصيلة العزيزة ، وأى أمة لها مثل هذا الفخر العميق الذى أبدعته أرِيسْتُوفانِسْ قبل الميلاد بقرون ، ثم لا يزال الدهر يتحدث عنه كأنه جديد لا يبلى ؟ وأى أساطير يعجب بها الناس ويتخذونها مأخذ الجد مثل أساطير هوميروس ؟ وأى جد هو أعنف من هذه الحرب الضروس التى أعلنها على اليونان ؟ وأى برهان على عظمة هؤلاء ، وأى دليل على عبقريتهم هو أعظم من هذا النصر العزيز الذى وفقوا إليه فى هذه الحروب ؟ وأى حديث هو أقرب إلى نفوس الرجال ، وأندى على نفوس الأبطال من حديث سَلاَميس أو سيرة مَارَاثون ؟ ذلك حديث لا ينفك الزمان له مردداً ، وأولئك أبطال لا يبرح الدهر بذكرهم مُنشداً . وأين فى الناس مثل ثِمِسْتُوكْليس ، ومثل أَلْسِبْياد ، ومثل أرسْتِيد ؟ بل أين فيهم مثل أى من هؤلاء الجنود الصناديد الذين ثبتوا لعدوا كاسر يرميهم بفيالق من الجند كأنها قطع الليل ، ثباتاً لا مثال له إلا فى الأساطير ؟ .. وإذا كان هذا مقام جندهم العادى فى التاريخ ، فما بالك بالممتازين فيهم ؟ ما قولك فى رجل يكاد يكون أخلدهم بعد بِرِكْلِيس ، وأبعدهم فى حياتهم أثراً ؟ ما رأيك إذن فى ثمستوكليس ؟

تلك يونان القديمة تستعد من أقصاها إلى أقصاها للقاء العدو الفارسى المهاجم ، وتلك ولاياتها قد تضافرت وأقامت لنفسها جيشاً واحداً خف للقاء العدو عند برزخ كُورِنْثُوس ، وهذا ملك قرْطَاجَنَّة يُوربْيَاد ، قائد الجنود العزيز يقودهم وقد حمل فؤاده فى كفه ثم هذا ثمستوكليس رئيس مجلس أثينا : إنه يتأمل الأمر فلا ينتهى إلى الاطمئنان . لقد قرر

يوربياد أن تُترك أتيكا كلها ـ وفيها أثينا ـ لينهبها الفرس ، فإذا تقدموا بعد ذلك لقيهم اليونان فى هذا البرزخ الضيق الخانق ؛ ولكن ثمستوكليس لا يرضى عن هذا ولا يطمئن إليه وكيف تباح أثينا ، ويهدم الأكروبول ، وتهدر كرامة الإغريق ؟ وكيف ينفذ العدو إلى ما يريد دون أن يلقاه الأبطال الصناديد ؟ لا ، إن هذا لن يكون ، وليقف اليونان للعدو يصدونه عن أثينا ، وليكن بعد ذلك ما يكون . ولكن كيف السبيل إلى ذلك والإغريق شرذمة صغيرة إذا قيست إلى جيش إجزرسيس ؟ هنالك أعمل الرجل الفكر حتى تفطن إلى هذا الحل البديع الذى أنقذ اليونان وحضارة اليونان .

خف الرجل إلى مجلس الحرب واجتمع مع القادة وعرض عليهم ما انتهى إليه رأيه ، وقال : « لنبن أسطولاً ضخماً ، لأن الفرس قوم بريون لا يعرفون البحر ولا صبر لهم على أهواله ، ونحن أولى أن نبحث عن مكان الضعف فيهم لنغلبهم منه . فلنبن أسطولاً ضخماً نزوده بأفضل من عندنا من الملاحين وساسة السفن ، فإذا فكر الفرس فى نزول البحر لملاقاة أسطولنا هزمناهم على صفحة الماء على أيسر سبيل ، وإذا مضوا فى البر نزل رجال أسطولنا من خلفهم إلى البرزخ وأغلقوه ، فوقع الفرس بذلك بين نبال جندنا من أمام وحراب ملاحينا من الخلف ! » .

أعجب المجلس بالفكرة إعجاباً شديداً وهلل لها اليونان تهليلاً ، ولكن يوربياد لم يرض عنها ، وكيف يطمئن هو إلى رأى يحرمه نصيبه من البطولة ، ويضيع عليه الفرصة المرموقة فى المجد والخلود ؟ إنه ليرفض رأى ثمستوكليس ويعارضه أشد معارضة ، بل إن اللجاج ليشتد بينهما حتى ينهض يوربياد ويهوى بيده على وجه ثمستوكليس فى وسط المجلس ! ترى ماذا يفعل هذا الرجل العظيم ؟ إنه ليسكن لحظة كأن شيئاً لم يحدث ، ثم ينظر إلى يوربياد ويقول له جملته التى حفظها الناس عنه ، ولا زالوا يرددونها حتى اليوم : « اضرب .. ولكن لتسمع ! » . أجل ليضرب الأحمق ما يشاء له حمقه ، وليجهل ما يسعه الجهل ، فهذه أمور ينحصر ضررها فى ثمستوكليس وحده ، وهذا أمر لا يهم ، ولكنه لابد أن ينصت إلى مايعرضه عليه ثمستوكليس ليقتنع به ولينفذه حتى ينجو الوطن . وأحس القرطاجنى حرج مركزه . وأنصت فإذا حديث ثمستوكليس يلقى من نفسه القبول والرضا ، وإذا هو يوافق ، ويمضى إلى التنفيذ ! .

ولم يكن عناد يوربياد هذا أعنف ما لقى ثمستوكليس من المقاومة فى سبيل إنفاذ رأيه ، فقد كان اليونان إذ ذاك لا يكادون يطيقون التفكير فى ترك بلدهم العزيز نهبا للعدو وانتظاره فى سفائن على الماء ، فما زال الرجل يحتال عليهم ، بالرأى تارة وبالحيلة تارة أخرى، حتى رضوا واطمأنت نفوسهم ، وأقبلوا ينفذون رأى قائدهم البعيد النظر .

أتصدق أن اليونان بنو الأسطول فى أسابيع ؟ وأنهم دربوا الجنود ، وأعدوا العدة ، وانتظروا إلى جانب سلاميس قبل أن يصل الفرس إلى قلب الجزيرة ؟ ثم أتصدق أنهم أخلوا أثينا من سكانها ، ونقلوهم كلهم إلى جزيرة سلاميس ، إلا نفراً من الجند أبت عليهم وطنيتهم أن يخلوا بين العدو والعاصمة ، فلبثوا يحمون الأكروبول وماتوا على أسواره ؟ .

وأقبلت جحافل الفرس فسحقت ليونيداس وأصحابه فى تِرْمُوبيل ، ثم انقضوا على أثينا فخرقوها ، ثم نظروا فإذا اليونان لهم فى البحر بالمرصاد .

وأقبل الأسطول والتقى الجمعان ، وكان ثمستوكليس على رأس أسطول اليونان ، فأظهر من القدرة والمهارة ما خلد اسمه فى التاريخ ، واستطاع أن يقهر القوة الفارسية الهائلة ، وأن يخط فى سجل الزمان سيرة هى أعجب السير ، ونصرا هو أفخر الانتصارات ؛ ذلك نصر سلاميس . وكان إجزرسيس يرقب المعركة من فوق تل على الساحل ، فهاله أن وجد قواته تتهاوى إلى قاع اليم ، وسفنه تغرق ويبتلعها الماء ، ثم نظر فإذا أسطوله أثر بعد عين ، وإذا هو وحيد خائف قد تقاسم جنده اليم والأسر والفرار ، وإذا هو يهم مسرعاً ليرجع القهقرى مخافة أن يسبقه اليونان إلى الدردنيل ويأتوا على البقية الباقية من قواته عند هذا البوغاز الخطير .

ثم انظر إلى ثمستوكليس بعد ذلك ، وقد ثار به خصومه فى الجمعية وهاجموه هجوماً عنيفاً ، واتهموه بالسرقة سنة ٤٧١ ق . م . لقد دافع عن نفسه دفاعاً مجيداً ، واشتد أنصاره فى حمايته ، ولكن الأعداء لا يرحمون ، فيثبتون عليه التهمة ، ويحكمون عليه بالنفى ، ويطرد من بلاده ، فيطوف فى الآفاق شريداً .

عاش ثمستوكليس بعد ذلك ما شاء الله له أن يعيش فى ظلال النفى والتشريد ، يتأثره أعداؤه من بلد لبلد ، وينصبون له الشباك فى كل مكان ، وتضيق به الأرض على رحبها ،

وتسد فى وجهه المسالك على كثرتها ، حتى وصل إلى آسيا .

فى هذه العزلة القاسية ، وفى ظلال ذلك الهم المقيم ، يتأمل الرجل حياته الطويلة منذ نشأ فى أحضان الفاقة فى قرية خاملة ، ومنذ مضى يطلب المجد والشهرة والغنى فى أثينا ..

ثم يتأمل حاله بعد ما أسدى إلى اليونان من خير ، وما صاروا إليه بعد أن انقلبوا عليه وأسلموه لهوان الذل والحرمان ..

هنالك يشتد به الهم ، ويشتد عليه طلب الأعداء ، فيخف إلى بلاد فارس ليختفى فى وهادها ، وليموت بين فيافٍ لا ترحم ، وقمم لا يعمرها غير العقبان ..

تاريخ رجل

ديموستين

نحن اليوم فى طريقنا إلى الجمعية العمومية لأحرار اليونان ، لنشهدهم فى أبهى مظاهر حريتهم ، وأكمل صور حضارتهم . إنهم اليوم - فيما يبدو - منصرفون إلى أمر ذى بال يستغرق انتباههم كله . إنهم ليتسارعون إلى الجمعية العمومية يتزاحمون على مجلسها ، يود كل منهم أن يفوز بمكان طيب يشهد منه المناقشة ، ويشتد بينهم الصخب واللجاج . لنفعل فعلهم ولنتخذ أماكننا فى الجمعية على مقربة من منصة الخطباء ، لأن الأمر فيما يلوح خطير ، ولأن المشهد سيكون فيما يزعم الناس بديعاً فريداً ، قلما يظفر الناس به فى غير المناسبات النادرة الفريدة من هذه الحياة اليونانية السياسية الحافلة بكل طريف وجليل .

هاهم أولاء أساتذتهم ، وطلابهم ، وحكامهم ، وسرواتهم ، وعامتهم ، يجادل بعضهم بعضاً ، ويغاضب بعضهم بعضاً : إن أهل السياسة ليؤكدون لمحدثيهم أن « أوروبوس » وأصحابه مجرمون ، وأن القضاة لن يفلتوهم من عقاب صارم ، وما عسى أن يفعل المحامون فى الدفاع عمن حقت عليهم تهمة خيانة الدولة ، وثبت اشتراكهم مع الأعداء على الوطن العزيز ؟ وأى محام يؤتى من القدرة ما يقنع به القضاة بالتهاون فى أمر من امتدت أيديهم إلى ما ائتمنهم عليه مواطنوهم من مال ؟ .. أما الأساتذة وطلبة القانون فكان لهم رأى غير هذا إنهم لعلى ثقة من أن كالِسْتَرَاتُس قدير على أن يجعل البياض فى أعين الناس سواداً ، وأن له لساناً عضباً وفكراً سليماً ومنطقاً ساحراً ، وأن له لبلاغة موكلة بالمعجزات ، فما يكاد يرسل صوته الرنان يهدر فى فضاء الجمعية ويضطرب فى آذان القضاة ، حتى تبدو براءة أوروبوس ناصعة لا تشوبها شائبة ، وحتى تبرىء الآلهة ساحته وتخلصه من عذاب أليم .

وتشتد اللجاجة بين الجانبين ، فيشتد شوقنا إلى رؤية هذا المدره الداهية ، وسماع حديثه

الذى ملأت شهرته الآفاق ، حتى عده الناس إحدى عجائب الدنيا . إن اللجاج ليطول وإن الصبر ليقصر ، ولكن رويداً !

أولئك هم القضاة يقبلون فى خطوهم المتئد وحكمتهم البادية ، أولئك هم يشقون طريقهم صامتين ، يشغلهم التفكير فى شئون العدل عن الناس وصخبهم ، وأولئك هم المتهمون يتخذون أماكنهم قرب القضاة وهم أشد ما يكون ثقة فى البراءة ، وهذا هو كالستراتس يقبل فيهتف الناس باسمه هتافاً متصلاً ، ويصفقون له تصفيقاً مدوياً ، ويتظاهرون لرؤيته والاقتراب منه كأنه إحدى فُرج الدنيا ، وهو مزهو بنفسه لا يكاد يشعر بمن حوله من كثرة ما يفكر فى نفسه وينصرف إليها ، شأن كل من يفرط فى الإعجاب بنفسه حتى يطيش صوابه ويضله الغرور .

هاهو عقد الجمع يكتمل ، والقضاة يعلنون بدء المحاكمة ، وهذا هو كالستراتس ينهض فيحبس الناس الأنفاس ويرهفون السمع ، ويتبادلون رجاء السكوت ، ليتيسر لهم سماع الخطيب الذى يبدأ يهدر بالكلام ، يصعده ويحدره ، ويلعب بالنفوس يرضيها ويسخطها ، حتى ينتهى من دفاعه ويخرج بين براءة المتهمين وإعجاب المعجبين .

ثم هذا هو الجمع ينصرف عن الجمعية وقد اشتد الجدال وقامت قيامة الألسن . إن الناس مختلفون الاختلاف كله حول هذا الحكم الغريب الذى أصدره القضاة : فريق منهم يؤكد أن المسألة مسألة عدل وليست مسألة بلاغة أو تلاعب بالعقول .. إن المتهمين خونة مضيعون ما فى ذلك شك ، فكيف تبرأ ساحتهم لأن رجلاً لسنا بارعاً تصدى للدفاع عنهم؟ إن إعجاب القضاة ببلاغة الخطيب لا يكفى ، لأن الحكم ينبغى أن يقوم على الحقائق المجردة . أما الفريق الآخر ففريق الشباب اليافع المتوفز الذى يرى الحياة فناً جميلاً يملك ناصيته الملهم الذكى الموهوب ، وهو يحكم على الأمور بمشاعره لا بعقله ؛ ومادام هذا المدره قد خلب لبه بما أبدى من التفنن فى القول ، وما أبدع فيه من العبث بالمنطق والواقع ، وما تكلفه من التصرف فى مواد القانون ، فإنهم معجبون به مؤيدون له . إنهم يمثلون الفكر المتفنن الذى يعجبه الإبداع والابتكار كيفما كانا ، فى سبيل الخير أو فى سبيل الشر ، لأن المهم عندهم هو الخلق والتجديد .

وقد كاد الجدال بين الفريقين أن يصير خصاماً ، وكادت الخصومة أن تكون شجاراً ؛ فلنبق فى أماكننا حتى ينصرف الجميع ويهدأ الجو ويخلو الطريق ..

لا يكاد المكان يخلو من آهليه ، ولا تكاد أقدامنا تمضى بنا نحو الباب ، حتى نرى شيئاً لا نملك معه معجباً .. فهذا صبى صغير ينهض من تحت المقاعد ! وهو ينفض التراب عن شملته كأنه كان ملقى على الأرض ، أو كأن زحمة الناس ألجأته إلى التراب ، ثم إذا به ـ حين يطمئن إلى خلو المكان ـ يجلس على أحد المقاعد ويسرح ببصره ، كأنما يستغرقه الفكر أو كأنما تحمله الأطياف على أجنحة الأحلام ، ثم يصحو من الغفوة فينهض ويتخذ هيئة كالستراتس ، ويمضى يقلده فى صورة تبعث على الضحك . فبينما هو فى هذا إذ أقبل مؤدبه يلتمسه ، فإذا رآه صاح به ثم عدا إليه يضربه ، والفتى ساكن لم ينقطع تفكيره فى الخطيب بعد ، فهذا هو يسير مع مؤدبه شاخص البصر ذاهب الفكر ، يخالس منصة الخطيب النظر ، ويطوى نفسه على حزن كامن وألم شديد .

هذا صبى له شأن ما فى ذلك ريب .. فلنلتمس أخباره ، ولنصحبه ما وسعنا فى مسلك الحياة ، ولنتسقط أنباءه ، عسى أن يصدق ظننا فيه .

* * *

يريد الفتى أن يكون خطيباً ، ويشتد على نفسه لإدراك هذا المطلب ، ولكن لسانه لايطاوعه ، وصوته يخونه ، ومنطقه يقعد به عما يريد . إن لسانه يعانى ثقلاً يعوقه عن الانطلاق مع الحديث إذا أراد ، ولكنه لا ييأس ولا يدركه الملل ، بل هو يأخذ لسانه بالمران حتى تفارقه هذه اللثغة التى تثير الضحك ، وإنه ليشتد فى مران صوته حتى يخلص من اضطرابه البالغ ، وإنه ليجتهد فى تقويم منطقه بالفلسفة والعلم حتى يستقيم ، وإنه ليقاسى من هذا مشقة ويتجشم تعباً .

وقد بلغ به الجنون بالخطابة ، أن كان يذهب إلى شاطىء البحر ، ويمضى يخطب الأمواج ، ليضيع صوته فى هدير الماء ، ولا يعود يسمعه فيخجل من نفسه ، أو يخشى أن يراه إنسان . هو يطيل البقاء على الشاطىء ساعات متواليات ، يقترح على نفسه مواضيع يخطب فيها ، ثم يمضى يتكلم ، ويتصور نفسه فى مجلس كبير أو فى محكمة ، وأن

المقاطعات تتواتر ، والأسئلة تتوالى ، وهو يرد عليها ويناقشها ويدحضها ، حتى جرى لسانه وثبت جنانه وتجلى بيانه . وتنقضى الأيام وهو يعالج نفسه على هذا النحو المجهد حتى تُـجْهد حنجرته وتكاد تمرض ، وتمضى الشهور وهو فى حيرته بين فلسفة الفيلسوف وحذلقة اللغوى وجنون الخطيب ..

ثم يدرك أن ما يبذله من الجهد لا يكفى ، لأن خروجه إلى الناس وجلوسه معهم يستغرقان من وقته الشىء الكثير ، لأنه لا يطيق الوحدة الطويلة ولا تلبث نفسه أن تضيق بها ، فيمضى إلى حيث يسمر وينفق الوقت ؛ وكان هذا يثير فى نفسه الندم . فلم يجد وسيلة تمنعه من هذا الإسراف فى الوقت إلا أن يحبس نفسه عن الناس أشهراً طويلة ، وليس أعون له على هذا من أن يحلق نصف رأسه ويدع النصف الآخر ، فلا يجرؤ على الخروج إذا حدثته نفسه بالخروج ، ولا يستطيع أن يلبى نداء نفسه إن هى مالت إلى شىء من اللهو والتسلية ! ولا يزال بنفسه على هذا حتى يطمئن إلى أنه قد صار خطيباً متمكناً ومدرهاً بليغاً ، فيخرج إلى الجمعية العمومية ويتخذ مكانه ، ويتحين كل فرصة للحديث فيبادرها وينهض ويأخذ فى الكلام .

تُرى ما الذى يبعث الناس على السخر منه والتعقيب على حديثه بالتهامس والغمز ؟ بل ما الذى يبعث أعضاء الجمعية على الإعراض عن الفتى الخطيب وإسكاته قسراً ؟ لقد فارقته عجمة اللسان ونفض عن صوته الاضطراب ، فما السبب فى هذا يا ترى ؟ إنه ليطيل التفكير فى هذا ولا يكاد يهتدى إلى أسبابه ..

حتى إذا كاد اليأس أن يستبد بنفسه ، لقيه فى بعض الطريق صديقه الممثل ساتيروس وقد أحزنته خيبة صاحبه ، فهم به يلاحقه ، حتى إذا أدركه استمهله وسأله أمره ، فانفجر ديموستين يشكو له مصيبته ، ويطلب إليه أن ينصفه وأن يصدقه رأيه ، ويسأله : ألستُ أذكى الخطباء وأوسعهم علماً وأدقهم فهماً ؟ أليس يبدو لك ما تكلفتُ من جهد ، وما حملت من مشقة ، وما تجشمت من عسر حتى أدركت هذه المرتبة ؟ فمالى يا أخى يلاحقنى الفشل ولا أكاد أظفر من إعجاب الناس بقليل أو كثير ؟ فيجيبه صديقه : « أجل ياديموستين ، وأنا أعرف موضع النقص فى فنك ، وإننى لمعالجك حتى تخلص مما يقعد بك

عن مطلبك » . ثم ينصرفان إلى الدار ، وهناك يطلب الممثل من الخطيب أن يتلو أمامه بضعة أبيات من يوربيديس أو سوفوكليس ، فيلقيها الفتى ، فينهض الممثل ويأخذ فى تصحيح الأخطاء وتصويب العبارات وتهذيب الإشارات وتقويم المنطق . ولا يزال به يزوره ويعلمه ، حتى يخلص به من عيوبه أو يكاد ، ويصبح الفتى أعجوبة الزمان فصاحة وبياناً.

* * *

فى تلك الأيام كانت الأقدار تبيت للإغريق أمراً عظيماً ، وتعد العدة لتمتحنهم امتحاناً جديداً . كانت تنفخ فى أهل مقدونيا وتقيمهم من نومهم لتبعثهم على الإغريق حرباً ودماراً ، وكان أمر مقدونيا قد انتهى إلى فيليب أبى الإسكندر ، فأغراه ضعف اليونان بالعدوان عليهم وامتلاك بلادهم ، وكان أمر هذه البلاد قد انحط وضعف بعد إذ تفككت أحلاف شعوبها ، واشتدت الخصومة بين أبنائها : عَدَت أثينا على إسبرطة ، وعدت إسبرطة على أثينا ، ونهض أبامنناس الطيبى فعصف بالاثنتين بجيشه الجديد الذى أحدث به فى عالم الحرب انقلاباً كبيراً . وكان فيليب قد أخذ الحرب عن هذا القائد الطيبى ، فأحسن تأثر أستاذه وأقام فى مقدونية جيشاً شديد البأس أرهب به الإغريق وذهب يتهددهم ببأسه يوماً بعد يوم . وأدرك الخوف الولايات فتسارعت تعلن الطاعة للمقدونى القاهر ، حتى أثينا نفسها لم تخل من ضعفاء يرون فى الزلفى للمستبد لوناً من ألوان السلامة فى هذه الدنيا.

ورضى فيليب عن هذه الطاعة التى بذلها له الناس مسلمين ، فبعث رسله ومندوبيه يتلقون الطاعة ويجمعون الجزية ، وأصبح الإغريق الأحرار عبيداً كغيرهم من الشعوب التى كانوا يركبونها بالسخر ويحملونها كل مهانة .

كان ديموستين ساخطاً أشد السخط على هذا الأمر ، فقد عاش طول حياته ـ حتى الساعة ـ على قمة الحرية السامقة كأنه طير فى فضاء الله ، وكان قد بذل هذا الجهد ليجعل من نفسه صرحاً من صروح العدل يدافع عنه إذا مال ميزانه ، فمادت به الأرض حين وجد أن الدنيا لن تسمح له بالعيش فيها بعد الساعة إلا عبداً ذليلاً كغيره من بنى وطنه ، وأصبح

لزاماً عليه أن يحنى الرأس للقاهر المتجبر ، وأن يمشى فى ركابه وأن يضع منطقه وبيانه فى خدمته . ضاقت نفسه بذلك ونفرت تطلب النهوص بالوطن المهيض ، ولكنه لم يكد يبدأ فى هذا حتى وجد نفسه وحيداً فريداً لا يكاد يردد دعاءه أحد .

كان نجم الحرية الإغريقية قد أفل وتولى ، وقد هرمت النفوس وتولاها الإعياء ، فاستوى عندها العيش فى ظلال الحرية أو تحت أثقال العبودية . ولكن ديموستين يخفّ رغم ذلك إلى الجمعية العمومية ، ويقوم فى قومه خطيباً يريد أن يستنهض الهمم ، ولكنه كان يقف وحيداً فى ركن من أركانها يهاجم فيليب المقدونى ، فلما مات وخلفه الإسكندر تصدى له بنفس الهمة والشجاعة ، ثم رأى بعض الخطباء من مواطنيه ينضوون تحت لواء الغاصب ويضعون ألسنتهم فى خدمته : يدافعون عنه ويتملقونه ويرجون الإغريق أن يخفضوا له الهامات ، وأن يسيروا فى ركابه سير الطائع الممتثل ، فاهتاجه ذلك وأخذ يهاجم ذلك الفتى المتوفز الذى يتصدى لزعامة الدنيا ، والذى وقر فى نفسه أن أحداً من الناس لن يجرؤ على رفع رأسه أمامه .

وقف ديموستين وحده يعادى الخطباء جميعاً ، ويهاجمهم واحداً بعد واحد ، ويأخذ عليهم تخاذلهم عن الوطن فى ساعة اشتدت عليه فيها الخطوب ، ومضوا يحاولون مجادلته فلم يستطيعوا له دفعاً ، وأصر على مهاجمة المقدونيين إصرار من باع نفسه واستوى عنده الموت والحياة . وأخذ القلق يساور أصدقاءه على مصيره ، فمضوا إليه يرجونه أن يكف عن هذا السعى نحو الموت ، ويؤكدون له ألا خير فى هذا الجهد يبذله ، فقد خبت النيران فى قلوب اليونان وما عادوا يطلبون غير العافية ، بل هم يعرضون عليه المال فلا يرضى ، ولا ينفك يأخذ مكانه فى الجمعية كل يوم ، ويلقى كلماته القاسية يهاجم بها المستبد ويستثير الحمية الراقدة فى نفوس مواطنيه ، حتى يترامى خبره إلى الإسكندر فى بلاطه ، فيعجب به إعجاب بطل ببطل ، ويطرب لأحاديثه ويستزيد منها ، ويتسامع بأمره كسرى فارس فيبعث له الهدايا والرسل يؤيده ويشد أزره .

ولا يزال الرجل فى ذلك حتى يكتب الله له التوفيق فيما طلب ، فيأخذ الإغريق يتناهضون لترديد دعواه ، ويتداعون للسير معه ، ويتحدث خطباؤهم بالثورة يهيبون بقومهم

إليها ، وإن الحمية لتعود إلى القلوب الساكنة ، وإن ثبات الإيمان ليعود إلى النفوس الحائرة ، وما هى إلا شهور حتى نشهد أهل أثينا على ماشهدناهم عليه أيام غزوة الفرس : شجعاناً يخفون إلى الميدان سراعاً ، ومقاتلين يسرعون إلى الوغى خفافاً . ولا يكاد إخوانهم فى إسبرطة يتسامعون بالأمر حتى يمدوا سواعدهم ويلبّوا سعداء هذا النداء ، ولا يكاد أترابهم فى الجزائر والجبال والوديان يظهرون على الأمر حتى يقبلوا معجلين ، ويكتمل لديموستين منهم جيش قوى عزيز ، يمضى معه إلى حيث يلقى الإسكندر الفاتح العظيم .

ولكن عز الإغريق كان قد تولى ، وأيامهم الغر كانت قد ذهبت مع أمس الدابر ، وابتدأت الآلهة تتوجه بحبها وعنايتها إلى الشمال ، إلى مقدونية وفتاها المجيد إسكندر . ولم يكن بد من أن ينتصر الإسكندر على ديموستين ، فلم يكن هذا بالقائد القادر ! . انتصر الإسكندر العبقرى الذى فتحت الدنيا على مقدمه كتاباً مجيداً ، ولا مفر لديموستين من أن يودع أجناده المنهزمين فى ساحة خايرونيا .

طبيعى بعد هذا أن يشقى ديموستين ، وأن يطلبه الغالب ويجد فى طلبه ؛ بل تزيده الأيام نكاية : ينقلب قومه عليه ويقدمونه للمحاكمة ، ويجتمع عليه الأعداء ممن يؤلبهم الإسكندر من كل صوب ، ولكن الرجل يستعين عليهم ببلاغته ويخذلهم عما يريدون ، ويخرج من المحاكمة نقى الصفحة برىء الساحة .

ولكن الإسكندر لا يسكت عنه ، إنه يطلب إلى الأثينيين أن يبعثوا إليه ثمانية من خطبائهم ليكونوا فى ركابه وحشمه وعدته وعتاده ، ويسرع الضعاف من أمثال بوليوكتس وأقيالتس وليكَرْجَس إلى الملك الشاب يبذلون له الطاعة ويطامنون مواهبهم أمامه . إلا ديموستين ! فقد أبى الذهاب على رغم إصرار الإسكندر وطلبه إياه بالذات ! .

وعرف الرجل أن منيته قد أوشكت ، فذهب إلى كالدونيا ، وجلس هناك ينتظر رسل الإسكندر . ولم يطل به الانتظار ، فقد أقبلت الجنود إليه فى معتزله .

ها هو ذا قائدهم أركياس ينقر الباب ويدخل ، ويطلب إلى ديموستين أحد أمرين : إما الموت وإما طاعة الإسكندر ، ويرفض الرجل . ويلح القائد عليه ، فيصر إصراراً بالغاً . فإذا يئس منه ، استدار وتركه يفكر .

هنالك طلب ديموستين صفحة يكتب فيها شيئاً لأهله ، ثم يغافل القوم فيخرج قارورة فيها سم فيتناوله ، ثم يرفع رأسه فيقول وهو يضحك :

ــ والآن يا أركياس ! تستطيع أن تأخذنى إلى حيث شئت ، بل ها أنا أسير معك ..

ويمضى .. حتى إذا أدرك الباب تعثرت قدماه واضطرب كيانه ، ثم .. خر شهيداً !

اسكندر العظيم

٣٥٦ - ٣٢٣ ق . م

كيف استطاع هذا الحَدَث الصغير أن يقهر الإغريق ؟ وكيف تأتى لهذا الناشىء الرقيق أن يغلب ذلك الشعب الذى لم يغلبه غالب ولم يخضعه سلطان ؟ . هكذا كان الناس يتحدثون حين انتهى عرش مقدونيا إلى الإسكندر بن فيليب ، وكان هذا الملك الجديد يخطو من السادسة عشرة إلى السابعة عشرة ، وكان أبوه قد أساء إلى الدولة وزعزع ثقة الناس فيها ..

كان طاغية منهوماً فى كل شىء ، وكان شرهه إلى النساء أضعف نواحى نفسه ، ولو أن زوجته أوليمبياس كانت كغيرها من نساء ذلك الزمان هدوء طبع وإسلام قياد لما نجم عن ذلك النهم ضرر كبير ، ولكنها كانت أميرة عزيزة النفس بعيدة الهمة ، لا تكاد تطيق أن يتخذ زوجها عليها أخريات ، فمضت تلومه أمام الناس ، حتى كرهها هو ، وأبغضها خلال السوء المحيطون به ، وبدأت ألسنتهم ترميها نكاية فيها . ثم بدا لفيليب أن يتزوج ابنة أحد قواده المقربين ، وكانت فتاة يافعة ذات حسن اسمها كليوباترة ، ولم تجد أوليمبياس وسيلة توقفه بها عند حده ، فكان له ما أراد ..

وأقيم حفل الزفاف وسالت فيه الخمر أنهاراً ، وأقبل والد العروس يربت ظهرها ويرجو الآلهة أن ترزق فيليب منها ابنا « شرعياً » . وكان الإسكندر على مقربة منه ، فأحس أن القائد المخمور يلمزه ويهمز أمه أوليمبياس ، فألقى بالكأس فى وجهه . واستشاط الأب المخمور غضباً حمية لصهره ، فنهض بالسيف يريد أن يخترق صدر ابنه ! ولكنه لم يكد يخطو حتى دارت رأسه بالخمر ، فوقع يتدحرج ، وصاح الإسكندر والدمع فى عينيه : انظروا إلى الرجل الذى يريد أن يعبر من أوربا إلى آسيا وهو لا يستطيع الانتقال من مقعد إلى مقعد !

وما كانت أوليمبياس لتسكت لفيليب عن هذا . لقد انضاف إلى جرح كرامتها خوف على العرش أن يفلت من يد ابنها الحبيب . وكان الله قد سواها من طراز لداتها المقدونيات، وكن فيما يعرف التاريخ أكثر بنات حواء استهتاراً وأبعدهن مدى فى طريق الجناية ، فما زالت أوليمبياس تطوى نفسها على الخوف المستبد والجرح المتجدد ، حتى تمكنت من فيليب عشية رحيله فى غزوته الكبرى نحو آسيا ، فما كاد يبتعد عن حراسه حتى عاجله رجل بخنجر مزق به صدره ، وتقدمت الملكة القادرة فى دهش من الناس بعد ذلك بأيام ، ورفعت التاج على جبين ابنها العزيز !

وتلفَّت الإغريق وتنفسوا الصعداء . لقد زال عنهم كابوس فيليب وجيوشه ، وارتدت إليهم حريتهم بعد طول عناء . بدأت أثينا تستعيد مجدها ، وإسبرطة تنادى جندها ، وطيبة تنهض من مهدها ، ونظر أشراف مقدونيا فإذا الأمر مضطرب فى كل مكان ، وأحبوا أن يدعوا الأمور تجرى فى أعنتها ، وليذهب المجد من حيث جاء ! ولكن الفتى الصغير أبى وأقسم ليكونن مثل أبيه ، بل خيراً منه وأبقى ، وليؤدبن الطاغى والعاصى ، وليردَّن إلى الطاعة كل مستهتر جاهل ، وليرين الناس أن فتى قام على تربيته أرسطو وأخذ فن الحرب عن أبا منداس ووهبته المقادير ذهناً صافياً ونفساً بعيدة المطامح ، لا يعدم فى سماء العلا موضعاً ! ..

ومن ثم أعلن الإغريق كلهم يطلب طاعتهم ويعلمهم أن الأمر باق على ماهو عليه ، وأن رعية أبيه رعيته ، وويل لمن أضله الشيطان ! . هنا ثار الإغريق كلهم ، وأجمعوا أمرهم ودبروا تدبيرهم ، واندفقت جحافلهم لتؤدب الفتى الصغير . وأسرع هو إليهم حتى لاقاهم فى معركة بعد معركة ، وهنا رأوا أمراً عجيباً : هذا الفتى الصغير يقود الجند قيادة ساحر ، ويصرف الأمر تصريف ماهر ، فما هى إلا هجمة هنا ولفة من هناك ، وتقهقر فى اليمين ودفع فى القلب ، حتى يرى الإغريق أنفسهم فى ويل ، وإذا الذى نجا منهم يحمد الله على أن لم يقع فى الأسر ، والذى وقع فى الأسر يحمد للإسكندر نعمة الحياة .

فلم يكد الإغريق يرونه كذلك حتى أخذوا بما كان يبديه من مظاهر النبوغ ، فهو لايلقى بجنده فى المعمعة مغمض العينين ، وإنما يطيل التفكير ويحكم الخطة ، فلا يضحى

بجندى من غير ثمن . وما زالوا يرمونه بخير رجالهم ويرميهم بخير رجاله ، حتى هدم آخر معاقلهم فى خايرونيا ، من ظواهر طيبة ، هزيمة ردت عقولهم إلى رءوسهم ، فعادوا إلى الرشاد وعرفوا أن الفتى ليس غازياً يطلب الحرب ، وإنما هو بطل يخطب الأبطال ويرجو أن ينظمهم فى صف واحد يمضى لقهر الطواغيت ونشر النور .

من هذا اليوم علمت يونان من هو هذا الفتى الصغير ، ووقع الخوف فى نفوسها من أن يسعى المنتصر للثأر من رجالها ، ولكنه أخلف ظنونها وفعل أمراً عجبا . لقد دعا الإغريق إلى كلمة سواء ، وأعلن فيهم أنه لا يرجو إلا صلاحهم ورفعة كل ماهو إغريقى ، بل لقد أكد لهم أنه أخوهم وواحد منهم ، وأنه يدعوهم للإنضواء تحت رايته ليقودهم إلى آسيا للانتقام من فارس والأخذ بثأر اليونان منها ..

هنالك أدرك المنكرون أن هذا الفتى إنسان عظيم .. أن وطنيته الإغريقية تطغى على أحقاد نفسه ، وأن إيمانه بقيمة الحضارة الإغريقية ونفعها للإنسانية كلها يعلو على إيمانه بقيمة الفتح ومجد النصر فى الميادين ، فهو يريد أن يكرس هذه العبقرية ليثأر للإغريق الذين آذوه بالأمس وأعلنوا عليه حرباً كادت تودى به وهو بعد ناشىء صغير ، لأنه يعتقد أن حضارتهم حضارة إنسانية جليلة ينبغى أن تذاع فى الناس ، فمن قبلها طائعاً فطوبى له، ومن أبى فلا مفر له من السيف . وسنرى أنفسنا حيارى بعد الفراغ من ذكر هذا الرجل: ترى كيف كان يصير لو أن الموت لم يعاجله وهو بعد فى ضحى العمر .. فى الثانية والثلاثين ؟

بدأ الإسكندر سيره فى المغامرة التى لم يرو التاريخ مثلها فى ربيع سنة ٣٣٤ قبل الميلاد ، وكان رجاء الفتى فى الفتح والغلب من القوة بحيث تروى عنه الأساطير أنه رتب شؤون الدولة فى غيابه ، فوزع الإدارات على الصالحين من الرجال ، وعهد فى كل قسم من مقدونيا وأملاكها إلى رجل من رجاله ، وبقى هو آخر الأمر من غير شىء ، فقال له صاحبه برديكاس : وأنت ماذا يبقى لك ؟ فقال : الأمل ! ثم نظر إلى أصحابه وقال : « نحن الذاهبين إلى الغزو لا ينبغى أن نطمع فى أكثر من جزء من هذا الأمل ! دعوا الأرض يا رفاق وسيروا فى ركب الآمال ! ..

بدأ فعبر الدردنيل بجيشه الصغير ، وهبط آسيا وتقدم آمناً واثقاً ، وكانت عبقرية هذا الفتى تتجلى فى أمور : الدقة التامة فى العمل ، والتفكير والتقدير ، ثم الجرأة والإقدام . وتسامع الفرس بمسيره إليهم فلم يحفلوا كثيراً . وكان ملكهم « دارا كودومانوس » أميراً لينا سهلاً ، بعيداً عن القدرة على النهوض فى وجه الفتى العبقرى المقبل عليه ، ولم يكن هو أو أحد من أهل بلاطه ليتوقعوا شراً كثيراً ، فقد كانت الدولة مترامية الأطراف ، وكان جندها أسراباً كقطع الليل ، لو جمعت ورصت رصاً لسدت منافذ الأرض فى وجه الشرذمة الإغريقية المقبلة ، وكانت لهم الأساطيل ودور الصناعات على كل ساحل ؛ ولكن فاتهم أن الجند بغير قائد لا يدركون فى الميدان نصراً ، وأن المال الوفير لا يجدى من غير تدبير ..

وكان من سوء طالعهم أن المقادير ساقت إليهم هذه المرة قائداً كأمهر ما يكون القواد ، ومدبراً كأحسن ما يكون المدبرون ، وفاتهم كذلك أن قائد الإغريق هذه المرة ليس قائداً مفتوناً يقبل للحرب والخراب ، وإنما إنساناً يحمل فى ركابه النور ، وأن بلادهم ستجنى من الهزيمة خيراً هو أبقى لها من عشرات الانتصارات ، وأن حضارتها ستبهر الغازى وتغزوه وترغمه على أن يحنى الرأس إجلالاً لمجد فارس العظيم ! .

ريع الفرس إذ رأوا الإسكندر يتقدم فى آسيا الصغرى ، فأسرعوا فجمعوا له جيشاً كبيراً ، ولبثوا ينتظرونه على ضفاف نهر « غرانيق » ، وهو نهر صغير يصب فى البحر الأسود . ولم يكن للإسكندر معدى عن أن يعبر النهر للقائهم ، وقد بدا لكبير قواده أن ينصحه بأن ينتظر حتى فجر اليوم التالى ليعبر والفرس عنه فى شغل ، فقال الإسكندر بهذه اللهجة التى تنطق عن العزة والثقة : « عبرتُ الهِلِسْبوُنت (البوسفور) دون خوف ، ثم أجىء إلى جدول كهذا فأتردد وأنتظر الفرصة المواتية ؟ امض بنا يا رجل ! » . ومضى فعبر النهر فى مواجهة العدو دون أن يستطيع أحد إيقافه ! .

ثم بدأت المعركة فخاضها الإسكندر بنفسه فى مقدمة جنده ، يحارب بسلاحه كغيره من الجند والقادة . وكان ذلك دأبه : يرتب الجند ، ويرسم الخطة ، ويعهد إلى كل قائد بما يعمله، ثم يمضى هو فى المقدمة .. وكان قد درس أساليب الحرب على أنبغ منظم ومدرب عسكرى أنجبه العالم القديم وهو أبامنناداس الطيبى العظيم ، وكانت جنوده منظمة هذا

النظام البديع الدقيق الذى هو فضل الغرب على الشرق فى كل ميادين الحياة ، ثم إن دارا كان قد ارتكب الخطأ الأبدى الذى لا زال المشارقة يرتكبونه : سوء الظن بالقادة ، وبدلاً من أن يعهد بالأمر إلى القائد الكبير « ممنون الرودى » ، وزع الأمر بين قادة الفرق حتى يطمئن إلى أن أحدهم لن يثب عليه بالجند ؛ فكانت النتيجة أن تفرق الأمر جملة بين تخوف القادة وتخوف العاهل ..

والتقى الجمعان فكانت خسارة الفرس بالغة ، ولم يلبث فرسانهم أن تفرقوا ومضوا يطلبون النجاة ، يرجفون بخبر الهزيمة إلى دارا ، فأثاره كل مثار ، وملكه الخوف من هذا الفتى المقبل ، فنهض من مجلسه ، ونادى رجال حربه ، وأهاب بهم أن : هلموا نرد هذا الفتى ، فلعله يحمل إلينا الموت !

ومضى الإسكندر بجيشه الصغير يخضع ولايات آسيا الصغرى ، ما خضع منها لفارس وما لم يخضع لها ، وكانت أثينا وإسبرطة وطيبة وغيرها من ولايات الإغريق قد أدركتها الغيرة، وناش قلوب أهلها الحسد من هذا التوفيق الذى قسمته المقادير لهذا المقدونى المجدود ، فبدأوا يدبرون له وينقلبون عليه ، فأخذ يحترز منهم ويتوقى شرور عمالهم وأتباعهم فى آسيا الصغرى . وقد كلفه ذلك عناء كبيراً ، ولو أنهم كانوا معه بقلوبهم لخلص لصراع عدوه الكبير ، ولكنه كان كنابليون : يقاتل العدو فى الخارج ، ويحاذر الخونة فى الداخل !

خرج الفاتح الشاب من آسيا الصغرى ، وبدأ يأخذ الأهبة لينفذ إلى سهول الشام لكى يفضى بعد ذلك إلى بلاد الجزيرة قلب الدولة الفارسية وموقع عاصمتها كتزيفون ، فلم يكد دارا يعلم بذلك حتى سارع وجمع جنده فى سهل « إيسوس » ـ على مقربة من موقع الإسكندرونة اليوم . وكان اختيار دارا لهذا الموقع موفقاً ، لأنه سهل فسيح يستطيع أن يفيد فيه من جموعه الحافلة ، ولو قد ثبت فيه لكسب المعركة ، ولكن سوء حظه غلب ! . فما هو إلا أن سمع بأن الإسكندر خلف حامية فى مدينة إيسوس ومضى لوجهه ، حتى جمع جنده ومضى بهم فحشرهم فى خوانق الجبال ليضع يده على البلدة الصغيرة . وما كان أسعد الإسكندر بمثل هذا النبأ ! لقد فطن بفطرته الهادية إلى أن عدوه نضا عن نفسه أحصن دروعه ، وهكذا أقبل الإسكندر مسرعاً بجنوده .

والتقى الجمعان ، فلم يستطع دارا أن يستفيد من جموعه فى خوانق الجبل ، وأذهلته عبقرية الإسكندر ، فصبر على القتال حيناً تهاوى فيه خيار جنوده ، فأدار ظهره وولى مدبراً، تاركاً قبته وفيها كنوزه وأمه وزوجه وأبناؤه .. وطارده الإسكندر ثم عاد إلى مكان المعركة ، ونزل سرادق كسرى ، فلم يكد الليل يجن حتى سمع عويلاً يتهدهد إلى أذنيه من قرب ، فسأل عنه فقيل له : « أولئك آل دارا .. تسامعوا بأنك عدت من مطاردته بسيفه وطيلسانه ، فحسبوك قتلته » . فبعث إليهن بعض رجاله يطمئنونهن ويؤكدون لهن أنهن مكرمات ما عشن كما كن فى حياة دارا ! .. ولو أن غيره ـ فى سنه وفى نصره ـ كان مكانه لمالت نفسه إلى حريم الملك الهارب ، لاسيما وفيهن ستاتيرا زوج دارا ، وهى سيدة شابة جرت بذكر جمالها الركبان ، ولكن الإسكندر كان قد أخذ الحكمة عن أرسطو ، ومن ألم من الحكمة بأيسر طرف أدرك أن الشهوات مهاوى الرجال ! .

وكان انتصار الإسكندر على دارا انتصاراً حاسماً بعيد المدى ، فمن ذلك الحين سكنت ريح الشرق ، واطمأنت بلاده إلى نوم عميق استولى على كيانها ، حتى صرخ العرب صرختهم المدوية بعد ذلك بألف عام .. لهذا كانت معركة « إيسوس » من معارك التاريخ الفاصلة ، ولهذا يبدأ المؤرخون بها عهداً جديداً ، ولهذا هلل لها مؤرخو القديم وأطنب اليونان فى ذكرها إطناباً بالغاً ، واعتبرها المؤرخون الأوروبيون ختام صراع طويل دام بضعة آلاف من السنين بين الشرق والغرب فى العصر القديم .

وتلكم أوهام وضلالات اخترعها مؤرخو العصر الحديث ولم يكن يؤمن بها أو يقولها فى القديم أحد ، فلم يكن أحد من أهل القديم يعرف هذه التفرقة العصبية بين الشرق والغرب . بل كان اليونان أنفسهم ، وهم ممثلو الغرب فى أعين هؤلاء المؤرخين أعداء للإسكندر لا يرون إلا أنه أجنبى ساقهم بعصاه ، وكانوا ـ فى كثير من أدوار هذا النزاع بين الإسكندر وفارس ـ من أحلاف فارس ، يتمنون لو انتصرت على هذا المقدونى العنيد . بل كان الإسكندر نفسه لا يكاد يعد نفسه يونانياً وإن تحدث بذلك ، إذ كان منصرفاً إلى إزالة الفوارق بين الناس وإزالة العصبيات من النفوس ، فكان شامياً فى الشام ، ومصرياً فى مصر ، وفارسياً فى فارس . وتلك هى ميزته الكبرى التى ترفعه فوق قيصر وغيره من كبار القواد !

وانحدر الإسكندر يفتح بلاد الشام ، فسقطت فى يده معظم بلدانها دون كبير عناء خلا «صُورْ» إذ صمد له أهلها ستة شهور يصاولونه ويصاولهم ، ويحاول أن يضع يده على بلدهم فلا يرتد إلا بالخسارة ، حتى كاد يستيئس من قهرهم لما كانوا يبدونه من ضروب الوطنية والتفانى فى سبيل وطنهم العزيز . ولو قد ثبتت « صيدا » و « أرادوس » إلى جانب صور ، لعجز الإسكندر عن إرغام لبنان القديم على الطاعة ، ولكن ما الحيلة والأنانية من طباع الناس ؟ .. وماذا كان يجدى صيدا ثباتها إذا تخونتها حليفتاها ؟ لقد بذل أهلها من الجهد مالم يبذله أعداء الإسكندر مجتمعين ، ولكنها انتهت إلى التسليم فى يوليو سنة ٣٣٢ قبل الميلاد .

وفى هذه الفترة وصلته سفارة من دارا ، تعرض عليه نصف دولة الفرس ، ويد ابنة دارا نفسه ثمناً لحلف بين الجانبين ، فصفق لذلك بارمينيو أحد قواد الإسكندر ، وقال : « لو كنت الإسكندر لقبلت » ! فابتسم الإسكندر وقال له « وأنا لو كنت بارمينيو لقبلت . ! » ، وأبى الصلح ورد الرسل وهو يقول : « قولوا لدارا إن البلاد كلها للإسكندر ، ولكنه لا يأبى على دارا شيئاً ، ولو أقبل دارا بنفسه يطلب ما يريد ما رددناه » .

ثم أقبل الإسكندر إلى مصر مسالماً لا غازياً ، فقد كان المصريون إذ ذاك فى ربقة الفرس يبغون التخلص من هؤلاء المستبدين الأسيويين ، الذين لم يغادروا شيئاً يحفظ أهل الوادى إلا ارتكبوه . ولم تخضع مصر وحدها لهؤلاء الفرس بل خضع لهم أهل الشام وإغريق آسيا الصغرى ، وكان إغريق بلاد اليونان أنفسهم يرجفون منهم ويحالفون المصريين عليهم ، فلما دحر الإسكندر الفرس وأقبل إلى وادى النيل اعتبره المصريون حليفاً أقبل يعينهم على هؤلاء المستبدين .

وقد أقبل الإسكندر فى الحق كذلك ، لم يرفع فى وجه المصريين سلاحاً ولم يرفعوا فى حربه بداً ، وما إن وطئت قدمه البلاد حتى أقبل على أقداس المصريين يقرب لها ويبدى فى رحابها من مظاهر الاحترام ما كان يبديه نحو أقداس الإغريق . ولا غرابة فى هذا ، فقد كانت آلهة مصر آلهة للإغريق فى ذلك الحين : كان الناس فى ولايات إليس وإسبرطة وأثينا يقدسون آمون ، وكانت ألوف منهم تخف إلى معبده فى سيوه تستشيره وتقرب له ، وكان هذا المعبد

ثالث ثلاثة هى أقدس ما عرفه الناس فى العهد القديم : معبد إيزيس فى دودونا ، ومعبد أبولو فى دلفى ، ومعبد آمون فى سيوه .

عبر الإسكندر بشمال مصر صديقاً كريماً ، وأزال حكم الفرس وخلف البلاد فى حكم مصريين خُلَّص ، أو أجانب متمصرين من أهل البلاد ، واختط الإسكندرية لتكون أخلد رمز لما انعقد آنذاك من ولاء بين الإغريق والمصريين . لم يكد أساسها يستقر حتى تعاون الفريقان على النهوض بها ، فلم تلبث أن أصبحت بعد قليل قطب رحى الدنيا وزينة العالمين ، اختلطت فى رحابها حضارة الأبد المصرى البعيد وحضارة الهيلينيين ، فكانت ثمرة ذلك الاختلاط هذه الإسكندرية الزاهرة التى انتهت إليها زعامة الدنيا فى العلم والعرفان قروناً بعد قرون !

وبارح الإسكندر مصر تحيط به هالة من جلال آمون ، وكان الإسكندر يعرف معنى هذا الشرف الذى خلعه عليه كهنة آمون ، فأمر بألا ترسم صورته بعد ذلك إلا مزينة بقربى الكبش المقدس رمز آمون ، وارتبط اسم الإسكندر من ذلك الحين بهذا الرمز المصرى حتى أصبح يعرف فى الروايات الشرقية باسم الإسكندر ذى القرنين .. دخل الإسكندر مصر إنساناً وخرج منها فرعوناً وابن إله ! فلم تلبث المدن الإغريقية أن رفعته إلى مصاف الآلهة ، وهكذا أضفت مصر على هذا الفاتح الشاب من جلالها مالم يهبه إياه بلد آخر ، وما نحسب الإسكندر إلا رعى للمصريين ذلك ، فقد ظل طول حياته صديقاً كريماً لهم ، لم ينل أحداً من أهل مصر بمكروه ، ولم يلق من جانب المصريين إلا كل ما يرضى ، وكان ذكر الإسكندرية أحبَّ الأشياء إلى نفسه ، حتى لقد زعموا أنه كان ينوى أن يعود إليها بعد الفراغ من غزوته الكبرى لكى يجعل منها عاصمته وعاصمة الدنيا .

وبارح الإسكندر مصر في مطالع سنة ٣٣١ قبل الميلاد ووجهته فارس ، ليلقى ملكها دارا فى موقعة فاصلة تختم هذا الصراع الأبدى الذى طال أمده بين الفرس والإغريق . وكانت قوات دارا قد انكسرت فى معركتين كبيرتين ، ولكنها كانت ما تزال قائمة ، وكانت فى استطاعة دارا أن يجند آلافاً من الجند من ولاياته الأسيوية ، وأن يجهزهم بخير العتاد من ثروة الإمبراطورية التى لا تنتهى . ولم يكن بقاء دارا يضير الإسكندر فى شىء ، ولكنه كان

يؤمن بأن العالم كله ينبغى أن يكون دولة واحدة ، وكان يعتقد أن أمر هذه الدولة لايصلح إلا به ، لأن نفسه لم تكن لتحفل بعصبية ، وكانت تجاربُه مع الإغريق قد زهدته فيهم ، بل بغضتهم إليه ، وكان خيرة رجاله وكبار جنده خليطاً من كل جنس ..

كان فيهم من آسيا الصغرى ، وفيهم من الشام ، وفيهم من مقدونيا ، ولم يكن تعلقه بالتراث الإغريقى إلا تعلقاً بحضارة الإغريق لا عصبية لجنسهم ، وإيماناً بأن عناصر هذه الحضارة كفيلة بتحقيق الوحدة الإنسانية المأمولة ، وكان احتكاكه بأهل الشرق وحضاراتهم مشجعاً له على المضى فى تحقيق هذا المطلب ، فقد رأى أنهم كالإغريق ناس ذوو حضارات وفلسفات ، ومن ثم تخلى عن كثير مما كان صغار الأحلام من الإغريق يوهمونه به من أن هناك جنساً شرقياً خاصاً وجنساً يونانياً متميزاً ... وأن اليونانى أرفع وأعظم .

ويقص الرواة أنه كان مرة على أسوار صور يوالى الحصار ويعجب من صلابة أهل هذا البلد الصغير ، فمر به راهب مصرى ، فسأله : ما تقول آلهتك فى هذا البلد .. ومتى سنفتحه ؟ فنظر الراهب إليه طويلاً ثم قال : « آلهتى تقول : يا إسكندر .. إن كنت تريد فتح هذا البلد لتخريبه وإيذاء أهله فلن تفتحه أبداً ! وإن كنت تريد خير أهله لفتح لك مصاريعه من نفسه ، فسل قلبك ! » فاستعبر القائد الفيلسوف الشاب وقال : « رحمك الله يا أرسطو ... لم تعرف هؤلاء الذين حططت من قدرهم كما عرفتهم أنا اليوم » .

التقى الإسكندر بجيوش دارا لآخر مرة عند « جاوْجَا ميلا » ، وكان دارا على ما يقال فى ألف ألف ، ولكن الإسكندر لم يضطرب لمرأى هذا الجحفل اللجب ، وجعل يدير المعركة فى حنكة وصبر ، حتى إذا أمكنته الفرصة كر بخيله فاقتلع دارا من مركزه ، وشاع الاضطراب فى صفوف الفرس وولى الهرب منهم من استطاع ، ومضى دارا لايكاد يلوى على شىء فتتبعه الإسكندر حتى إرْبِل ، ثم عاد فدخل بابل .. وفى أوائل سنة ٣٣٠ دخل عاصمتى فارس وهما مدينتا : سُوسا وبرسو بوليس (أى مدينة الفرس) .

وهكذا استقر له الأمر على عرش الأكاسرة ، فلم ينهب ولم يسلب ، وإنما تزوج ابنة كسرى واسمها ركسانا ، ونادى بقواده ورجاله وأمرهم بأن يتزوجوا من الفارسيات حتى يتم الاختلاط بين الشرق والغرب ، وحتى تختفى أوضار الشعوبية وسخائم العصبية ، فى رحاب الإنسانية الشاملة ! .

ثم عبر الدجلة وأفضى إلى هضاب إيران فاخترقها خفيفاً سريعاً فى جرأة لا تكاد توصف ، ويحدث الأدلاء الذين ساروا فى طلائعه بأنه كان يسير فى هذه المهامه المعطبة وكأنه قد قضى حياته كلها فى النواحى . وتلك كانت إحدى هباته الكبرى ، كان يحسن تصور الأرض ويحسن تقدير حركاته فى بطاحها ، ولو أن غيره كان مكانه لضل وانتهى أمره إلى بوار .

وانتهى إلى بلوخستان فهاله ما وجد فيها من إقفار ووحشة ، وأحب أن يفيض فيها بعض الأنس ، فأمر ببناء مدينة سميت « الإسكندرية » أيضاً ، فبدأ الأنس يعمر هذه الفلوات ، وابتدأت الحضارة تخطو فيها على مهل . ثم مضى حتى أشرف على البنجاب ونهر السند فعبره ، وأخذ يتقدم فى هذا السهل الفسيح الذى لم يصله من الغرب قبل ذلك أحد ، ونظر أصحاب الإسكندر إلى ورائهم فهالتهم الأباطح التى مضت بهم أقدامهم فى أطوائها، واستشعروا الخوف أن وجدوا أنفسهم فى آخر الدنيا ، وأنهم يمضون نحو آفاق مظلمة ربما تخاطفتهم فيها السباع والوحوش والناس ، ونظروا فإذا الهند عالم حافل يفيض بالناس ، وتقدم واحد منهم إلى القائد السعيد بما أوتيه من فتح ، وسأله : إلى أين ؟ فقال : إلى حيث لا يبقى إنسان ! فقال الرجل : فامض وحدك إذن ، إنما نحن ناسٌ لنا أهل يعطفنا نحوهم الحنين ! .. وأحس الإسكندر خيبة الأمل فى هؤلاء الرجال ، وأحب أن يعبر لهم عن خيبة رجائه ، فأمر أن يحفروا له قبراً ، ورقد فيه وقال : « أهيلوا التراب على أبيكم فقد مات » ! وريع القوم فخجلوا وجددوا له العهد على أن يسيروا معه إلى حيث يريد ..

وبرز له من أهل الهند ملك شديد يعرف لوطنه حقه اسمه بُورُوس ، وجمع جنوده وأبطاله وانتظر الإسكندر على الضفة اليمنى لنهر هِيدَاسْبِيبس فى قوة هائلة من الفيلة ، ونظر الإسكندر فإذا خيله لا تجرؤ على النظر إلى الفيلة ، وخشى إن هو عبر بها أن يدركها الخوف فتجمح وتنقلب بها السفن فى الماء ، واستشعر من بوروس ثباتاً للقائه وإصراراً على رده ، فلجأ إلى حيلة بارعة : جعل أصحاب النفير فى جيشه يطلقون النفير ، وأمر الجند أن يقبلوا ويتظاهروا بأنهم على وشك العبور ، فما أسرع ما استعد أهل الهند وتحفزوا ، فلما تم ذلك أمر الإسكندر جنده بالعودة إلى معسكرهم . وأخذ يكرر ذلك كل يوم حتى سئم الهنود الانتظار، وحسبوا أن الإسكندر يفعل ذلك كل يوم لأمر آخر غير العبور ، وجعلوا إذا

سمعوا النفير ورأوا جند العدو يقبلون إلى ضفة النهر لا يحفلون لهم ، ثقة منهم بأن الأمر واقف عند ذلك الحد ، شأنه كل يوم ..

حتى إذا كان اليوم الذى قدره الإسكندر للعبور فوجىء بوروس بالعدووقد عبر إليه واستقام معه على ضفة واحدة ، ثم دارت رحى المعركة وقد حار الإسكندر قبلها فيما عساه فاعلاً بفيلة الهند ، حتى هداه الفكر إلى حيلة بارعة ، أشار إليها ابن المقفع فى مقدمة كليلة ودمنة ، فذكر أن بوروس ساق إلى الإسكندر الجنود كأنها قطع الليل ، وأن الإسكندر هالته كثرتها وكثرة الفيلة فيها وداخله منها خوف بالغ ، فأمر أن تصنع له خيول من النحاس ، وأن تملأ أجوافها بالنفط والكبريت ، وأن توضع على عجل يجرى ، فإذا دافعت مرت سراعاً، ثم دفعت الخيل المتوهجة فى جيش الهنود ، فذعرت الفيلة وولت على وجوهها تنشر الرعب والفزع فى جيش بوروس نفسه ، وهكذا تم النصر للإسكندر العظيم ! .. ترى أيعصف الإسكندر بالبطل الهزيم ؟ لا .. إنه يرضى عنه كل الرضا ، ويستقبله أحسن استقبال ، ويرده إلى عرشه راضيًا مطمئناً .. ثم يغادره فى أمان !.

ويجمع الإسكندر قواده ويبلغهم أنه انتوى أن يمضى بهم إلى ما يلى ذلك من رحاب الأرض ، فيروعون ، ويرجونه أن يرأف بهم وألا يبعد بهم ، فقد شط المزار وبعدت الأوطان وطالت الغيبة ، وحاول أن يقنعهم فأبوا أن يقتنعوا ، فأجابهم إلى ما يطلبون ، وبعث من يكشف له الطريق إلى خليج فارس ، ثم استعد للرجوع .

وأقلعت به السفن من شاطىء الهند إلى خليج فارس ، ومن ثم صعد إلى بابل وأخذ يستعد لغزو الغرب كما غزا الشرق ، وأمر جنده باتخاذ الأهبة بذلك .

ولكن المنية لم تمهله : أحس فى أوائل يونيو سنة ٣٢٣ بتعب مفاجىء ، فلم يمنح نفسه حقها من الراحة ، وقضى ليلة ساهرة مع كبار قواده ، وساءت حاله مع الغد ، وثقلت الحمى عليه ، وكان أولى به أن يستريح ، ولكنه قضى اليوم يدبر أمر الحملة مع قواده ، ثم أحس بعض التحسن مع الليل ، فمضى مع رفاقه يسمر ويتسلى ، فأصبحت حاله مع الغد لا تسمح له بالجلوس ، وأخذت الحمى تعلو ، وأخذ الموت يدنو ، حتى إذا أهل السابع والعشرون من الشهر ، أدرك كل من حوله أنه يودع الحياة ، واجتمع قواده من حوله يسألونه

فى لهفة : « اكتب لنا كتاباً .. قل .. لمن تخلف ملكك العريض ؟ » ... فابتسم العبقرى الذاهب ونظر إليهم نظرة ساخرة وقال : « كراتِستُو ! » أى « للأقوى » ! .. وكانت آخر ما قال ، وكانت حكمة لا تصدر إلا عن الإسكندر ، إذ ما الفائدة فى التقسيم والتحديد وهو يعرف أنهم محتربون بعده على تراثه ، وأن وارث الملك هو أقواهم أراد الإسكندر أم لم يرد ، كتب الإسكندر أم لم يكتب !

* * *

وبعدُ ، فهذا رجل جمع الله عليه مجد الدنيا والآخرة ، وشرفه بالذكر فى كتابه الحكيم ، ورضى عنه المؤرخون فجعلوا له بين الأبطال مكاناً ممتازاً ، وبدأوا بحياته عصراً متميزاً من أعصر الحضارة الإنسانية ، استطال حتى بلغ قروناً ثلاثة ، وسمى العصر الهيلينيستى أى الشبيه بالهيلينى . وامتاز هذا العصر بحضارة خاصة لا هى شرقية خالصة ولا غربية خالصة ، وإنما هى بَيْنَ بينَ ، فيها من هذا ومن ذاك ، وفيها هذه الفكرة الإنسانية الجليلة التى رسمها هذا الفتى : وهى أن الشرق والغرب ينبغى أن يجتمعا إلى لواء واحد وأن تسودهما حضارة واحدة ، وأن يعيش أهلهما إخوة ، لا عصبية ولا كراهية ، لا يخالف أحد أحداً فى وطن ، ولا يدابر أحد أحداً فى جِنس ، كلنا لآدم وآدم من تراب .

واليوم يجتمع الناس ، وينفضون ، وتعقد المؤتمرات وتحل ، وتعقد المعاهدات وتمزق ، ولايكاد الناس يتصالحون عاماً واحداً ، ولا يكاد الغربى ينسى عداوته للشرقى ، ولا الشرقى ينسى ثأره عند الغربى لحظة واحدة .

أليس عبقرياً هذا البطل الذى استطاع ـ وهو دون الثانية والثلاثين ـ أن يعقد بين الغرب والشرق صلحاً دام ثلاثة قرون ؟ ! .

فاتح الهند

بطليموس الثالث « يورجيتيس »

تستطيع أن تراه رأى العين ، وتستطيع أن تملأ عينيك من هيبته ، وتشبع نفسك من فتنة الرجولة فى وجه ذلك الملك الشاب ، فها هو ذا تمثاله يقوم فى متحف الإسكندرية فى قاعته الفسيحة ، ينتظر أبناءه ليستفسرهم عن حالهم وليطمئن على ما فعلوا بملكه الشاسع العريض ! ولكنّ أبناءه المصريين لا يقبلون ولا يذكرون .. إنما يقبل على البطل المتأبد فى عزلته جماعة من العلماء المنصرفين إلى استقصاء أخبار العصر البطلمى المجيد ، فهؤلاء يعرفون لهذا العاهل المصرى الشاب فضلاً لا يكادون يعرفونه لغيره من عواهل ماضينا المجيد الطويل ، إنهم ليطوفون به ويعجبون بقسامته ويذكرون أيامه بالخير ، ويقرأون فى أساريره سر هذا الفتح العزيز الذى قام به ، ويطلقون خيالهم يتنقل فى أطراف هذا العالم الشاسع الـذى دان لهذا الفتى المصرى من طرابلس إلى حدود الهند كوش !

هذه شهادة قوم لا يكذبون ، شهادة الصادقين من أحبار مصر ورهبانها ومؤرخيها ، بل شهادات مؤرخى اليونان خصوم مصر فى هذا العهد القديم ، ولم يكن هؤلاء لينصفوا مصر بكلمة إلا وهم يعرفون أنها الحق لا تُجدى المماراة فيه ، أثبتها هؤلاء جميعاً بالهيروغليفية واليونانية والديموتيقية على حجر كانوب ، وسجلوا فيها للبطل الشاب هذا الفتح المبارك ، وشكروه على أن ردَّ لمصر ما أخذ منها من زينة المعابد وطُرف الصوامع ، ورفعوه إلى مقام الفراعنة الأول ، وهاهى ذى آلهة مصر ترضى عنه فتفسح لـه فى جوانبها مكاناً ، وتلقبه بالفرعون المحسن (يورجيتيس) .

نادى الناس به ملكاً على مصر وهو يخطو بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ، وكان رجال القصر لا يحسدونه على هذه النعمة الوافرة ، فقد كان العرش محاطاً بالمصاعب التى لايتغلب عليها إلا الجَلِد الأيِّد ، فهذا دم أخته يجرى فى بلاط أنطاكية إذ اغتالتها لاوديكى

زوج الملك على يد بعض رجالها ، وهـذا سلطان مصر يضطرب فى قيريـن (طرابلس) ولا يدرى إلا الله هل ستعود إلى حكم مصر أو تنفصل عنها ويستقل بها الثائرون فيها .

كانت تلك أياماً حافلة بالاضطراب والمخاوف : دويلات لاعداد لها تضطرب وتتصادم فى رقعة الأرض المحصورة بين قلب فارس ومجرى الدانوب ، وفى كل دويلة عدد من المغامرين يصطرعون على العرش والسلطان اصطراعاً رهيباً ، ومن خلف كل مغامر طائفة من الجند المحترف تشد أزره وتقف وراءه ولا تزال تدفعه من حرب إلى حرب ومن مؤامرة إلى مؤامرة ، حتى تصبح حياته سلسلة لا تنتهى من الحروب والمؤامرات ، فلا تزال وأنت تقرأ أخبار العصر تتردد فى سمعك أخبار المجازر المروعة والمصارع المفزعة ، كأن قلوب أهل ذلك العصر قد قدت من صخر فلم تعد تحفل للدم الجارى أو للشر السارى ، بل أصبحت هذه الأخبار تسلية أهل العصر ونُقْلَ السمار المترفين يتفكهون بها وهم بين كاس وطاس ، ويتندرون بها إذا مَسَّت جنوبهم الأرائك فى ساعات الأنس والصفاء .

وكانت الأحوال كلها تنبىء بشر محيق حينما اعتلى هذا الفتى عرش البطالمة ، كان بطليموس الثانى (فيلادلفوس) قد بلغ بالإمبراطورية المصرية حَدًّا من السعة يكاد يستعصى معه إقرارُ السلام فى أرجائها وحفظها من الطامعين ، كان قد وطد أركان الإمبراطورية فى بحر إيجه ، ونشر سلطان مصر على الجزائر والشواطىء والدول المبعثرة فى هذا البحر المختلط الذى كاد أن يكون محيطاً لكثرة ما ازدحم على شواطئه وفى جزائره من الدول والناس ، وكان قد ثبت سلطانه فى الشام وفلسطين وشرق الأردن ، وقبض على ساحل فينيقيا بيد من حديد ، وكان قد مكّن للتجارة المصرية فى أنحاء العالم المعروف وقتذاك ، فمضت سفننا عبر البحر الأحمر إلى شرق إفريقية ، وعبرَ بحر الهند إلى خليج فارس وما بعده ، وأما البحر الأبيض فقد كان بحيرة مصرية تذرعه سفائننا آمنة إلى حيث تريد . وكانت زوجته « أرْسينُوِى » الثانية واسعة المطامع بعيدة النظر ، فما زالت تربط بين أفراد بيتها وبيوت الملوك فى عصرها حتى أصبح بيت البطالمة فى الإسكندرية مركز سياسة الدنيا ومطمح الأنفس ، وحتى غدت مصر عند وفاة بطليموس الثانى ميزان العالم وقلبه الخافق .

ولم يكن ذلك خيراً خالصاً ، فإن تشعب أمور الإمبراطورية المصرية واختلاط روابطها قد أثقل كواهل القائمين بشئونها وجعلهم لا يكادون يفرغون من المشاكل والمتاعب ، وكانت البلاد مجهدة من أثر الجهد الذى بذلته أيام البطلمين الأولين ، وكانت أحوج ماتكون إلى فترة من الراحة والهدوء . وما كانت البلاد لتجنبى شيئاً غير المتاعب من مصاهرات قلقة يراد من ورائها بسط السلطان وتأثيل الملك ..

ومن أمثلة ذلك أن أرْسِينُوِى كانت قد طمحت إلى السلطان على أنطاكية ، فاقترحت على زوجها فيلادلفوس أن ينظر فى زواج ملكها من إحدى أميرات البيت البطلمى . وكانت أرْسِينُوِى تعرف أن أنطيوخوس متزوج ، وأن امرأته أميرة مخوفة الجانب لا تسكت عن عدوان يذهب بمقامها وبحق ابنها فى العرش ، ولكنها لم تحفل . ومضى فيلادلفوس ـ بما عرف عنه من الوداعة والموافقة لزوجته العزيزة عليه ـ يمهد الطريق لذلك ، واستطاع بعد مفاوضات طويلة أن يقنع أنطيوخوس بالتخلى عن زوجته لاوديكى والزواج بالأميرة المصرية برنيكى ابنة فيلادلفوس من زوجته الأولى ، وعرض عليه نظير ذلك صداقاً فاحشاً هو دخل فلسطين كله . فلم يكد الملك الطامح يسمع بذلك حتى تنكر لزوجته وأبعدها وحرم أولادها من العرش ، وجعله مقصوراً على ولد الأميرة المصرية . ووصلت الأميرة فى صحبة وزير مالية أبيها أبولونيوس ، واستقرت فى جو مضطرب كل مافيه ينذر بالمخاوف .

وامتدت مطامع أرسينوى إلى الناحية الأخرى ـ ناحية برقة ـ فجعلت تمهد الطريق لزواج وريثة عرشها برنيكى من وريث عرش البطالمة يورجيتيس ؛ وتمت الخطبة فعلاً واطمأنت أرسينوى إلى أن ابنها سيرث برقة ضمن مايرث . وإنها لفى ذلك إذ روعها نبأ مفاجىء : ذلك أن إبامَا ـ زوج ملك برقة ـ استدعت أميراً مقدونياً بارع الحسن يسمى ديمتريوس وزوجته من ابنتها لتحبط مساعى غريمتها أرسينوى ، ولكن ظنونها كذبتها ، لأن الأمير الجميل لم يكد يستقر فى برقة حتى شغفها هى حباً ، واتصلت العلائق بينه وبينها على نحو أثار الأميرة الصغيرة ، ومازالت الغيرة تأكل قلبها حتى دبَّرت لأمها وصاحبها مقتلة هزت أفئدة العصر وأصبحت حديث الناس : أغلقت عليهما الحمام وحرقتهما بالماء الغالى حرقاً ، ثم مدت يدها إلى أرسينوى تستعيد خطيبها القديم يورجيتيس ، وتقرر هذا وانعقدت

الأواصر بين أميرة يجرى دم أمها على قدميها وأمير طيب لا يدرى إلى أين يُسار به .

وهكذا تعقدت الأحوال وتواترت المشاكل على نحو جعل سياسة الأمور حملاً لا يكاد ينهض به إلا الفحل الشديد ، ومضت أرسينوى وزوجها إلى بارئهما مخلفين ذنب الضب هذا ليورجيتيس ، يحله كما يشاء .

وكان الناس يتوقعون أن يتخلى يورجيتيس عن ذلك كله ، لأنهم عرفوه شاباً هادىء الطبع سهل الخلق ، وكانوا يرون أنه منصرف عن تعقيد الأمور على هذا النحو النابغ الذى كلفت به أمه أرسينوى ، وأين له الوقت ليصفى حسابه مع أنطاكية وأصحابها ، ومع مقدونية ورجالها ، ومع دويلات آسية الصغرى وجزائر الأرخبيل ؟ إن الأمر ليحتاج إلى هيئة من الرسل والسفراء والمتآمرين يجعلون همهم السهر والتدبير ، وإن الأمر ليحتاج كذلك إلى مال وافر تملأ به الأكف هنا وتقفل به الأعين هناك ، وبغير هذا لن يستقيم الأمر أبداً ، ويظل التعقيد يفضى إلى تعقيد ، والاضطراب يؤدى إلى اضطراب .

ولكن يورجيتيس كان يطوى فى نفسه نفساً أخرى لم يطلع عليها ممن حوله أحداً . كان يعرف أن العقدة إذا استعصى حلها وتداخلت خيوطها لم يبق لها من حل إلا قطعها جملة ، وأن عقد السياسة لا يحلها إلا سيف بتار فى حده الفصل بين الجد والهزل . وكان ـ كالإسكندر ـ امرأ سيف لا هيابة يؤثر التدبير الخفى الذليل على ضربة تهز النفس وتعصف الجبان وتبدد المخاوف ، وكان ـ كتحوتمس الثالث ـ مصرياً عزيزاً ، وكانت قد تواترت على سمعه أنباء نقلها رهبان مصر وقساوستها عن سرقة تحف المعابد المصرية ونقلها إلى آسيا : سرقها غزاة الفرس وحملوها معهم إلى بلاطهم فى بلاد الرافدين ، فما سمع بطليموس ذلك حتى استقر رأيه على غزوة فريدة تمضى بجند مصر فى آثار الإسكندر يكسر بها حدة الطاغى ، ويعلم الناس بها أن فرعون مازال فرعوناً ، وأن جند مصر مازالوا على الأهبة إذا اضطرب الأمر وادلهمت المشكلات ، ولم يطل أوان التمهيد والاستعداد ، فما هو إلا قليل حتى استقام جيش مصر واستعد ليعيد على سمع الدنيا سيرة تحوتمس ورمسيس .

* * *

فصل يورجيتيس عن مصر ، ودخل فلسطين ، وتقدم فى بلاد الشام حتى اقترب من

أنطاكية ، فاكتسحها اكتساحاً ، وبهذا انتقم لأخته وأدّب الأغرار من أنصار أنطيوخوس وردهم إلى الصواب بعد أن قضوا العمر يشدون حبال المؤامرات ويرخونها ، يقامرون بالمال مرة وبالعرش أخرى ، ويحيلون الحياة بهذا العبث إلى فوضى لا مخرج منها ، ضرب يورجيتيس ضربته ليعلم الناس أى ملك ملكُ مصر ! ثم بارح الشام وأفضى إلى العراق فأقر به سلطان مصر . وأسرع إليه ملوكه وأمراؤه يبسطون له الطاعة ويجددون له العهد الذى كانوا أعطوه لتحوتمس الثالث ملك مصر ، حين وصل « نينوى » على ضفاف دجلة وضرب معسكره خارجها . وهناك تلقى يورجيتيس طاعة فارس وأهلها ، ولم يقنع بالوقوف عند حدود العراق ، بل خطا إلى فارس بلاد الأكاسرة وعرين الأسود ، غير راهب ما تناقله الناس عن قوة الفرس وشدة ملوكهم ، وقاد جنود مصر ومضى يذرع هضبة إيران لا يخشى غضبة أهريمان ولا بطشة مازدا ، حتى إذا فرغ من فارس أوغل فى قفار باكتريا (بلوخستان) ثم أشرف على السند واكتسحه ، وأدرك جبال الهندوكوش .. وفى ظلها جلس يستريح ! ..

هنالك أصبح جنود مصر سادة فى بلاد السند ، وجعلوا يرسلون الطَّرف فى هذه البلاد التى بلغ الإسكندر مبلغ الآلهة بفتحها ، وجعلوا يفكرون فى هذا العالم الغفير الذى دان لسلطان مصر ، ويتصورون هذه البوادى الشاسعات التى عبروها مع قائدهم العظيم ، وأخذ يورجيتيس يفكر فى تنظيم هذا الملك المترامى ، وجمع حوله القادة المصريين يسائلهم رأيهم ويطلب معونتهم ، إذ كان يعرف فيهم رأياً طيباً ونظراً صائباً .

وترامى إلى سمعه أن أهل برقة (طرابلس) بدأوا ينشقون على ملك مصر ، وأن بعضهم طمع فى الاستقلال . وبرقة على حدود مصر • من وثب بها هدد الإسكندرية وأرض النيل ، وكان يورجيتيس يعلم أن أهل برقة لا يشقون عصا الطاعة على مصر بنازع من نفوسهم وإنما بدافع من عدو فى مقدونيا أو غير مقدونيا ، وكان يعلم أن هؤلاء الحاقدين لن يهدأ لهم جنب حتى يشفوا غلاً تأصل فى نفوسهم من مصر ومجدها ، وخشى إن هو أقام ينظم هذا الملك البعيد أن يفجأه العدو القريب ، وأحس أن هذه الغزوة قد كسرت شوكة الباغى وأعادت اسم مصر إلى مكانه من العزة والرفعة ، وألا ضير عليه أن يعود أدراجه كما عاد الإسكندر سيد الأبطال بعد أن أوغل بجنده فى هذه القفار . وأسرع رجال الهند يخطبون وده

ويؤكدون له أنهم مقيمون منذ الساعة على الولاء لبلد الفراعنة ، وعاهدوه على أن يرسلوا إلى بلاطه السفراء يكونون بجانبه ضماناً للطاعة وعنواناً على الولاء .

وقرت عينه بما رأت طوال هذه الغزوة من عزة اسم مصر وبطليموسها ، وأشار عليه قواده ونصحاؤه بالعودة ، فقد بلغ وبلغوا من العزة ما أراد وما أرادوا ، فأذن لجنده فى الاستعداد للرحيل . ومضى الجيش المنتصر بعد حين نحو أرض الوطن العزيز يحدوه الظفر والتوفيق ، وكر بجمعه يقطع الطريق إلى مصر ، وكلما نزلوا بلداً أمر بما كان قد سرق من كنوز مصر فى غزوات آشور وفارس أن يُرَد إليها ، ومضى بطليموس فى طريقه حتى دخل مصر فاستقبله أهلها وكهنتها أحفل استقبال .

ولم يكد مقام الملك يستقر حتى نادى جنده وقواده وأمرهم بالتأهب للسير معه إلى برقة وطرابلس ، فأخمد ثورتها وعاد عزيزاً منصوراً .

هنالك بلغ إعجاب المصريين بهذا الملك مبلغاً عظيماً ، وتردد حمده على ألسنتهم ، واجتمع الكهنة والأحبار وقر رأيهم على أن يكتبوا للملك وثيقة يسجلون له فيها فتوحه أسوة بالفراعنة الأولين .

فلما عقد كهنة مصر وأحبارها مجمعهم الدينى فى مارس من سنة ٢٣٧ قبل الميلاد عقب عودة يورجيتيس من هذه الغزوة البارعة ، سجلوا شكرهم له فى وثيقة باقية على الدهر تعرف بوثيقة كانوب ، قالوا فيها :

« إن الملك بطليموس بن بطليموس الثانى فيلادلفوس ، وأرسينوى (الإلهين الأخوين) وبرنيكى أخته وزوجته (الإلهين الخيرين) يجزلون دائماً للمعابد الوطنية نعماً كثيرة عظيمة ، ويزيدون مظاهر الإجلال للآلهة ، ولا يدخرون وسعاً فى العناية بآبيس ومنفيس وغيرهما من الحيوانات المقدسة المشهورة مهما كلفهم ذلك من النفقات ، وتعيين الكهنة اللائقين . وإن الملك ـ بعد قيامه بحملة فى الخارج ـ أعاد إلى مصر التماثيل المقدسة التى كان الفرس قد أخذوها منها .. » ثم تمضى الوثيقة فى سرد الأعمال الطيبة التى قام بها الملك نحو رعاياه ، من أنه نشر السلام فى البلاد ودافع عنها ضد أعدائها ، وأقام فيها حكومة رشيدة . وعندما قل منسوب الفيضان عن مستواه العادى ولم يسد الماء حاجات البلاد ، نزل الملك والملكة

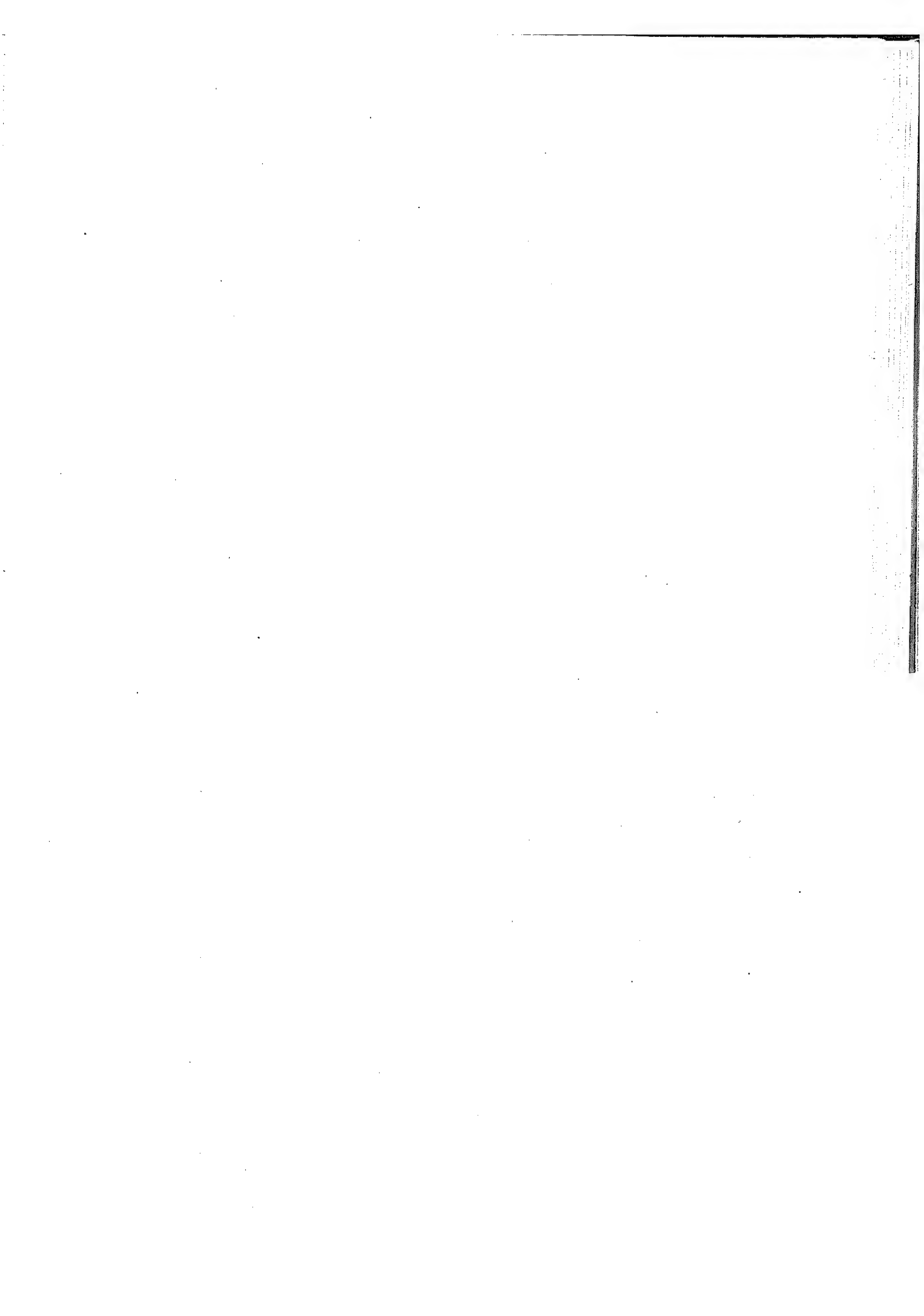
عن جانب غير قليل من دخلها لإنقاذ حياة الكهنة والأهالى ، وأحضر القمح من سوريا وفينيقيا وقبرص وغيرها من البلاد ، وإزاء كل هذه الخدمات قرر الكهنة أن تزاد مظاهر الإجلال التى تقدم للملك والملكة وأبويهما وجديهما ، وأن يحمل الكهنة فى كل المعابد لقب « كهنة الإلهين الخيرين » ، إلى جانب ألقابهم الأخرى [١] .

واستمر يورجيتيس يحكم مصر ستاً وعشرين سنة لم تخمد له خلالها فى الفتح همة ، ولم يقعد به عن الغزو سبب ، وكان أسطوله لا يكف عن التجوال بشواطىء البحر الأبيض غازياً فاتحاً ؛ وكانت مصر تملك أيامها قبرص والشام وأجزاء من آسيا الصغرى ونواحى كثيرة فى بلاد اليونان ، عدا طرابلس وإثيوبيا ، وكانت مصر مدار سياسة العالم وصاحبة الكلمة المسموعة فيه ، إذ كانت أقوى بلاد الله جنداً وأعزها نفراً وأرقاها شعباً وأوسعها علماً. كانت الإسكندرية مركزاً من مراكز العلم التى يفد إليها الطلاب والأساتذة من كل حدب وصوب ، ولعل القارىء يعلم أن إراتسثنيز العالم الرياضى الذى قاس حجم الأرض كان ضمن المستقبلين حين عاد يورجيتيس من حملته على آسيا ، ولعله يعلم كذلك أن مصر كان لها سفراء فى روما الناشئة وقرطاجنة الغنية القوية وبلاد العرب والهند نفسها، فقد روى المؤرخون أن بطليموس الثانى أرسل ديونيزيوس ليسفر له فى بلاط الهند ، وأن هذا السفير صنف كتاباً عن هذه البلاد .

وكانت فى الإسكندرية منارة يستضىء بنورها الغادى والرائح فى البحر الأبيض المتوسط. ولم يكن هذا بالأمر الذى يستكثر على دولة البطالمة ، إذ لم يكن أحد يشك فى أن مصر أرفع بلاد الله ذكراً ، وأعلاها شأناً . وأن أرضها مهبط الحكمة وشاطئها شاطىء النور والعرفان.

---

(١) عن النص الوارد فى كتاب « تاريخ مصر فى عصر البطالمة » للدكتور إبراهيم نصحى ، جـ١ ص ١٩٦ .



يوم من أيام مصر الخالدة

واقعة رفح

وكم لمصر من أيام بيض ! وكم لها من معارك حاسمة ! وكم للمصرى من فخر من ميادين الحروب ، وكم كان له من نصر فى فترات اشتدت فيها الخطوب وتواترت فيها الأهوال ! وهل مصر إلا بين حجرى الرحى ؟ ما عبس القدر لأهل الأرض إلا امتُحن أهل مصر امتحاناً عظيماً ، وما اشتدت الخطوب يوماً إلا اجتمعت على مصر منها شراذم وجموع ! وهل خُلق بطل أو بعث نبى إلا مرَّ بنا وحيانا ، أو أرسل إلينا من لدنه من يدعونا إليه ويحاول كسبنا إلى صفه ؟ وهل قامت حرب إلا رمينا بسهمنا فيها ؟ وهل عصفت ريح أو ثارت سموم إلا طاف بمصر منها طائف وعصف بأرضها من شرها عاصف ؟ .

نعم .. ولم نتخلف للحياة فى يوم ظنًّا ، ولم نخش أحداثها ، ولم نخرج من ميدانها ونتفرق بدداً كما خرجت قبلنا أمم ، وكما تفرقت بعدنا شعوب لايعلم إلا الله مثواها . وربما كـان هذا سبب كل بلوانا ، فقد وُلدنا فى فجر الحياة واستيقظنا والأمم بعد فى ضمير الغيب ، ودرجنا نتحسس طريقنا إلى الحياة ونقود الأمم من خلفنا ، وتخير لنا القدر هذا الركن الخطير بين أرجاء الدنيا ، فلم يكد ساعدنا يشتد ، ولم نكد نهيىء لأنفسنا وطنا زاهراً منظماً حتى تطلعت العيون إلينا وثارت فى النفوس عوامل الحسد ، وناشتها دواعى الطمع ، فكان علينا أن نذود العدا ، ونرد الحاسدين ، ونؤدب الطامعين .

وانقضت علينا فى ذلك عشرات من القرون : نشأ أهل الشرق القديم عيالاً علينا يحاولون اللحاق بنا ، فإذا أعيتهم الملاحقة لجأوا إلى العداوة ، فما زلنا ننافحهم فى جبال الشام تارة وفى سهول بلادنا تارة أخرى حتى أطاعوا وسكنوا ومضوا فى ركبنا . ثم أقبل اليونان ، واشتدت سواعدهم ، فما راعهم إلا ذكر مصر على كل لسان ، فملكتهم الغيرة ـ

واليونانى القديم غيور ـ واحتدم الصراع بيننا وبينهم ، صراع فى الميادين وصراع فى عالم الفكر والآداب ، وما من مفكر إغريقى إلا كان له الغمز المستور أو الهجوم الصريح بغية الكيد لبلدنا .

وكان من سوء الطالع أن كتاباتهم انتهت إلى الأجيال التالية من بنى الدنيا ، فعبرت مثالبهم لمصر الأجيال ، وحسبها الناس بعد ذلك حقائق ، وما هى إلا بدوات المنافس الكاشح . وانضافت إلى ذلك كتابات بنى إسرائيل فى مصر ، وكلها ذم وهجوم . ولما انقضت قرون ، واختفت لغتنا القديمة ، وغابت معالم مجدنا تحت ركام السنين ، لم يبق لدى الناس غير ذلك الوصف المشوه يتناقلونه عنا ، حتى خفى على الناس فضلنا وغابت عن الذكر معالم مجدنا .

وجاءت أعصر الإسلام فنسيت مصر نفسها ، وانصرفت إلى الدين الجديد وما يتصل به من ثقافة ، تتفهمها وتنشىء لنفسها منهما كياناً جديداً ، فضاع مابقى من معالم شخصيتها القديمة ، وحسبها العرب ومؤرخوهم أمة عاطلة عن كل مجد تالد ، وتعمد هؤلاء المؤرخون إهمالها وانصراف عن ذكر محاسنها وأفضالها ، فغدوتَ تقرأ الواحد منهم لا تكاد تجد فى صفحاته اعترافاً بفضل أو تقديراً لجهد ، بل لو أن أحدهم اكتشف لمصرى فضلاً لأغمض عنه عينه واستطرد إلى كلام آخر ، بل حرص بعضهم على أن يذكر المثالب ، حتى غدوت إذا سألت قارىء العربية عن مصر لا تكاد تجد على لسانه إلا أبياتاً للمتنبى وغمزات لابن خلدون وخرافات للمسعودى ومبالغات لعبد اللطيف البغدادى .

ولم يتبين للناس فضلنا إلا منذ حين ، حينما انجاب الركام عن العز الدفين وتحدثت النصوص عن المجد المؤثل ، ومضينا نناقش الإغريق ، وندقق فى كتابات بن إسرائيل ، وننقب فى كتابات العرب ، حتى تكشفت لنا آلاء من الفضل تعفينا على الأقل من أذى المتنبى وتفلسف ابن خلدون .

وقد يسلم لك البعض بأن لنا فى الحضارة أثراً ، أما فى الحروب فقلَّ بين الناس من يعرف أن مصر كانت فى فترات طويلة من تاريخها المديد أمةَ حرب ونصر وكفاح ، وأن لنا فى الأيام الغرر الخوالد ، ولنا فى أطوائها السبقات الزهر الأوابد ؛ وهل ينسى الزمان «مجدّو»

و « قادش » و « رفح » و « حطين » ؟ . وهل تعفى الأيام على المنصورة وعين جالوت وحمص وقونية ونصيبين ؟ . فهذا حسبنا فى العصور القديمة والمتوسطة والحديثة ، ولا حاجة لنا إلى فضل من فخر ننقب عنه فى بطون الكتب ، ولا تعوزنا البينة على بقية من مجد مستتر فى أطواء الروايات .

ومَن من الناس يكابر فى عظمة انتصار حطين ، حيث رددنا فيه على العالم الإسلامى اعتباره واستعدنا له بيت المقدس وكسرنا حدة الصليبيين بعد أن كادوا يأتون على الشرق ومافيه ؟ وهل هناك من يتردد فى تقدير مواقع حمص وعين جالوت : أنقذنا فيهما الدنيا من المغول بعد أن كادوا يغرقونها فى طوفان من الخراب والدمار ؟ وهل من يكابر فى أننا نهضنا أول من نهض من أبناء هذا الشرق الإسلامى نريد تحريره من ربقة الأتراك القدماء ، ونادينا أول من نادى بإنشاء دولة واحدة للعروبة وأهلها ، وخضنا المعارك فى سبيل ذلك ؟ . فهل يشك بعد ذلك أحد من الناس فى أننا أبناء حروب ورجال كفاح ؟ ما دعا الداعى إلا لبينا ، وما أتيحت لنا الفرصة إلا انتضينا السلاح وأقدمنا .

وعسى من يقول : لم تقوموا بهذا كله وحدكم ، إنما قادكم فى كل مرة قادة أجانب ، ولولاهم ما كسبتم معركة ولا خضتم ميداناً ، وهؤلاء قادة على مصر وأهلها ! .. والجواب على ذلك يسير جداً : إن القومية أمر حديث فى تاريخ الإنسانية ، أمر جد منذ قرابة القرن، وكان الناس قبل ذلك لا يفرقون بين مصرى وغير مصرى . فلم يأنف الإنجليز مثلاً أن يحكمهم غزاة من فرنسا يتكلمون الفرنسية ويعيشون فرنسيين سنوات طوالاً ، ولم يبالوا أن يتربع على عرشهم ملوك من أصل هولندى ، ولم يتحرج الفرنسيون من قيادة نابليون لهم وهو إيطالى الأصل ، ولم يتنصل الألمان من بيتهوفن وهو هولندى الأصل ، أو من فون مولتكه وهو دانيمركى ، وهكذا .. إنما كانت العبرة بالبلد الذى نشأ فيه البطل وباسمه كسب النصر أو أدرك المجد ، ولو أن صلاح الدين أقام فى غير مصر لما أصبح صلاح الدين ولما تهيأ للتاريخ نصر حطين .

ثم أعود فأقول إن هذه الانتصارات الظاهرة ليست هى كل مجد تاريخنا ، فما خفى كان أعظم ! وما يكاد الإنسان يمتحن الحوادث ويستجلى المستور حتى تتكشف له آيات من

قدرة هذا الشعب وحسن استعداده للنهوض بالمجد وما يتطلبه المجد من تضحيات ومطالب .

ولكن المكابرين يكابرون ! فدونهم حديث نصر رفح ، فهو يكفينا مؤونة البرهان ويغنينا عن طول التبيان ، ولسنا مزيدين عليه حرفاً ، وإنما سننقل لهم أحاديث الرواة والمؤرخين ، وهى على بساطتها كفيلة بأن تكشف عن كثير [1] .

* * *

انقضت أيام البطالمة الثلاثة الأولى ، ومضت انتصاراتهم مع أمس الدابر ، وأقبلت على مصر أيام من الخمول والإنحدار يقترن ذكرها بحكم بطليموس الرابع المعروف بفيلوباتر أى محب أبيه ، وكان فتى متبطلاً رقيقاً مسرفاً فى الترف ، لم تهبه المقادير من سمات الملك ما يستطيع به أن ينهض بأعباء دولة فى سعة مصر البطلمية ، ولم يهبه الله من الملكات ما يعينه على النهوض بما كانت تفرضه الظروف على عواتق الجالس على عرشها من مطالب ، وكان قد ترك قياد الأمور إلى نفر من شر من يبتلى بهم شاب فى مطالع رجولته ، على رأسهم ثعلب مستهتر يسمى أجاثوكليس وأخته العابثة أجاثوكليا وأمهما أوينانتى ، ولم تكن خيراً من بنتها فلم تلبث آمال المصريين والإغريق أن خابت فيه ، وكانوا يرجون منه الكثير فى حياة أبيه ، فقد أخذ العلم عن الرياضى الأشهر إراتستنيز ، وتأدب على يد الفيلسوف الرواقى سفايروس ، وكان حرياً أن يقود الدولة بعقل الرياضى وقلب الفيلسوف ، ولكنه مضى ينفق الوقت فى إنشاء خمريات وقصص عابث ، فلم يعد للناس بعد ذلك فيه رجاء ، ولم يكلف نفسه عناء حرب ولم يحملها أعباء سياسة ، وإنما استنام لبطانة السوء هذه ، وصار القصر كما يقول الأستاذ بيفان : « مباءة للرذيلة ومجمعاً للداعرين والمترفين والمفسدين » ، وأسلم الملك قياده لهؤلاء ، حتى نفر منه المخلصون وباعدوا بينهم وبينه ، وأنكره أساتذته ومؤدبوه : فهذا فيلسوف العصر وعالم المصر إراتستثين معلمه الذى اهتدى إلى كروية الأرض وقاس حجمها قبل الميلاد بأكثر من مائتى سنة، هذا هو يتباعد عن الملك اللاهى

---

(1) كان لابد من هذا التقديم المطول بعض الشىء حتى تتضح أهمية هذه المعركة وأمثالها فى تاريخ مصر ، وقد جرت عادة المؤرخين بأن يمروا عليها مراً سريعاً غير منبهين إلى أهميتها فى تاريخنا القومى .

لا يريد أن يبتذل نفسه معه ، وكان الملك لا يذكره إلا ركبه بالسخرية وأباح مقامه للسفلة والأوغاد يسخرون منه كما يشاءون.

وهذا حاكم الشام الأمين نيكولاوس يرقب أنطيوخوس الثالث ملك مقدونيا ويتخوف من أطماعه على أملاك مصر فى الشام ، ويستنجد بفيلوباتر وبوزيره سوسيبيوس فلا ينجده منهما أحد ، ويرى بعينيه خيانة زميله ثيودوتوس وتسليمه صور وعكا وأربعين سفينة حربية لعدو مصر الطامع فى أرضها وخيرها ، ويتوقع لنفسه مثل هذا المصير ، ويرجو أن يتداركه أصحاب الأمر فى الإسكندرية بالعون ، ولكن أين من يسمع وأين من يجيب ؟ إن الملك ووزيره فى شغل بأشعار ينظمانها فى أودنيس وأنخاب يشربانها فى معابد ديونيزوس ..

إنه ليشقى بهذا البلاء شقاء عظيما ، ويبذل قصاراه لإصلاحه بما عنده من الجند القليلين فلا يوفق إلى شىء ، ويفطن أنطيوخوس وقواده إلى ذلك فيسرعون الخطى ويتقدمون فى أراضى مصر فى الشام حثيثاً ، وتنحدر جيوشهم فتطرق أبواب فلسطين وهى حد مصر فى ذلك الزمان . ويستنجد القائد ويلح فى طلب النجدة ، فلا يصله شىء . ويكتب إليه سوسيبيوس أن يشيع أن جيش مصر واقف على الأهبة عند بلوزيون ، وأنه جيش عظيم مستعد للقاء كل عدو ، وتنفع الشائعة فى إيقاف العدو فترة من الزمان ، أخذ بعدها فى التقدم من جديد ، فأرسل نيكولاوس يستنجد مرة أخرى ، ويعلن أنه لن يستطيع بعد الآن شيئاً ، وأن الطوفان يوشك أن يعم إذا لم ينهض بطليموس وأصحابه ..

هنا تصك الشكاة آذان النائمين فيستيقظون بعد طول النوم ، ويتبينون فداحة الخطر ، فيمضون يتدبرون فى الأمر بعد أن اشتد ، ولم تعد تفلح فى علاجه الأكاذيب . ويسرع فيلوباتر إلى منف ومنها إلى بلوزيون على حدود بلاده لكى يرقب الأمر بنفسه ، ويمضى سوسيبيوس وزيره يجمع له الجند بالمال من بلاد اليونان ومن مصر ، ويشغل العدو بمفاوضات غرضها إيقاف تقدمه ريثما يكتمل له جيش يستطيع به الثبات ، ولكنه لا يلبث أن يتبين أن من أعدهم من الجند لا يكادون يكفون لإيقاف الخطر الماثل ، وتملكه الحيرة ، ويخشى أن تحيق به الهزيمة . ويشتد الضغط على الحدود ، وتترامى الأنباء ، ويرجف المرجفون ، وينظر فيلوباتر إلى هذا القليل من الجند الذى يحاول أن يسد به ثغره ، وتصيبه الحيرة ، ويزداد الضغط عليه ، ويتفرق وزراؤه ، ويصيح الصائح : ليس من الموت بد !

ولو أنه أصغى إلى ما يتحدث به النابهون وذوو البصر من أهل مصر إذا خلا بعضهم إلى بعض ، لزالت حيرته ولفُرِّج عنه همه ، فقد كان هؤلاء يتعجبون من أمر بطليموس ووزرائه الذين يبعثون فى كراء الجند من أراضى الدنيا والجند عندهم كُثُرٌ ينتظرون الإشارة ليهبوا للذياد عن حياض بلادهم أسداً كاسرة . لقد أهمل هؤلاء البطالمة أمرهم من يوم صارت إليهم هذه البلاد ، حاسبين أن الحرب للإغريق ومن جرى مجراهم ..

كانت دعايات اليونان قد ملأت آذانهم فاستقر فى أذهانهم أن المصرى قد مضى يومه ، وأنه دخل منذ زمان فى عداد الرعية التى لا يؤذن لها فى حمل السلاح ، فلما اشتدت الأزمة وازداد الخطر تهامس الكهنة فى أروقة المعابد وجعلوا يتساءلون عن السبب فى هذا الإهمال الذى يصر عليه البطالمة ، وتسامع سوسيبيوس بذلك فأبرقت فى خاطره بارقة أمل ، وأسرع إلى فيلوباتر يحمل إليه النبأ فتهلل له ، وأمر بالإسراع فى تنفيذه .

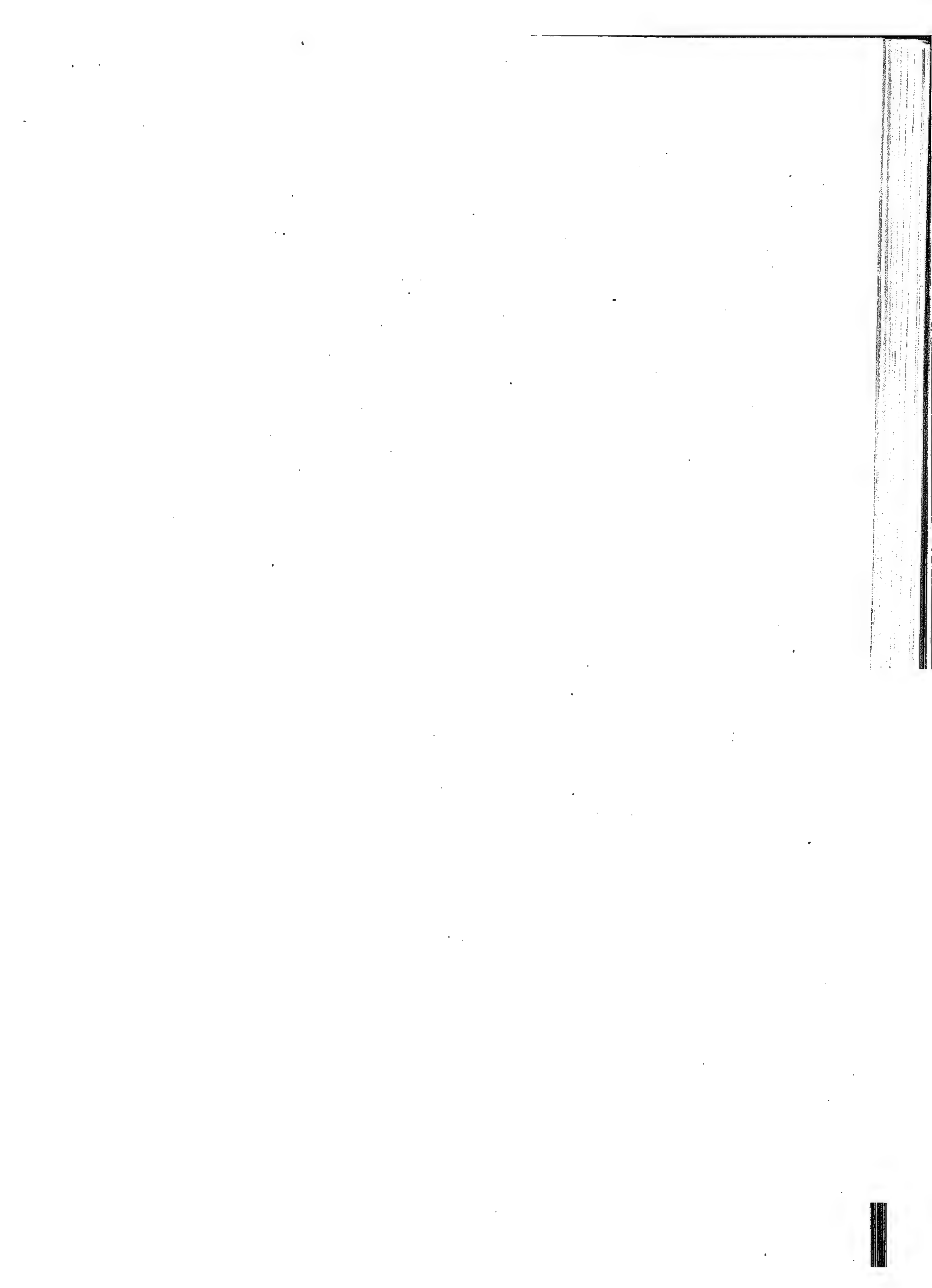
وأقبل جند مصر ، وأخذوا مكانهم فى المعسكرات ، وبدأ التدريب ، فلم تمض أشهر حتى استقامت منهم فرقة تبلغ العشرين ألفاً ، كانوا هم قلب الجيش المدافع وصخرته التى تتحطم عندها مطامع العدو ..

وفى الثانى والعشرين من يونيو سنة ٢١٧ قبل الميلاد ، التقى جيشان فى ميدان فسيح جنوبى رفح . وقد كان قواد بطليموس يودون لو انتظروا العدو فى أرض مصر ، ولكنهم لم يكادوا يرون أجناد الوادى فى القلب يتحرقون شوقاً للقاء العدو ، حتى تشجعوا واشتد عزمهم وعبروا سينا ، وذهبوا يلقون أنطيوخوس جنوبى فلسطين . ووقف عشرون ألفاً من أبناء هذا الوادى أمام عشرين ألفاً من خيرة المقدونيين واليونان : من كل مأجور ضُرِّى فى ميادين القتال وازرقّ نابه فى قراع الأسنة ، ومن حول القلبين فيلة وفرسان وحملة دروع ، وتولى الملكان قيادة الفرسان . وبدأت المعركة ، وانقض أبناء مصر على خصوم مصر انقضاضة يعرفها التاريخ فيهم ، وحمى الوطيس واشتد الطعن ، فإذا المقاتل اليونانى يولى طالباً النجاة ، وإذا جند مصر يضعون السيوف فى قفاه بين دهشة فيلوباتر وإعجاب الدنيا كلها ، وإذا بهؤلاء الفلاحين الذين أقبلوا من بيوتهم منذ قليل يهزمون سادة الميدان هؤلاء ، وكان لا ينازعهم فيه خلال هذه القرون كلها منازع .

من ذلك اليوم فتح المصريون أعينهم ، وأخذوا ينظرون إلى البطالمة ومن التف حولهم نظر العزيز المنتصر الذى كسب فى يوم واحد ما خسره فى عشرات السنين ، وشعر البطالمة واليونان أن هذا شعب له خطره ، وأن فيه من القوى ماهو جدير بأن يرفعه إلى المقام الأول بين الأمم . ولكن كيف ؟ كيف يمضى الجنود من غير قائد ؟ وكيف ينهض الشعب من غير رائد ؟ ..

هذا فيلوباتر لا يكاد يدرك النصر حتى يعود سيرته الأولى : خمر وعبث ، وهذا وزيره سوسيبيوس يتخوف نهضة هؤلاء المصريين ويتوقع قيامهم فى وجهه كلما أراد أن يعود إلى سيرته الأولى فيهم ، فهو يهملهم ويتوقاهم كأنهم عدوّ يُتَّقَى ..

وهذه دولة البطالمة كلها فى انحدار ، ولن يلبث البيت البطلمى نفسه أن يتفرق ويمضى كل فريق منه فى طريق ، وتهبط البلاد هذا الهبوط الذى ينتهى بها إلى أيدى الرومان ..



ريجولوس يفى بوعده

استطارت الخصومة بين روما وقرطاجنة ، وازدادت الأمور بينهما حرجاً ، وذهبت كل منهما تتخذ الأهبة لاستئناف هذا الصراع الذى دام ثلاثة قرون ، وكان حديث الدنيا كلها زماناً ، ولم تخمد نيرانه إلا بالقضاء على قرطاجنة قضاء مبرماً . كانت الاثنتان جارتين بينهما ما بين الجارات المتنافسات من بغض وعداوة ، واجتمعتا فى غرب البحر الأبيض ، فلم يكن هناك شك فى أن إحداهما لابد أن تخلى المكان لتقوم الأخرى منفردة بالعز والسلطان ، وكانتا أول الأمر متعادلتين فى هذا الصراع المستعر ، لكل منهما من أساليب القوة وألوان الاستعداد ما ينبىء بأن الصراع بينهما ممدود إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وتلك سيرة البشر بعضهم مع بعض من مطلع التاريخ إلى يومنا هذا ، وستبقى كذلك إلى أن يميل ميزان الأرض ومن عليها : لا سلام بين ندَّين ، ولا عدالة بين قوى وضعيف . لا يزال النداذن يلتمسان أسباب الخصومة ، ويسرفان فى سوء الظن حتى تكون الحرب ، ثم لا يزال الصراع بينهما يتجدد على الأيام حتى يختفى واحد منهما وينفرد الآخر بالسيادة . لن تغير الحضارة من هذه الخصلة ، ولن يخفف العلم من غلواء البشر .

دبر الرومان للأمر تدبيراً ، وجرى فى بالهم أن يأخذوا قرطاجنة أخذًا ، وأن ينزلوا بها ليلاً فيغادروها خراباً يباباً وأهلها نيام . وأعدوا لهذا الأمر عدته ، وجمعوا أجنادهم ، وحملوهم فى السفن إلى صقلية حيث كانت معاقل القرطاجنيين الأمامية ، ونهضت سفن قرطاجنة لردهم فانهزمت انهزاماً قبيحاً عند رأس إيكويوموس : استولى الرومان على أربع وستين سفينة بملاحيها وغرق مائة ، وفرت الفلول الباقية إلى إفريقية ترجف بهول المصيبة .

وتوقع القرطاجنيون إقبال الرومان إلى إفريقية ، فسارعوا يتخذون الأهبة للقائهم ، ولكنهم انهزموا على مقربة من عاصمتهم قرطاجنة نفسها ، وكاد أمرهم يضيع لأن رعاياهم

وثبوا بهم ، وحسبوا الفرصة أقبلت ليحطوا عن أكتافهم سلطانهم . وتحرج أمر القرطاجنيين بين العدو المقبل من الخارج والعدو المضطرب الثائر فى الداخل ، واضطروا إلى طلب الصلح ، فتشدد الرومان فى شروطهم تشدداً نفَّر القرطاجنيين ، وبعثهم إلى الحرب من جديد ، وساعفتهم المقادير بقائد إسبرطى مجرب هو إكزانتيب ، تولى تدريب جندهم وإعدادهم حتى استطاع فى أمد قصير أن يضع فى الميدان جيشاً حسناً متلهفاً إلى الحرب ، ووقف به دون قرطاجنة ينتظر العدو المقبل .

وأقبل الرومان مستخفين بالليل يودون لو فجأوا أهل قرطاجنة وهم نيام ، ولكنهم لم يلبثوا أن ارتدوا على أعقابهم بهزيمة لم تخطر لهم ببال ، ذلك أن إكزانتيب كان على الأهبة ، وكان قد احترز فى موضعه وكمن الكمائن ، فما هو إلا أن أوغل الرومان حتى احتواهم القرطاجنيون وانهالوا عليهم انهيال من لايُبْقى ، فتفرقوا بين قتيل وأسير ، وكان فى الأسرى قائد الرومان نفسه : ريجولوس ..

كان ريجولوس قائد الرومان فى هذه الحملة الإفريقية شيخاً من هؤلاء الذين نلقاهم كثيراً إذا طالعنا تاريخ الرومان ، شيخاً من طراز شيشرون يؤمن إيماناً لاشك فيه بأن الرومان سادة الدنيا وخيرُ من فيها ، ويعتز بروما وتلالها السبعة اعتزازاً بالغاً ، تربى فى ميادين الحروب وارتقى فىء المناصب حتى انتخبه الرومان قنصلاً ، أى قائداً للجيش .

وكان الرومان إذا أقاموا قنصلاً أقاموه لمدة عام يتخلى بعده عن منصبه لمن يخلفه ، فآلى ريجولوس على نفسه ليفرغن من أمر قرطاجنة فى عام واحد ، ومضى يبذل الجهد فى الحرب، فطرد القرطاجنيين من صقلية ، وهزمهم فى البحر ، ثم مضى يتتبعهم فى عقر دارهم ليستولى على عاصمتهم ويفرغ منهم ، فلما انتصر عليهم انتصاره الأول عرض عليهم من شروط السلم ما حسب أنه يكسر ظهورهم ، فرفضوا الشروط على ما رأينا ، ونفروا إلى الحرب من جديد . وسارع ريجولوس إليهم ، ولكن الحظ خانه وابتلاه بهذا الداهية الإسبرطى ، فخيب ظنونه وقضى على آماله وعاد به فى رباط الأسر مهزوماً .

واستكان الرجل للأسر ولبث ينتظر قضاء أعدائه فيه ، وكان القرطاجنيين كالرومان قساة : إذا وقع فى يدهم عدو أوفوا على الغاية فى عذابه ، فلبث ريجولوس ينتظر عذابه فى شهامة القائد الأنوف الذى لا يخاف الموت أو يرهب العذاب .

ولكن القرطاجنيين لم يستنيموا إلى الظفر ، ولم يصرفهم النصر عن أن يحترسوا من الرومان وأن يقيموا على الحذر منهم ، وكان فى الرومان دأبٌ على الجهد وإصرار على الكفاح ذهب فى الناس حينذاك مذهب الأمثال ، إذا أنشبوا أظفارهم فى عدو لم يفلتوه إلا هالكاً ، وربما تواترت عليهم الهزائم وتهاورتهم المصائب فلا يزدادون على البلاء إلا شدة وإصراراً ولا يزالون يجيشون الجيش بعد الجيش يرمون به العدو حتى تنفد قواه ويسلم لهم أمره . لهذا أخذ القرطاجنيون يقدرون أن الرومان لن يستكينوا لهذه المصيبة ، وأنهم دائبون على الجهد لايهدأ لهم جنب إلا إذا أخذوا بثأرهم وعرفوا ألا طاقة لهم بلقاء هؤلاء القوم ، وأحبوا أن يحتالوا للمقادير بحيلة يهربون بها من ملاحقتها إياهم .

وانتهى بهم الرأى إلى أن يستدعوا ذلك الشيخ ريجولوس من سجنه ، وعرضوا عليه الأمر وتباحثوا وإياه فيه ، حتى انتهوا معه إلى أن يُعقد الصلح بين الحيين ، وأن يكونا جارين بينهما تعاطف الجيران وصفاء الأصدقاء . ولم ير ريجولوس فى ذلك بأساً ، فأقر القرطاجنيين على ما ذهبوا إليه من رأى ، ثم عرضوا عليه أن يوقع معهم تحالفاً باسم الرومان ، وسألوه أن يمضى بعد ذلك إلى أهله فيجتمع بشيوخ الكابيتول ، ولا يزال بهم حتى يروا الأمر على وجهه الذى رآته ويقروه . ولكن الشيخ أبى ذلك ، وأفهم القرطاجنيين أنه لن يسمح لنفسه بأن يستعمل الحيلة والمنطق فى إقناع الرومان وإرغامهم على أمر قد لا تكون لهم فيه رغبة ، وأبى أن يتقيد بعهد قد يتاح له أداؤه وقد لا يتاح ، ثم طلب إلى القرطاجنيين أن يأذنوا له فى أن يمضى إلى بلده فيعرض الأمر على أهله ثم يعود فيلقى إلى القرطاجنيين ما انتهى إليه جهده ، فأخذوا عليه العهد أن يعود إذا فرغ من مهمته ، وألا يكون ذلك حيلة منه لكى ينجو من أسره .

وكان القرطاجنيون قد قدَّروا أن الرومان موافقون على الصلح على أى حال ، لا حبًّا منهم فى السلام أو استكانة للهزيمة ، وإنما حفاظاً على حياة هذا الشيخ المهيب ، إذ لو رفضوا السلام وقرروا الحرب لكان معنى ذلك هلاك ريجولوس : سيعود إلى قرطاجنة يعلن رفض الرومان واستمرار الحرب ، فيعود إلى مكانه من الأسر وينزل به العذاب الأليم . حسب القرطاجنيون أن الرومان لن يفعلوا هذا أبداً ، وأن قلوبهم لن تذهب فى التحجر

مذهب من يرسلون رجلاً من خيرة رجالهم إلى حتفه . كانت تلك حيلة بارعة من القرطاجنيين ، وكانت حرية أن تنطلى على الرومان .

وأخذ الرجل أهبته للرحيل ، وبارح قرطاجنة ، فلما كان بظاهرها رأى من عدة القرطاجنيين للحرب وأهبتهم لها ما أثار فى نفسه شكا وأوجس فى نفسه خيفة أن يكون القرطاجنيون يطلبون هذا الصلح ليستعدوا للحرب فى مداه ، فانثنى إلى قروى من أهل ريف قرطاجنة وسأله الخبر ، فأفضى إليه بأن القوم يدبرون هجوماً عاماً على إيطاليا ، وأنها أشهر لن تنقضى حتى يكون القرطاجنيون أصحاب الأمر فى روما وأهلها .

هنالك أصبحت شكوك الرجل يقينا ، فانطلق إلى قومه غضبان أسفاً ، فلما اجتمع بأصحابه فى الكابيتول ، مضى يشرح لهم الأمر ويفيض فى تفصيله ويحثهم على الاستعداد والأهبة حثاً شديداً . وعجب الرومان من أمره ، ولكنه مازال بهم حتى استمعوا إلى نصيحته وأسرعوا يتخذون الأهبة ، وبدأت قواهم تجتمع وجيوشهم تتأهب ، وعرضوا عليه أن يقود الجيش المهاجم فأبى وقال : « إنما أنا أسير ! » . وريع الرومان من قالته تلك ، وفهموا مايعنى بها ، ومضوا يستوضحونه الأمر ، فأعلن إليهم أنه فى الأسر مايزال ، لأنه وعد القرطاجنيين بأن يعود ، وأنه عائد لأنه أعطى « كلمة الشرف » وكلمة الشرف قيد لا يتحلل منه الرجل الشريف .

ريع الرومان حينما سمعوا حديث الشيخ ، وزاد روعهم حين رأوا الرجل يستعد للعودة إلى القرطاجنيين ليبلغهم نتيجة مسعاه ، ومضوا يبينون له أن القرطاجنيين لن يفلتوه من عذاب أليم لو نبأهم أنه أثار عليهم الرومان ، ولكنه أبى أن ينثنى ، وأصر على أن يعود ليفى بالعهد الذى أخذه على نفسه ، وكانت كلمته للذين أثقلوا عليه : « لقد حفظت على روما كرامتها ، فاسمحوا لى أن أحفظ على نفسى كرامتها » . هنالك لم يجد أصحابه وآله بداً من أن يدعوه ينصرف إلى حيث يبغى ، واجتمعوا لتوديعه الوداع الأخير ، ولم يكن هنالك شك فى أن الرجل كان فى طريقه إلى الموت ، ولكنه كان يبتسم ، كأنما الأمر الذى يسعى إليه يستدعى هذا الابتسام .

وكانت هذه التضحية ـ على هولها ـ صغيرة على همة هذا الرجل ، كان يؤكد لزوجه وابنيه

أن الأمر جدُّ هين . إن هو إلا رجل أدى واجبه وبرَّ بوعده ! وكل رجل حقيق بأن يؤدى واجبه نحو وطنه ويبر بوعده ، أمْ حَسِب الناس أن الوعدَ لا يفى به صاحبه إلا إذا كان الوفاء هيناً سهلاً ؟ فليعلموا إذن أن الوعد يوفَّى به حتى فى ظلال الموت !

مضى الرجل إلى قرطاجنة فاستقبله أهلها بالبشر والإيناس يحسبونه يحمل إليهم السلام ومضوا وإياه إلى مجلس حكامهم ليظهرهم على جلية الخبر ، فلما انتهى إليه نصح لهم مخلصاً أن يستعدوا للحرب ! فلما استوضحوه الأمر ، أفضى إليهم بما فعل كاملاً ، فنظر بعضهم إلى بعض عجباً من أمر هذا الرجل ، وحسبوه أول الأمر هازلاً ، فما يكون مثل هذا الكلام إلا هزلاً ، وما يبلغ رجل من العبث بنفسه مبلغ إسلامها إلى الجلاد راضياً مطمئناً . ولكنهم لم يلبثوا أن استبانوا أن الرجل لا يقول إلا صدقاً ، وأنه ألَّب قومه عليهم ثم أقبل إليهم موفياً بوعده لهم ! فعقدوا مجلساً للبحث فى شأنه ، وظلوا يتشاورون فى الأمر طول الليل ، وقد أعياهم اختيار عقوبة كافية لهذا الرجل الذى لا يخشى الموت .

فلما انتهوا من الرأى فى أمره أقبلوا عليه فى النزل الذى كان نازلاً فيه ، وكان حرًّا طليق القيد أثناء ذلك كله ، فوجدوه ملقى على الأرض وقد أغمد سيفه فى قلبه وإلى جنبه بطاقة فيها : « .. حتى لا تأخذونى ولا تأخذوا سيفى .. ألا هل وفيت ! » .

مثرادات ملك بنطس

١٢٠ ـ ٧٠ ق . م

يعجب به مؤرخو اليونان والرومان إعجاباً شديداً ، ويسرفون فى وصفه والتمدح به وتفصيل أعماله إسرافاً بالغاً ، ويفيضون فى الحديث عنه حتى لتلقاه كلما طالعْت بلوتارك ، وتصادفه كلما استمعت إلى تيتوس ليفيوس ، ولا تكاد تشبع من أنبائه عند مارسيللوس أبيانوس ، بل هم يذهبون في الإعجاب به مذهباً يدفعهم إلى احتسابه إغريقيًّا ، وهو فى أصله فارسى شرقى ، ويجعلونه بعد الإسكندر مثلاً للعبقرية اليونانية التى تفيض بطولة وجلالاً .

كان مثرادات فتى بارع الحسن ، أدرك من وفرة الرجولة وسحر الشباب ونعمة الفروسية ما حببه إلى الناس ورفعه فى نفوسهم إلى منازل الآلهة وأنصاف الآلهة . ارتقى العرش حين أشرف على الخامسة والعشرين ، فأقبلت شعوب آسيا الصغرى تسعى إليه طواعية وخوفاً ، واستقام له الملك العظيم فى بُنْطُس على البحر الأسود ،. وساعفه القدر وأيده الطموح فمضى يوسع بلاده فى كل وجه ، وحارب الرومان فانتزع منهم آسيا الصغرى ، وأخضع ملكى كَبادُوكْيا وبيثينيا ، وأقر عاصمة ملكه فى بِرْجامُوس كبرى بلاد آسيا الصغرى وأكثرها حصانة، ثم بعث ابنه أريارات فى جيش إلى تراقيا ومقدونية شمالى بلاد اليونان فأخضعها ، وأرسل أرخيلاوس قائد أسطوله ليخضع بحر إيجه ، فجعل أثينا عاصمته ، ومضى يستعيد من الرومان ما فتحوه من بلاد اليونان جزءاً جزءاً .

وكان الناس فى بلاد اليونان وفى آسيا الصغرى قد أبغضوا الرومان ونفروا من استبدادهم وتاقت نفوسهم إلى من يخلصهم منهم ، فلم يكد يظهر مثرادات حتى أقبل إليه اليونان وأهل آسيا مؤيدين ، وعمر جيشه بالجند من كل صنف ، وحفل أسطوله بالسفن والملاحين

واستقام ملكاً على شرقي البحر الأبيض ، ومضى يتأهب لصد الرومان إذا هم قصدوه ، وكان يعرف أن الرومان لابد فاعلين ، لأنهم كانوا قوماً محاربين لا يفرغ لهم جشع ولا تطمئن جنوبهم إلا على وساد الثرى فى ميادين الحروب ، ولكنه لم يكن مستوثقاً من أمر اليونان ، لأن حالهم كان قد ضعف وهبطت همتهم وأصبحوا لا يتأخرون عن بسط يد الطاعة لمن يقبل على بلادهم ظافراً ، لهذا جعل مثرادات مركز أعماله فى آسيا الصغرى ، وتحصن فى هضابها ووهادها ، ولبث ينتظر الرومان .

وتواترت الأخبار إلى روما ، وترددت الخطب فى الكابيتول بضرورة القضاء على مثرادات ، ولم يكن مثرادات يهدد روما ولا شيئاً من مصالحها ، ولكن بَغْيَ الرومان كان يأبى أن يرتفع فى جو الكرامة إلى جانب رأسهم رأس ، ولو أقبل إليهم حليف صافى النفس يمد يد الصداقة لعدُّوا ذلك إساءة ، لأن أحداً من أهل الأرض لا ينبغى له أن ينهض لهم نداً ، وما يزالون يدبرون له الكيد ويتربصون به الدوائر ويلتمسون له الأخطاء حتى إذا جمعوا فى أيديهم ما يبرر لهم حربه ، نهضوا إليه كذئاب الفلاة لا يزالون يتناهشونه حتى يصرعوه ويسيروا على جسده وعلى رؤوسهم أكاليل الغار . .

ذلك أن وظائف القنصلية وما إليها كانت وقفاً على القادة المظفرين ، فكان كل طامع فى السلطان يترقب فرصة يقود فيها جيشاً يفتح به فتحاً ، فإذا عاد مظفراً توَّجه مجلس الشيوخ بأكاليل الغار ورشحه لمنصب القنصلية ولمناصب الحكومة فى الولايات . لهذا كان شبابهم يتوثب شوقاً إلى الحرب والقتال ، وكانت الفرصة للفتح إذا سنحت تبادر إليها القائدان والثلاثة ، كل يبذل وسعه حتى يندبه مجلس الشيوخ لها ، فإذا ظفر بالقيادة لم يرض بها دون النصر والظفر ، فربما حرق المدن بأهلها ، وربما أنزل المذابح بالآمنين ، وربما استسلم له العدو فأبى إلا أن يحاربه وينتصر عليه ! .

لهذا لم تكد تسنح فرصة حرب مثرادات حتى تبادر الظاهرون من القواد والطامعون فى السلطان يتنافسون فى الفوز بالانتداب للقيادة ، وكان أظهرهم ماريوس وسولاَّ ، وكانا قائدين طاغيتين فعلا بالدنيا وبأهلها وبروما نفسها الأفاعيل ، ومازال كل منهما يبذل جهده حتى فاز بها سولاَّ أعتى مَن رأى الرومان حتى الساعة من جبابرة الحروب : رجل

روى بلاد اليونان وآسيا الصغرى بدماء جنده ودماء أعدائه ، ولم يكفه هذا فعاد إلى بلاده يسومها خسفاً حتى قلب نظامها رأساً على عقب ، ونهض له خصمه القديم ماريوس يريد أن يصده عن الطغيان ويريد أن يبلغ منه ثأره على ما فاز عليه به من قيادة الحرب ضد مثرادات ، فلم يزالا يحتربان فى إيطاليا حتى كاد الفناء يعفى عليها ، وانتصر سولاً وجثم بكلكله على صدر الرومان زماناً حتى أزاحته عنه سيوف المغتالين .

* * *

سار سولاً لحرب مثرادات وهو لا يشك فى أنه قاض عليه فى بضعة أشهر ، وجعل يؤكد لأصحابه فى مجلس الشيوخ أنه عائد بعد أسابيع ليقف إلى جانبهم ويؤيدهم فى خصوماتهم الحزبية التى كانت فى ذلك الحين أشد ما تكون اتقاداً وسعيراً ، ونزل بلاد اليونان وأخذ قواده يلقون قواد مثرادات ، وأحست دويلات اليونان الخوف من القائد الرومانى ، فأخذت تنضم إليه ، فرأى مثرادات أن الخير فى أن يسحب جنوده من بلاد اليونان وأن يركز جهده كله فى آسيا الصغرى ، فلم تكد بضعة شهور تنقضى حتى كان ميدان الحرب قد انتقل إلى جبال الأناضول ووهادها .

وقد حاولت أثينا أن تقاوم سولاً وجنوده ، فكان جزاؤها أن ذبح من أهلها آلافاً وأجرى دماءهم أنهاراً ، وهدم عدداً من أقدم الهياكل وسواها بالتراب ، وأنزل بالناس من العسف والظلم مالم تسمع به الإنسانية قبل ذلك أبداً ، حتى لقد أخذ أهلَ اليونان جميعاً رعب شامل ، وتقدم نفر من الشيوخ الأجلة فألقوا أنفسهم عند أقدام المنتصر يرجونه العفو عمن بقى من الناس ، فجعل يتباطأ فى إجابة مطلبهم حتى يعطى جنوده فرصة أطول للقتل والتخريب ! ولم يكُفَّ يد جنده حتى أصبح البلد الخالد قاعاً صفصفاً .

وانتقلت الحرب إلى آسيا الصغرى ، وألقى مثرادات خير جنوده ، وساق عليهم سولاً خيرَ من عنده ، وبدأ صراع رهيب لم تشهد بلاد آسية الغربية إلى ذلك الحين شبيهاً له ، واستبسل البنطيون من جند مثرادات واستبسل الرومان ، وأصبحت الحرب صراع فناء يهلك فيه كل يوم آلاف .

وبلغ من حدة المعارك أن الجيشين كانا إذا التقيا استحال الناس من الجانبين وحوشاً

ضارية لا يكاد يصرفهم عن القتال إلا هبوط الليل ، وقد حدث أثناء المعارك عند خايرونيا وأورخومينوس أن احترب الجمعان أسابيع دون الوصول إلى نتيجة ، فلما أقبل الليل ذات مرة قرر سُولاَّ أن يقوم بعمل يضع للقتال حداً ، فطلب إلى جنده أن يقوموا بحفر خنادق على جانبى معسكرهم تؤمنهم من أن يؤخذوا من الجوانب إذا استعر القتال من غد ، فلما أقبل الصبح وهجم الأسيويون لم يكن الجند المكلفون بالحفر قد فرغوا ، فاكتسحهم المهاجمون وقتلوا منهم عدداً عظيماً ، فريع جند سولا أنفسهم ومضوا يتهاربون حتى كادت تحيق بهم الهزيمة ، فلم يكن من سُولاَّ إلا أن ترجل عن فرسه وألقى بنفسه فى معمعان المعركة وقال : « إنه لمجد لى أيها الرومان أن ألقى مصرعى هنا ! أما أنتم فإذا سألوكم أين تركتم قائدكم صريعاً فاذكروا اسم المكان ولا تنسوه ، إنه يسمى أورخومينوس ! » فلم يكد الجند يسمعون ذلك حتى كروا إلى الميدان وعادوا يقاتلون قتال المستميت ، حتى خلعوا ميمنة العدو عن مواضعها وقتلوا ديوجينيس ابن القائد أرخيلاوس ، واستبسل الجانبان حتى إن رماة مثرادات أعوزهم المكان ليرموا بسهامهم ، فحمل كل منهم أسهمه تحت ذراعه ومضى يضرب بها كأنها عصى أو حراب ، فلم ينته اليوم حتى هلكوا عن آخرهم ، وأصبح الميدان كله بركة دماء ، حتى ليحكى بلوتارك أن الناس كانوا إذا مروا بذلك الموضع بعد مائتى سنة رأوا بقايا جثث القتلى وآلات الحرب .

وأخذت قوات مثرادات تتهاوى ، وأخذ جنده يتفرقون عنه ، وكان المدد لا ينقطع عن سولاَّ وجنوده عن طريق البحر ، فى حين عاقت وهاد آسيا الصغرى وصول الأمداد لجنود مثرادات على هيئة منتظمة ، فأخذ جنده يتراجعون ، وأخذت المعركة الحاسمة على حدود بنطس نفسها تقترب .

* * *

فزعت دويلات آسيا الصغرى فزعاً شديداً ، وكان معظمها أتباعاً لمثرادات أو أحلافاً له وترامت إليها أخبار مذابح سولاَّ فى بلاد اليونان ، وأنباء استبسال جنده فى الحرب ، ورأوا أن أمرَ صاحبهم مثرادات إلى خذلان ، فبدأ الخوف يميل بهم نحو سولاَّ ، وأسرع نيكوميدس أكبر حلفاء مثرادات فمد يده للرومان محالفاً ، وأعقبه فى ذلك نفر كبير من

الأمراء والحكام ، حتى كاد إيوان مثرادات أن يكون قاعاً صفصفاً من الحلفاء والأعوان .

وتردد الخوف فى نفسه بعد هذا الصراع الطويل ، وأيقن أن اللحظة الحاسمة تقترب ، فأسرع يجمع الجند ويقوّم الجيش حتى استقام له جيش عظيم زوده بآخر ما بقى له من المال ، وأخذ هذا الجيش الأخير يخطو فى ثقة نحو سولاً . وكان هذا فى اطمئنان الواثق وأمان العزيز ، فلم يكلف نفسه عناء السير ، وبعث قائده فلاّ كُوس ليصفى الحساب مع مثرادات ، ولكنه روع حين حمل له نذير الشئوم أشلاء فلا كوس ، ولم تلبث فلول الجيش أن انقلبت إليه هاربة تستغيث من شر ما أصابها على يد أمير بنطس ، فملأ نفسه الغضب واضطرم غيظاً ، وأقسم لا يعودنَّ إلا بمثرادات نفسه يجره من ناصيته جرا ، ويربطه فى عجلته ثم يعود به إلى روما يعدو على قدميه خلف العجلة حتى يبرى طول السير قدميه ، واقترب الفريقان وأشرفت الطليعة على الطليعة ، وأدرك القائد أن اليوم يوم تتقرر فيه المصائر ! .

واشتبك القتال ودام أياماً ، وامتدت الأيام أسابيع : يصبح الصباح فيثار النقع ويتعالى صخب السيوف وصياح الأبطال ، ويقبل المساء فترد السيوف إلى الأغماد ويسود السكون ، حتى سئم أصحاب مثرادات وأحلافه هذه الحروب التى لا تنتهى ، وأدركهم شىء من السأم أو اليأس فمالوا إلى الصلح ، وحدثوا قائدهم فيه فأبى . واجتمعوا يتشاورون ، ثم انتهوا إلى أن يطلبوا من أميرهم قبول الصلح ، فإن أبى فهم فى حل من طاعته وهم أحرار فى إماراتهم يصرفونها كيف أرادوا . فلما رفض مثرادات ذلك انقلبوا ومدوا للرومان يداً، وتقبلهم سولاً شاكراً وأقرهم فى أمانه وأظلهم برعايته ، وما هى إلا شهور حتى أصبح مثرادات وحده لا يجد أخًا ولا نصيراً .

* * *

كانوا ثمانية عاهدوا أنفسهم على ألا تسقط بنطس حتى يسقطوا ، وألا يسير الرومان إليها إلا على أجسادهم : أولهم مثرادات العظيم ، وتليه زوجه الوفية ، وخمسة من الفرسان والأبطال ، وكلب جليل يعدل ألوفاً ! وكيف لا يكون جليلاً وقد كان آخر من بقى حياً يدافع عن بنطس ؟ وكيف لا يكون جليلاً ، وقد وقف يحرس رفات سيده سبعة أيام لايذوق

شيئاً ولا يميل إلى نوم ، يُعول إعوال الثكلى ويصبر صبرَ الشهيد لا يتحرك مخافة أن تقرب النسور جثمان سيده الحبيب ؟ .

أرسل مترادات إلى سولاً ينبئه بأن بنطس لن تسلم بغير حرب ، وأن دون أسوارها جيوشاً عدادها ثمانية كل منها بمائة ألف ، أى عدادها ثمانمائة ألف ! وضحك سولاً ما شاء له الضحك ، وسخر قواده ما شاءت لهم السخرية ، ثم همَّ سولاً فبعث ثمانية من صحبه فلم يعودوا ، ثم ثمانين فلم يعُودوا ، ثم مائة فلم يعودوا ! فكاد يصعق ، فهمَّ وتقدم بنفسه ، فإذا المدافعون عن البلد اثنان : مترادات وكلبه ! وقد وقفا أمام الباب لا يكاد أحدٌ يقربهما حتى يمزقاه شر ممزق ، هذا بسيفه وذاك بأنيابه ، فأمر سولاً بجحافله فأقبلت ، فثبت الفتى لها ثبات الجبال ، قابلها سيفاً بسيف وسهماً بسهم ، ثم اشتد الأوار وثار النقع ولم يعثر لمترادات على أثر ، واقتحم الرومان البلد وقضوا على من بقى فيه حيًّا .

كان سولاً يمر بعد أيام مع قواده فى معسكره ، فإذا صوت رهيب يترامى إلى أسماعهم فينصتون إليه مروعين ، كان صوت وحش يرسل الصيحة تلو الصيحة فتشق سكون الليل البهيم حتى لتروع الجيش بأسره . فلما أصبح الصباح أخذوا يقتربون من مصدر الصوت ، فإذا كلب ضخم فى أقصى العدوة يعوى من أعماق نفسه باكياً معولاً ، وإذا هو قائم على رفات يحرسها ولا يدع أحداً يقربها ، وإذا الراقد المسجى مترادات تحوم حوله النسور والكلب من دونها يدفعها ! ولم يجسر أحد على الاقتراب ، فقد كان الكلب شديداً تتبدى الضراوة فى عينيه ، لا يقترب منه إنسان إلا همَّ به . هنالك جاشت نفس سولاً فبكى ، والرجل الشجاع يبكى الرجل الشجاع !

وأدركته الحسرة ، وناله غم شديد ، ولبث يرقب الكلب فى ألم بالغ ، حتى أدرك الحيوانَ المسكينَ التعب وبح صوته ، فرقد إلى جانب رفات سيده ، وسكنت حركته ومات ! .

شيشيرون ينقذ روما

كان « لوكيوس كاتيلينا » فتى رومانيا عابثاً ، استهل حياته ينعم فى أعطاف الغنى ، ويزهو فى مطارف العز الوارف والنعمة السابغة ، فأقبل ينفق أيامه على موائد القمار ومجالس المترفين ، فلم يكد يمضى زمان قصير حتى كثر الدائنون ببابه ، وأملق واشتد عليه الطلب ، فلما استبدت به الحاجة ، اجتمع بنفر من أصحابه الذين أصابهم ما أصابه ، ونظروا فى الأمر ، فلم يجدوا إلا سبيلاً واحداً يقيل عثرتهم ويرفع عنهم البلاء : فما عليهم إلا أن يجمعوا نفراً من العبيد وقوهم جيشاً يفتح روما ، ويستولى على ما عند أهلها وما فى خزائنها من الأموال .

وبدأ الناس يتحدثون بما يدبره هذا الفتى وأصحابه من شر ، وتردد الحديث همساً من الخوف أو جهراً مع الرياء للمؤتمرين ؛ وتسامع القوم أن كاتيلينا يُعِدُّ جيشاً لا يحصيه عد ولا يطيقه أحد ، وأقبل الرواة من إتْرُورْيَا ـ شمالى روما ـ يتحدثون بما يبيِّت للرومان من شر ، وما يدبِّر لشيوخهم من سوء المصير .

وتردد الخوف فى جوانب الكابِتُول ، واستبدت الخشية بالشيوخ ، فانعقدت منهم الألسن ، وحرص كل منهم على ألا يتحدث عن كاتيلينا بسوء ، بل طفق نفر منهم يتودد إليه ويتملقه ، ولا يتحدث عنه إلا بكل خير ، بل بلغ الأمر أن أسرع ضعاف القلوب منهم فعقدوا معه الخناصر وبايعوه على هذا الذى يريد .

وكانت الأحوال العامة فى الدولة الرومانية فى ذلك الحين تسمح لمثل هذا الفتى بأن يفكر هذا التفكير ، وأن يتوقع لنفسه ولأصحابه التوفيق من ورائه ، فقد كان جو السياسة الرومانية مضطرباً تُغشِّيه السحب وتنوشه طلائع الأعاصير . كان يوليوس قيصر قائداً

ناشئاً يقود جيوشه قيادة موفقة فى جبال الألب وفى غالة ، وكانت أخبار انتصاراته تروّع مجلس الشيوخ ، لأن أعضاءه كانوا يعلمون علم اليقين أن قيصر سائر نحو الاستبداد بالأمر، وأنه حين يعود إلى روما وعلى رأسه هذه الأكليل كلها لن يقنع بمكانه فى مجلس الشيوخ أو بإحدى الوظائف الكبرى ، وكان أنصاره والملتفون حوله من أمثال رولوس وكاتيلينا ورابيوس لا يكفون عن الإلحاح على مجلس الشيوخ فى إطلاق يده وبسط سلطانه.

وكان مجلس الشيوخ محيَّراً لا يعرف كيف يحتمى من سلطان هـذا القائد الغلاب الطامح ، ثم إن مجلس الشيوخ كذلك لم يكن ليستغنى عن قيصر ، فلو أغمد هذا الرجل سيفه وكف عن العمل لتفرقت أملاك الرومان وثار الإيطاليون بأهل روما ، وصار الأمر إلى حرب أهلية ربما آذت البلاد أكثر مما آذتها حرب ماريوس وسولاً . وكانت حاجة المجلس شديدة إلى رجل قوى القلب جرىء النفس ، يستطيع أن يقاوم جشع الطامع دون أن يثير عداوته ويضع الدولة تحت رحمته ورحمة جنوده .

وكان هذا الرجل المأمول موجوداً ، ولكنه لم يكن طيِّعاً سهلاً ، بل كانت له آراؤه ومراميه فى عالم السياسة ، وكانت تلك الآراء تخيف الشيوخ كما كانت تخيفهم مطامع قيصر ، فقد كان هذا الرجل مازيوس توليوس كِيكِرو (شيشيرون) رجلاً ذكياً قادراً مثقفاً ، وكان ينحدر من أسرة متوسطة من سراة الريف الإيطالى . كان أصله من أرْبينوُم موطن ماريوس قائد الإيطاليين فى حربهم مع الأرستقراطية الرومانية ومنقذ إيطاليا من خطر الجرمان ، وكان الأربينيون - كغيرهم من سكان المقاطعات الإيطالية - ينكرون على أشراف اللاتين المتجمعين فى روما ومجلس الشيوخ دعواهم فى السيطرة والاستبداد بالأمر كله ، وكان بينهم وبين الإيطاليين صراع نستطيع أن نشبهه مثلاً بالصراع بين العرب وغير العرب فى كيان الدولة الإسلامية .

وكان شيشيرون يمثل الطبقة العاملة من الزراع والتجار فى المدن الإيطالية ، وكان لا فتأ يهاجم نبلاء الرومان ويحارب سلطانهم ، فكرهوه وألَّبوا عليه العامة من أهل روما ، وانتهى به الأمر إلى النفى من هذا البلد العظيم ، فذهب إلى بلده فى أربينوم ، وأقام هناك يجمع صفوف الإيطاليين ويستعد لخوض المعركة مع الأشراف ليقرر لأبناء طبقته حقوقهم فى

الحكم ، فلما كانت انتخابات سنة ٥٨ قبل الميلاد ارتفع إلى منصب القنصلية بمساعدة الإيطاليين ، وعاد إلى روما عودة المنصور المظفر ، وهو ينوى أن يكافح كفاح المستميت فى سبيل مبادىء الجمهورية لا يكاد يخيفه إجماع الشيوخ على كراهته ، بل لا يكاد قيصر يخيفه بجيوشه .

وكان شيشيرون من أوسع الرومان ثقافة وأذكاهم عقلاً وأفصحهم لساناً ، كان قد ذهب فى شبابه إلى أثينا ـ وكانت ما تزال موطنَ العلم والفلسفة ـ وتتلمذ فيها على أنتيوخوس العسقلانى إمام عصره فى المنطق والحكمة ، وكان سُفِسْطَائيا يتحدث فى صفاء الروح ببلاغة تأخذ بالألباب ، وقد أُخذ شيشيرون بأسلوبه فى الكلام وإن لم يؤخذ بأسلوبه فى الفلسفة ، لأن قلبه ظل معلقاً بفلسفات أفلاطون كما دعا إليها أرسطو فى الَّليسْيُوم ، وقد تعلقت نفسه بالفلسفة تعلقاً حدا به إلى التفكير فى الانصراف إليها وتركِ السياسة وميدانها جملة ، ولكنه لم يكد يطمئن إلى الدرس حتى تسامع بمصرع سُولاًّ وما أعقب ذلك من الأحداث التى هزت كيان روما هزاً ، فقرر الرجوع إلى بلاده عجلاً .

وكان قد انصرف أثناء مقامه فى أثينا إلى شىء من الرياضة أكسبه شباباً ونشاطاً ، وكانت دروس أنتيُوخوس قد أطلقت لسانه من عقاله وجعلته خطيباً ومحدِّثا من طراز لم يسمع بمثله قبل ذلك أبداً ، حتى ليحكون أنه فى عودته إلى روما مرَّ برودس وحضر دروساً فى البلاغة على أبُولُونيُوس بن مُولُون ، فلما قضى فى ذلك بعض الوقت أخذ يُحاوره ، وكان أبولونيوس لا يحسن اللاتينية ، فرجا شيشيرون أن يتحدث باليونانية ، فَقَبِل شيشيرون وأخذ يتحدث بها فى بلاغة عقدت ألسن الحاضرين ، فجعلوا يهنئونه على ذلك ، إلا الأستاذ أبولونيوس ، فقد ظل واجماً برهة من الزمن ، ثم نظر إلى شيشيرون نظرة فيها حزن عميق ، وقال فى تؤدة : « إننى لأمتدحك وأعجب بك ياشيشيرون ! يا لأسفى وحسرتى على بلاد الإغريق ! لأن هذه الفنون وتلك البلاغة التى هى كل ما بقى لها من مجدها الغابر ستنتقل إلى روما عن طريقك ! » .

وعاد إلى بلاده فلم تلبث أنظار الطبقة العاملة أن اتجهت إليه ، ولم يلبث أن نهض إلى الأعمال العامة وعين حاكماً على صقلية ، فأبدى من الكفاءة فى ضبط العمال وكبح جماح السارقين والعابثين ما جعله معبود الأهلين ، وكان يبعث التقارير إلى مجلس الشيوخ ، وهو

يحسب أن أعضاء المجلس يكادون يتوثبون إعجاباً به وبأعماله . فلما انتهى العام عاد إلى روما وهو يحسب أنه سيجد الشعب فى انتظاره ليستقبله استقبال الظافر ، وأن أعضاء مجلس الشيوخ سيسارعون لتحيته وأداء حق شكره ، فلما قرب من المدينة أراح فى إقليم كمبانيا ، ولقيه هناك صاحبٌ له من أكثر الناس اتصالاً بالحياة العامة ، فسأله شيشيرون عن رأى الرومان فى أعماله ، وكان يحسب أن الرجل سيحدثه عن إعجاب الرومان به ويمضى فى ذلك ساعات لا يكاد يتوقف ! فما راعه إلا وصاحبه هذا يسأله : « وأين كنت والياً يا شيشيرون ؟ » ، وفوجىء الرجل بذلك ورانت الخيبة على نفسه ، وعرف أن تقاريره إلى مجلس الشيوخ لم يسمع بها أحد ، وأنها اختفت فى صخب روما كما يغوص حجر يلقى به فى الماء ، وامتلأت نفسه بالمرارة التى يعرفها كل من شارك فى السياسة وتعرض لعبابها المتلاطم .

وأخذ مكانه فى مجلس الشيوخ يترقب فرصة يعرّف الناس بها قدره ، ولم تلبث الأخبار أن تواترت من صقلية بسوء حكومة حاكمها الجديد فِيرِّيس ، وكان رجلاً شريراً سارقاً عَسَف الأهلين ومضى فيهم كأسوأ ما يمضى الحكام فى الناس ، وكان آمناً مطمئناً إلى مجلس الشيوخ بفضل ما كان يملأ به أفواه الأعضاء من الألطاف والرشى ، فلما وصلت شكوى الأهلين من أفاعيله إلى ساحة المجلس أقبل يختال فى مطارف الغرور وهو لا يشك فى تبرئته . وبينا هو فى خُيلائه إذ بصوت شيشيرون يدوِّى كأنه الرعد ، فأوقف الرجل مكان المتهم ، ومضى يعدد آثامه فى بلاغة متدفقة ، وكلما دفع الرجل عن نفسه تهمة بادره شيشيرون بما هو أشد منها ، وصاغ كلامه فى أسلوب لاذع جعل الأعضاء يضحكون ، فلم تنته الجلسة إلا وقد لصق الحاكم السيىء بالأرض ، وخرج وقد حُكم عليه بغرامة قاصمة للظهر ، وخرج الأعضاء هذه المرة ولا حديث لهم فعلاً غير شيشيرون ! وهكذا أرغم الأصمَّ على السماع والنائمَ على اليقظة ، وأصبح اسم شيشيرون على كل شفة ، وسعى قيصر يخطب وده ، وبلغ أمانيه فى بضعة شهور .

* * *

ثم لم تلبث أنباء ما كان كاتيلينا يدبره أن ملأت الأسماع ، وكان شيشيرون منصرفاً منذ

حين إلى أخبار صديقه بُومبى فى آسيا الصغرى ، مشتغلاً بأخبار النصر على ضفاف البحر الأسود عن شائعات الشر المقبل على ضفاف التيبر ، فلم يلق بالا أول الأمر إلى هذا الحديث الذى بدأ يشغل أصحابه الشيوخ ويصرفهم عن بومبى وحربه مع مثرادات ، ولكنه لم يلبث أن أصغى إلى أطراف من الحديث كانت تصله لماماً عن طريق عبيده ، أو مصادفة عن سبيل أصدقائه القناصل والمراقبين والشيوخ .

وأدرك شيشرون بصادق حسه أن المسألة ليست مجرد فكرة طائشة مرت بذهن لوكيوس كاتيلينا ، وإنما هى مؤامرة خطيرة ربما قضت على روما ومجدها قضاء مبرماً ، لأن هذا الرجل الشرير العابث قد اقتنص فرصة سنحت له وألقت بين يديه بزمام جمهور أهل روما ، ذلك أن عاملاً آخر من كبار العمال وقف أمام مجلس الشيوخ ليبرىء نفسه من تهمة التبديد ، وكان هذا الرجل ـ واسمه مانِلْيوس ـ قريباً إلى قلوب العامة بسبب ما كان يفيض عليهم من المال وما كان يتيح لهم من أسباب اللهو والمسرة ، وكان العوام يودون لو برئت ساحته ليمضى فى عمله ولا ينقطع عنهم إكرامه ، لا يسألون بعد ذلك إن كان الكرم من ماله أم من مال الدولة . فلما وقف يستمع للتهمة لم يكن أقل ثقة فى البراءة من فِيرِّس ، وتواترت عليه التهم من جانب الشيوخ ، وعجب شيشيرون من ذلك الأمر ، لأن العهد بالشيوخ ألا يصل الحماس بهم لصالح الدولة هذا المبلغ ، ولم يلبث أن اكتشف أن الهجوم عليه تحامل مرجعه كراهة بومبى ، وكان بومبى صديقاً لشيشيرون ، فلم يلبث هذا أن قام فى قاعة المجلس يدافع عن الرجل ويرد عنه حملة المألبين عليه . وهاجم النبلاء هجوماً عنيفاً وانتقد أعمالهم فى كلام تردد فى آذان الجمهور تردد السحر ، ونجا مانيليوس مما كان يدبَّر له ، وانهزم الأشراف المتربعون كالآلهة على مقاعد المجلس أحفظتهم على شيشيرون ، وأثارت فى نفوسهم الحقد ، ودفعتهم إلى التحدث فى القضاء عليه والخلاص من شره جملة .

استشعر كاتيلينا أن الفرصة مناسبة ، فإن الخلاف قائم بين الشعب والأشراف ، والخصومة مستطيرة بين هؤلاء وبين شيشيرون ، وبومبى غائب بجيوشه ، وليس هناك ما يرد عابثاً جريئاً عن عبث يدبره للدولة ويفيد فى إنقاذه من هذه الظروف القائمة كلها ، ولكنه كان خائفاً من هذا الشيخ الجرىء شيشيرون ، الذى كان لا يدع مفسداً إلا وضعه موضع

الاتهام ولم يفلته إلا بالعقوبة ، وكان هو ـ أى كاتيلينا ـ رجلاً سيئاً شرِّيراً يتحدث الناس فى روما عن سوء أفاعيله وعن مظاهر إسرافه وفساد خلقه ، وكانوا يحكون أنه يشترى ضمائر الناس بما يوسع عليهم وبما يُلطِّفهم به من طرائف ما ينهب ، وكان شيشيرون يكرهه ويحتقره ، فجعل الرجل يدبر خلاص نفسه ، وهداه الفكر إلى أن يعقد الخناصر مع طائفة من المفسدين أمثاله على أن يستعينوا بالعامة والعبيد ويقلبوا الدولة قلباً ، ويضعوا أيديهم على أموالها قبل أن يعود بومبى كما قدمنا .

وبدأ فرشح نفسه للقنصلية ، ورشح لزمالته فى هذا المنصب الرفيع صديقاً له ضعيفاً يسمى جَايُوس أنطونيوس ، وقدَّر هو وأصحابه أنه إذا وصل إلى القنصلية أطلق يديه وأيديهم فى مال الدولة يفعلون به ما يشاءون ، وكان لا يشك فى أن أحداً لا يجرؤ على تحديه بعد أن طارت الشائعات بأن وراءه من العبيد آلافاً لن تتأخر عن افتراس من تحدثه نفسه بالتحدى ، ولكن شيشيرون لم يرهب شيئاً ، ودخل المعركة أمام هذا الرجل الشرير وفاز عليه فزاده ضعفاً ، وكان أنصار كاتيلينا قد أعدوا قوانين خطرة من شأنها أن تضع مال الدولة تحت يد القنصلين يفعلان فيه ما يشاءان ، وكانوا يعولون فى ذلك على وصول كاتيلينا وصاحبه إلى المنصبين الخطيرين ، واستشعر شيشيرون ذلك فمضى يخطب ويناقش حتى هدم هذه القوانين وقضى عليها قضاء مبرماً ، واطمأن إلى أن خطر هؤلاء القوم قد أبعد إلى حين .

ولقد تعلّم الرومان فى ذلك الحين عن شيشيرون دروساً كبرى : أولها أن الخطيب لا يكون بليغاً مبيناً إلا إذا تصدى لقضية عادلة ، لأن البلاغة لا تكون بلاغة إلا إذا كانت حقاً ، وأن إنساناً مهماً بلغ من الفصاحة لن يستطيع الدفاع عن قضية باطلة ؛ وثانيها أن الحق لا يُغلب إذا عرف صاحبه كيف يتحدث عنه ؛ وثالثها أن الحاكم ينبغى أن يتحرى صالح الدولة فيؤيده دون أن يصرف عنايته إلى تَرضى الناس واجتذاب قلوبهم ؛ ورابعها أن الإنسان إذا اشتبك فى خصومة كان لِزَامًا عليه أن يحرص على ألا تبدر من لسانه بدوات تجرح كرامات الناس فى غير موجب .

ورأى كاتيلينا وأصحابه أن شيشيرون سيضيع عليهم الفرصة التى عقدوا عليها

أحلامهم جميعاً ، وبلغتهم الأنباء أن بومبى ـ صديق شيشيرون ـ فى طريقه إلى روما ، فلم يبق أمامهم إلا التعجيل فى إنفاذ الشر الذى دبروا ، وانضمت إليهم فلول جيش سولًا المهزوم ، وكانوا طوائف من الشذوذ والسفاكين تفرقوا فى نواحى إيطاليا بعد هزيمة قائدهم ولبثوا ينتظرون فرصة تواتيهم لإنفاذ ما كانوا يحلمون به من السفك والنهب ، فلم يكادوا يستشعرون ميل كاتيلينا إلى مثل ذلك حتى أسرع رؤساؤهم إلى روما وعقدوا معه الخناصر ، وبات الناس فى هذا البلد العظيم يُرْجفون بهول المصائب المقبلة ، وخمدت الأنفاس وأسكت الخوف الألسن ، واحتاج الأمر إلى قلب قوى جرىء يدفع عن الناس البلاء .

هنا لم يتردد شيشيرون فى التحدى ، وذهب إلى مجلس الشيوخ ونادى كاتيلينا بأعلى صوته ، وسأله عن هذه الأراجيف التى تحوم حول اسمه ، فأجاب الرجل إجابةً لم تدع إلى الشك فى نواياه سبيلاً ، قال : « إذا رأيت جسدين أحدهما ضعيف مسلول وله رأس قوى ، والآخر ضخم قوى ولا رأس له ، فما الخطأ فى أن أنقل الرأس القوى من الجسد الضعيف إلى الجسد القوى ؟ » يريد بذلك أن مجلس الشيوخ ضعيف عاجز ولكنه يملك السلطة ، وأن الشعب قوى عظيم لا يملك منها شيئاً ، وأن علاج الأمر لا يكون إلا بنقل السلطان من مجلس الشيوخ إلى العوام . وفهم شيشيرون الخطر الذى يستتر وراء مثل هذا الكلام ، وكان أوان الانتخابات للقنصلية قد أوشك ، فآلى على نفسه أن يحول بين كاتيلينا وهذا المنصب ، وإن كلفه ذلك دَمه ، ومازال يدعو ضده ويعرض نفسه للأخطار حتى صرف الناس عنه واستقر فى القنصلية رجلان آخران مأمونان فيهما خير وثقة .

بهذا اطمأن شيشيرون برهة من الزمان من ناحية كاتيلينا وأصحابه ، ولم ينفق هذه البرهة فى انتظار وتوقع ، بل عجل بالعمل فى يقظة وحزم ، لأن المتآمرين كانوا جادين فى العمل لايكاد يصرفهم عنه شىء : كان جنودهم يتجمعون على عجل فى إتْرُوريا شمالى روما ، وكانوا يقسمون أنفسهم فرقاً لكل منها عملها ، وكان لِنْتُولوس شريك كاتيلينا والمتآمر معه قد دبر خطة رهيبة للقضاء على روما وأهلها ومجلس الشيوخ خاصة ، وكان قد اختزن أسلحة وعتاداً وكبريتاً وأعدها لليلة الموعودة ، وكان يقدر أنه إذا أقبلت هذه الليلة أشعلت الحرائق دفعة واحدة فى نواحى البلد كلها ووقف نفر من المتآمرين على ضفاف التيبر يمنعون الناس من أخذ الماء لإطفاء النار ، ثم تمضى فرق من الجند إلى منازل الشيوخ

فتقتلهم واحداً واحداً مع أسرهم ، لا يبقون إلا على أولاد بومبى ، لا رحمة بهم وإنما لكى يحتفظ المتآمرون بهم رهائن لإرغام بومبى على السكوت ؛ فإذا تم هذا فقد أصبحت الدولة وخزائن مالها بيد كاتيلينا ولنتولوس وأصحابهما ، ولم يعد أحد بعد ذلك يجرؤ على رفع هامته، وانتهى ذلك الملكُ العريض إلى هذه الطغمة الباغية تفعل به ما تريد .

وانتشرت الأراجيف وسادت البلد كله رهبة مروعة ، وغدا الناس إذا ذكروا كاتيلينا لم يتحدثوا إلا حديث الهمس ، بل سعى بعضهم إلى المتآمرين يريدون أن يشتروا أنفسهم بشىء من نفاق . ولم ينقطع كاتيلينا أثناء ذلك عن حضور مجلس الشيوخ ، ولكنه كان إذا حضر أقبل مزهواً رافع الرأس يحيط به الحواشى والأتباع . وكان شيشيرون يشعر بحرج الموقف ولكنه لم يكن ليستطيع فعل شىء ، لأنه لم يكن ليملك وثيقة واحدة تثبت جزيمة المتآمرين ، فتركهم وظل يتربص بهم الدوائر . واحترز هو لنفسه ، فكان لا يسير إلا فى ركب من الحراس والأعوان ، ومضى يدس العيون ويرصد الأرصاد حتى تجمعت لديه أسباب اتهام ، ثم وافاه بعض أنصاره من أمثال ماركوس كراسوس وماركوس مارسيللوس، وسيبيو متللوس برسائل تثبت جناية المتآمرين إثباتاً لا يرقى إليه الشك ، فلما استوثق مما بيده أحس أن اللحظة الحاسمة قد اقتربت ، وأنه لابد فاعل شيئاً وإلا دهمه المتآمرون فى سواد ليل . ومضى ذات يوم إلى الكابيتول وجعل يفاتح أصحابه من الشيوخ ، فوجد منهم خوفاً وإشفاقاً ، لأن الأنباء كانت قد تواترت بأن كاتيلينا وأصحابه قد أكملوا عدتهم ، وأن أياماً لن تنقضى حتى يصبح المتآمرون سادة هذا الملك الواسع وسادة الكابيتول وسادة شيشيرون !.

وعاد شيشيرون إلى داره فى المساء متعباً مكدوداً ، به من الخوف على روما أكبر مما به من الإشفاق على نفسه ، ولبث ليله يتدبر الأمر فلا يظفر بما يخرج به من ذلك البلاء المحيق ، فما حيلته أمام هذا الفتى القوى الذى أخرس الألسن ونشر الخوف ؟ وماذا تراه صانعاً إذا أقبلت جماعات الجند المتآمر ؟ أهو مصبح من غده منطلقاً إلى إترُوريا ليبايع كاتيلينا ويبذل له الطاعة وينجو بنفسه من الهلكة ؟ أم تراه يجمع متاعه فيرحل عن البلد حتى يأذن الله ويعود صديقه بومبى ؟ ترى كيف لقاؤه آلهة الرومان إن هو هرب هذا الهرب المعيب

وتخلى عن واجبه ساعة الخطر ؟ وكيف لقاؤه الأجدادَ لو فرَّط فى هذا التراث الذى خلفوه له وائتمنوه عليه ؟ .

فإذا كان الغدُ فقد أقبل الشيوخ يتحدثون إلى شيشيرون ويرجونه أن ينصرف عن هذا الذى يبغى من معارضة كاتيلينا ، وألا يرفع رأسه أمامه ، وبلغوه أنه قد أقسم ليأخذن أعداءه أخذ عزيز مقتدر ، وليرمينهم للسباع أو للحيتان ، ولينظمنهم فى ركابه صفاً مصفدين فى الحديد يركبهم الناس بالسخرية والمجانة ويركبهم الجلادون بالسياط .

ولكنه أبى ، وظل ساعات طويلة منطوياً على نفسه شارد الفكر لايكاد يهتدى إلى شىء ، وأيس أصحابه منه إذ استوثقوا أنه ثابت لم ينثن عما عزم عليه ، وأنه لا يزال يدبر حتف نفسه ، فمضوا عنه وأخذوا خيله وعربته حتى لا يجد ما يركبه إذا هو هم بالمسير إلى الكابيتول ، وكان يسكن فى ضاحية قريبة من روما .

واقترب الليل وأقبل الخطر ، وأمر الرجل بعربته فلم يسرع الخدم بها إليه ، وافتقد خيوله فلم يظفر بها ، فلم يتردد رغم ذلك فى أن ينطلق على قدميه مشتملاً بشملته البيضاء حتى أقبل على الكابيتول فى أوائل المساء ، وكان المتآمرون يلقونه فى الطريق فلا يزيد على أن ينظر إليهم بغير اكتراث . وأقبل على صحن الكابيتول فإذا الشيوخ جالسون يحدث بعضهم بعضاً ويعزى بعضهم بعضاً ، فلما بصروا به مقبلاً أدركوا أن الرجل لم يأت لهيِّن ، وإنما هو يريد أمراً تنبىء عنه حركات يديه وتتحدث به أسارير وجهه .

لم يأخذ مكانه حيث كان ينبغى له أن يجلس ، بل مضى يدير البصر فى جوانب القاعة كمن يبحث عن شىء ، فلم يلبث بصره أن صافح كاتيلينا وسرعان ما اتجه إليه فى خطى متزنة وجنان ثابت ، وقد تسمَّر نظره فى وجه الخائن حتى ملأ بالرعب نفسه ، فإذا كان على خطوات منه فقد أخرج من شملته الأوراق التى كان أعدها ، وانطلق صوته يتردد فى جوانب القاعة منادياً الخائن باسمه ، داعياً إياه إلى الوقوف موقف المتهم .

وتناول مطارف الخائن فانتزعها عنه فجمد الدم فى عروقه ، وقد كان ـ ككل الخونة ـ جباناً هلوعَ النفس ، يكفى أن تواجهه مرة فى حزم حتى تتفرق نفسه ، ولقد كان قبل هذه اللحظة قوياً عزيزاً بجنده وصحبه ، أما وهو وحيد أمام شيشيرون الرهيب فهو أذل من جرو شَرَد عن أهله .

ثم انثنى إلى الشيوخ فإذا هم وقوف مما بهم من خوف ، فاعتلى المنبر وأنشأ يخطب خطابه الذى لا يكاد إنسان يقرؤه حتى تثور فى نفسه أعمق الإحساسات وأرفع المشاعر ، والذى يصفه بلوتارخوس بأن أوله من ذهب وآخره من نار ! وجَّه التهمة فى تؤدة وحماسة ، وأتبعها بالأسانيد فى دقة وبلاغة ، ولم يفرغ منها حتى كان الخائن قد شعر بأنه مجرم حقاً ، وأنه الآن فى قبضة الشيوخ يستطيعون أن يحاكموه ويأخذوه بجريرته ، ولم يعد له ملجأ إلا الفرار إلى جنده المتجمع فى إتْرُوريا علّه يستطيع شيئاً . وملكت الحيرة أصحاب كاتيلينا فلم يستبينوا للصواب وجهاً ولا للفكر سبيلاً ، وإنما أخذهم شيشيرون بحديثه أخذاً وسحرهم بجرأته سحراً فتسارعوا يطلبون النجاة .

ظل الرجل يتحدث ثلاث ساعات ، وختم حديثه بين هتاف الشيوخ وصياح الشعب الذى انكشف عنه الخوف وزايله الاضطراب ، والأمم يعوزها فى لحظات الخطر مثلُ هذا الصوت ، يبدد ما حولها من ضباب الشكوك ، ويخرج بها من ظلمات المخاوف ، ويجمع القلوب المتفرقة إلى لواء واحد ، والقلوب إذا اجتمعت أنس بعضها إلى بعض واستشعرت الشجاعة وتطلعت إلى العمل . فأخذ الشعب يطالب بدم الخونة ، ولكن شيشيرون وجد أن الحكمة تقضى بأن يتريث فلا يسدد ضرباته على عجل مخافة أن يروع الجند الثائر المتجمع فى إترووريا فلا يلبث أن ينثال على العاصمة انثيالا خطراً ، ثم إنه لا يملك الحق فى القبض على كاتيلينا دون محاكمة أمام محكمة خاصة ، وهو لم يفعل فى مجلس الشيوخ إلا مجرد توجيه التهمة ، وعلى المجلس بعد ذلك أن يقرر ما يشاء ، وحسب كاتيلينا مالقى الساعة ، فلن يلبث المجلس أن يوجه إليه التهمة ويدعوه إلى المحاكمة ، وقد نهض الشعب الآن واحترز لنفسه وارتدت إليه شجاعته ، ولم يعد جند المتآمرين ليستطيع أن يفجأهم على غرة .

وقام كاتيلينا يتعثر فى أذيال الخيبة ، وأخذ طريقه إلى خارج المجلس ، وأقبل الشيوخ على شيشيرون يهنئونه بما أصاب من توفيق ، ويسألونه ألا ينصرف وحيداً مخافة أن يصيبه أحد من الخونة بضر . وكان كاتيلينا قد أرصد للرجل من يقتله فيريحه منه ، وصف له على جوانب الطريق جمعاً من القتلة متحفزين ليقضوا فيه قضاءهم .

ولكن الخناجر لم تكن لتخيف شيشيرون ، فاشتمل بشملته وخرج إلى الطريق يحيط به أصحابه وحراسه ، فلقيه المؤتمرون وجعلوا ينظرون إليه فى غضب ، فلم يكن ليزيد على أن

يبتسم ، ومضى فى طريقه فإذا المتآمرون أول الهاتفين له وأول المُكْبرين لما بذل من نفسه لقاء وطنه العزيز . لقد فتح كلام شيشيرون عيونهم على الخطر المحدق ، وبصرهم بجناية ماكانوا يدبِّرون ، وكان معظمهم سذَّجاً خدعهم ذلك الخائن التعيس بها منّاهم من خير كثير، وكانوا يسيئون الظن بمجلس الشيوخ ، يحسبون أن أعضاءه لا يجتمعون على خير للناس ، وأن الخير فى الخلاص منهم ، فلما تحدث شيشيرون انجلى الحق أمام الأعين وارتد الهدى إلى النفوس .

ومضى الرجل إلى داره فألفى الرسل قد سبقوه بأخبار الحرب فى آسيا ، وفيها أن صديقه بومبى يسأله شيئاً يذكره به فلم يجد إلا شملة كاتيلينا ، وكانت لا تزال فى يده ! فدفع بها إلى الرسل وهو يقول : « قولوا له إننا اشترينا روما بهذه ! » . وكان على حق فيما قال ، فلو لم يجرؤ شيشيرون على التقدم نحو المتآمر وينزع ثوبه الذى كان يتدثر به لما جرؤ أحد على القيام فى وجهه ، وكان قد أرعب القلوب بتدبيره كما رأينا ، فكانت هذه الخطوات التى سارها شيشيرون نحو هذا الرجل خطوات نحو الموت ، إذ لم يكن أحد ليعرف ما دبر كاتيلينا ولا ما يطوى تحت ثيابه ، وقد فجأه شيشيرون فجأة فرقت عزمه ، ثم عاجله بذلك الخطاب الذى فضح أمره ونشر على الناس صفحته السوداء ، فلم يبق حوله رجل واحد فى نفسه من النخوة جانب إلا انقلب عليه ، وصغر كاتيلينا وأصحابه فى نفوسهم ، واستيقظت حَمِية الناس ، واستعدوا للقضاء عليهم .

وهذا ما وقع : فرّ كاتيلينا إلى جنده وبعثت الحكومة إليه من حاربه حتى هزمه وقضى على من معه ، وقُبض على من بقى من أصحابه فى روما وقتلوا ، وخلص البلد من شرهم .

لقد أنقذ شيشيرون وطنه بما أبدى من الهمة والنخوة ، وقد لقبه الرومان فيما بعد بأبىْ الوطن ، وكان بذلك حقيقاً .

القسم الثانى

صور من البطولة الإسلامية

أسد الله وأسد رسوله

حمزة بن عبد المطلب

أولئك هم أعداء الإسلام وأعداء الرسول ، قد اجتمعوا فى ساحة الكعبة يتذاكرون أمره ويتندرون به ويركبونه بالـمَجانة ..

أولئك هم قد غَشّى الجهل أفئدتهم ، واستغرق العناد قلوبهم ، وخامر نفوسهم الشيطان، فلم يجدوا إلا أكرم الخلق وأرفع عباد الله قدراً يتخذون منه سبيلاً للهو ومركبًا للتسلية ..

وهذا أبو جهل يتوسطهم بهذه السحنة الجافية واللحية الشوهاء ، يحدثهم عن مساءاته للنبى الأعزل الكريم محمد ، ويفخر بينهم بما أنزل به من ضُر وما دبَّر له من كيد ..

وهؤلاء هم يستمعون إليه فى شىء من الرضا وشىء من العجب ، وإن شيئًا من السخر ليمر بقلوبهم من هذا الرجل الجلف البغيض الذى يغريه كرمُ محمد وتسامُحه با لمزيد فى الأذى . وهم يعلمون أن محمدًا إنما يسكت عنه عفافًا عن الأذى وحلمًا عن الجهل ، ولو قد طاوع نفسه واسترسل مع الغضب لعرف كيف يؤدب هذا المغرور . بل إن بعضهم لينكر من محمدٍ هذا الحلم ويرى أنه ضعف ، لأنهم يعلمون أنه رجل شديد قوى القلب لا يخشى أبا جهل ولا أبا لهب ، ولو أراد لأدبهما ولألزمهما حدودهما ، ولكنه خُلِق صبورًا كريمًا ، مسرفًا فى الصبر والكرم ، يريد أن يؤدب الناس ويردهم عن الجاهلية بحلمه وكرم نفسه .

وإنهم يتساءلون : ماذا يدفع هذين الجلفين وأمثالهما إلى هذا الإسراف فى اللَّدد مع هذا الفتى الكريم ، وهو لم يؤذ فى يوم أحدًا ولم يمس قريشًا ولا شيئًا من مال قريش بما لايرضيها؟ وقد يضحك بعضهم مما يرويه هذا الكهل الغر أبو جهل ، ويعجبون كيف يرضى لنفسه هذا العبث الذى لا ترضاه قريش من شيوخها ، ويجعل نفسه لعبة فى يد

العابثين الذين يغرونه بمحمد الكريم . وإن بعض عقلاء قريش ليحدثونه فى ذلك يرجون أن يردوه بالحسنى عن أذاه ، ولكن أبا جهل لا يرتد ، لأنه خُلِق جافى الطبع مغلق النفس لا يكاد أدب محمد وحلمه يردانه عن غيه ، ولم يبق إلا أن يؤخذ مرة أخذًا قويًا عنيفًا حتى يرتد إليه صوابه .

وكان محمد يتخذ لنفسه بين الحين والحين مجلسًا عند الصَّفا يحدّث الناس فيه بدينه ويدعوهم إليهبالحسنى ، فإذا لم يجتمع إليه أحد انفرد بنفسه يتأمل الناس ويفكر فى شأنه . فبينما هو جالس يوما إذ مر به أبو جهل ، فأغراه انفراد محمد بالعدوان عليه ـ دأبه فى كل حين ـ « فآذاه وشتمه ، وناله ببعض ما يكره من العيب لدينه والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله ﷺ ، ومولاةٌ لعبد الله بن جُدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرَّة فى مسكن لها تسمع ذلك . ثم انصرف عنه ، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة ، فجلس معهم . فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحًا قوسه ، راجعًا من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمرَّ على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعزَّ فتيان قريش وأشدهم شكيمة . فلما مر بالمولاة ، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته ، قالت له : « يا أبا عمارة ! لو رأيتَ ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى الحكم بن هشام : وجَدَه هاهنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد ﷺ » . فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ، ولم يقف على أحد ، مُعدًّا لأبى جهل ـ إذا لقيه ـ أن يوقع به . فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا فى القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجةً منكرة ، ثم قال : « أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فردَّ ذلك علىَّ إن استطعت ! » . فقامت رجال من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : «دعوا أبا عمارة ، فإنى والله قد سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا » . وتمَّ حمزة رضى الله عنه على إسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله »[1] .

---

(١) محمد بن هشام ، سيرة الرسول ﷺ (طبعة المطبعة التجارية ، القاهرة ، ١٩٣٨) جـ١ ، ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

هكذا أعلن حمزة بن عبد المطلب إسلامه فى لحظة اشتدت فيها حاجة الإسلام إليه ، وقد أراد الله أن يكون دخوله الدين المجيد على وجه من الشهامة يكشف لنا عن الكثير من نواحى الجمال فى نفسه . فقد كانت نفسه تهوى إلى محمد وما يدعو إليه منذ زمن طويل ، وكان بِطَبعه شابا شهماً سليم دواعى الصدر ينفق وقته فى الصيد ، شأنه فى ذلك شأن الخليين من ذوى الهمة والنجدة . وكان قد سمع محمدًا يدعو إلى الإسلام ووعَى عنه كلامه وآمن به ، وقرر فى نفسه أن يكون إلى جانبه يدفع عنه بنفسه لو فكرت قريش فى مدافعته وأذاه . وانصرف بعد ذلك إلى صيده ، لأن نفسه لم تكن تطيق السكوت . وقد بَرأه الله شجاعا جرىء القلب ، تشرئب نفسه إلى الحرب والكفاح . وكان يرى قريشًا تتخوف محمدًا، وتحاول أن ترده عن دعواه بالمناقشة حينًا والعنف تارة أخرى ، ولكن هذا العنف لم يَعْدُ أن يكون جلافة تصدر عن حمقى من أمثال أبى جهل وأبى لهب . فلما بلغه أن أبا جهل عدا حده واشتد فى سباب ابن أخيه وصديقه محمد ، تصدى له على هذا النحو العنيف الذى رد أبا جهل إلى صوابه .

ولسنا نعلل سكوت أبى جهل على ذلك وكَفَّه المخزوميين عن التعرض لحمزة إلا بأنه رأى فى عينى حمزة من الغضب والأهبة لرد العادية ما أخافه وأرهبه ، ولو قد نهض المخزوميون لحمزة لعصف بهم عصفًا عنيفًا سيعرفه الناس عنه فى مقبل الأيام ، وربما استطارت بين قريش نيران خصومة لا يأمن أبو جهل وأمثاله مصيرهم فيها ، ففضل السكوت على مضض ، ولعلها صحوة من ضميره بعثت فى نفسه الندم على ما أفحش فى الكلام مع محمد هى التى حفزته على السكوت ، لأن سكوت محمد عنه وتحامله عليه كان حريًّا أن يخجله من نفسه مهما بلغت غلظة نفسه وجلافة ما طبعت عليه .

وكان حمزة عمًّا لمحمد ، ولكنه لم يكن ليَكْبره إلا بأربع سنوات ، فلم تكن الصلة بينهما صلة العم بابن أخيه بل صلة الصديق بالصديق ، فقد نشآ تِرْبَيَن يمرحان فى نواحى مكة وصبيين تجمعهما دواعى السن والنسب ، ثم انصرف محمد منذ السن الباكرة إلى ما هيأه الله له من الرعى والتجارة ، فى حين انصرف حمزة إلى ما كان أبناء عبد المطلب منصرفين إليه من اللهو حينًا ومن شئون السيادة حينًا .

وكان حمزة أعطف بنى عبد المطلب على محمد ابن أخيه عبد الله ، إذ كان عبد الله قد توفى وحمزة فى السادسة ، فشب وهو يسمع من آله أخبار أخيه الشاب الذى اختطفه الموت على صورة محزنة فى المدينة بعيدًا عن أهله وزوجه وولده ؛ فلما بلغ حمزة مبلغ الإدراك كان من أرقّ خَلْق الله لابن أخيه اليتيم ، ثم رأى منه بعد ذلك ما زاد له احترامًا وحُبًّا : كرمَ نفس ، واستقامةَ خُلق ، فمالت إليه نفسه ، وجمع الله بين قلبيهما . ولا نزاع فى أن محمدًا كان يصطفيه ويفضى إليه بذات نفسه ، قبل أن ينزل عليه الوحى ويبعثه الله نبيًا .

ومصداق ذلك أن خديجة بنت خويلد لما عرضت نفسها على محمد ليتزوجها كان حمزة أول آله سعيًا فى إتمام الزواج ، ولما كانت خديجة « أواسط نساء قريش نسبًا وأعظمهن شرفًا وأكثرهن مالا ، وكل قومها كان حريصًا على ذلك منها لا يقدر عليه » فقد سرّ ذلك حمزة ومضى يعين ابن أخيه وصاحبه عليه ، فخرج معه حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه . وظل بعد ذلك صاحبًا له وصفياً ، لا يكاد محمد يفعل من الأمر شيئًا حتى يحدّث فيه حمزة . ولو قد تعرض محمد وأمره للأذى من أول الأمر لبادر حمزة إلى إعلان إسلامه ، ولكنه كان فتى ذا نشاط وميل إلى الحركة ، فمضى سادرًا فى لهوه البرىء من الصيد ، وتركه محمد لأنه كان يعلم ما تنطوى عليه نفسه من الحب له والاستعداد للكفاح فى سبيله ، لا يخامره الشك فى أنه لا يلبث أن يقف إلى جانبه إذا جد الجد وتحرج الأمر ؛ حتى كان ما كان من أبى جهل وإعلان حمزة إسلامه على ملأ من قريش .

ثم خلا حمزة بعد ذلك إلى نفسه فعجب عجبًا شديدًا ، فإن ابن أخيه محمدًا لأثير على نفسه : لقد رضعا سويا من لبان ثويبة جارية أبى لهب ، وقد قضيا سنوات الصبوة والشباب معا ، وهذا محمد يمتحن ويؤذى ، يحسبه الناس وحيدا لا ناصر له ، وحمزة سادر فى صيده ولعبه ومراحه كأنما الأمر لا يعنيه . ولو قد دعا محمد إلى شر أو إلى معصية لكان لحمزة عذر فى التخلف عنه ، أما وهو يدعو الناس إلى هذا الحق الناصع فكيف السبيل إلى التأخير ؟ وهؤلاء أصحابه الذين بايعوه فى العقبة الصغرى يُبدون من مظاهر الخلق الكريم ما يغرى باتِّباعهم وانتهاج سبيلهم ، ففيم التردد ؟ هنا فتح الله قلب حمزة للإيمان ، واصطفاه للجنة والنعيم والجهاد ، فلم يشعر إلا وهو فى طريقه إلى دار أرقم حيث كان

محمد يجتمع برفاقه ، حتى إذا أفضى إلى مجلس الرسول ، فقد بسط كفه وبايعه بقلب صاف كريم وجنان ثابت ، وعاهده على أن يكون نصيره ما عاش .

* * *

أسلم حمزة وبدأت قلوب بنى عبد المطلب تهوى إلى محمد وتطالع بقية قريش بالعداوة ، ولم يخرج عن إجماعها فى تأييد محمد ونصرته إلا أبو لهب عبد العزى ، فقد كان ضيق العقل والصدر لا يكاد إدراكه يعدو ما يرى ، وكان يقول : « يعدنى محمد أشياء لا أراها ، يزعم أنها كائنة بعد الموت ، فماذا وضع فى يدى بعد ذلك ؟ » ثم ينفخ فى يديه ويقول : « تبًّا لكما، ما أرى فيكما شيئا مما يقول محمد ! » . وكان يجد نفسه سعيدًا السعادة كلها إذ تؤكد له امرأة ـ مثل هند بنت عتبة بن ربيعة ـ أنه نَصَر اللات والعزى بهذا الجهل . وبدأ الخوف يسرى فى نفس قريش لهذا الموقف الذى يقفه بنو عبد المطلب منها بعد إسلام حمزة ، وبدأت سادات قريش يتمثلون الخطر الذى يدهمهم من جراء هذا الانفصال ، ولم يعد فى استطاعتهم أن يستصغروا أمر محمد أو يعدوا عليه بالسخر والمهانة كما كانوا يفعلون ، لأنهم باتوا يخشون غضبة حمزة وأمثاله من الشباب الأنوف الزاهر الذى حفلت به الدعوة المحمدية . وبدأوا يبعثون لمحمد الرسل ـ مثل عتبة بن ربيعة ـ يعرضون عليه المال والـمُلك والخيرَ على أن يتخلى عن دعوته هذه ، فكان الرسل لا يكادون يلقون محمدًا حتى تهوى نفوسهم إليه ويعودوا إلى قومهم وبهم شبه السحر ! حتى غلاة القرشيين من أمثال عتبة بن ربيعة الذى عاد من عند محمد مفتونًا أو يكاد ، يرجو قريشًا أن تخلى بين محمد وبين ما يريد ، فكان جوابهم : « سحرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه ! » .

ولكن بنى عبد الدار لم يكن ليرضيهم هذا ، إذ كانوا سادةً فى قريش ينفِسون على بنى عبد المطلب ما عسى أن يبلغوه من علو المكانة بهذا الفتى الذى نبغ فيهم ، وكانوا أذكياء لا يكاد يفوتهم صدقُ ما يدعو إليه محمد وخطره ، ومضوا يجادلون محمدا يريدون أن يصرفوا الناس عنه بالمنطق كما كسبهم هو إلى دعوته بالمنطق ، فلم يفلحوا ، وزاد أمر محمد ظهورًا . ثم كان إسلام عُمَر وما تلاه من اشتداد قريش مع المسلمين ومحاولتها صرفهم عن دينهم الذى آمنوا به ، فكان عمر وحمزة درعى محمد يردان عنه الباغى ويكسِران شِرَّةَ المسىء

وتطاولَ السفيه ، ولولاهما لعصفت قريش بالمؤمنين عصفا ، ولكن خوفها من سيفى عمر وحمزة ردها إلى العقل ، فظلت لا تجرؤ على مهاجمتهم هجوما مسلحا عنيفا ، ولم تكد تدرك منهم على شدة اللدد أمرًا ذا بال .

حتى إذا تأذن الله بالهجرة الكريمة ، كان حمزة وعمر من آخر المهاجرين هجرة ، نصبا نفسيهما درعين لإخوانهما فى الدين ، فلما هاجر حمزة آخى محمد بينه وبين مولاه زيد ، فكان حمزة فخورًا أبدا بأخيه هذا ، وكان هذا آية من آيات الإسلام ، ولو قد تطلع مولى إلى أخوة حمزة فى الجاهلية لعد حمزة ذلك مهانة لا يكاد يمحوها دم ، ولكن الإسلامَ نور ، والنور إذا ملأ القلب أزال نوازغ الجهل والعصبية منها .

* * *

واستقر أمر الرسول فى المدينة ، وآتاه الله من عون أهلها ونصر من هاجر إليها من أهل مكة ما مكنه من السير بحكومتها وأهلها فى الطريق السوى ، حتى إذا استقر أمر الإسلام واطمأن الرسول على أمره ، وجد الفرصة قد حانت ليبدأ مع قريش ذلك الصراع العنيف الذى انتهى بنصر الإسلام واستقرار أمره فى الجزيرة العربية كلها .

هنا سنحت الفرصة لحمزة للعمل ، وكان الله قد طواه على جندى ذى بأس لا يرهب النزال ، ومحارب ذى حيلة وبصر بشئون القتال ، فلما آن الأوان للإسلام لينتقل إلى دور النزاع المسلح حان الوقت ليفيد من حمزة . وكان رسول الله أول الناس تَفَطُّنًا إلى ملكاته واقتداره ، فعهد إليه فى قيادة أول بعث إسلامى حربى ، فكان حمزة بهذا أول قائد مسلم ، وأول سلسلة طويلة من القادة القادرين الذين حملوا لواء الإسلام جيلا بعد جيل ، ومضوا بالعقيدة الكريمة موفقة منصورة فى مشارق الأرض ومغاربها .

عقد رسول الله أولَ راية فى الإسلام لعمه حمزة بن عبد المطلب ، وأمَّره على بعث صغير من ثلاثين راكبًا ، وسيرهم لكى يلقوا بعثًا تجاريا لقريش كان عائدًا من الشام . ويبدو أن رسول الله كان يرمى من وراء هذا البعث إلى مجرد الاستطلاع وإشعار قريش بقوة المسلمين وتأهبهم لنضال خصومهم ، للقضاء على الشرك بحد السيف بعد أن عجزت الحسنى عن

إقناع المشركين والسادرين فى الغى بالتخلى عن ذلك العناد البغيض الجامد الذى كانوا يجابهون به الإسلام وأهله ، لا يكاد مرور الأيام يزيدهم إلا عنادًا وجهلا .

بعث رسول الله حمزة فى هذا البعث الصغير ليلقى رأس المعاندين أبا جهل بن هشام عند العِيصِ من شاطىء البحر ، لعل أبا جهل يرتدع عن غيه ويرعوى عن هذا السفه الذى كان لا يزال يلقى به المسلمين قبل الهجرة ، وهذا اللدد الذى يعامل به من بقى منهم فى مكة بعد هجرة الرسول إلى المدينة . وليس إلى الشك سبيل فى أن رسول الله لم يكلف حمزة بالقتال ، ولو أمره به لقاتل ، فلم يكن حمزة بالذى يخشى ثلاثمائة قرشى أيا كان العدد الذى معه قليلا . اكتفى بإرهاب أبى جهل وقريش معه ، وقَبل وساطة مَجْدِىٍّ بن عُمَر الجهنى وعاد إلى المدينة . ولو كان رسول الله قد عهد إليه فى القتال ولم يقاتل لسأله فى ذلك ، ولكن الرسول لم يسأله مما يدل على أن حمزة قام با لمهمة التى خرج من أجلها .

ويبدو أن تعرض المسلمين لعير قريش قد أثار أبا جهل وبعث غضبه ، فمضى يلج فى عنفه على عهده ، ولكنه لم يوفق إلى شىء ، فانطوت نفسه على حسرة وكمد . وفى ذلك يقول شاعر متأخر فى أبيات نسبها إلى حمزة ، وهى ليست له من غير شك ، ولكننا نرويها لأنها تصور جانبًا ساذجًا طريفًا من جوانب هذا النزاع :

فلما تراءينا أناخوا فعقَّلوا	مطايا وعقلنا مدى غرض النَّبل
فقلنا لهم : حبل الإله نصيرنا	وما لكم إلا الضلالة من حبل
فثار أبو جهل هنالك باغيا	فخابوا ، ورد الله كيد أبى جهل
وما نحن إلا فى ثلاثين راكبا	وهم مئتان بعد واحدة فضل

ثم كانت أيام بدر ، ووقف الإسلام وجهًا لوجه أمام الشرك فى أولى مواقعه الكبرى . وكانت قريش لا تزال فى غيها تحسب محمدا وأصحابه طائفة يسيرة ، لا تلبث أن تتفرق إذا حملت عليها قريش حملة رجل واحد . وكان أبو جهل حين وقف يصر على القتال ويهون على قريش أمر المسلمين لا يشك فى أنهم فئة قليلة مستضعفة لا تملك الثبات له ولأمثاله من فحول العرب ، وكلما حاول أحد من أحلافه أن يبصره بخطورة الموقف وبما قد ينزل به

وبقريش من الخسائر زاد فى إصراره ، ومضى يلج فى العداوة ساخرًا من المسلمين ومن محمد : لا يكاد يقيم لهم وزناً أو يخشى لهم أمرا .

فلما كان اللقاء ـ فى اليوم السابع عشر من رمضان ـ ألقت مكة بأفلاذ أكبادها فى حومة الوغى ، كما قال رسول الله . ووقف رجال من قريش وأحلافها ـ كل منهم سيد فى قومه ، ولم يكن أحد فى الجزيرة ليجرؤ على أن يخالف لهؤلاء الفحول أمراً ـ وقف عتبة بن ربيعة ، وشيبة ابن ربيعة ، وأبو البحترى بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدى بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبوجهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، وسهيل بن حجر ومن إليهم ، ووقف أمامهم شباب المؤمنين ممن كانوا إلى الأمس القريب لا يجرؤون على خلاف أمر لواحد من هؤلاء الشيوخ ، ولكن الإيمان ملأ قلوبهم وأحالهم أسودا لا يكاد يثبت أمامهم أحد .

خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومى من صفوف المشركين ، وقال يسخر من المسلمين: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأموتن دونه ! وكان الحوض من وراء المسلمين ، يحسب أن أحدًا منهم لن يجرؤ على الوقوف فى سبيله ، وأنه يخترق صفوفهم آمنا أو كالآمن ، فما هو إلا أن برز من الصفوف حتى تقدم له حمزة وضربه بالسيف ضربة قطعت ساقه ، فوقع على الأرض تشخب ساقه دما ، وبلغ به العتو أن أراد الزحف رغم ذلك حتى يصل الحوض ليهدمه ! فلم يمهله حمزة وأجهز عليه . كل ذلك والمشركون ينظرون ذاهلين من جرأة هذا الفتى ، وقد بدأوا يفهمون أن الأمر جد خالص لا هزل فيه ، وعلم أبو جهل أن المسألة ليست مسألة إقامة بهيجة على ماء بدر « تنحر الجزر وتطعم الطعام وتشرب الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا بعدها .. » .

وخرج عتبة بن ربيعة سيد قريش ، وأخوه شيبة ، وابنه الوليد ، يتحدون المسلمين ليبرزوا لهم من يجرؤ على الخروج من رجالهم ، فأحب بعض الأنصار الخروج لهم ، فرفضوا مبارزتهم فى شىء من الصلف ، وأبوا أن يبارزوا إلا قرشيين ، فندب رسول الله عبيدة بن الحارث وحمزة ابن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب فبرزوا لهم ، فأما على فلم يلبث أن قتل الوليد ، ولم يكد عُتبة يتقدم من حمزة حتى ضربه حمزة فأجهز عليه ، ثم التفت إلى صاحبه عبيدة وقد

ثبت له شيبة فأقبل إليه يعينه فأجهز عليه ، وبهذا عدمت قريش ثلاثة من أنجادها فى بعض ساعة ، وزاد أمرها حرجا .

واحتدم أوار المعركة وثار النقع وتهاوت السيوف ، وهجم المؤمنون هجمة المؤمن الصادق لا يكاد شىء يرده عن سبيله ، وكان حمزة قد علّم نفسه بريشة نعامة ثبتها فى صدره ، فكان طوال المعركة كالأسد الضارى لا يكاد يثبت فى مكان ، لا يرى واحدًا من كبار المشركين إلا انقض عليه انقضاض الصاعقة وأجهز عليه ، ولا يرى واحدًا من إخوانه المسلمين إلا خف لنجدته وأعانه على عدوه ، حتى روع المشركين بنجدته وأوقع الرعب فى قلوبهم . روى عبد الرحمن بن عوف أنه أسرَ أميةَ بن خلف وابنه واقتادهما إلى صفوف المسلمين ، فإنه لسائر بينهما إذ سأل أمية : « مَن الرجل منكم المعلم بريشة نعامة فى صدره؟» فقال عبد الرحمن : « ذلك حمزة بن عبد المطلب ! » فقال أمية : « ذلك الذى فعل بنا الأفاعيل ! » .

وانقضى يوم بدر بنصر حافل للإسلام وأهله ، نصر مؤزر دخل به الإسلام فى دور التوسع ، وانصرف من بقى من المشركين إلى مكة وهم يشعرون أن يوم قريش قد دنا ، وأن جماعة فيها أسود من طراز حمزة وعلىّ لن تغلب على أمرها أبدًا .

* * *

وانطوت قريش على نفسها تكتوى أضالعها بحر المصيبة ، وقد تجلد رجالها ونساؤها تجلدًا يبعث على العجب مما فطر عليه أولئك القرشيون من الصبر والشدة ، وتعاهدوا على ألا يبكوا موتاهم مخافة أن يشمت المسلمين فيهم ، فظلوا على مضض يجالدون الألم ويمنون النفس بالثأر القريب . ذلك أن المصيبة كانت أجل مما قدروا ، فقد قُتل من ساداتهم من قُتل ، وأُسر من أُسر ، وذلت القبيلة العزيزة بأسرها ذلا لم يكن ليخطر لأحد من رجالها على بال ، حتى لقد بلغ الألم من بعضهم مبلغاً لم يستطع معه أن يعيش كمدا وحسرة ، وسكنت ريح قريش برهة وإن قلوب أهلها لتحتدم بنار الثأر احتداما . وقد عرف رجالها نفرًا من المسلمين ممن أبلوا البلاء العظيم الكريم يوم بدر ، فجعلوا يترصدون بهم الأيام ، ولم يبلغ حقدهم على أحد مبلغه على حمزة « أسد الله وأسد رسوله » بطل بدر الذى فعل بقريش ورجالها الأفاعيل ، كما قال أمية بن خلف .

وجعلت قريش تستعد ليوم تبلغ فيه ثأرها ، وجعل رجالاتها يمشون إلى بعض يدبرون لهذا الأمر عدته ، وجمعوا أموالاً جسيمة حتى لم يعد أحد منهم ـ رجلاً كان أو امرأة ـ إلا ساهم فى العدة بنفسه أو بماله ، وخرج رجالهم وكماتهم وخلفهم الظعائن يشدون أزرهم ويحرضنهم على القتال ثأرًا لمن لقى مصرعه فى بدر من بعولتهن أو أبنائهن أو إخوتهن . وكانت هند بنت عتبة أشد نساء قريش دعوة لهذا الثأر ، أن لقى أبوها وأخواها مصارعهم فى بدر ، وكان حقدها مؤججا على حمزة قاتل أخويها ، واستصحب أهل مكة من قدروا عليه من أوليائهم ، ورصدوا لقتل حمزة ! فلو قال قائل إن نصف من خرج من المشركين كان يطلب ثأرًا عند هذا البطل الكريم ما بالغ ، ولو قد نجا حمزة من أُحُدٍ ولم يلق مصرعه فيها لكان ذلك من معجزات الدهر ، فما ينجو إنسان جرىء القلب يخوض المعارك بجنان ثابت وحوله هؤلاء الأرصاد من كل ناحية .

ثم كان يوم أُحد وما وقع فيه من مخالفة رماة المسلمين لما قرره الرسول الكريم ورجاله من خطة للمعركة ، كانوا خمسين رجلاً يرمون بالنبل يقودهم عبد الله بن جبير ، وضعهم الرسول فى مخرم من مخارم جبل أُحد ليحموا ظهور المسلمين من أن يفجأهم المشركون من خلف . ثم التقى الجمعان وأبدى كماة المسلمين من النجدة ما لا يوصف ، وكان حمزة سيفاً من سيوف الله لا يلقى مشركا إلا صرعه . لقيه أرطأة بن عبد شرحبيل ـ أحد كماة بنى عبدالدار وأحد حملة لواء قريش ـ فقتله ، وعرض له سُباع بن العزى الغبشانى فأجهز عليه، ومضى على عهده يضرب يمنة ويسرة والعيون له رصد ، وكل مشرك موتور يتسقط لحظة يغتاله فيها .

وكان جُبير بن مطعم قد رصد غلامَه وحشِيًّا ووعده أن يعتقه إذا هو أصاب حمزة ، وكان وحشىٌّ عبدًا حبشيًا يجيد رمى الحربة الطويلة ، فلم يكد حمزة يفرغ من سُباع بن عبد العزى، حتى أمكنت الحبشىَّ الفرصةُ ليصوب حربته نحوه ، ثم أرسلها فى عنف ، فوقعت فى ثنة حمزة ، فالتفت حمزة نحوه ومضى إليه ليصرعه ، ولكن الحربة كانت قد تمكنت منه وسال دمه فلم يلبث أن تعثر ووقع على الأرض وأسلم روحه الطاهرة .

وانجلت المعركة عن هزيمة المسلمين . وخرجت هند بنت عتبة تبحث عن قاتل

أخويها حتى إذا عثرت على جثمانه الكريم فقد مثلت به شر تمثيل ، وخرج الرسول الكريم يلتمس عمه الشهيد ، فوجده ببطن الوادى على هذه الصورة المحزنة ، فبكى وملك الحزن نفسه وقال : « لن أصاب بمثلك أبدًا ، لم أقف موقفاً قط أغيظ إلىّ من هذا ! » ؛ ثم صلى عليه .

ذلكم رجل آمن إيماناً حسناً شاملاً ، عاش لإيمانه وفى سبيله مات ، دخل الإسلام منتصفاً لمحمد ، ومات مقاتلاً فى سبيل الله ، وقد بلغ من تفانيه فى نصرة الدين أن محمدًا سماه : « أسد الله وأسد رسوله » . وقد عاش فى أقسى فترات حياة محمد ، ولم يعرف الحياة منذ أسلم إلا مضطهدًا أو مشردًا أو مجاهدًا ، ولم يمهله الله حتى يرى عز الإسلام بعد فتح مكة ، وحتى يرى رايات الدين ترفرف على الجحافل ماضية لفتح الدنيا ، بل لم يمهله القدر الملاحِقُ حتى ينعم من الراحة لقاء هذا الجهد الكريم الذى بذل .

لقد ادخر الله له جزاءه كله فى الجنة التى جعلها مثوى لأكرم شهداء المسلمين .



إيمـــان رجـــل

أبـو حنيفة النعمان بـن ثـابت

استقام الملك للعباسيين بعد اثنتين وثلاثين ومائة سنة للهجرة ، ومضوا يثبتون ملكهم وينزعون عن أنفسهم هذا الرداء الذى كانوا يشتملون به طوال أيام الدعوة لكى يكسبوا إليهم عطف المسلمين ، وكانوا إلى هذا الزمان يعلنون ويؤكدون أنهم يَدْعون لسلالة الرسول من فاطمة الزهراء وعلىّ ، وأنهم لا يبغون لأنفسهم سلطانًا ، وأن كل غايتهم إنما هى انتزاع الأمر من الأمويين الغاصبين ورده إلى بيت النبى الكريم ، وصدَّقهم العلويون وأشركوهم فى الدعوة وخلطوهم بأنفسهم ، لفرط ما أبدوه من الحماسة للبيت النبوى وما أظهروه من العداوة للأمويين .

وكان الأمويون رجالا ذوى حزم وبعد نظر ، فمازالوا يتعقبون الهاشميين علويين وعباسيين بالتنكيل والقتل ، لا يكاد يحصل فى يدهم واحد منهم حتى يسلموه للجلاد . ورعب الهاشميون وأشياعهم وطلبوا بطن الأرض تقية وسياسة ، حتى إذا استشعروا ضعف الأمويين واستروحوا انفراط عقدهم وتعدد الثورات عليهم واختلاف بعضهم على بعض وضياع أمرهم بما كان من فتن المضرية والقيسية ، عاود الأمل نفوسهم واستيقظت آمالهم فى الغلب والسلطان ، فعقدوا مجمعًا كبيرًا للهاشميين جميعًا بايعوا فيه لمحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على المعروف بالنفس الزكية ، واعتبروه أولى أهل الأرض بزعامة المسلمين إذا تأذن الله بذهاب ريح الأموية ، وكان فى المبايعين السفاح والمنصور ونفر من بنى العباس ، وتفرق الجمع ومضى كل من اشترك فيه يثيرون الناس سرًا على العباسيين ويدعونهم إلى المبايعة لواحد من أهل البيت أخفوا اسمه خوفًا عليه وضمانًا لنجاح الدعوة.

وكان فى الهاشميين عباسيون أى من نسل العباس ، وطالبيون علويون أى من نسل على ابن أبى طالب ، وكان العباسيون أذكى وأنشط وأحسن سياسة ، فجعل عميدهم محمد بن

على العباسى يوجه أنصاره توجيهًا سياسيًا ماهرًا ، فزعم أن محمدًا بن الحنفية ـ وارث حق عليّ فى الخلافة ـ تنازل له ، وبهذا وجه الدعوة إلى نفسه وإلى أبنائه من العباسيين ، فى حين كان القائمون على الدعوة للطالبيين متهاونين ، فيهم كثير من الكسل والتواكل ، فما هو إلا حين حتى كان كبار الدعاة وأصحاب النشاط من الدعاة يدعون لبنى العباس ، ولم يكتفوا بمجرد الدعوة بل يمموا شطر خراسان حيث كان الإسلام نقيًا ساذجا ، وحيث قلوب الناس متطلعة إلى المساهمة فى سياسة الدولة الإسلامية . واشتد ساعدهم بهذا الشاب العبقرى أبى مسلم الخراسانى ، فلم تلبث الدعوة أن أصبحت انقلابًا كبيرًا : جيَّش أبومسلم من الناس جيوشا ، وقضى على خلافة الأمويين ، وبايع لعبد الله المعروف بالسفَّاح أول خلفاء بنى العباس .

وكان العباسيون يداورون العلويين طالما كان الأمر أمر دعوى ومحاولة ، ولكن السلطان استقام لهم آخر الأمر بحد السيف ، ومادام السيف فى يمينهم فما حاجتهم إلى التماس القوة من عطف الناس ؟ وما حاجتهم إلى مداورة العلويين وخداعهم مادام فى استطاعتهم أن يأمروا فيُطاعوا وأن يرغبوا فيجابوا ، ومادام وراءهم الجيش الذى يلقى الرهبة فى نفوس الخصوم ، والمال الذى يسكت الساخط ، ويملأ فم الغاضب ، ومادام لهم من هيبة السلطان وامتداد الملك وعتو الجبروت ما لا يستطيع معه إنسان أن ينهض لهم مسائلا ، أو معارضًا ؟ وما يحوجهم إلى محاسنة العلويين أو مراعاة شعورهم وشعور من ينضوى تحت جناحهم ؟ من هنا لجأوا إلى العنف الذى كانوا يأخذونه على الأمويين ، ومضوا يتعقبونهم بالأذى ، فلا يكاد أحدهم أو داعية من دعاتهم يتحرك حتى تأخذه السيوف . فهذا محمد النفس الزكية رأس العلويين وأعظمهم قدرًا يثور فى المدينة ويؤازره أخوه ابراهيم فى البصرة، فماهو إلا أن يتوجه إليهما عيسى بن موسى فى قوة عباسية حتى يتفرق عنهما الناس ويسقطان فى الميدان على أهون سبيل ، وهذه قلوب الباقين من العلويين ترتعد فرقا من العباسيين وسيوفهم ، وأولئك هم المسلمون جميعًا يقبلون إلى بغداد يبايعون ويعلنون الخضوع رهبة وطواعية ..

ولكن المنصور كان يعرف أن المال إلى زوال ، وأن الجيوش كالسلع تشترى ببدر الذهب وساحر القول ، وأن هذه البيعة القائمة لا تثبت إلا إذا أيَّدها قادة الفكر وأصحاب المكانة

عند الناس من ذوى العلم والمعرفة . وقد حفل العصر بنفر من أعظم المسلمين علما وفقها فيهم سفيان الثورى ، وشريك النخعى ، وابن أبى ليلى ، وداود بن أبى هند ، ومالك بن أنس ، وأبو حنيفة . وكان مالك وأبو حنيفة أعلم أهل ذلك الزمان ، وقد اجتمعت إليهما قلوب الناس ، وكان المنصور يعلم أنهما لا يرضيان عنه أو عن سياسته ، فقد بلغه أن الإمام مالكا أفتى بنقض بيعة المنصور ، وقال لأهل المدينة : « إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين » . ولم يكن أبو حنيفة أقل كراهية لأمر المنصور من مالك ، ولكنه ظل صامتًا لايتكلم، وكان يقيم فى العراق ، وقد اجتمعت إليه قلوب الناس ، فكان لابد من كسبه وطيِّه فى الأمر الجديد .

* * *

كان الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت يمضى إذ ذاك من الخمسين إلى الستين على مهل، وكان قد قضى هذا العمر الطويل فى دراسة متصلة وتفكير دائم فى شئون الدين الحنيف . وكان الدين إذ ذاك فى أول أمره لم تتقرر أصوله ولم تثبت فروعه على هذا النحو الثابت المنظم الذى نجده عليه اليوم : كانت الفرق الدينية عشرات لكل منها رأيها ومذهبها ، وكان المفكرون يقضون حياتهم فى جدل حول آيات القرآن ودرر الحديث ، وكان الطامعون فى القيام بأمر المسلمين فرقا وأحزابًا تصطرع فى السر والعلن ، كل يمنِّى نفسه ببردة الخلافة وصولجان الملك .

وكانت مساجد البصرة والكوفة وبغداد والفسطاط ميادين حرب فكرية لا تكاد تخبو فى رحابها حدة المناقشات بين هذه الطوائف كلها ، فكنتَ إذا أفضيت إلى مسجد الكوفة مثلاً رأيت عجبًا : هذا محدث قد التف الناس حوله جعل يروى أحاديث يؤكدها بالأسانيد ثم يفسرها تفسيرًا ساذجًا قصيصًا لطيفًا ، وهذا معتزلى يؤكد للناس أن الأمر كله أمر عقل وتفكير ، وأن الإنسان ينبغى أن يؤمن بعقله وقلبه معًا ، لا يقبل شيئاً قضية مسلمة ولا يستنكر شيئاً إلا إذا دله العقل على أنه مستنكر حقًا ، وهو لا يتحرج من تناول آى الذكر الكريم بهذه الجرأة وهذه الحرية . وهذا فتى من سامعيه ينهض للرد عليه ولا يلبث أن يرميه بالكفر ، وتشتد المعركة بين الاثنين ، ويتعصب لكل منهما فريق حتى تصبح حلقة

الدرس وكأنها ميدان قتال . وعلى مقربة منهما قدرى يؤكد للناس أن الحياة كلها تقدير من الله ، وأن الإنسان فيها مسوق لا رأى له ولا إرادة ، ومن ثم يشكك الناس فى العقاب والثواب وفى قيمة الدين كله . وهناك مرجىء يسخر من هؤلاء وهؤلاء ، ويقول : « يا قوم أتعبتم والله أنفسكم ! هلا تركتم الناس لخالقهم وأرجأتم الحكم إلى أن يقضى الله قضاءه» وهكذا ... عالَمٌ حافل ، فيه المسلم المتشدد ، والمسلم الهين الذى يعجب ممن يرون بأسًا فى كأس نبيذ ! وفيهم المجوسى ، وفيهم المتآمر الخطر الذى يبطن دعوة خطرة وينتهز الفرص ويتخير فرائسه بين هذه الآلاف .

فى هذا الوسط المضطرب الحافل نشأ أبو حنيفة ، ونما وترعرع فى أيام الأمويين ، ورأى دولتهم تهوى وشهد بعينه مصارع رجالهم ، وقامت الدولة العباسية بين سمعه وبصره فتفاءل بمقدمها خيرًا ، لأنه كان مولى من أصل فارسى ، وكان الموالى لا يأمنون على أنفسهم . ولو أراد أبو حنيفة شيئًا من خير الدنيا من العباسيين لما ترددوا ، ولكنه كان رجلاً من طراز فريد ، كان يعلم أن كل خير يأتى عن يد السلطان هباءٌ لا غناء فيه ، وأن خير الناس من ظل فى غمار الناس خادمًا ناصحًا ، وكان إلى ذلك بعيد النظر شديد الحيطة لا يغامر بكثرة الكلام ولا يتسرع فى الحكم على الأشياء ، فأقام يرقب الدنيا تجرى أمام بصره مراقبة من يدرى ويفهم .

لعل أهم ما كان يميز أبا حنيفة عن بقية أهل عصره هو هذا الفكر المرتب القوى الذى يتناول الأمر من جميع نواحيه ، ولا يزال يستقصيه حتى يصل إلى أغواره ، ولسنا نجد مثالاً لهذا أحسن من موقفه من الحياة ، فقد كان يفهم أن الحياة ليست ديناً صرفا ولا تفكيرًا خالصًا ، وإنما هى كذلك سعى إلى الرزق وجهد فى سبيل العيش الكريم ، فكان على انصرافه إلى شئون الدين لا يهمل أمر معاشه . كان تاجرًا موفقًا ماهرًا ، يتجر فى الخز فى قدرة ومهارة . قال قيس بن الربيع : « كان أبو حنيفة يبعث بالبضائع إلى بغداد فيشترى بها الأمتعة ويحملها إلى الكوفة ، ويجمع الأرباح عنده من سنة إلى سنة ، حتى جمع من ذلك ثروة طائلة ، ولم تكن وجهته من ذلك جمع المال والاستمتاع بأطايب الدنيا ، بل كان يرجو من ذلك الستر فى الدنيا ورفع الغمة عن الخلق » .

وكان إلى ذلك رجلا حسن الذوق يعنى بمظهره عناية من يرتاح للشىء الحسن ، يتأنق

فى مظهره ويتعطر حتى كان إذا أقبل عرفه الناس من بعيد برائحة عطره ، وكان قد برأه الله على صورة جميلة وسمت حسن ، إذا استقر فى مجلسه فى المسجد امتلأت منه العيون قبل أن تمتلىء القلوب .

وكان تصرفه فى المال من أجل نواحى خلقه ، لا يحتفظ منه إلا بالقدر الذى يهيىء له حياة كريمة لينة ويغنيه عن الناس ، فإذا بقى شىء أنفقه على المحتاجين وشيوخ العلماء ، لم يسأله أحد إلا أجابه إليها . وكان لا ينفك يعين الناس على دهرهم ، ثم لا يكاد يطيق أن يوجه إليه أحد كلمة شكر ، كان إذا شكره واحد قال له : « أشكر الله تعالى ، فإنما هو رزق ساقه الله إليك ! » .

وقد روى سفيان بن ابراهيم أن أبا حنيفة أقرض ذات مرة رجلاً شيئًا من المال ، وتعسر على الرجل الأداء ، فجعل يتوارى عن أبى حنيفة إذا لقيه فى الطريق حياء منه ، فآلم ذلك أباحنيفة فلاحقه فى الطريق وقال له : « سبحان الله ! بلغ بك الأمر إلى هذا ، حتى إذا رأيتنى تواريت عنى ؟ قد وهبت لك مثل ذلك كله ، وأشهدت على نفسى ، فلا تتوار منى بعد هذا ، واجعلنى فى حل مما دخل فى قلبك منى حيث لقيتنى ! » . وكان إذا أقبل إليه طالب علم فقير أغناه ، وأجرى عليه وعلى عياله حتى يفرغ من التعلم ، فإذا تم له ذلك قال له : « قد وصلت إلى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام ! » .

ولم يشغله ذلك عن الدين ، بل إنه ما كان يفعل ذلك كله إلا ليهيىء لنفسه صفاء ونقاء يصونان دينه عن أن يبتذله فى سبيل الدنيا ، كان ماله خير معين له على الانصراف للدرس والتفقه فى شئون الدين . كان يفرغ من شئون تجارته ويعهد إلى كل من أصحابه بما ينبغى أن يفعله ، ثم ينهض إلى حلقات الدرس فلا يزال يدرس ويقرأ ويسمع ويناقش ، حتى يذهل الناس بما أوتيه من الصبر والجلد على الدرس وما وهبه الله من الذكاء ودقة الفهم ، وكان لايعجبه من الناس دراستهم للدين على ذلك الأسلوب المهلهل المضطرب الذى يختلط فيه كل شىء . كان يرى أن أصول الشريعة لازالت مضطربة فى عقول الناس ، يروون فى الشىء الواحد الأحاديث المتفرقة ، يتعارض بعضها مع بعض فلا يكاد العقل ينتهى إلى رأى واضح فيها يستطيع الأخذ به ، وقد يعرض الموضوع فلا يزال الفقهاء يبحثون عن

موقف الدين منه فلا يكادون يعثرون على ذلك إلا بشق النفس . فجعل همه التنظيم والتبويب ، أخذ يجمع الأحاديث ويبوبها ويربطها بما يتصل بها من آراء الصحابة والتابعين ويرتب ذلك كله ، ومازال ينظم ويبوب حتى انتظمت أحكام الدين فى شتى المسائل فى اتجاه واحد عرف بمذهب أبى حنيفة ، فكان بهذا أول من رتب أحكام الدين وهيأها للتطبيق على شئون الحياة ، وهو فاتح هذا الطريق الذى جعل من الإسلام قانوناً ينظم شئون المسلمين فى الحياة لا مجرد عقيدة نظرية خالصة .

لهذا كثر تلاميذ أبى حنيفة حتى أصبح مقصد كل من طلب التفقه فى الدين أو التبحر فى العلم ، وانتشر تلاميذه فى كل مكان وأخذوا يذيعون فقهه وآراءه ، حتى أصبح الرجل علما على العلم والشريعة فى بلاد المسلمين ، وسارت الركبان تتحدث عن فضله وعلمه وعن شخصه حتى فتن الناس به افتتانا . ورجل كهذا تطمع الدولة فى تأييده ، وتسعى إلى طيه تحت طيلسانها حتى تكسب به من عطف الناس ما هى بحاجة إليه ؛ وكان أبو جعفر المنصور رجلا ذكيا ، فتفطن إلى أنه لابد له من تأييد أبى حنيفة حتى يتوثق سلطانه بين الناس . وقد ذكرتُ لك أن العباسيين لم يكادوا يستقرون فى كراسى السلطان حتى انقلبوا على الطالبيين وأخذوا يتتبعونهم بالأذى ، ودارت عيونهم تطلب الأنصار فى كل مكان ، وأخذ الناس يَشُكّون فى شرعية خلافتهم ، وتحدث نفر كثير فى أن الأمر ينبغى أن يكون للطالبيين دون العباسيين ، وخشى المنصور أن يستقر ذلك فى أذهان الناس فلا يلبثوا أن يصبحوا هم والأمويون فى أعين الناس سواء ، فجعل يدعو أئمة العلم والفقه والشرع إلى تأييده والوقوف إلى جانبه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن يضعهم فى مناصب القضاء والاستشارة ، فلا يلبث جاه المنصب أن يطفىء رؤاء العلم ويقضى على حرية الفكر ، ولايلبث العالم الجليل أن يصبح من رجال السلطان يميل به إلى حيث يميل .

كان أبو حنيفة الحصيف يعرف ذلك ، كان يكره مناصب الدولة حذرا أن يميل به المنصب عن مواقع الرشاد والتقى ، حدثوا أن ابن هبيرة أمير العراق فى زمن بنى أمية قد كثرت عليه الفتن ، وخاف أن ينصرف الناس عن الدولة ، فرأى أن يتدارك الفتنة قبل أن يشتد ساعدها ، فدعا إلى بابه جماعة من أئمة العلماء فى العراق وعهد إليهم فى المناصب الكبيرة ، وكان يرجو من ذلك أن يقول الناس : « إذا كان أبو حنيفة ، وابن أبى ليلى ، وداود

ابن هند ، من عمال الأموية ، فلابد أن تكون دولتهم على الحق ، ولا حرج علينا فى تأييدهم!» فقبل أكثر العلماء ما عرض عليهم خوفًا من السلطان أو طمعًا فى الجاه ، وأرسل إلى أبى حنيفة ليكون على خاتمه ، فلا ينفذ كتاب من الأمير إلا إذا ختمه الإمام الكبير ، ولا يخرج شىء من بيت المال إلا بإذنه ، فأبى أبو حنيفة ، فحلف ابن هبيرة ليضربنه إن لم يفعل، فجعل أصحابه من الفقهاء يقولون له : « إننا ننشدك الله أن تملك نفسك ، فإننا إخوانك ، وكلنا كاره لهذا الأمر ، لم نختره ، ولم نجد بدا من ذلك ! » فأبى وقال : « لو أرادنى أن أعد له أبواب المسجد لم أفعل ، فكيف وهو يريد أن يكتب بضرب عنق رجل مسلم ، وأختم أنا على ذلك الكتاب ! فوالله لا أدخل فى هذا أبدًا » ، فحبسه صاحب الشرطة جمعتين لم يعذبه ، ثم ضربه أربعة عشر سوطا .

وحَسِب ابن هبيرة أن أبا حنيفة يكره أن يكون صاحب الخاتم لأنه يخشى أن يكون من حاشية الأمير ، فطلب إليه أن يكون على قضاء الكوفة ، فظل الرجل على إبائه ، وكلما زاد إباءً ، زاد ابن هبيرة فى أذاه دون أن يبلغ منه شيئا .

فلما أقبل المنصور وأحس شكَّ الناس فى أمر دولته ، أدرك أن أول ما ينبغى أن يكون هو أن يكسب إلى نفسه ود العلماء والأئمة حتى يقفوا إلى جانبه ويؤيدوا دعوته ، ويلقوا فى روع الناس أن العباسيين أصحاب حق لا نزاع فيه ، وأنهم أولى بهذا الأمر من العلويين .

وكان رجاء المنصور فى ذلك كبيرا ، لأنه كان رغم بخله كريما فى هذه المناسبات يعرف كيف يسخو ، ولأنه كان بطاشا لا يحفل أىَّ دم أراق ، فلم يكد يفتح بابه للعلماء حتى تهافتوا عليه ، ولم يكد المال يستقر فى الجيوب حتى أخذ جلتهم يرددون ما طلب إليهم العباسيون قوله ، وأصبح الناس فإذا كل قاض وكل إمام يحدثهم بما للعباسيين من حق وما لهم من فضل ، وبما ينبغى على المؤمنين من الطاعة لهذا البيت الكريم .

ووفق المنصور فى ذلك توفيقًا كبيرًا ، وانضوى تحت لوائه نفر كبير من أهل العلم والفقه فى ذلك الأوان . ولكنه لم يكن ليستريح ، فقد بقيت من العلماء طائفة لا تريد أن تبيع الآخرة بالمال ، طائفة أقسمت ألا ينال السلطان إيمانها بسوء ، وألا يكون عليها سلطان إلا الحق الذى يرضاه الله . بقيت هناك طائفة صغيرة جدًا ظلت ملتفة حول أبى حنيفة أعلم

أهل زمانه وأفقه من ضمته دولة الإسلام ، وكاد يكون أوسع الناس سلطانًا على القلوب . وأقام أصحاب الإيمان الصادق فى كافة أنحاء الدولة ينتظرون كلمة منه فى الدولة العباسية حتى يحددوا موقفهم منها .

استقدم المنصور أبا حنيفة وهو لا يشك فى أن الرجل مرحب بهذا النداء ، فلما أقبل عليه طلب إليه أن يلى قضاء البصرة ، وكان قضاء البصرة منصبًا يحلم به العلماء ويتهافت عليه الناس ، وكان المنصور لا يشك فى أن أبا حنيفة سيهلل لهذا العطف وأنه سينقلب من يومه فيصبح من أخص الدعاة للعباسيين .

ولكن الرجل رفض ! رفض أن يكون قاضيًا فى دولة من سَلَبَ أبناء الرسول حقهم ، فرُوِّع المنصور ، وخاف أن يتسامع الناس بذلك ، فأقسم على أبى حنيفة أن يقبل القضاء ، فحلف أبو حنيفة ألا يقبل ! فاستطار الغضب الربيعَ وزيرَ المنصور ، وعجب لإنسان تبلغ به الجرأة أن يرد قسم أمير المؤمنين ، فقال للإمام : « ألا ترى أمير المؤمنين قد حلف ؟ » .

فأجاب أبو حنيفة : « إن أمير المؤمنين أقدرُ على كفارة يمينه منى على كفارة يمينى .. ».

فقال المنصور : « أترغب عما نحن فيه ؟ » .

فأجاب الإمام : « أصلح الله أمير المؤمنين . يا أمير المؤمنين .. اتق الله ، ولا تشرك فى إمامتك من لا يخاف الله ! والله ما أنا مأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟ فلاأصلح لذلك ! » فقال المنصور : « كذبتَ ، أنت تصلح لذلك ! » فقال الإمام : « إن كنت صادقًا فقد أخبرت أمير المؤمنين أنى لا أصلح ، وإن كنت كاذبًا فكيف تولى قاضيًا كذابًا ؟ » .

هناك أعلنت الخصومة بين الخليفة والإمام ، ووقف هذا الرجل يناضل الخلافة ودولتها وحيدًا لا يكاد يحميه من عسفها أحد .

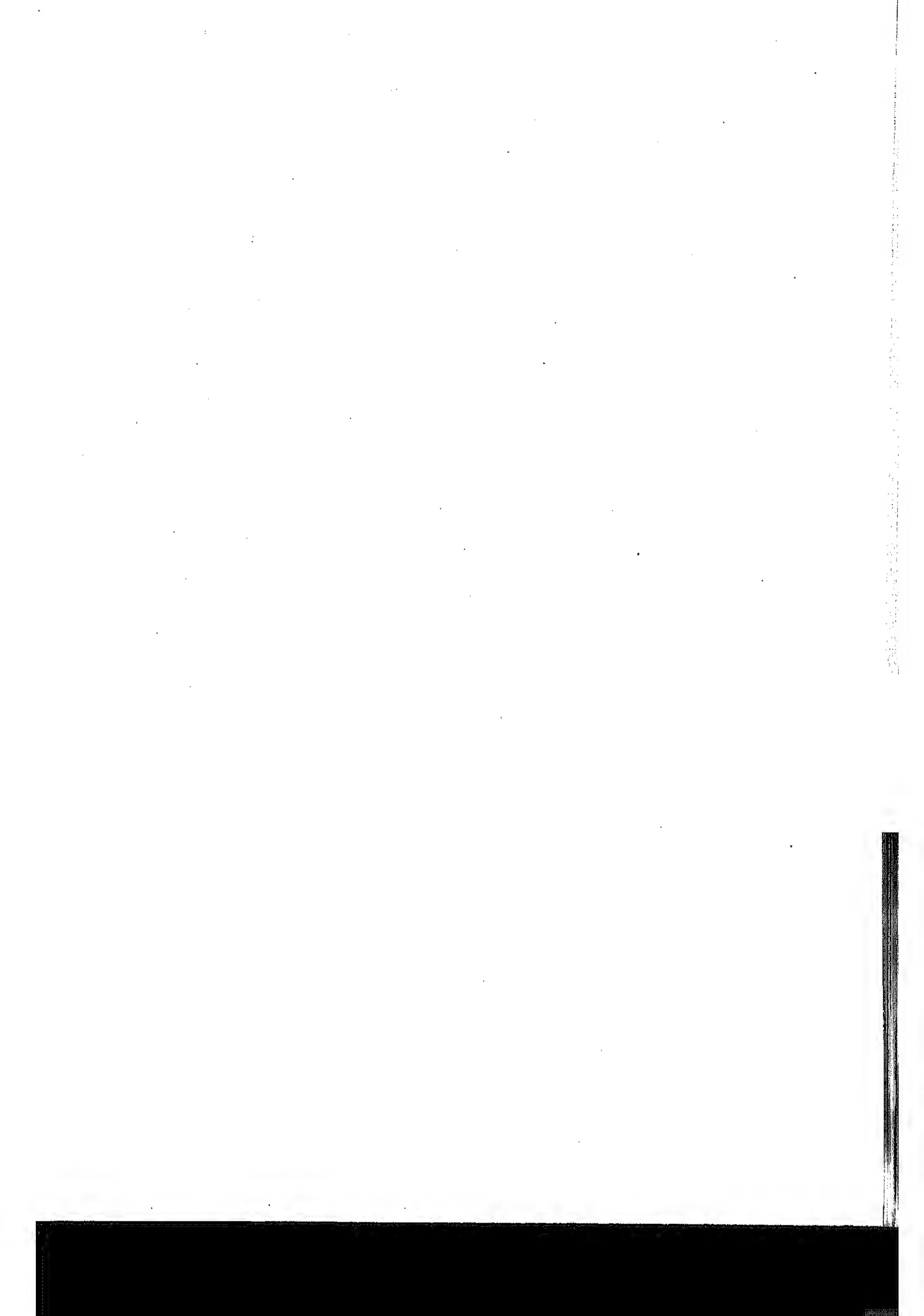
وجعل يحتمل العذاب راضيًا صابرًا ، يجلدونه بالسياط فيأبى ، ويحرمونه الطعام فيزداد إباء ، ويلقون به فى زمرة المجرمين والقتلة فى غياهب السجون فلا يتحول عن الحق ولا تلين قناته !

يئس المنصور من هذا الرجل ، وتأكد أنه لن يوفق معه إلى شىء عن سبيل المال أو السوط فكف عنه يده ، وأدركه شىء من الندم على ما فعل ، فبعث إليه بشىء من المال يعوض عليه بعض ما أصابه من الخسارة فى متجره والأذى فى بدنه .

وبلغ أبا حنيفة أن الخليفة أوصى له بمال فرفض أن يمس المال ، فلما كان اليوم الذى توقع أن يؤتى بالمال فيه ، صلى الصبح ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم حتى إذا أقبل الرسول بالمال قال : « ضعوا المال فى هذا الجراب فى زاوية البيت » .

ومات أبو حنيفة من أثر السياط والسجن والعذاب ، ورُد المال إلى بيت المال . فلم يملك أمير المؤمنين دمعه أن يسيل ! .

أولئك كانوا هم العلماء حقًا .. المسلمين حقًا ! .



صقر قريش

عبد الرحمن بن معاوية الداخل

الله يعلم ما تركت قتالهم   حتى علوا فرسى بأشقر مزبدِ

وشممت ريح الموت من تلقائهم   فى مأزق ، والخيل لم تتبددِ

وعلمت أنى إن أقاتل واحدًا   أُقتَلْ ، ولا يضرُرْ عدوى مشهدى

فصددت عنهم ، والأحبة فيهمُ   طمعًا لهم بعقاب يومٍ مرصدِ

كان الفتى يردد هذه الأبيات وإنه ليبكى ، كان مطرقًا يعبث بيده فى الماء الذى كان يضطرب تحت قدميه ، وكان يرفع رأسه - بين حين وحين - ليلقى نظرة إلى سفين بعيد يكاد الموج أن يخفيه ، و كان يشعر أن جسده يميل إلى الراحة ، وأن جفنه يطلب النوم ، فهذه ليال ثلاث لم يسكن له فيها جفن ، ولقد عبرت به من قبلها أشهر وسنون كان لا ينام فيها إلا غرارا ، ولم يكن ليغمض له خلالها جفن حتى يأتمر به عدو أو يهم به خصم . كان يعلم أنه أرسل آخر سهم فى كنانته حينما أرسل مولاه بدرا يتحسس له الأحوال فى الأندلس ، وكان لا يشك أنه هالك لا محالة إذا لم تدركه رحمة الله وتعطف عليه بعض القلوب فى هذه الجزيرة القاصية .

كان المكان قواء لا يطرقه إنسان ، ولكنه كان يفيض بالحياة ، فهذه أمواج البحر تهدر ، وهذه طيور الماء تُحَوِّم ، وهذا فؤاد الفتى أشد من البحر اضطرابا ، وهذه نفسه مرهفة الحس ترقب فى خوف عبث الأمواج بسفينته التى وضع فيها مولاه ومعه آماله بل أمله الوحيد . ثم أدركه التعب وأحس النوم يطغى على نفسه فلم يجد له دافعًا ، فنهض عن الصخرة التى ارتاح إليها ، وطوى قدمه عائدًا إلى البر ، فإذا أدركه فقد اطمأن إلى كهف بين الصخور ألقى جسده فيه إلقاء ، ثم استغرق فى نوم عميق .

كانت له سمة الملوك : طويل فى غير سرف ، عريض فى غير إفراط ، قوىٌّ ، تتحدث قسماته عن البأس الشديد والعزم الحديد . وكانت عليه ثياب غاليات أدركها البلى ، وفى قدميه نعلان أبلاهما طول السرى ، ولم يكن معه إلا كتابان أغلب الظن أن أحدهما القرآن ، وكان يبدو أنه مضطرب فى نومه لا يكاد يغرق فى النوم حتى يفيق : كانت الأفكار تذود النوم عن عينيه ، فها هو ذا يفيق وينهض ، ثم يعتمد رأسه بيديه وتأخذ الذكريات تخطر فى رأسه تباعا .

ذكر الفتى أيامه الأولى وهو فى غمرة الصبا ، يتنقل بين أدب المربى وملق الندماء ، ذكر قصر جده هشام فى رصافة دمشق ، وذكر حبَّ هشام إياه وإيثاره له وتفاؤله بمقدمه ، وذكر إعجاب العرافين بسمته وقراءتهم المجد مسطورًا على جبينه . ذكر هذا كله ، وطافت بنفسه حسرة على الأمل الضائع والحظ العاثر ، ثم انتقل بفكره إلى يوم أسود : ذكر كيف خرج إلى الصيد ثم عاد ، فإذا رايات العباسيين تخفق على داره ، وإذا الجند يضطربون فى بيته يجدُّون فى البحث عنه ، وسرى فى نفسه نوع من الرهبة لهذه الذكرى المروعة .

إنه ليذكر الآن كيف انطلق يعدو إلى فرسه وهو يعانى ألماً قاسيًا فى عينيه من رمد كان ملمًّا بهما ، وكيف امتطى صهوته وانطلق كالسهم المارق يقطع الفيافى والقفار ، وكيف دخل على أختيه فى الدار فروَّعهما إذ أنبأهما بطلب العباسيين له ، وكيف حزم متاعه على عجل ونادى أخاه ، وهرولا عجلين بعد أن ودعا أختيهما ، حتى إذا كانا بالباب فقد طالعتهما الرايات السود مرة أخرى كأنها الأكفان ترفرف فى الهواء ، فأدركهما الرعب وانقلبا على عقبيهما ، فلم يجدا إلا النهر أمامهما ، فألقيا نفسيهما فى الماء وأخذا يسبحان . فأما فتانا فقد أعانه ذراعه وأدرك الشاطىء الآخر ونجا ، وأما أخوه فقد أدركه الإعياء فانثنى إلى الشاطىء حيث تعاورته السيوف .. هنا أرسل الفتى دمعة حرَّى على الأخ الشهيد .

ثم حملته الذكريات إلى الشام حيث لقى خادميه بدرًا وسالماً ، فأعطياه من المال قدرًا ومن الحلى قدرًا آخر بعثت به أختاه ، وصحباه فى رحلته خلال مصر والمغرب إلى أقصاه ، وكانت الأرصاد مبثوثة تطلب الأمويين وتتعقبهم ، وكان هؤلاء قد انتشروا فى القفر والجبل طلبًا للنجاة ، وكان الناس يتربصون بهم الدوائر ، فأسلموا للعباسيين من وجدوه منهم .

ولم يطل بالشام مقامه ، فقد كانت يد عبد الله بن عليّ شديدة لا تكاد تعفى ، فانطلق إلى مصر حيث وجد الرعب شاملاً ، فهذا مصرع مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية يعلن له أن المقام بمصر محال ، وأن السلامة فى الفرار منها إلى المغرب للاعتصام فى جباله ووهاده .

ولو أن إنسانا آخر كان مكانه لما كان له بعد السلامة مطلب ، ولطلب بطن الأرض وعاش فى غمار الناس ، ولكن الفتى لم يكن لينفض من الآمال يده ، كانت لا تصرفه عن طلاب العلا غاية ، ولا يشغله عن الحلم بالتاج شاغل . كان طريدًا مفلسًا يطلبه الجلادون وينعق على رأسه البوم ، وكان مع هذا يلح على الأيام إلحاحًا ، ويصر على ما يريد إصرارًا حتى حنت له الأيام هامتها ودان له بنو الزمان ..

وخرج من مصر هاربًا ، فأفضى بنفسه إلى نجاد إفريقية وصحارى المغرب ، وتقاذفته القبائل فمضى يتنقل من وهاد برقة إلى قمم الأطلس السامقة فوق ماء بحر الظلمات ، واشتدت به الأيام واستبدت به المخاوف ، ولكنه كان على أى حال فى مأمن من سيف الجلاد ، لأن سلطان العباسيين لم يكن قد شمل بعدُ هذه النواحى ، إذ كان يقوم بالأمر فيها مغامر هو عبد الرحمن بن حبيب الفهرى ، تقص الأيام من أمره عجبا ، فتزعم أنه طلب الإمارة فى برقة فانقلب عليه أهلها ، ففر إلى الأندلس ، وحاول أن يرفع لنفسه شأناً فى سهولها فطارده زعماء عربها وقذفوا به إلى البحر ، فانطلق عائدًا إلى تونس حيث جَمَع الأتباع وأعد العدة وطلب الإمارة طلبَ من لا ينثنى ، فاستجابت له الأيام وطاب له الملك وأصبح أميرًا على إفريقية ، فلما استقر له الأمر لم يكن شىء أبعث لمخاوفه من المغامرين والهاربين من بلاد العرب ، فحرم عليهم أن ينزلوا فى ناحية من نواحيها ويطمئنوا فيها .

وتريد الأيام للفتى أن يتنبه ابن حبيب لمقدمه قبل أن يراه ، فتبعث لابن حبيب عرافا يخوِّفه من شاب اسمه عبد الرحمن ، ينحدر عن أصلاب ملوك ويرسل سوالفه مستديرة على جانبى وجهه ؛ وكانت تلك صفات فتانا عبد الرحمن بن معاوية . وقد يكون ذلك من أساطير الرواة ، ولكنه يدلنا على أن مقامَ الفتى فى المغرب لم يكن بالهادىء ولا بالمأمون . والثابت على أى حال أن عبد الله بن حبيب لم يكد يراه حتى بيت له الشر ، وأخذ يعد العدة للخلاص منه .

أسرع الفتى فنجا بنفسه ، وقضى بضع سنين فى رعاية رستم أحد أمراء تاهرت ، ثم تخوَّف منه رستم هذا وأحب الخلاص منه ، ففر إلى مكناسة حيث أقام زمنا طويلا ، ثم ضاق به أهلها ففر إلى قبيلة نَفزة على مقربة من طنجة ، ولم يزل هناك حتى انقلب عليه النفزيون ، فانطلق عنهم حتى أدرك البحر وأوفى على العدوة القصوى . وكان يعرف أن الرجوع معناه الموت ، ففى كل خطوة يترصده عدو ، وفى كل مكان يترقبه جلاد ، ولم يكن أمامه إلا سبيل واحد للحياة : هى أن يعبر مضيق جبل طارق لينزل الأندلس يجرب حظه فيها ! ولكنه تردد إذ اتصل به أن أهلها متنازعون على الإمارة ، مختصمون فى شأنها لاينقصهم منافس جديد ، بل إن صاحب الأمر فيها أنصارى من المدينة لا ينوى بالأمويين خيرًا ، ويتحرق شوقاً ليبلغ منهم ثأر « الحرة » ومن ماتوا بها من الأنصار على أيدى بنى مروان ، فأحب أن يستطلع الأخبار ، فأرسل خادمه بدراً يحمل الهدايا إلى الأمراء المتخاصمين ويعرض عليهم إمارته ، وحمَّله وصاياه وآماله وبقى على ساحل البحر يرقب سفينة الآمال حيث لقيناه فى أول هذا الحديث .

نزل بدر بالأندلس فوجدها شيعا وأحزابا ، وجد فيها صراعا بين القحطانيين والعدنانيين ، بين من أقبل إليها من عرب اليمن وأهل المدينة من الأنصار ، ومن هاجر إليها من عرب الشام ؛ وكان الحيان على خصومة لا تعرف صلحا ولا سلاما ، إنما هى ثاراتٌ يطلبها بعضهم عند بعض من سهول خراسان إلى جبال البرانس . وكان عرب الأندلس من أعنف العرب خصومة وأحرصهم على الثأر ، حتى كادت هذه الجزيرة المترامية أن تضيق بما حملت صدورهم من أحقاد ، وتوالت الوقائع بينهم وسالت الدماء وتهددهم خطر الغزو من الشمال .

وجد بدر طائفة القيسية وعلى رأسها عبيد الله بن خالد تناجز عرب قِنَّسرين وعلى رأسهم يوسف بن بخت ، ووجد هؤلاء جميعًا يعادون يوسف الفهرى أمير اليمنيين وأحد صاحبى الأندلس ، فحدثته نفسه أن يلقى بسهامه فى هذه المعركة الدائرة . وطالِب المجد مغامر يحمل روحه على كفه ، تستثير همته المخاطر ولا تكاد تروعه العواصف .

كان اليمنيون يضيقون بأعدائهم ويشعرون بالضعف ، ويخشون عادية الشآميين ، فلم

يكد بدر يحدثهم عن عبد الرحمن بن معاوية وحفيد هشام بن عبد الملك حتى سارعوا ورحبوا به ترحيباً بالغاً . ثم مضى ومعه بعض رجال اليمنية إلى الصُّميل بن حاتم أمير القيسيين ، وعرض عليه الدخول معهم فى ذلك الأمر ، فتردد تردداً شديداً : أجابهم أولاً إلى ما طلبوا ، ولكنهم لم يكادوا يتركون معسكره ويمضون نحو أهلهم حتى تردد الخوف فى قلبه، فلحق بهم على ظهر جواده ، ونصحهم بألا يطيعوا ذلك المغامر الذى يريد أن يصبح أميراً عليهم ، ثم أنذرهم وعبد الرحمن بالحرب إذا هم ساروا فى دعوتهم ، ولكن أميرى اليمنية ضاقا بهذا الرجل المتردد الحائر ، وصمما على إنفاذ رأيهما للخلاص بعرب الأندلس من الفوضى التى كانوا يضطربون فيها ، وكانت بهم خشية من مهاجرى المدينة المنورة الذين كانوا يتحرقون للانتقام من الأمويين .

أقبل عبد الرحمن خائفا مضطربا ، فلقى أنصاره ومعهم بعض الجند ، فبعثوا فى طلب الأنصار ، وكانت الخلافات قد أجهدت المسلمين فى الأندلس وفرقتهم حتى لم يعد أحد منهم يثق فى أحد ، وكان اليأس قد أدرك القلوب من عودة الأمان واستقرار الأحوال حتى ما عاد أحد يلبى نداءً أو يجيب زعيما . وكان عبد الرحمن غريبا عن الطوائف كلها ، فكان عليه أن يجمعها ويعيد فتح البلاد من جديد ، وكان فتى يافعا ومن حوله شيوخ أنضجتهم المحن وشيبتهم المعارك ؛ وكان لكل منهم شيعته ولكل منهم هدفه الذى يتيمّمه ، فكان على عبد الرحمن أن يكون على الحذر من ذلك كله وإلاّ ضاع أمره سدى ، ولكن حزمَه ويقظتَه أعاناه على السير بسفينته وسط العواصف ، فمضى يجمع الأنصار من اليمنية والأموية ، وكانوا موتورين من القيسية والمضرية لفرط ما كان قد نزل بهم من الأذى على يد يوسف الفهرى والصميل بن حاتم أميرى الأندلس يومئذ .

سار عبد الرحمن من أرش إلى شُذُونة إلى أشبيلية يتيمَّم منازل اليمنية ، وهو لا يكاد يقارب منزلا إلا خرج أهله للقائه وانضموا له ، وكسب الفتى قلوب من معه بما أبدى من الذكاء وحسن التصرف ، وسرت الحماسة له بين الجند ، فعقدوا له لواءً متواضعًا هو قناة وعمامة ! ولكن الله باركه فسار النصر فى ظلاله : أدرك به عبد الرحمن الأول المُلْكَ ، وتفاءل به خلفاؤه هشام والحَكَم ومن تلاه إلى زمان عبد الرحمن الناصر .

ومضى يوسف الفهرى والصميل بن حاتم حتى وقفا بمن معهما عند الـمُدَوّر شمالى قرطبة ، وتقدم عبد الرحمن من إشبيلية حتى عسكر عند طَشّانة على العدوة الأخرى من النهر قبالة الـمُدَوَّر ، وأراد كل من العسكرين أن يسبق الآخر إلى دخول قرطبة ؛ فمضيا يستبقان حتى حانت فرصة اللقاء عند قرية يقال لها المصَارَة ، كُتب النصر فيها لعبد الرحمن على رغم ما كان قد بدا على أنصاره اليمنية من خوف ، كُتب له النصر بفضل ما أوتيه من الجرأة وبعد الهمة ، وحسن السياسة .

واستقام الأمر لعبد الرحمن بعد ذلك ، ولكن على أية حال ؟ ظل كل شىء مضطربا مزعزعا لتفرق نفوس عرب الأندلس وكراهتهم للسلطان الموحد القاهر ، فظل عبد الرحمن يحارب الثائرين منهم والخارجين عليه والنازعين إلى الفوضى ثلاثا وثلاثين سنة لم يكد يطمئن له خلالها جفن ، وكانت الحوادث قد غيرت نفسه حتى صار لا يأمن إلى أحد ولايسكن إلى نصير ، واشتدت ثورات أعدائه حتى كتبوا يستنصرون بالمنصور العباسى وبشرلمان ، ولكنه خرج من هذه المعامع الطويلة موفقاً ، بعد أن كابد من الخطوب ما لم يكابد مثله أمير ، ولكنه أقام للمسلمين ملكا وللإسلام عزا عاصرا الدهر ، وعبرا القرون حتى أصبحوا حديثا يتلى من جيل لجيل .

رجــل ودولـــة

أحمد بن حنبل

دعِ الناس فى مراقدهم فليست بهم حاجة إلى صلاة ! وخفف الصوت إذا أذَّنت فى الفجر مخافة أن يؤرقهم صوتك فيحول بينهم وبين ما هم فيه من نوم عميق أو لهو شديد ! دع الناس فى مراقدهم فقد طعموا واطمأنوا على أرزاقهم ، فما حاجتهم إلى التقوى والصلاة؟ دعهم وامض لشأنك : صلِّ إن شئت ، وتعبد ما أحببت من العبادة ، فهذا عصر قد نزلت الشهوات فيه من نفوس الناس منزلاً لا يدع محلاً للأمل فى صلاحهم أو ردهم عما هم فيه من ترف ورفاهية ، وقد نام الإحساس فى نفوس أكثرهم أو قُل إنه قد مات، حتى لقد تولى أمرهم خليفة فيه ميل للتقى والصلاح وهو المهتدى بالله (٢٥٥ ـ ٢٥٦ هـ) ، فأخذ يميل بالناس نحو الزهد فى الدنيا والتقلل من ترفها ، وتزهَّد هو فى عيشه امتثالاً للقدوة الإسلامية العليا ، فثقلت وطأته على العامة والخاصة بحمله إياهم على الطريقة الواضحة ، فاستطالوا خلافته وسئموا أيامه ، وأعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه ! كما يقول المسعودى .

فإذا كانت هذه حالهم ، فمالك تحدِّثهم عن الزهد فى المتاع والانصراف إلى الله وسبيله؟ وهؤلاء هم علماؤهم وأتقياؤهم يعيشون فى وحدة شاملة وحرمان مجهد ، لشدة انصراف الناس عنهم ويخلهم عليهم بمجرد الخبز . وهذا هو عبد الوهاب البغدادى المالكى الفقيه الأديب ، صاحب المؤلفات الجليلة فى الفقه ، يضيق به العيش فى بغداد وتتجهم له الحياة فى ربوعها فيفارقها على رغمه طلبا للرزق ، ويقول مخاطبا من أقبل لوداعه من أهلها : « لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة ما عدلت عن بلدكم ! » . وهذا أبو حيان التوحيدى العالم الأديب البليغ المتفلسف ، يعيش عيشَ المجهد المحروم من نسخ الكتب ، ويقول يشكو هؤلاء الناس : « ولقد اضطررت بينهم بعد العِشرة والمعرفة فى أوقات

كثيرة إلى أكل الخضر فى الصحراء وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والمروءة ، وإلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح فى قلب صاحبه الألم .. » (١) . وهذا أبو سليمان المنطقى أعقلُ عقلاء بغداد وأوسعهم نظراً وأعمقهم فكرًا ، وقد اطَّلع على الفلسفة اليونانية وعرف مراميها وأغراضها مع استقلال فى الفكر ، وأصبح شخصية ممتازة فى الـحُكم ، يوجز أبو حيان التوحيدى وصف شقائه فى بغداد بقوله : « إن حاجته ماسة إلى رغيف ، وحولُه وقوته قد عجزا عن أجرة مسكنه وعن وجبة غدائه وعشائه » ؛ وغير هؤلاء كثيرون كانوا يتقلبون فى مهاد الخصاصة والحرمان ، والناس من حولهم فى ترف لا يوصف ونعمة لا يطوى بساطها !

مالنا إذن ولهؤلاء الناس ! دعهم فى ترفهم .. ثم هلم بنا إلى هذا المسجد الساكن الذى يحاذر الناس أن يدخلوه خوفا من أن تأخذهم أعين الشرط فيتهموا بالميل إلى أحمد بن حنبل، وحذار أن تحدِّث الناس أننا اختلفنا إلى هذا الرجل فاستمعنا إليه وأخذنا عنه وواسيناه فى وحدته ، فإنما هو منبوذ قد اشتدت الخصومة بينه وبين الخليفة وأهل الدنيا والسلطان ، وإنما هو متروك فى وحدته قد خاصمه أكثر الناس إذ خاصمه السلطان ! وقد بدأ القوم يهمس بعضهم لبعض أن الخليفة قد توعده بشر وأنه يتربص به الأيام . وكيف لا يغضب الخليفة المأمونُ وهذا عبد من عبيده قد حدثته نفسه بأن يرفع صوته ويعارضه ويقول ما لا يريد الخليفة أن يقال ؟ وكيف لا تأخذه سياط الشرطة وقد نسى أن المأمون قد نصره الله على الأمين ، وأن سورة الـمُلك قد ركبت رأسه بعد إذ أتاه النصر العزيز ؟ وكيف لا يحاذر الناس لقاءه وهذا إسحاق بن ابراهيم شرطة بغداد يعلن للناس أن أمير المؤمنين قد كتب إليه من الرقة يأمره بامتحان الناس ؟ .

ها هو ذا قام يصلى ، فلنأخذ مكاننا خلفه ولنأتـمَّ به . إنه يطيل القيام ويطيل السجود ، وإنـه ليطيل الدعــاء ، وإن دموعه لتنهمر على وجهه خشية من الله لا خشية من الجنـد والأعوان . ثم هاهو ذا يفرغ من صلاته فينصرف إلى مسبحته فلا يزال يسَبّحُ بها حتى يكاد يدركنا الملل ، ثم ها هو ذا يحس وجودنا فيستغفر الله أن لم يشعر بنا إلا الساعة ! وها هو ذا

---

(١) أبو حيان التوحيدى : الإمتاع والمؤانسة ، جـ١ ، ص ٣١ .

يبتسم لنا ويهش لمقبلنا ، وينظر إلينا بعين العطف كأنه يود لو يُجنّبنا عذابا لا قبل لنا به ، ولكننا نُصِرُّ على أن نجلس إليه ونستمع حديثه ، فإذا اطمأن إلى أننا لا نخشى شرّا فقد اعتدل فى مجلسه ، وأخذ من ثيابه قطعة خبز يابسة فوضعها فى إناء فيه ماء ثم انتظر قليلا حتى لانت ، وها هو ذا يغمسها فى الملح ثم يأكلها وهو يحمد الله ..

لقد أقبل الظهر ولازال هذا الرجل يحدثنا حديث العارف الواثق بشئون الدين والدنيا ، وها هو ذا لا يقول شيئاً إلا أسنده وأكده ، إنه يحفظ من الحديث آلافاً لا تحصى ، وينظر فى الدين بقلب قد ملأه النور ، وفكر أسبغ عليه الله من فضله قوة ومضاء ، وإننا لنطرح عليه المسائل من الشرق والغرب فلا يفتأ يجيب حتى يفتح لنا من رحاب التفكير مذاهب ماكانت تخطر لنا على بال ، ثم ها هو ذا مؤذنه الفقير المعدم يؤذن للظهر حتى يجف حلقه فلا يقبل أحد ، ثم هذا رجل فقير فى أطمار ممزقة يدخل المسجد رافع الرأس مشرق المحيا واضح الجبين كأنما قد بدّله الله من ثياب النسج ثيابا من الطهر والهيبة والجلال ، وهذا هو ذا يقبل على أبى عبد الله فيسلم ، ثم يأخذ الاثنان فى حديث طلى لطيف ، ثم لا نلبث أن نستبين أنهما صديقان وفيان ، كأنما قد قنع الإمام الجليل بهذا الفقير عن أهل الدنيا ، وكان فى استطاعته أن يأخذ مكانه فى قصر الخليفة يحيط به الخدم والحشم ، ولكنه يأبى هذا ويدعه لكل من هانت عليه نفسه فباعها وشرى بها متاعا زائلا .

ثم لنبرح المسجد مسرعين ، فإن الرجل ليصلى كل يوم من الظهر إلى المساء بضع مئات من الركعات ، وما أُرانا إلا سنثقل عليه إذا لبثنا فى مكاننا هذا فى وقت صلاته ، فلنسلم عليه ولندعه ليخلوا إلى ربه يومه هذا . ولكن ما هذه الأصوات التى تترى على آذاننا من خارج المسجد كأنما قد حدث أمر جليل فأقبل الناس وتزاحموا ؟ ثم ما بال الأصوات تقترب كأن أصحابها مقبلون علينا ؟ نعم ! هؤلاء هم يقفون بباب المسجد ، ثم يخطو من بينهم نفر أكثرهم من رجال الشرطة . إنهم ليتقدمون نحونا ، فلنحذر أن يبصروا بنا ، ولنختف فى هذا المكان خلف المنبر ! ها هم أولاء يقبلون على الشيخ فيروّعون عليه الصلاة، ويتحدث رئيسهم فيعلن إلى أبى عبد الله أنه مطلوب إلى دار رئيس الشرطة فى مهمة من قبل أمير المؤمنين . إن الرجل ليشتد به الألم من هؤلاء الذين أحبوا أن يروعوه فى

ساعة أراد أن يخلوا فيها إلى بارئه ، ولكنه ينهض وإياهم متثاقلاً ، ويمضى معهم ، ويخلو المسجد وتسوده وحشة مخيفة ، فلنخرج منه سراعاً .

إن الخليفة المأمون يمتحن الناس فى إيمانهم ، إنه لخليفة مستنير وأمير جليل ، ولكنه سلطان لا تسلم نفسه من شدة السلاطين ، كان فارسى المنبت فاكتسب من أصله الفارسى حبًا للعلم وميلاً إلى الانصراف إليه ، وقد أحاط به المؤدبون ـ وفيهم كثير من الفرس ـ فجعلوا يبثونه ما يمازج دمهم من حب أهل البيت ، حتى مال إليهم واقتنع أنهم أصحاب الحق الأول فى هذا العز الذى يستأثر به العباسيون . وهاله أن يجد الكثرة الغالبة من رعيته لا تنصرهم ولا تنهض لرد حقهم إليهم ، فأحب أن ينصفهم بعض الإنصاف ، فتشيَّع لهم زمانا ، ولكنه عاد فترك الأمر إذ وجد فيه خطراً شديداً على ملكه وسلطانه ، ثم انصرف إلى الجدل الدينى ، فراقته آراء المعتزلة ، وأعجب بها إعجاباً شديداً . فهؤلاء قوم لايقولون بشىء إلا إذا رضيت عنه عقولهم ، ولا يسلمون برأى مجبرين بل طائعين مختارين ، وقد تناولوا بفكرهم كل شىء فانتهوا إلى آراء جديدة لم يسبقهم أحد إليها ، بل لم يقرَّهم كثير على المضى فيها ، وكانوا قوماً أحرار الفكر حقاً ، أرادوا أن يتعمقوا دينهم وألا يقفوا أمام سر من أسراره جامدين دون فهم ، فمضوا يتساءلون عن الله : ماهيته وطبيعته وأصله وصفاته ، وعن الرسول ونفسه وأفكاره وغاياته ، وعن القرآن ومعانيه ومراميه وأصوله ، ومادق عن الفكر من لفظه وتركيبه .

وهنا انتهى بهم إدمان التفكير إلى رأى جديد طريف فى أصل القرآن ، قالوا : إن القرآن قد نزل حسب الحوادث التى حدثت أيام الرسول ، أى أنه حادث مخلوق . وكان أكثر الأئمة لا يرى هذا الرأى ، أو قل إنهم لم يفكروا فى هذا الموضوع ، وإنما كانوا يعتقدون بداهة أن القرآن لم يتنزل بحسب الحوادث أو المشاكل التى عرضت للرسول وإنما هو أقدم من ذلك ، أى وُجد من قديم الأزل فلم يتنزل لحادثة ولم تخلق آية منه لمشكلة طارئة ؛ هكذا كان إيمان الكثرة الغالبة من فقهاء المسلمين وأئمة مفكريهم فى ذلك الزمان . استمع المأمون إلى رأى المعتزلة فوجد أنه أقرب إلى العقل وأصحَّ فى حساب المنطق ، فتشيع له . وهنا قامت الخصومة بينه وبين فقهائه وعلمائه ، فلم يطق أكثرهم خصومته بل سلموا برأيه طائعين أو خائفين ، وارتاح المأمون لطاعة العلماء ، وكتب إلى صاحب شرطته ابراهيم بن

إسحاق يأمره بامتحان من بقى على الإباء منهم ، فأتى بهم ، فسلموا وأطاعوا ، لم يشذ منهم إلا أربعة كان فكرهم أعز عليهم من راحة أبدانهم ، فرفضوا أن يجيبوا عمال المأمون إلى ما طلبوا ، فإذا يئس صاحب الشرطة منهم فقد كتب إلى الخليفة فى أمرهم ، وهم : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، وعبيد الله بن عمر القواريرى ، والحسن بن حماد . فلما بلغ الخليفة أمرهم ملكه الغضب وأمر أن يؤتى بهم إليه فلم يكد اثنان منهما يسمعان بذلك حتى تخونهما العزم ونكصا على عقبيهما وأطاعا ، وأصر اثنان على ما ذهبا إليه ، فحملا إلى المأمون مقيدين مصفدين ، هما : أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح .

تُرى كيف يفعل المأمون بهذا الرجل الضعيف أحمد بن حنبل ؟ أتراه يعفو عنه ويخلى سبيله احتراما لعلمه وضَنًّا بدينه وتقاه أن ينالهما أذى ؟ أم تراه يأخذه بعنف وينزل به من العقاب الأمر الشديد ؟ كان الخليفة يعرف أن الإمام لم يكن يرضى عن خلافة بنى العباس إذ كان يرى أنها قائمة على الاغتصاب وإذلال العرب ، وقد جعلوا دأبهم منذ صارت الأمور إليهم أن يقضوا على كل معارضة بحد السيف ، وأن يغرقوا كل مخالف فى دمه ، وها هم أولاء يسرفون فى المعصية ويلجون فى الترف حتى ليكادون أن يبتعدوا بالإسلام الصحيح عن طبعه البسيط الصافى ، وها هى ذى قصورهم تضطرب بالجوارى وتعج بالخدم والندمان والمغنين وأصحاب اللهو من كل صنف ، وها هم المتشددون من أهل الدين يلقون على أيديهم عذابا هو شر عذاب . فهذا أبو حنيفة يهان ، وذلك مالك يحتمى بالحجاز ، وهذا الشافعى يقاطعونه ويدابرونه ، فكيف يرضى عنهم إمام عفيف كابن حنبل؟ إنه ليقاطعهم ويجعل بينه وبينهم سدا ، وهل ينسى المأمون أن هذا الرجل قد أبى أن يلبى لأبيه قضاء اليمن ؟ فلما كلمه الإمام الشافعى فى هذا نظر إليه وقال : « تأمرنى أن أدخل لهم القضاء » كأن الدخول لهم فى القضاء معصية لا يقترفها إمام طاهر كابن حنبل ! فلنر الآن كيف يكون الأمر بين السلطان والإمام ، بين الدنيا والدين ؟ .

يحسب المأمون أن ليس أيسر عليه من العسف بعالم لا حيلة له أمام الشرط والسياط ، ولكن الأمر ليس بهذا اليسر ، فإنه يستطيع أن يأمر صاحب شرطته أن يضرب الفقيه العظيم الفاضل بالسياط حتى تكل يد الضارب ، ولكنه لا يستطيع أن يرغم الفقيه على أن

يغير رأيه أو يقول ما لا يعتقد ، لأن رجلا واحدا ذا إيمان يستطيع بإيمانه أن يزيل عشرات المأمين وعشرات السلاطين .

وكأنما تهيَّب المأمون الإقدام على عمل لا يجرؤ عليه إلا أمير غرَّته الدنيا وعبث برأسه الشيطان ، وقد أجابه معظم القضاة وذوى الشأن إلى ما طلب ، وكان حريا به أن يترك ابن حنبل وشأنه ، فهذا واحد من عشرات . ولكن عزة سلطانه أبت أن تعلو عليها إرادة رجل فاضل واحد ، ومن ثم أرسل يهدد الفقيه الجليل ، عساه يبلغ منه بالتهديد ما يكفيه مئونة الشدة والأذى ، ولكن ابن حنبل تلقى وعد السلطان هادئا ساكنا ورد عليه ردا لا جفوة فيه ولا استثارة ، فما كان من المأمون إلا أن أمر بهذا الرجل ـ والنفر الذين أبوا الإقرار معه ـ أن يضربوا بالسياط كما يضرب المجرمون والعابثون بحرمات الناس .

والآن فلنمض إلى حيث يمتحن هذا الرجل الجليل ، لنشهد منظرا يهز فؤادنا هزاً ؛ لنستمع إلى حديث ميمون بن الأصبغ ، فقد رأى امتحان ابن حنبل بعينيه . قال : « كنت ببغداد فسمعت ضجة ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : أحمد بن حنبل يُـمتحن ، فأتيت منزلى فأخذت مالا له خطر ، فذهبت به إلى من يدخلنى المجلس ، فأدخلونى فإذا بالسيوف قد جُردت وبالرماح قد ركزت ، وبالتراس قد نصبت ، وبالسياط قد طرحت ، فألبسونى قباء أسود ومنطقة وسيفاً ، وأوقفونى حيث أسمع الكلام ، فأتى أمير المؤمنين فجلس على كرسى، وأتى بأحمد بن حنبل فقال له : وقرابتى من رسول الله ﷺ لأضربنك بالسياط أو تقول كما أقول ! ثم التفت إلى جلاد فقال : خذه إليك ـ فأخذه ، فلما ضرب سوطاً قال : «بسم الله » ، فلما ضرب الثانى قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، فلما ضرب الثالث قال : « القرآن كلام الله غير مخلوق » ، فلما ضرب الرابع قال : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»، فضربه تسعة وعشرين سوطاً .. » .

هكذا ظل الرجل يعذب كل يوم ، لا يزال الجلاد يضربه حتى يغمى عليه ، والخليفة مصر على أن يرغمه على التسليم بما يريد ، وهو ملازم للحق لا يبارحه ، ولكن الله يهبط بالرحمة على عبده ، فيقبض إليه المأمون قبل أن يستخرج من فم هذا الرجل كلمة واحدة ، وأراد ربك لهذا العاهل القوى الذى دوخ الملوك والذى نشر سلطانه على الدنيا أن يعجز أمام رجل واحد ثابت على مبدئه .

وهذا أحمد بن حسان يحدّث فيقول : « لما حُملت مع أحمد إلى المأمون تلقانا خادم وهو يبكي ، ومسح دموعه وهو يقول : عزَّ عليّ يا أبا عبد الله ما نزل بك ، فقد جرد أمير المؤمنين سيفاً لم يجرده قط ، وبسط نطعاً لم يبسطه قط ، ثم قال : وقرابتي من رسول الله ﷺ لا رفعت السيف عن أحمد وصاحبه حتى يقول : « إن القرآن مخلوق » فجثا أحمد على ركبتيه ، ولحظ السماء بعينيه ودعا ، فما مضى الثلث الأول من الليل إلا ونحن بصيحة وضجة ، فأقبل علينا خادمه وهو يقول : صدقت يا أحمد . القرآن كلام الله غير مخلوق ، لقد مات والله أمير المؤمنين ! » .

ثم أقبلت أيام المعتصم ، وهو رجل تركى المنبت لا يميل إلى الفكر ولا يعنى بأمر العلماء ، ولكنه ورث عن أخيه المأمون هذا الأمر ، فاشتد فيه بما عرف عنه من الشدة والعنف ؛ حتى لقد حدث ابن عياض أن المعتصم « حبس الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ثمانية وعشرين شهراً كان فيها يضرب بالسياط إلى أن يغمى عليه ، وينخس بالسيف حتى يرتمى على الأرض ويداس عليه » .

ثم مضت أيام المعتصم وأقبلت أيام الواثق فاشتدت المحنة على أحمد وهو صابر ثابت ، حتى مات الواثق ، وأقبل المتوكل فرفع المحنة عن أحمد وأمر باحضاره وإكرامه وكتب إلى الآفاق برد المحنة عنه وإظهار السنة ، وأن القرآن غير مخلوق ، ودعاه إلى قصره .

فلما دخله التفت إلى أمه وقال :

ـ يا أماه قد أنارت الدار بهذا الرجل ! .

لقد انتصرت الفكرة وفاز الإيمان ، لقد انتصر الرأى وأخفق السلطان ! .

نجدة المعتصم

أقبلت جحافل الروم تسعى إلى « زِبَطرة » من عواصم المسلمين فى آسيا الصغرى ، وكانت هذه البليدة حبيبة إلى نفس المعتصم يفردها بالعناية والتقدير ، لأنه نشأ فى أعطافها وحارب فى ظواهرها ، وأدرك مبلغ الفروسية والرجولة فى ميادينها وقلاعها . وكانت تقوم على باب دار الإسلام معقَلاً يلجأ إليه المسلمون إذا اشتد عليهم الأمر فى دار الحرب ، ومأوى يأوى إليه الخليفة كلما أجهدته شاتية أو آدته صائفة ، فكانت لهذا رباطاً جليلاً لاتسمع فيه غير صهيل الأفراس وصلصلة السيوف وهمهمة المرابط المجتهد الذى يقطع الوقت بين الغزوة والغزوة فى صلاة وصيام . وكانت تقوم على مخرم فى الجبل يُفضى إلى بلاد المسلمين ، فكان هؤلاء يحرصون على حراسته والرباط فيه ، وكان من أحب من المسلمين أن ينشأ نشأة الفارس المجاهد يتخذ من أمثال هذا الرباط وطناً له . إلى هنالك أرسل الرشيد ابنه أبا إسحاق ، فنشأ على أصدق ما يكون الجند شجاعة ، ونما على أحسن ما يكون الناس إسلاماً .

وكان تيوفيلوس ـ إمبراطور البيزنطية إذ ذاك ـ شديد العصبية لدولته ودينه ، وكان أستاذه يوحنا النحوى قد غرس فى نفسه من العداوة للمسلمين وللخارجين على الكنيسة فى بلاده ما أقض مضجعه طول حياته وجعله لا يكاد يحفل إلا للدين وشئونه . بل كان إذا خلا من حرب مع الخارجين أو العرب جلس إلى الأحبار يناقشهم فى شئون العقيدة ، وقد جلب غلواؤه هذا فى أمر الدين على الدولة البيزنطية من المتاعب ما جلبه تدخل معاصريه المأمون والمعتصم فى المناقشات الفقهية الفلسفية التى دارت حول مشكلة خلق القرآن بين علماء المسلمين ، فكان تيوفيلوس ـ رغم ما حز به من مسائل السياسية وثورات المنافسين ـ لا تكاد الفرصة تسنح له حتى يجمع جنده ويمضى بهم لحرب المسلمين لا يكاد يصرفه عن ذلك أمر .

فإذا كان تيوفيلوس فى حرب منافسه توماس فى سبيل العرش ، فقد تسامع بأن جيشاً من المسلمين قد دهم جزيرة كريد (إقريطش) وغلب البيزنطيين واستقر فيها ، ولم يكن هذا الجيش غير نفر من المسلمين الأندلييسن الذين ثاروا على الحكم الرَّبَضِىّ فى الأندلس وكادوا يعصفون بالإمارة الأموية هناك لولا ثبات الحكم وقدرته . فلما انتصر عليهم طردهم من بلاده ، فأقبلوا يلتمسون المأوى حيث استطاعوا : نزلوا الإسكندرية حيناً فدافعهم أهلها عنها وطردوهم منها ، فمضوا إلى كريد واستخلصوها من البيزنطيين وأقاموا فيها ، وعبثاً حاول تيوفيلوس إخراجهم منها ، لأنهم كانوا أندلسيين شداداً ذوى جلد فى الحرب ، هزموا ثلاثة جيوش كبرى أرسلها عليهم بين سنتى ٨٢٦ , ٦٧٨ ، ولم يجد مفراً آخر الأمر من تركهم حيث أقاموا ، فجعلوا يروعون موانىء الدولة ومتاجرها حتى فاضت نفس الإمبراطور ورجاله بالحقد على هذه الحفنة من بواسل المسلمين .

ولم يكن هذا هو كل ما تهدد به الإسلام الدولة البيزنطية إذ ذاك من أخطار ، بل كان هناك ما هو أدهى : كانت الدولة على خلاف مع عاملها فى صقلية « أوْيفيِميوس » فوثب بها فجعلت ترميه بالحملة بعد الحملة تريد رده إلى الطاعة ، ووجد الرجل أمره ذاهبا إلى ضياع ، فبعث يستنجد بزيادة الله بن الأغلب أمير المسلمين فى تونس ، فبعث هذا بحملة يقودها قاضى القيروان أسد بن الفرات ، وكان أسد شيخاً مسنا يناهز السبعين ، ولكن الله رزقه حمية للدين وجلداً على الجهاد حتى لكان يحمل الراية بيده فى المعركة فتصيبه الحراب ويسيل الدم من ذراعه وهو ممسك بالراية لا يدعها ، ويقف يدبر الحرب اليوم بعد اليوم لايكاد يدركه التعب ، فما زال بالبيزنطيين حتى طردهم من صقلية وأقر فيها راية الإسلام .

هكذا أحس تيوفيليوس يد المسلمين ثقيلة عليه : وجدهم يحاربونه فى كريد وفى صقلية وفى آسية الصغرى ، وهو لا يستطيع لهم مقاومة ولا ردا ، فلبث يتحين فرصة ينالهم فيها شىء ، فما إن تسامع باشتباك جنود المأمون فى حرب « بابَك الخُرّمى » وانصرافها إلى القضاء عليه حتى استولى بجنده على « المصيصة » وتقدمت جحافله نحو « زبطرة » ففجأتها ، ولم يكن أهلها على أهبة ، ولكنهم تسارعوا إلى أسوار البلد ، وأخذوايناجزون العدو ويحاولون إيقافه حتى تأتيهم النجدات ، وبعثوا يستنجدون بالخليفة ، فإذا جنده فى شغل بمحاربة هذا الزنديق « بابك » ، فمضوا يحاربون حتى نفدت أقواتهم وهلك حماتهم واقتحم العدو

عليهم الأسوار ، وعَلِم تيوفيليوس ورجاله أن هذا البلد موطن صبا المعتصم فزاد فى النكاية فى أهله مبالغة فى الأذى وزيادة فى اللدد ، وأمر تيوفيليوس فاحتُفل فى بلاد الروم أجمعها بهذا النصر .

وتمشى الخوف فى بلاد المسلمين ، وانطلق من نجا منهم من المذبحة يرجف بأخبارها ، وتصايح الناس بأنباء الفاجعة ، وبدأ الحماة يستعدون للجهاد . ولم تكذب ظنون الخائفين ، فإن الروم تشجعوا ، فمضوا بقواتهم إلى ما وراء « زبطرة » من بلاد المسلمين وأنزلوا بأهلها من الظلم والأذى شيئاً بالغاً ، حتى أصبحت البلاد خراباً يباباً لا أثر فيها للحياة . وهمَّ المسلمون بأهلهم وعيالهم فراراً من الأسر ونجاة من الاسترقاق ، وتعقبهم الروم حتى أصبح المساكين كأوابد الطير يقتنصها الرماة بالسهام ، واشتد الأمر بالمسلمين فكانوا يسلمون أسرى يباعون فى الأسواق ، وبالغ تيوفيليوس « وسبى المسلمات ومثل بمن صار فى يده من المسلمين ، وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم » . بالغ فى ذلك مبالغة حاقد موتور لا يجد غير هؤلاء الأسرى المساكين يشفى فى آلامهم لدد نفسه ، « فضج الناس فى الأمصار واستغاثوا فى المساجد والديار » ، حتى إذا وقعت امرأة هاشمية من المسلمات فى الأسر وبصرت بنفسها يُسار بها إلى سوق الرقيق يتخطفها جُند الروم ويتندر بها جُهالهم ، خافت أن يشتريها رومى يتسراها ، وأدركها من ذلك ألم اجتمع فى نفسها حتى صار حسرة بالغة ، فلما برَّح بها الألم صاحت صيحة المستغيث : « وامعتصماه » .

فى ذلك الحين كان خليفة المسلمين أبو إسحاق يسمر مع طائفة من فرسانه بعد أن فرغ من حرب « بابك » وقضى عليه ، وكان أبو إسحاق بطبعه لا يشق له غبار فى ميادين الفروسية والحروب ؛ نشأ فى « سامرا » ، وصارت دار الحرب مقامه طوال حكم أخويه الأمين والمأمون ، وكان أبوه الرشيد يعرف فيه هذه النخوة فأفرده بميادين القتال وأوصاه خيراً ببلاد المسلمين . وكان يمضى حياته بين طائفة من الفرسان لا يفارقهم فى النهار ولاينطوى عنهم فى الليل ، يحارب معهم ويسمر وإياهم ، وكان فارساً أيِّداً « عظيم المرِّية يحمل ألف رطل ويمشى بها خطوات » كما يقول الفخرى فى الآداب السلطانية ، وكان إلى ذلك رقيق القلب شفيقا بالفقراء والضعفاء ، شأنه فى ذلك شأن كل فارس شهم ذى مروءة

وإيمان . حكوا أنه كان يسير مع جنده يوماً مطيراً إذ بصر بشيخ ضعيف غاص حماره فى الوحل ، وسقط ما عليه من الشوك الذى يستعمله أهل العراق فى التدفئة ، فأخرج الحمار من الطين وحمل الشوك فوضعه عليه ، ثم غسل يديه فى غدير واستوى على دابته ، ولحق به حرسه بخيلهم ، فأمر بعض خاصته أن يعطى الشيخ أربعة آلاف درهم ..

فلم يكد خبر الكارثة يبلغه حتى هب ينادى جنده للمسير ، ثم حمل إليه أحدهم نبأ الهاشمية التى استغاثت به فصاح : لبيك لبيك .. النفير النفير !

وتفرق دعاة الحرب فى بلاد المسلمين يستنفرون الناس للجهاد ، ودخل إبراهيم بن المهدى على المعتصم وأنشد :

يا غـــارة الله قـــد عاينت فانتهــكى ... هتـكَ النساء ومـــا مـــنهن يـــرتكب

هـَب الرجـالَ على إجـــرامهـــا قُتِـلت ... مـــا بـــال أطفـــالها بالذبـــح تنتهـــب ؟

ثم توافد عليه المنذرون يبلغون ما كان من عدوان تيوفيلوس وما أوقع فيه بلاد المسلمين من خراب .

هنالك هب المعتصم وهب معه جنوده ، ومضى إلى معسكره فاتخذ عدته وسار إلى أرض الروم فى جيش كبير ، فتراجعت أمامه قوات العدو مدحورة لا تلوى على شيء حتى أدركت « عَمّورية » فاحتمت فيها ، وكانت هذه أمنع معاقل الروم وأحبها إلى تيوفيلوس ، إذ يزعم الرواة أنه ولد فيها . وأقبل المعتصم إليها وحصرها حصراً شديداً ، فلما اشتد الأمر بحاميتها بعثت سفراء يستحلفون المعتصم إلا خلى عنهم وأبقى على رجالهم ونسائهم ، ولكنه أبى واعتقل الرسل ومضى فى الحصار ، واستمر الأمر خمسة وخمسين يوما حتى لم يبق للمدينة بد من التسليم ، ثم فُتحت أبوابها فاستباح المسلمون حماها وأعملوا سيوفهم فى أهلها ، وأسرع الروم فردُّوا إلى المعتصم المسلمةَ التى استغاثت به ، ولكن هذا لم يصرفه عن أن يسوى « عَمّورية » بالتراب ، كما سويت زبطرة بالتراب من قبل .

فزع الإمبراطور وأدركه من ذلك هم بالغ ، وأيقن أن خليفة المسلمين سائر إليه بجنده قاض عليه وعلى ما بقى له من مُلك ، فأخذ يستحث جنده ويدفعهم إلى حرب المسلمين

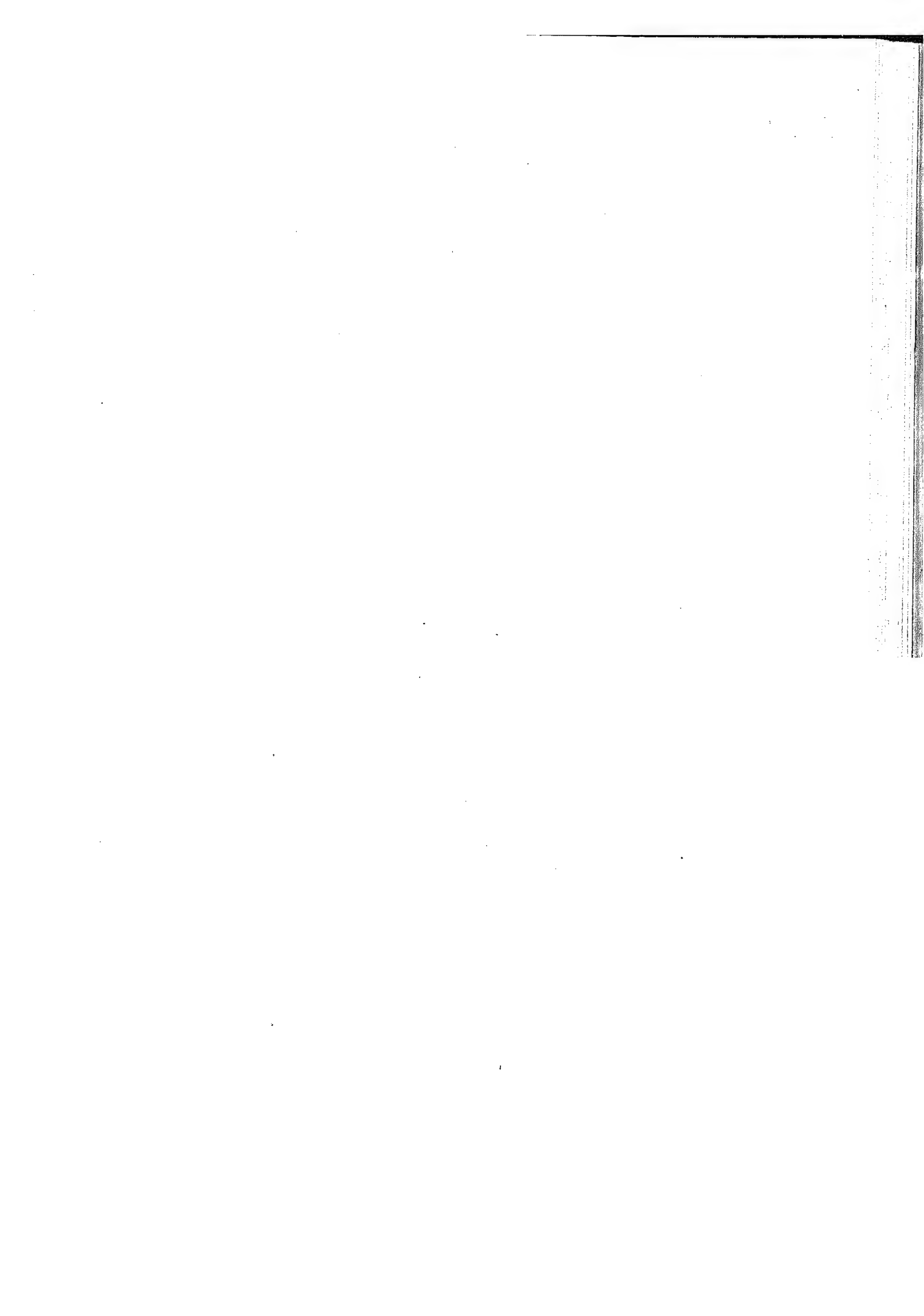
دفعاً ، ولكن هؤلاء كانوا قد ذلقوا من سيوف المسلمين ما ملأ صدولرهم حقدإ على أميرهم الذى ساقهم إلى هذا الهلاك ، فأبوا على سيدهم المضى فى هذه الحروب التى لا تنبىء إلا بالخراب العاجل ، ثم حذروه من هذه الخصومة التى قد تنتهى بالقسطنطينيه نفسها إلى ماانتهت إليه عَمّورية ، واقترحوا عليه أن يسلم للمسلمين بما يريدون ، وأن يتقى شرهم إن كان يحرص على ما هو فيه من عزٍ وسلطان .

تأمل تيوفيلوس فى الأمر ، وقلبه على وجوهه فاستبان له رشاد ما قالوا وتحقق صدق ماذهب إليه قواده ، وسرت فى جسده رعدة من الخوف من المعتصم الذى كان يعد العدة ليخلص المسلمين من الروم جملة ، وتحدث إلى قواده ورجال دولته فى أنه يود لو قضى على هذه البقية الباقية من الروم التى تقف للمسلمين كأنها الشوكة فى الجنب أو القذى فى الحلق ، ومضى يعد العدة لذلك .

بعث الإمبراطور رسله يضرعون إلى الخليفة ويسألونه أن يعفيهم من هذا البلاء الذى يريده بهم ، وأعادوا على سمعه آيات من القرآن توصى بالنصارى وتحض المسلمين على أن يترفقوا بهم وأن يشفقوا عليهم لأنهم أهل كتاب ، وأنهم أكثر الناس مودة للمسلمين .

فعلت كلمات الرسل أفاعيلها فى نفس المعتصم فسرى عنه بعض ما به ، ومالت به رحمة المسلم وشفقة المؤمن ألا يخيب رجاء من التمس فضلا من مروءته ، وجمع مجلساً من قواد جنده وشاورهم فى الأمر فأقروه عليه .

كان ذلك فى سنة ٨٢٨ م (٢٢٣ هـ) ، واعتلى المعتصم عرشه وطلب الرسل فأقبلوا يقبلون الأرض بين يديه ، ويسألونه ما انتهى إليه فى أمرهم ؛ فقال لهم فى سكون : « نبئوا سيدكم بأننى أديت دين زبطرة .. » .



عصامى مسلم

المنصور بن أبى عامر

انصرف الطلبة من جامع قرطبة بعد يوم طويل تقَضَّي فى حلقات الدرس ، وخلا المكان إلا من نفر من الصحاب اعتادوا أن يمكثوا فى المسجد إذا انصرف الناس ، ليقضوا هناك زمانا يتناولون فيه أخبار السياسة وحديث العلم ، ويتذاكرون فيه سيرَ الماضين ويتنقلون بهذه الأحاديث الحلوة التى يستريح إليها الشباب الطامع من أهل المدن . وكان الجمع منصرفا إلى الحديث انصرافا شديدا ، وكانت المناقشة على أشدها والآراء تشتبك وتزيدها الفتوة اشتعالا ، ولم يكن هؤلاء الطلبة راضين عما آلات إليه سياسة الدولة على أيامهم ، كانوا يرقبون بعين المحزون اشتداد الضعف بالدولة الأموية الأندلسية ، وكانوا يرجفون خيفة من شراذم المسيحية التى بدأت الأمور تتصل بين بعضها وبعض فيما يلى بلاد المسلمين من الشمال ، وأخذ جندها ينوشون أطراف دار الإسلام حتى هددوا لارِدَة وبَطَلْيَوْس .

كان خلفاء بنى أمية من سلالة عبد الرحمن الداخل الأموى قد انحدر أمرهم وضعفت شوكتهم وعَلَت فى دولتهم صولة الوزراء ، وأصبحت الحكومة نهبا موزعا بين الطامعين من الوزراء ، والحجاب ، ولم تعد للدولة سياستها الموضوعة ولا نظامها المحكم الذى عرفه الناس من أيام الداخل إلى أيام الحكم المستنصر ، وكان وزير تلك الأيام وصاحب سياستها أبو جعفر المصحفى ، شيخاً وهبه الله من الدهاء والحيلة قدراً استطاع به أن يسود رجال الدولة ، وأن يصبح القابض على زمام الأمور وتصريف السياسة على الوجه الذى يرضاه ، ومن هنا دب الاضطراب فى نواحى الإدارة وشملت الفوضى جوانب الحكومة ، فجلس للقضاء من يجهل الفقه ، وقاد الحرب من لا يعرف الحرب ، وولى الحُكم من ترفعه فى نظر الوزير صلة القرابة لا قدرة الحكم ولا ملكة التنظيم .

كان هذا الأمر يشغل بال الطالب محمد بن أبى عامر ، ويشيع فى نواحى نفسه هما ناصبا ، فانصرف عن رفاقه وتشاغل عنهم بهذه الخواطر المحزونة التى أخذت تطوف برأسه فتخيفه على مصير الدولة الأندلسية العريقة . ولم يكن الفتى قرشيا ، بل لم يكن عدنانيا ، وكان هذا سرا من أسرار الموجدة التى يعانيها ، فما يستطيع غير القرشى أن يوفق إلى كثير فى دولة القرشيين ، وما يستطيع قحطانى من مَعَافِرِ أن يبلغ شيئا فى سطوة العدنانيين . وكان المروانيون الأندلسيون قد جروا على اختصاص أسر بعينها بالحكم والوزارة ، ولم يكن يدور بخلد أندلسى لا ينتسب إلى بنى أبى عبدة أو بنى شُهيد أو بنى جَهْوَر - ومن شابه هؤلاء من أولياء الأمويين - أن يصل فى هذه الدولة إلى كبير أمر . ولم يكن المصحفى من إحدى هذه الأسر ، إنما كان شيخا إفريقى الأصل رفعته شاعرية صافية كانت تجُرى على لسانه قطعًا من الشعر الصادق بين الحين والحين ، وكان الحظ المُواتى قد جعله أستاذًا للحكم المستنصر فى صباه ، وكان الحكم صاحب ميل للعلم وحب للشعر قبل أن يكون صاحب أمر وصولجان ، فأعجب بأستاذه وألقى إليه قيادة الأمور حينما شاءت إرادة الله أن يختار أباه الناصر إلى جواره ، فتمطى الشيخ فى كرسى الوزارة وصال وتبختر ، وقد فاته أن قيادة الناس غير قيادة القوافى ، فما زال العجب يرفعه والكبرياء تبطره ، حتى أفسد أمور الدولة ببنيه ، وأفسد قلوب الناس عليه بما كان يرزؤهم به من أفاعيله .

ولكن الفتى كان على عزم ثابت وإيمان وثيق ، فلم يفقد أمله فى الإصلاح ولا تزعزعت عزيمته فى الله الذى ييسر للخيرين سبيل الخير ، ويوفق الصالحين إلى ما فيه صلاح المسلمين . كانت هذه الأفكار تترى على نفس الفتى وهو مطرق بين إخوانه منصرف عنهم وكان قد ثاب له رأى فى المشاركة فى السياسة والمدافعة فى ميدانها . وأخذ يستعرض فى نفسه رجالَ العصر وأصحاب الأمر فلم ترض نفسه عنهم ، وأنشأ أصحابه يتندرون به ويركبونه بالسخرية ، ويحملون أفكاره على محمل المجون ، ويرونها وسيلة طيبة للضحك والعبث ، وقدراعهم أن يخرج الفتى عن صمته فإذا هو يسألهم رأيهم فيه وزيرا ! هنا لم يملك إخوانه أن أرسلوا أنفسهم مع الضحك فضحكوا ما شاءت لهم نفوسهم ، وسخروا ما وسعتهم السخرية ، فإذا الفتى لا يحفل بهم ولا يلقى بالا إلى ما يركبونه به من سخرية ، وإذا به يسألهم رأيهم فى محمد بن السليم قاضياً لقرطبة ! فازداد الفتيان عجبا ، واستبان لبعضهم

أن الفتى جاد فيما يقول ، وأن أحلامه تنطوى على الكثير من الجد والفراسة التى لا تخطىء مواقع الصدق ، فغدوا إليه يسألونه ما يصنع بهم إذا هو صار إلى ما يرجو من الجاه والسلطان ! وأخذوا يحملون أمانيهم ويرجونه إلا حققها لهم إذا أكرمه الله بما يرجو ، ولكن واحداً منهم لم ترض له نفسه أن يصدق أحلام هذا المسكين ، فتمنى عليه ـ إن هو صار وزيراً ـ أن يركبه حماراً ويطوف به فى شوارع قرطبة عاريا ! .

وبدأ الفتى حياته يكتب الرسائل للناس ، واتخذ له مكانا مختاراً فى الساحة الواسعة أمام القصر ، فكان غلمان البلاط وفتيانه يفدون عليه فيكتب لهم ما يريدون ، واشتهر أمره بينهم حتى ترامى ذكره إلى صبح البشكنسية زوج الخليفة الحكم ، فاستكتبته بضعة خطابات . وبدأت الأمور تتصل بينه وبين رجال القصر ، فلم تلبث مواهبه أن تجلت ، ولم يلبث أن أعجب به ابن السليم قاضى الحكم ، فذكره بالخير عند الوزير المصحفى ، وكان ابن أبى عامر ـ كما أسلفنا ـ معجبا بابن السليم مقدرًا فضله ، فاتصلت الأمور بين القاضى الفقيه والفتى الطامح ، فإذا احتاج الحكم لمربٍّ لابنه عبد الرحمن فقد قفز اسم ابن أبى عامر إلى مقدمة المرشحين ، وإذا عرضت الأسماء على صُبْح فقد اختارت ابن أبى عامر ، إذ هى تعلم من اقتداره الشىء الكثير .

هكذا بدأت الأمور تتصل بين ابن أبى عامر وبين صبح البشكنسية ، وكان الفتى شديد الذكاء واسع الحيلة ، يلمع الطالع السعيد فى عينيه ويطل القدر الباسم من ملامحه القوية الجميلة ، فاستراحت السيدة أن وجدت فيه عقلا هادياً يرد عنها وعن ابنها نزوات الطامعين من أمثال المصحفى وغالب وغيرهما ممن سنأتى على خبرهم ، ولم يلبث ابن أبى عامر أن تولى أعمال أم الخليفة فأحسن القيام عليها ، وتعهدها بما يكمن فى نفسه من المواهب والكفايات ، وازداد إعجاب السيدة الجليلة به حتى ليميل كثير من المؤرخين إلى القول بأن غراما قويا استعر بين أم الخليفه ومربى الأمير ، فذهب بعضهم إلى « أن ابن أبى عامر تمكن له فى قلب السيدة بما استمالها به من التحف والحذق ، ما لم يتمكن لغيره » وذهب دوزى المستشرق الهولندى إلى أن العلاقة بينهما كانت قصة غرام قوى يستوقف القارىء ويستدعى الشرح والإطالة . ولكنا لا نرى بأساً هنا من الاعتراض على أولئك الذين لا يرون بأساً فى اتهام السيدة لأنها صقلبية ، والصقالبة كانوا من المغضوب عليهم

عند الرعية ، إذْ كانوا جند الخلفاء خاصة . أما دوززى فحجته تسقط إذا عرفنا أنه كان مغرماً بمهاجمة العرب والمسلمين ، وأن كتبه تفيض بالسخرية منهم والعبث بتراثهم الجليل، ثم هو بعد ذلك صاحب خيال خصب يطغى على ذهنه بين الحين والحين . إنما كان الأمر بين أم الخلفية والمربى أنها أعجبت به إعجاب اليصابات بوالتر رالى ، وإعجاب فكتوريا بدزرائيلى ، وإعجاب كل ملكة وكل صاحب سلطان بالقادرين النابهين من الرجال والعمال . ولعل زمرًا آخر يقوى حجتنا ويثبت للقارىء صحةَ ما نحن قائلون ، وهو إعجاب الوزير المصحفى بالفتى المربى ، ولو قد عرف المصحفى بأمر هذه الصلة لعصف بالفتى وهو على أبواب الشهرة وبعد الصيت ، وإنما الحقيقة أن ابن أبى عامر « كان من أسرة تكررت فيها النباهة والوجاهة ، وجاور الخلفاء منهم بقرطبة جماعة ، فلم تكن تُستكثر عليه القرابة من بيت السلطان » ، كما يقول ابن عذارى .

بدأ ابن أبى عامر يرسم خطته التى أفضت به إلى الغاية التى يحلم بها ، وكان هذا الفتى من الأفراد القلائل الذين استطاعوا أن ينفذوا السياسة التى رسموها فى دقة وصبر وأناة ، فلم يلبث أن أصبح ذا سطوة فى القصر ورأى مسموع عند الوزير وأم الخليفة ، وكان يرى من استبداد المصحفى بالأمر ما يبعث السخط فى نفسه . وكان يقدر بفطانته أن أمثال هذا الوزير وأنصاره لا بد مناوئوه وواقفون فى سبيله إذا هو حاول أن يتخطى موضعه كمرب وكاتب أو قيّم على الأمير القاصر ، فصدقت نيته على الخلاص من المصحفى ورده عن هذه الأمور التى كان يتولاها وهو لا يدرك من أمرها قليلا ولا كثيراً .

هنا بدأ الصراع بين الرجلين : فأما ابن أبى عامر فلم يلجأ إلى الغدر والخيانة ، وإنما بحث عن موضع الضعف فى سياسة المصحفى وهو تصرفه فى مال الدولة على هواه دون رقيب . وكانت الأمور مواتية لابن أبي عامر ، ذلك أن ولى العهد عبدَ الرحمن كان قد توفى، وصارت الولاية إلى صبى صغير هو هشام ، وأخذ المصحفى وأمثاله يرشحون للعرش من يرضون عنها إذا مات الخليفة الحكم . وكانت صبح أم ولى العهد خائفة من هؤلاء المتربصين تبحث عن سند يعينها على بقاء الأمر فى يد وليدها إذا مضى زوجها الحكم إلى بارئه . وكان ابن أبى عامر يدبر أملاك هذا الصبى الصغير ، وكانت صبح تثق فيه وتود لو أعانته على الارتفاع فى المناصب حتى يدفع عنها غوائل الخصوم يوم القدر المحتوم ، فلم

تزل به حتى أقامته على بيت المال ؛ فلم يكذِّب الفتى أن أقبل يضبط الحساب ، فإذا الخزانة تئن من كثرة ما يسطو عليها الوزير . فإذا وثق ابن أبى عامر من ذلك فقد أعلن المصحفى بالأمر وأقبل يحاسبه على ما ضيع من مال الدولة ، ثم طالب بعقد مجلس لمحاكمة الوزير. وفطن ابن أبى عامر إلى أن شركاء المصحفىّ فى الوزارة ناقمون عليه ، وأن الأسر العريقة فى الوزارة والحجابة كانت تنكر عليه ما وصل إليه ، فترقب اللحظة المناسبة للإيقاع به والخلاص من أمره . وكان المصحفى قد ملأ وظائف الدولة ببنيه ، فأقام ابنه على شرطة قرطبة وأطلق له الحبل على الغارب ، فعبث الفتى بشئون الناس وأموالهم عبثاً شديداً ، فجعل ابن أبى عامر يجمع البينات ضد المصحفى وآله ، ويجمع الغاضبين عليهم حتى أصبحوا يداً واحدة . فلما اطمأن إلى هذا أعلن بدء المحاكمة ، فأسقط المصحفى عن الوزارة وعزل بنيه واتهمهم بالتبديد وسوء التصرف ، ودعا أعداءهم للشهادة فلم تكد المحاكمة تبدأ حتى حكم المجلس بعزله ومصادرة أملاكه وطرد أقاربه وأولاده من مناصب الدولة ..

هكذا خلص ابن أبى عامر من هذا الخصم ، وأصبح فى ميسوره أن يبدأ فى إنفاذ ما كان قد وطد العزم على إنفاذه من إصلاح أمور الخلافة وإعادة الدولة الإسلامية إلى ما كانت عليه أيام الناصر .

خلا مركز الحاجب فاحتله ابن أبى عامر تؤيده أم الخليفة ، وازداد سلطانه فى القصر حتى أصبح القوة المتصرفة فى الدولة الأندلسية كلها ، وكان الرجل من بناة الدول الذين لاتقصر همتهم عن النهوض بجلائل الأعمال . كان يعرف عرفان الواثق ما تحتاج إليه بلاد الأندلس من الإصلاح ، كان يدرك أنه لن يستطيع أمراً إلا إذا تركت له الأمور يصرفها دون أن يعترض معترض أو يأخذ السبيل عليه حانق أو حاسد ، فأحب أن يبعد الحكومة عنو القصر لكى يقطع السبيل على المحسوبين وذوى الحسب والقربى من البلاط ، فأنشأ يبنى على مقربة من قرطبة مدينة قائمة بنفسها للحكومة ومرافق الدولة أسماها « الزاهرة » ، وبدأ الناس يتوافدون على المدينة الجديدة ، حتى امتدت واتصلت عمارتها بعمارة قرطبة .

وكان الخليفة هشام قد أيفع فى هذه الفترة ، وبدأ المحيطون به يبصّرونه بالأمور ويحفزونه

على الثورة على ابن أبى عامر ، فأسرع ابن أبى عامر وقطع صلة الخليفة بمن عسى أن تحدثه نفسه بالدس والوقيعة ، وقضى على الخليفة بأن يلزم القصر وأن يقصر همه على العبادة والصلاة والصوم ، فهذه الأعمال أجدى على الخلافة والخليفة العاجز المحدود المواهب من عبث السياسة والمدافعة فيها ، وكان الفتى منصرفاً بطبعه إلى أمور العبادة فأطاع ورضى ، وفوض الأمر كله للمعافرى العظيم . ولو قد فعل ابن أبى عامر هذا بأمير آخر لكانت لنا عليه مآخذ ، ولكن الواقع أن هشاماً المؤيد كان أميراً مستضعفا خاملا ، لا تكاد همته تصبو إلى عظيم من الأمور . ولسنا ندرى أأفسدته أمه بالإسراف فى تدليله وإبلاغه حاجاته من الصغر ، أم كان هو نفسه غفلا عاطلا من كل موهبة بطبعه؟ وكل ما نعرفه أنه هو نفسه كان يأبى أن يتولى قيادة الأمور حتى بعد أن زال شبح ابن أبى عامر ، وقد ظل طوال حكمه لا يكاد يخلص من مستبد حتى يترك الأمور لمستبد آخر ، كأنه كان راغباً عن القيادة شاعراً بعجزه عنها . ولو لم يفعل ابن أبى عامر ما فعل لتولى الوصاية عليه مستبداً آخر أسوأ من ابن أبى عامر . وكان الوقت حرجاً والأمر مضطرباً ، فكان استيلاؤه على الأمور على هذا النحو أمراً تستلزمه مصالح المسلمين ، وقد أثبتت الأيام أنه كان أصلح الناس للقيام بهذا الأمر ، بل أصلح من تعرض لمثله فى تاريخ الإسلام الطويل ، وقد رزقه الله من الذكاء وبعد الهمة واطراد النشاط وصدق الإسلام وحنكة السياسة ما لم يتح لغيره من عظماء الأندلس .

ثم توجه ابن أبى عامر إلى الجيش يصلحه ، وكانت القوة الحربية للدولة الأندلسية قد بدأت تضعف لقلة القادة القادرين على رءوس الجند ، وكان نفر من أصحاب الكلمة فى الجيش قد انحاز إلى الثغور واعتصم فيها ، وأقام نفسه حاكما بأمره لا تستطيع الحكومة معارضته أو إنكار شىء عليه ، وشغل هؤلاء القادة بشئونهم عن سد ثغور المسلمين ، فانحط أمر الجيش الإسلامى إلى درجة بعثت الحياة فى دول النصارى التى كانت ترقب مصير الدولة الإسلامية باهتمام زائد ، فأخذ أمراؤها يتواصلون ويدبرون ، ثم حزموا أمرهم وأخذوا يتقدمون فى البلاد الإسلامية على مهل ، ولم ينهض قادة الثغور لردهم خوفاً من أن يفضى ذلك إلى إضعاف قواتهم ، وهم يدخرونها لمناهضة رجال الدولة نفسها .

وبهذا بدأت الخيانة تتمشى فى نفوس القواد من أمثال « غالب » صاحب الثغور الشمالية و « زيرى » صاحب الثغور الإفريقية ؛ فلما انتهت الأمور إلى يد ابن أبى عامر على

هذا النحو وجد أن إصلاح أمر هذا الجيش القائم قد يعسر عليه ، فبدأ ينشىء جيشاً جديداً . وأعانه على ذلك أن طائفة كبيرة من بربر إفريقية كانت تعانى الأمرين فى إفريقية من عداوة شديدة أصر عليها أمراء الأدارسة أصحاب فاس ، وكان الصراع بينهم وبين بنى عمومتهم أصحاب الأمر فى القيروان قد انتهى بهم إلى هزيمة جعلت وجودهم فى الميزان . وترامت أخبارهم إلى ابن أبى عامر فمد لهم يده ، وعبر بهم إلى الأندلس ، وأنشأ ينظمهم ويعدهم حتى صار له منهم جيش قوى كان له أعظم الأثر فى الفتوح الجليلة التى قادها فيما بعد . وكان هناك نفر من الجند المسيحيين اشتدت بهم المسغبة فى بلادهم بعد أن حصرهم المسلمون فى الجبال حصراً شديداً ، فتشردوا وهاموا على وجوههم يلتمسون العمل تحت إمرة أى قائد ، فأسرع ابن أبى عامر واستقدمهم ، ولا ريب أنه كان يأمل إدخالهم فى الإسلام ، واكتمل له من هؤلاء وأولئك جيش عظيم .

استطاع ابن أبى عامر أن يدخل على الجيوش الإسلامية نظاماً لم تعهده من قبل : كانت الجيوش إلى عهده تتكون من فرق وقبائل لكل قبيلة رئيسها وقادتها ، يشتركون فى الحرب معاً ويقتسمون الغنائم معاً ، أما رجلنا فقد جعل الجيش كله وحدة متماسكة لا يشذ عنها جندى ولا يخالف نظامها قائد ؛ ولعل هذا يرجع بذهننا إلى الإصلاح العسكرى الذى أدخله بامنناداس على الجيوش الإغريقية قبل الإسكندر ، والذى ظهرت نتائجه واضحة جلية فى انتصارات الفتى المقدونى التى ملأت صحائف التاريخ . كان النظام فى جيوش ابن أبى عامر أمراً جديداً لم يعهده المسلمون فى جيوشهم ، فجعل الناس يتحدثون عنه ويستغربونه ويقصون فى ذلك النوادر التى تذهب مذاهب الأساطير ، كالذى يحكون من أن المنصور أعدم جندياً لأنه أخرج السيف من قرابه أثناء العرض العام .

ثم بدأ جنود المسلمين يزحفون إلى الشمال ، وكان المنصور ينوى أن يطهر « أيبريا » كلها من النصارى ودويلاتهم ، بدأ جنوده فاكتسحوا ليون ومضوا إلى الشمال حتى لم يبق للأعداء إلا هذه الزاوية الجبلية القاصية فتتبعوهم إليها ، وضاقت بهم الأرض فأخذوا يهاجرون . وتقدم المنصور حتى أشرف على مكان منقطع كان الأعداء يعتصمون فيه ، فإذا أدركه فقد وجده خِوَاء لا يعمره إنسان ، ووجد فى وسطه قبراً لقديس مسيحى يحج إليه الناس من أقصى أطراف المعمورة هو القديس يعقوب أو « سنت ياقوب » . كان المنصور

يعرف حرمة هذا القديس عند النصارى ، فلما أشرف عليه وجد عنده راهبين لم يسمحا لنفسيهما بالفرار وترك القديس للمسلمين ، فلم يملك المنصور إلا أن أمر جنوده ألا يعتدوا على الراهبين ، وأن يتركوا المزار على ما هو عليه ، وهكذا دل الرجل على الشهامة الصادقة والإيمان العظيم ، وضرب للناس مثلاً للمسلم الصحيح كيف يكون إذا صدق إسلامه .

لبث المنصور على هذه الهمَّة طوال حياته ، غزا فى أثنائها خمسين غزوة لم يعرف الهزيمة فى واحـدة منها ، ودان له شبه الجزيرة جميعه حتى لم يعد يجرؤ إنسان على منازعته أو مطاولته ، وحتى انتشر رعبه فى قلوب أعدائه إلى حد جرى مجرى الأساطير .

يزعم ابن عذارى أن الرجل ضرب معسكره ذات مرة فى مكان ، وأقام عَلمه على رابية قريبة ، ثم بدا له فغادر المكان ونسى العلم مكانه ، فلبث الأعداء شهوراً لا يجرؤون على الاقتراب من العَلم مخافة المنصور .

وكان المنصور صبوراً على العمل لا يكاد يكل أو يسأم ، كان يقضى معظم الليل يدرس شئون الدولة ، فإذا انصرف الناس عنه جلس وحده مفكراً ، وقد أسرف فى ذلك إسرافاً أصابه منه اضطراب فى أعصابه ، وكان خدمه إذا وجدوه يسرف على نفسه هذا الإسراف يُذَكّرونه بما يجره هذا السهر من علة العصب ، فكان يقول : « لو نمت الليل ما نام أحد فى هذا القطر آمناً » .

وكانت فيه للصغار والمستضعفين رقة ، ما تقدم إليه مسكين فى أمر إلا نهض فى إتمامه وما أحس إخلاص أحد من أنصاره إلا بادر بمكافأته ، وله فى ذلك أخبار تدل على همة بالغة :

تقدم إليه أحد جنوده من البربر يريد شكره ، ولم يكن يحسن العربية ، فاضطرب لسانه ببضع كلمات أثارت ضحك الأندلسيين ، وكان الأندلسيون قوماً ساخرين لا يكاد يرضيهم شىء ، فمضـوا يضحكون من البربرى ، فلم يـكن مـن المنصور إلا أن قال لهم : « هكذا يا إخواننـا فلتشكر النعـم ، لا ما تملأون بـه أفواهكم مـن التشدق بعبارات وقعاقع ... » .

ولم يكن المنصور ليقوم بفتوحه حباً فى الشهرة أو إرضاء لشهوة الغلب والانتصار ، وإنما



كان مؤمناً صادقاً يفهم رسالة الإسلام حق فهمها ، ويقدر الجهاد فى سبيل الله قدره ، وكان أعز أمانيه أن يتوفاه الله فى دار الحرب ، فيموت مجاهداً فى سبيل الإسلام . وكانت وطنيته مضرب المثل ؛ حدث أن أكبر أبنائه عبد الله خالفه فى بعض الأمور ثم هرب إلى الأعداء وانضم إليهم ، فكان عقابه الموت . هكذا يطغى الإيمان على عواطف البنوة والقرابة ، وهى أقوى عواطف الإنسان ، وهكذا يعطينا المنصور مثلاً آخر من أمثلة التفانى فى سبيل فكرة عالية مرسومة . كان الرجل جندياً صادقاً قضى أغلب أيامه فى دار الحرب مجاهداً ، كان يجمع الغبار الذى يعلق بثيابه فى ساحة الوغى ، ويحفظه أينما سار تبركاً به ، وكان جنوده يطمئنون إلى النصر تحت لوائه ، فلبثوا معه يداً واحدة طوال حروبه ، ولازمته هذه الصفة حتى لقبه الناس بالمنصور .

وبعد ، فأنت حرى بالتماس سيرته فى كتب التاريخ الأندلسى ، وإنك لواجد فيها تصويراً بديعاً لهذا الرجل الذى لا نظفر بمثله فى صفحات التاريخ الإسلامى إلا فى القليل النادر : فهذا فتى سمت به الهمة إلى المُلْك والسلطان فبلغ منهما ما أراد ، ولم يبلغهما ليتبحبح فى عزهما وينعم بما يجلبانه من الخير والوفرة ، وإنما لكى يملأ الدنيا نصراً وفخراً ، فلم يعتز الإسلام براية فى الأندلس هى أرفع من راية المنصور ، وما بالك براية انعقد بلوائها خمسون نصراً لدين الله ! .

لعلنا لو عرفنا ذلك لرددنا مع الشاعر الذى كتب على قبره :

آثـــاره تنبيـك عـــن أخبـــاره	حـــتى كأنـــك بالعيـــان تـــراه
تالله لا يـــأتى الزمـــان بمثـــله	أبـداً ، ولا يحمـى الثغور ســـواه !

مسلم عظيم

نـور الديـن محمـود

يعرف الناس عن صلاح الدين بن يوسف بن أيوب شيئاً كثيراً ، يعرفون أنه رجل الحروب الصليبية وواحدها ، والمفرد العلم بين الأبطال الشرقيين ، وجامع الإسلام إلى لواء الوحدة بعد طول تفرق ، وقائده أمام عدو شديد عبر البحر إلى بلاد المسلمين ، واستقر شجىً فى حلقها بضع عشرات من السنين قاربت القرن طولاً ، دون أن يستطيع هؤلاء جمع شتاتهم والسير إلى هذا العدو المهاجم ، والانتصاف منه لجلال الدين وحرمة أهله وكرامة الأوطان .

ولو قد اجتمع المسلمون عاماً واحداً لقضوا على هذا العدو خلال ذلك العام ، ولكن ماالحيلة وقد خلق الله قلوبنا نحن المشارقَة على تفرق لا يكاد يلتئم إلا بما يشبه المصادفة والإرغام ! وما بالك فى قوم يستقر بينهم عدو يغتالهم واحداً بعد واحد ، ويفرض عليهم الجزَى فريقاً بعد فريق ، ويتقدم كل يوم خطوة نحو الجنوب يريد السير نحو البيت الحرام حبة قلوب المسلمين ، فلا يتفضل أمراء المسلمين إلا بحركات تشبه العبث : سَرية هنا وغزوة هناك ، وكتاب من هذا وتهديد من ذاك ! فأما أن يتحد القوم ويبرزوا للعدو فأمر لم يخطر على البال ..

حتى أقبل صلاح الدين ، ولم يكن من طراز معاصريه ، ولا من أصحاب الدعة والعافية، فتطلع منذ اللحظة الأولى إلى الوحدة ، فمن سعى إليها وانضم إلى العصبة الإسلامية فقد سلم ، وإلا فلينذر بشر مستطير . ومن ثم لا غرابة فى أن ينعقد إجماع المؤرخين على أن النصر فى هذه الحروب عقد بلوائه ، وتوثق بسبب ما كان له من قدرة فى الحرب ، وما تيسر له من صدق الإيمان وجلال الفروسية وهيبة الرجولة وحكمة السياسة ،

التى أيدت الإسلام ونصرت كلمته ، ورفعت راية الشرق بعد أن أزرى به الأوربيون إزراء بالغاً .

ولكن الناس يعرفون القليل عن « نور الدين محمود » الذى سبق صلاح الدين ، ومهد له وجعل نصره ميسوراً بل هيناً ، وينسون أن نور الدين كان يفضل صلاح الدين بالكثير . فقد كان صلاح الدين ـ كغيره من منشىء الدولات وقواد الحروب ـ شديد الحرص والأنانية لا يكاد يتشمم ريح خطر من ناحية إلا تغيرت نفسه ، وغاضت فيها عيون الحلم والرأفة وعصف بمن خامره الشك فى أمرهم عصف من لا يبقى . وكانت مشاريعه ومطالبه متعددة لا تنتهى ، فكانت حاجته للمال لا تنتهى أيضاً ، وكان عماله وجباته من أشد خلق الله على الناس ، ما أبصروا بالبلد تاجراً إلا قصموا ظهره ، وما بدت على إنسان علامة من علامات اليسار إلا أنذر بعذاب من رجال السلطان . وكان الفلاحون والضعفاء معه فى جهد : ما أينعت فى حقولهم ثمرة إلا تلقفها الجباة ، ولا بدت سنبلة قمح إلا استقرت فى خزائن السلطان ، حتى أملق الناس فى أيامه ، وخلفهم على أبواب محن ومجاعات حصدتهم حصداً . وربما كان لصلاح الدين ورجاله بعض العذر فى هذه الشدة ، فقد كان الظرف يتطلب رجلاً حازماً شديداً ، لا يكاد يحفل إلا للمطلب الأسمى وهو إنقاذ الإسلام والمسلمين من خطر الهلاك على أيدى الصليبيين .

أما نور الدين فكان فارساً مسلماً شديد الإيمان بضرورة إنقاذ كرامة الإسلام مما تعرضت له على يد الأعداء ، كان ينطوى فى كل نزعة من نزعاته على إيمان صحيح لا يخالطه إفك من أساليب السياسة ، ولا رجس من أفاعيل النفس البشرية ، لم يكن كأبيه « عماد الدين زنكى » ينشد ملكاً بأى ثمن ، ولا يتردد فى مصالحة الصليبيين والمضى معهم إلى حيث يريدون ، ولا يحفل وضعَ يده فى يد مسلم أو نصرانى مادام الأمر ينتهى باتساع ملكه أو زيادة موارده .

وكان المسلمون قبيل عصر نور الدين قد تحولوا إلى شىء عجيب لا يمكننا تصوره فى يسر : أصبحت غالبيتهم لا تحفل للإسلام ولا ترعاه ، وكان أمراؤهم قادتهم فى هذا البلاء الذى كانوا ينزلونه بأنفسهم وببلادهم ، فقد نزل الصليبيون بلادهم فى أواخر القرن الحادى

عشر الميلادى ، واستقروا وأنشأوا الدولات فى قلب بلاد المسلمين ، فكان همُّ الأمير منهم حماية أرضه والبقاء على عرشه المتواضع ، يدفع الجزية للنصارى ويكاد يستأذنهم فى كل عمل يأتيه . ولم يقتصر ذلك على صغار الأمراء بل فعله كبارهم فى غير خجل ، فكان خلفاء الفاطميين ووزراؤهم (العظام !) أحلافاً للفرنج ، بل تابعين لهم ، يؤدون الجزية ويحمدون الله على السلامة ، وكان أمراء حلب ودمشق والموصل يواصلون الفرنج ويهادنونهم وينعمون برضاهم . ولم تكن الرعية خيراً من الأمراء ، كان السلطان إذا زاد فى الضريبة على جماعة ، أو مس امتيازات جماعة ، لوحت بالانضمام إلى الفرنج ، بل انضمت إليهم فعلاً ، وسارت فى ركابهم تقتل المسلمين وتسبى نساءهم بلا رحمة ولا إيمان .

وكان يخيل للمتأمل فى أحداث هـذا العصر أن ساعة الإسلام قـد دقت ، وأن زمانه قد ولى ، فقد أقبلت عليه جموع النصرانية تهاجمه بعرض البحر الأبيض المتوسط ، والتقى المسلمون مع الفرنج فى حرب هى حياة أو موت فى ميدان يمتد من طرف الغار فى أقصى الجزيرة الأندلسية إلى أقصى الموصل شمالاً ، وأخذت جموع المسلمين تتراجع فى اتصال محزن حتى ظن أحدهم ـ وهو ريجنالد صاحب الكرك ـ أنه فاتح مكةَ والمدينة وقاضٍ على الإسلام وأهله ! ولم تروع هذه الدعوى مع ذلك أحداً ! ظل أصحابنا الفاطميون يهنئون أنفسهم بما يجتمع فى خزائنهم من قطع الذهب ، وظل أمراء دمشق وحماه يلتمسون مواقع رضى ملك بيت المقدس النصرانى ، وظل العربان فى بوادى الشام يأخذون الإتاوات من الفرنج ثمناً للخيانة ، حتى جاء نور الدين فتغير ذلك كله ، فقد طالع الناس بسياسة إسلامية صريحة لا تعرف الحيلة أو المداورة ، وجابه النصارى بعداء صريح لا يعرف مرونة السياسة ، ومضى يؤيد الإسلام تأييداً متصلاً ، لا يكاد قلبه يعرف نوازع الطمع ولا بوادر الحسد.

لم يكن نور الدين بالجندى الماهر ولا بالسياسى الضليع ، وإنما كان المؤمن الذى يغنيه الإيمان الصادق عن مهارة القيادة وحنكة السياسة ، وتعينه قوة الخُلق واستقامة النفس على أساليب الشطار من ثعالب الناس .

كان أبوه « عماد الدين » يهاجم أمراء المسلمين إخوانه فى غير تردد إذا بدا له أن ذلك يعود بالخير عليه وعلى إمارته ، وكان يمد يده للنصارى فى بيت المقدس أو فى طرابلس أو

فى الرها ، ويحالفهم على أن يبقى لهم على ما وقع فى أيديهم من بلاد المسلمين ثمناً لسكوتهم عنه ، وكان يرجو أن يرث ابنه نور الدين خصاله تلك ، حتى يستطيع الحفاظ على إمارة الموصل من شر يدبره أحد الجيران فى عصر تواترت فيه الشرور .

وكان قد قضى حياته يحاول الاستيلاء على دمشق ، لأنها كانت أوسط إمارات الشام ، من وضع يده عليها هدد حلب وجعل الإمارات الصليبية فى بيت المقدس وطرابلس فى خطر . وكانت دمشق تخشاه ، وتتطلع إلى حليف يحميها من مطامعه ، ولم يكن عرشها ثابتاً ولا أمرها مأموناً ، ولو لم يساعفها الله بثعلب من ثعالب السياسة ، وهو « معين الدين أنار » بعد مقتل صاحبها « شهاب الدين محمود » ، لاستطاع عماد الدين أن يضع يده عليها فى غير كبير مشقة ؛ ولكن « معين الدين أنار » أسرع ومد يده إلى « فُلك » صاحب بيت المقدس ونزل له عن بانياس ، وارتضى أن يدفع له جزية فى نظير ما عسى أن يقدمه له فُلك من المعاونة ، واستطاع بهذا أن يحبط محاولات « زنكى » وأن يرده إلى بلاده فى الموصل وحلب آيساً من الأمل فى توسيع رقعة ممالكه فى بلاد الشام ؛ فاتجهت أنظاره إلى إمارة الرها الصليبية إلى غرب بلاده .

وكان صاحبها « جوسلين » فارساً هماماً ، أجمع المؤرخون على قدرته وفروسيته ، وكان من فرط شعوره بالأمان لا يكاد يقيم فى الرها إلا قليلاً ، وإنما كان معظم مقامه فى تل باشر وكان يقضى الوقت كله متنقلاً من حصن إلى حصن فى دعة وأمان وطلب للتسلية يدعو إلى العجب ، ولم تكن العلائق بينه وبين جيرانه النصارى أمراء طرابلس وأنطاكية على ما يرام ، ولم يكن يرجى منهم أن يمدوا له يد المساعدة ساعة الخطر .

وحدث فى سنة ١١٣٧ أن شغلت هاتان الإمارتان بهجوم مفاجىء قام به يوحنا إمبراطور بيزنطة ، فصرف ريموند أمير أنطاكية معظم وقته فى رد هذه الغارة ، وظهر للعيان أن صاحب الرها واجد نفسه وحيداً بلا عون من أحد من إخوانه النصارى إذا دهمه أمر ، فلم يكد عماد الدين يشعر بهذا حتى جمع جنده ، وهاجم الرها هجمة مفاجئة فاستولى على الحصن المنيع بعد حصار قصير (٢٨ نوفمبر سنة ١١٤٤) ، وبهذا أسقط عماد الدين واحدة من الإمارات الصليبية الأربع فى الشام ، وخلص المسلمين من هذا الشجى الذى

كان قد استقر فى حلوقهم ، مهدداً حلب والموصل ، ومبدداً كل أمل فى الوحدة ، فلما وقعت فى يد هذا الصقر المسلم انفتح السبيل أمام أهل الموصل ، واستطاع أن يخطو فى أرض الشام بقدم ثابتة .

وأحست إمارة دمشق الموالية للصليبيين أن ساعتها قد دنت ، ولو لم يمت عماد الدين مقتولاً على يد أحد غلمانه فى الرابع عشر من سبتمبر سنة ١١٤٦ لاستولى عليها ، ولكنه مضى مخلفاً العرش لولديه نور الدين محمود وسيف الدين غازى ، فتقاسما دولة أبيهما : لسيف الدين الموصل وما يليها ، ولنور الدين حلب والرها . فكان على سيف الدين الانصراف إلى حماية أملاكه من جيرانه المسلمين فى الشرق ، وأما نور الدين فقد أراد له الحظ السعيد أن يكون وجهاً لوجه أمام الصليبيين ، أمام العدو المهاجم المحتل . ولم يكن أحب إلى نفسه من عمل جليل كهذا ، فانصرف إليه بكل ما ركبه الله فى نفسه من حمية للدين وصفاء فى العقيدة ، ومازال يغالب ويجاهد حتى خلف للإسلام دولة موحدة قوية فى يدى زعيم عبقرى هو صلاح الدين .

ولو قد كان نور الدين ذئباً من ذئاب الأمراء كغيره من معاصريه ، أو ثعلباً من ثعالب السياسة كأبيه وجاره « معين الدين أنار » ، لما وفق فى إدراك مطالبه البعيدة الجليلة هذا التوفيق السعيد . ذلك أن استقامة خلقه ومعاملته الناس بما تقتضيه المرءوة الإسلامية الشرقية العريقة ، قد أوقعتا فى القلوب احترامه وأخجلتا رجاله ، وجعلتاهم لا يكادون يجرؤون على غدر أو تقصير وإن دارت أفكار ذلك بأذهانهم ، بل كان لشخصه من المهابة فى قلوب خصومه النصارى ما أيأسهم من إدراك مطالبهم منه بالحيلة أو بالخيانة ، واضطروا أن يقفوا منه وجهاً لوجه وقفة الشريف للشريف ، وهو أمر لم يعتادوه ولم يستطيعوا عليه صبراً ، وعجزت وسائلهم فى كسب وده بالمال أو بالطاعة المدخولة ، لأن الرجل لم يكن يطلب مالاً ولا طاعة ، وإنما كان يطلب بلاد المسلمين ليردها على المسلمين وقد تراجع خصومه أمامه ، وأسلموا إليه حصونهم واحداً بعد واحد ، وهم يزدادون مع الأيام إعجاباً به واحتراماً له ، حتى لتقرأ مديحه عند أشد خصومه النصارى تعصباً ، فيصفه وليم الصورى بأنه أمير عادل يقظ متدين معين لأبناء جنسه راع لتقاليده :

Princeps justus et providus et secundum gentis suae traditiones religiosus .

وقد حاول من أول الأمر أن ينزع من قلوب من يعاملونه الخوف والشك اللذين يدفعانهم إلى الخداع والغدر ، كان يعرف مثلاً أن فلاناً من أتباعه يدبر عليه ولا يستحى أن يضع يده فى يد أعدائه ، ولو أن غيره مكانه لقبض على هذا التابع وبطش به ، ولكن نور الدين كان يعلم أن دافع هذا التابع إلى الخداع والغدر إنما هو عدم الأمان الذى يشعر به ، ولو أمن لجادت نفسه بأحسن ما فيها ، فكان لا يزال يحاسن القَلِق المتردد ، ويملى له فى أسباب الطمأنينة حتى ينتزع الخوف من نفسه ، ويجعله يشعر أن نور الدين أحنى عليه من والده ، ومن ثم يسلم قلبه له ، ولا يعود يفكر فى خيانة أو غدر .

ولم يكن نور الدين ييأس من أول محاولة مع الناس ، بل كان يحاسن التابع من أتباعه فيصر التابع على الغدر ، فيمضى نور الدين يزيد فى إحسانه ولا يزال به حتى يستل من نفسه كل خوف . وقد كسب بهذا قلوب تابعيه على نحو لم يوفق إليه أمير مسلم فى عصره ، وأصبح يبعث الواحد من رجاله فى أمر من أموره وهو لا يشك فى صدقه وفى استعداده لبذل أقصى ما يستطيعه . بهذا كسب قلب أمير قادر مثل « أسد الدين شيركوه » واحتفظ بود « صلاح الدين » ، ولو عمل كلاهما مع أمير آخر غير نور الدين لوقعت البغضاء بينهما وبينه من أول الأمر ، ولتفرقت الوحدة المرجوة أيدى سبا .

ولست تجد فى تاريخه كله إلا مثلاً نادرة من هذه الفضيلة الغالية التى توقظ الفضيلة النائمة فى قلوب الناس وتنظمهم جميعاً فى صفوف الخير جنداً مخلصين ، ولعل ذلك يأذن لنا فى أن نقول إن الفضيلة إذا تمكنت من النفس كانت أقوى من ذكاء نافذ وتحايل تزول أما الحجب . فلو أن صلاح الدين كان فى مكان نور الدين لما استطاع ما استطاع ، لأن صلاح الدين كان رجل سياسة وكياسة ، ولم يكن الوقت يحتاج للسياسى الكيس ، وإنما للزعيم المخلص ، وللأب الكريم الذى يكسب القلوب ويؤمنها وينظمها فى صف الجهاد عقداً ، وقد استطاع نور الدين ذلك على أجمل صورة وأدعاها إلى الإعجاب ، وخلف قلوب الناس مفتحة للجهاد مشرئبة إليه ، ولم يبق على صلاح الدين إلا أن يقود ؛ وقد قاد وانتهى الأمر بنصر الإسلام والمسلمين .

وكان مركز نور الدين في حلب ـ بين المسلمين إلى شرقه والنصارى إلى غربه ـ دقيقاً يحتاج إلى مهارة كبرى فى سياسة الأمور ، وكان قد قرر فى نفسه أن يكون صديقاً للمسلمين أبداً ، حرباً على النصارى أبداً . ولم يكن ذلك بالهين الميسور ، لأن المسلمين إلى شرقه لم يكونوا خيراً من النصارى أو آمن جانباً ، بل كان أخوه سيف الدين يبدى من مظاهر العداوة مالا يبقى للحب والمحاسنة سبيلا ، ولم يكن نور الدين ليستطيع أن يمضى فى سياسة المحاسنة مغمض العين ، لا يكاد يفطن إلى ما يدبره أخوه إلا إذا عول على بعض الخسارة ، فلم يتردد فى أن يكون هو الخاسر فى نزاع بينه وبين أخيه ، وكان يعوض ذلك بمضاعفة الهمة فى حرب النصارى والكسب منهم ، فكانت مكاسبه من الأعداء تعوض عليه خسائره على يد سفهاء قومه .

ومن دلائل فضله وتوفيقه فى تحقيق أمانيه بهذا الفضل وحده سياستُه مع أتابكية دمشق التى كان يدبر أمورها الوزير الماهر « معين الدين أنار » ، فقد قضى عماد الدين زنكى عمره يحاول كسب دمشق بالحرب وبالحيلة فلم يوفق ، لأن « معين الدين » لم يكن فى نفسه بالرجل السيىء أو الفاسد الإيمان ، وإنما كان مروعاً يخشى أن يقتله عماد الدين أو يخرب بلده إن هو استسلم له ، ولهذا مضى يكابره ويعارضه ويحالف النصارى عليه خوفاً من أذاه، وبهذا استحال على عماد الدين زنكى أن يستولى على دمشق ـ موسطة بلاد المسلمين ومفتاح سُبُلها ـ واستحال عليه لذلك أن يمضى فى توحيد المسلمين إلى الغاية المطلوبة .

فلما أقبل نور الدين استشعر من هلع « معين الدين » ما عطف قلبه عليه ، فمضى يحاسنه ويهدىء من روعه ، بل تزوج ابنته وأصبح الحريص عليه الحانى على مصالحه ، فلم يكد « معين الدين » يطمئن حتى انقلب على النصارى ، وأصبح درعاً من دروع الإسلام بعد أن كان شجى فى حلوق المسلمين ، واطمأن أهل دمشق إلى نور الدين وهوت نفوسهم إليه . وبدأت مخاوف معين الدين تظهر من جديد ، إذ خاف أن ينقلب عليه أهل بلده ويغدروا به وينضموا إلى نور الدين ، فأخذ يمد يده إلى صاحب بيت المقدس فى السر يريد أن يدخره لوقت تتغير عليه فيه قلوب أهل بلده .

وقد كان نور الدين مستطيعاً أن يهاجم دمشق ويقضى عليها ويستريح من شرها ،

فأبت عليه نفسه الكريمة أن يفعل هذا ، وكره أن يهاجم مسلماً ليغتبط صليبى لم يأت إلا للقضاء على قوة المسلمين ، وكان يعرف بما وهبه الله من ذكاء أن الإفرنج منقلبون يوماً على دمشق ، وأن صلح معين الدين معهم منتهٍ يوماً إلى شر ما تكون عليه العواقب ، وكان يشفق من هذا أشد الإشفاق . ولم تكذب ظنونه ولم يطل به الانتظار ، فما هى إلا شهور حتى أقبلت الحملة الصليبية الثانية ، فإذا أحلاف الأمس أعداء اليوم ينطوون على شر النيات نحو دمشق وأهلها ، وإذا جموعهم تزحف رهيبة وتحصر « معين الدين » حصراً شديداً ، وإذا به يستغيث فلا يجد من ينجده ويقيل عثرته ويقف إلى جانبه موقف الأخ المعين غير نور الدين ! وقد نسى أو تناسى إصراره على الشر والخداع فى لحظة كان ينبغى أن لا تنطوى القلوب فيها إلا على الحب والإخاء .

خف نور الدين لعون دمشق بالمال والرجال ، فثبت معين الدين ومن معه من أهل دمشق فى صفوف الإسلام ثباتاً هزم الصليبيين وردهم على أعقابهم بخسارة ظاهرة ، فكأن نور الدين أدرك بالمحاسنة والود من دمشق مالم يكسبه منها أبوه بالحرب والحيلة ، ولو قد أقبلت هذه الحملة الصليبية فى أيام عماد الدين لانضم إليها معين الدين وسار مع رجالها لمهاجمة حلب والرها ولتعرضت بلاد المسلمين كلها للخطر الشديد ، فأما وقد أقبلت فى أيام نور الدين فقد تغير الأمر كله ونجا الإسلام بفضل نور الدين وفضيلة نفسه .

لقد كان فشل الصليبيين فى الاستيلاء على دمشق سبباً فى ارتداد الحملة الصليبية الثانية وكانت تهدد الإسلام وأهله بخطر شديد ، وكان ارتداد هذه الحملة الصليبية بالفشل هو الحد الفاصل بين الدور الأول والدور الثانى من أدوار هذا الصراع الطويل بين الإسلام والنصرانية على أرض الشام والبلد المقدس ، دور الدفاع والتقهقر والخوف قبل عهد نور الدين ، ودور الهجوم والتقدم والجرأة والثبات فى عهده وبعده . لقد جنى المسلمون على يد نور الدين أول ثمرة من ثمات التضامن والإخلاص ، وأثبت نور الدين لمن يضع يده فى يده أنه آمن مطمئن كاسب من الاتفاق على كل حال ، فتسارع الناس إليه يحالفونه ويضعون يدهم فى يده .

أما الصليبيون فقد روعوا ، وبدأت ريح الفشل تجرى فى صفوفهم . لقد عاشوا إلى الساعة فى بلاد المسلمين معتمدين على ما أصاب المسلمين من تفرق ، وما كان يخامر

قلوبهم من كراهية بعضهم بعضاً . وقد كان النصارى سعداء كل السعادة بأن يجدوا صاحب دمشق خائفاً مروعاً من صاحب حلب ، وكان ذلك يؤمنهم ويثبت أقدامهم ويفسح مجال الأمل أمامهم ، فأما اليوم فلا عون ولا أمل فى العون . وهذا نور الدين باسط كفه يؤمن المسلمين ويهبهم باليدين ، وهم يلتفون حوله وتهوى إليه قلوبهم ، وهو ماض يوحد قلوبهم وينظم صفوفهم ويعدهم للمعركة الأخيرة الحاسمة لتخليص الوطن الإسلامى الكريم من العدو المهاجم الدخيل . لقد كسب نور الدين بقلبه الكريم للإسلام مالم يكسبه أبوه بسيفه الرهيب .

ثم اتجهت أنظار نور الدين نحو أنطاكية ، ولم تكن بالإمارة الضعيفة ولا الحصن الميسور ولو قد كان نور الدين يبغى الكسب على أى حال لوجه قواته نحو دمشق ، فقد كانت فى كفه لا تكاد تستطيع مقاومة ، ولكنه انصرف عنها ومضى ينازل عدواً خطراً هو رايموند الطولوشى صاحب أنطاكية . وملأت الحماسة قلوب المسلمين ، فمضوا فى جيش نور الدين تكاد قلوبهم تقفز من صدورهم قفزاً ، ولم يكادوا يلتقون مع العدو عند « أناب » من بلاد أنطاكية فى يونيو سنة ١١٤٨ ، حتى كروا على العدو كرة خلعوا بها قلبه وفرقوا قواه بين أسير وقتيل ، حتى رايموند نفسه لم يفلت ، فقتله أسد الدين شيركوه بيده . وكان لذلك رنة فرح كبرى فى قلوب المسلمين إذ أيقنوا أن ساعة أنطاكية قد دنت ، وأن راية الإسلام مرفوعة عن قريب على ربى هذا الإقليم بعد قرابة قرن ، قضاه أهله فى ظلال الأسر والهوان.

وكان نور الدين يشفق على قواده إشفاقاً شديداً ، ويبذل الجهد ليعينهم على أن يصيبوا من مطالب النفس والحياة ما عساهم يطمعون فيه ، لا يكاد يصرفه عن ذلك شعوره بأن هذا التابع أو ذاك يميل إلى شىء من الانفراد بالأمر والسلطان . ومن أمثلة ذلك موقفه حيال قائده أسد الدين شيركوه ، فقد كان أسد الدين قائداً ماهراً واسع المطامع ، وكانت قد بدرت منه أول الأمر بدوات قمينة بأن تبغض نور الدين فيه وتخيفه من مقاصده . وكان أسد الدين كردياً ، وكان الأكراد كثيرين فى جيش نور الدين ، ولم يكن من المأمون أن يترك فيهم هذا الطامح خشية أن يعتز بهم ويجنح إلى العصيان ، ثم إنه واسع المطامع لا يفتأ يتحدث بمطامعه إلى من حوله .

وكان دائم الإلحاح على سيده نور الدين فى ضرورة فتح مصر ، لتكون له كما كانت لعمرو بن العاص ، وكان ظاهراً أنه يسعى فى فتحها لغاية يطويها فى نفسه ، ولم تكن تلك الغاية هى الوثوب على أميره نور الدين والاستقلال بمصر ، وإنما هى الرغبة فى أن يقوم بعمل كبير ينفرد هو بشرفه . فقد ظل إلى الساعة يقوم بدور ثانوى إلى جانب نور الدين ، كان يقيم معه فى عسكره ، وكان هذا يرمى به فى كل معمعة ويرسله فى كل جليلة ، وقد حاز شيركوه من النصر شيئاً كثيراً ، بل لم يُرهب الصليبيين وينزل بهم الهزيمة تلو الهزيمة أحد مثله ، فتاقت نفسه إلى أن يتوج أعماله بفتح جليل يعلو به ذكره ، ويغل عليه غلة كبيرة ، فمضى يقنع نور الدين بأهمية فتح مصر ، ويهونها عليه كما فعل عمرو بن العاص مع عمر ابن الخطاب من قبل .

ولم يكن نور الدين يسوف فى ذلك خوفاً من شيركوه ، بل لأنه كان يرى أن الساعة لم تحن بعد لمثل هذه الخطوة الواسعة ، ثم إن أصحاب مصر كانوا مسلمين ونور الدين لايفكر فى مهاجمة المسلمين . حتى إذا كانت غزوة « إمرى » صاحب بيت المقدس فى سبتمبر سنة ١١٦٣ ، لم يبق عند نور الدين شك فى ضرورة الاستيلاء على مصر لطرد الصليبيين منها ، وللحيلولة دون تسربهم إليها مرة أخرى ، فأذن لشيركوه فى المسير . ولم يكد هذا الأخير يتلقى هذا الأمر حتى خف يقطع المراحل إلى مصر فى إبريل سنة ١١٦٤ ، وأحب نور الدين أن يهون عليه الأمر ، فجمع جنده وقام بغزوة فى شمال بلاد مملكة بيت المقدس ، ليشغل بها « إمرى » عن التعجيل بإرسال قواته إلى مصر .

وبذلك استطاع شيركون أن يتم هذا الفتح بعد جهد كبير وحملات ثلاث ، اشتد فيها الصراع بين المسلمين والنصارى على هذا البلد ، الذى كان الحكم الفاطمى قد هبط به وبأهله إلى حال هى أقرب ما تكون إلى العدم ، حتى كان الفريقان يتطاحنان على أرضه وهو ذاهل لا يكاد يحرك ساكناً . لم يظل نور الدين ساكناً طوال هذه الفترة منتظراً نتيجة هذا الصراع العنيف الذى يدور على ضفاف النيل ، بل مضى يهاجم خصومه الإفرنج واحداً بعد واحد ، لا يكاد يمر شهر حتى تجده على رأس جنده فى ناحية .

وكان من عجائب المقدور أن شيركوه لم يكد يتم هذا الفتح الجليل ، ويقضى على شاور ويستقر فى وزارة العاضد ، حتى أدركه الموت ولما تنقض ثلاثة أشهر على تمام فتحه الجليل

وبلوغه أقصى أمانيه ! عشرون سنة قضاها وهو يحارب فى صفوف المسلمين ، ويقود الغارات ويفتح البلاد دون أن يحظى من ذلك كله بما عساه يعوض عليه بعض ما يلاقيه من جهد ، فلما وصل آخر الأمر إلى ما يريد ، وآن أن يستمتع ببعض الراحة ناداه ربه إلى جواره فغادر هذه الدار الفانية فى الثالث والعشرين من مارس سنة ١١٦٩ . وقد حزن عليه مولاه نور الدين حزناً بالغاً ، وجعل ابن أخيه صلاح الدين مكانه تعويضاً للأسرة عن مصابها فى أميرها الكبير .

وقد توفى أخوه سيف الدين سنة ١١٤٩ ، وترك مملكته فى « سنجار » خالية ، ولو أراد نور الدين لوضع يده عليها ، ولكنه لم يطمع فى هذا الغنم الذى وقع بين يديه . لم يكن كمن عرفنا من الحكام ، ينقض على ما يخلفه إخوته فيختطفه اختطاف النمر الكاسر ، بل ذهب إلى سنجار ورتب أمور الإمارة ثم وهبها لأخيه الأصغر مكان أخيه الراحل ، ونزل « لقطب الدين مودود » هذا عن كل ما اتصل بالفقيد من تراث وعتاد .

* * *

ويتجلى كرم النفس الذى امتاز به نور الدين فى موقفه من صلاح الدين ، فإن مطامع صلاح الدين لم تكن تخفى على أحد من يوم ولايته الوزارة فى مصر بدلاً من أسد الدين شيركوه . وجعل الناس يتحدثون فى مجلسه بالوثوب على نور الدين والاستقلال عنه ، ولو لم يتدخل أبوه نجم الدين أيوب لخرج صلاح الدين على سلطانه وولىّ أمره ، وكان صلاح الدين يتصرف من أول الأمر تصرف المستقل الذى لا ينوى الطاعة ، وقد شجعه على ذلك ما ظهر له من رقة نور الدين وطول صبره وانصرافه إلى منازلة الفرنج . وكان نور الدين يرجو من صلاح الدين معاونته والخروج لحرب النصارى فى كل حين ، لا الانصراف إلى تأثيل ملك وتقرير سلطان ، فكان كلما خرج فى غزوة سأل عن صلاح الدين وانتظر معاونته ، ولكن صلاح الدين كان يتقاعد ادخاراً لقوته ، أو انصرافا منه إلى ما كان يعتبره إذ ذاك أهم وأجدى . فساورت المخاوف قلب نور الدين ، وجعل يلومه ويستحثه ويطالبه بالمال ، على نحو ما كان عمر بن الخطاب يفعل مع عمرو بن العاص حينما خامرته فى أمره الريب .

وتسامع نور الدين بما كان آل أيوب يدبرونه فى مصر ، وعرف أنهم بعثوا من يكشف لهم

بلاد النوبة حتى يلجأوا إليها إذا وقعت الواقعة بينهم وبين نور الدين ، وعرف أن بلاد النوبة لم تعجبهم ، وأنهم بعثوا بعثا آخر إلى اليمن وبرقة لهذا الغرض ، فأدركه من ذلك خوف مقيم مقعد . وقد كان مستطيعاً السير إلى مصر ونزع صلاح الدين عنها ، ولم يكن صلاح الدين ليستطيع مقاومته لأن أمره كان ناشئاً ، ولأن أجناده كانوا أجناد نور الدين على أى حال ، وقد أطال نور الدين صبره وأملى لصلاح الدين وآله ، جريا فى ذلك على أسلوبه مع غيره من المسلمين ، وكان مع ذلك الخوف كله لا يزال يوقر صلاح الدين ويرسل له الخلع حتى يؤمنه ، ويصرف الخوف عن نفسه ، كما فعل « بمعين الدين أنار » وزير دمشق، وظل الأمر بينهما على ذلك حتى مات نور الدين .

* * *

كان نور الدين يحلم بالدولة الإسلامية الواحدة ، وكان يرجو أن يحققها الله على يديه ، وكان شديد الشعور بما تتعرض له البلاد الإسلامية من الأخطار إذا ظل الصليبيون مقيمين فيها تصل إليهم الأمداد بين الحين والحين ، ويوسعون أملاكهم فى كل يوم شيئاً . ولو قد كانت جهته توسيع ملكه على أى نحو لترك الصليبيين وشأنهم كغيره من أمراء المسلمين فى عصره ، ولو انصرف إلى صغار أمراء المسلمين وشغل نفسه بهم لكسب كثيرًا بالاستيلاء على ما بيدهم من بلاد ، وقد كانت قوى بعضهم لا تزيد على مائة فارس ، وكانت حصونهم هينة يسيرة تفتح له أبوابها إذا مر بها ، فلا يغدر بأحد من أهلها ولا يطمع فيما بيده . بل كان يجمع أجناده ويتوجه بقوته قاصدًا هذه الإمارات الصليبية ، ولا يزال يدأب فى حربها حتى تستسلم وتعود إلى راية الإسلام .

لقد رأينا مصانعته « لمعين الدين أنار » صاحب دمشق وصبره على صلاح الدين ، ورأينا كذلك عنفه فى الحرب وإلحاحه على أنطاكية بالحرب ، لا يبغى من وراء ذلك إلا خير المسلمين وجمعهم إلى لواء النصر من جديد ، وقد ورث عن أبيه عماد الدين إمارة حلب ، وهى إمارة صغيرة يتهددها الصليبيون من الغرب ، فمازال حتى أمنها من ناحية أمراء المسلمين فى الشرق وأمن حدوده الشمالية ، ثم انصرف يناجز أنطاكية واستولى على معظم بلادها ، وبسط سلطانه على دمشق ، ثم استخلص مصر من الفاطميين ، وبهذا

أصبحت أملاكه تمتد من الموصل إلى مصر قطعة واحدة ، ففضل بذلك إمارة بيت المقدس الصليبية عن أنطاكية وطرابلس ، وأصبح مصير الصليبيين فى الشام رهناً بضربة توجه إلى بيت المقدس وتقضى على الدولة اللاتينية فيها ، ولا يبقى لهم بعدها إلا شريط ضيق من الأرض على ساحل الشام . ولم يلجأ نور الدين فى تكوين هذه الوحدة إلى غدر أو خديعة ، ولم يهبط بخلقه ودينه إلى ماكان يهبط إليه أنداده ومعاصروه من سلاطين زمانه ، إنما ظل طوال أيامه مسلماً فاضلاً شريفاً لا يكاد الإنسان يستدرك عليه شيئاً يمس الخلق أو الإيمان.

وكان صلاح الدين تلميذه : ورث عنه فكرة الوحدة الإسلامية ، فحافظ عليها ما استطاع ، وأخذ عنه فكرة القضاء على إمارة بيت المقدس الصليبية فأنفذها بعد موت نور الدين بثلاث سنوات فقط ، ومن ثـم فنصر المسلمين فى حطين وما أعقب ذلك من عز للإسلام وأهله يرجع معظم فضله إلى هذا الرجل الكريم نور الدين محمود .

توفى نور الدين عن ست وخمسين سنة فى دمشق فى مايو سنة ١١٧٤ ، فى لحظة اشتدت فيها مخاوفه من ناحية صلاح الدين ، حتى ليزعم المؤرخون أنه كان يستعد لحربه ؛ توفى قبل أن يرفع سيفاً فى وجه تلميذه وتابعه صلاح الدين العظيم ، فكأنما اصطفاه الله إلى جواره فى ذروة مجده ، وفى لحظة تطلع لتسلم الزعامة منه فيها زعيم آخر ذخره الله لإتمام الرسالة الكبرى : تحرير بلاد المسلمين وجمع المؤمنين إلى لواء واحد عزيز منصور .

أبطال دمياط والمنصورة

ليتك صحبتنى أيها القارىء ، فاستمعت معى إلى المقريزى يروى حديث بطولة مصر وأهلها ! ليتك شاركتنى هذا المتاع الطيب الذى يظفر به المصرى ، حينما يقرأ هذه الصحائف الممتعة من « السلوك لمعرفة دول الملوك » ! إذن لسمعت حديثا يثير فى نفسك صنوفا من العواطف تذكى فى فؤادك الفخر بهذا البلد ! إذن لرأيت بعينيك كيف كان أجدادك وطنيين حقا ، مسلمين حقا ، لا يرضون أن يطأ أرضهم مهاجم ، ولا يطيقون أن يعدو على بلاد المسلمين خصم يريد بهم الشر أو الأذى ، إنما دون العدو وحياض المسلمين صراع يفيض ثباتا ، واعتزاز يفيض إيمانا ، وحرب هى نزال أبطال ، وضرب لايثبت له غير الرجال !

ذلك أمر لا ينبغى أن يرقى إلى نفسك فى شأنه ظل من الريبة ، وما أحب أن تتبع فيه مذهب الضعفاء الذين يأخذون تاريخ بلادهم عن الأجانب الذين حدثتك بموقف بعضهم من تاريخ مصر فى قصة واقعة رفح ، أو بعض المحدثين الذين ينظرون نظرة عاجلة فى كتاب مختصر ، ثم يقولون لك : تاريخ مصر فى العصور الوسطى ؟ إنما هو قصة طويلة محزونة لا فخر فيها لمصرى ولا كرامة ! إنما الكرامة لتركى كأحمد بن طولون ، أو نوبى مثل كافور ، أو أرمنى كبدر الجمالى ، أو كردى مثل صلاح الدين ! .

هذا القول وأمثاله هو بعض ما ابتلينا به فى دراسة تاريخنا ، كأنما كان هؤلاء الذين ذكرتُ أغرابا يعتبرون أنفسهم أغرابا كما يعتبر الفرنسى مثلا نفسه فى مصر غريبا . والواقع ليس كذلك ، لأن لفظ « أجنبى » هذا لفظ حديث بمعناه الذى نفهمه به نحن اليوم ، وقد كان المسلم فى أيام ابن طولون أو فى أيام الناصر بن قلاوون ، يعتبر نفسه فى بلده مهما

تقلب فى بلاد المسلمين ، وكان الشامى لا ينظر إلى المسلم المقبل من مصر نظرته إلى غريب طارىء وإنما إلى مسلم مثله يلتمس العيش فى دار الإسلام الواسعة .

وطاعة المصريين لعبقرى مثل صلاح الدين لم يكن يشوبها شعور الاشمئزاز الذى شعر به سلائلهم حينما أرادت لهم صروف الأيام أن يخضعوا لنابليون ، لأن أسلافنا فى تلك العصور كانوا على أن صلاح الدين رجل مسلم تنبغى طاعته ما أقام على العدل ، ونابليون رجل نصرانى ينبغى خلافه ولو كان أعدل العادلين ! ولم نكن نحن بدْعا فى هذا الفهم ، بل شاركَنَا فيه أهل الدنيا أجمعين ، فقد كان ملوك الإنجليز من النور منددين معتبَرين من أتباع ملوك فرنسا ، وكان الإيطاليون من رعايا أباطرة الجرمان لا يعرف بعضهم إيطاليا إلا فاتحاً غازيا مؤدِّبا ، ومثل ذلك كثير .

ولا يجد مؤرخو هذه البلاد على أنفسهم أو على بلادهم فى ذلك ضيراً ، فإنما الرجل بالبلد الذى نبغ فيه وأعانه أهله ، فليس وليم الفاتح فرنسيا بل إنجليزيا وإن ظل يتكلم الفرنسية طول حياته ، وليس نابليون إيطاليا وإن ظل لا يجيد الفرنسية طوال حياته ، وليس فون مولتكه دانيمركيا وإن ظل كذلك حتى العشرين من عمره . كذلك أحمد بن طولون : كان مصريا وإن كان أصله تركياً ، وصلاح الدين كان مصريا وإن كان كردى المولد ، وهكذا ينبغى أن نفهم الأمور هذا الفهم وإلا أسأنا فهم تاريخنا ، وفاتنا من جماله الشىء الكثير .

هذا ، ومهما تكن حجة هؤلاء المكابرين فى إنكار ما كان لأجدادنا من نصيب فى مجد مصر الفاطمية أو الأيوبية أو المملوكية ، فإنك واجد عند القراءة الذكية لتاريخ هذه العصور أن المصريين لم يكونوا أقل ممن نسميهم اليوم « أجانب » نصيباً فى بناء صرح الأيوبية مثلا ، فقد كان منا ساسة الدولة وعلماؤها وكتابها وشعراؤها ومهندسوها ، وكان منا جنود بواسل قصموا ظهر العدى .

وعسى من يسأل : فلماذا لم يندرجوا فى سلك الجيش ويرتقوا إلى مراتب القيادة ؟ والجواب عن ذلك هين ، فقد كانت الجندية إذ ذاك حرفة لها ناسها لا يعرفون فى الحياة سواها . وكان الجنود عبيد الأمير يشتريهم بماله ويملك رقابهم لأنهم يعيشون من فضله

وبإحسانه وطوع بنانه ، ولم يكن المصريون من أهل الجندية المحترفين ، لأنهم مدنيون بطبعهم وبظروف الحياة في بلدهم ، ولم يكونوا عبيدا يشترون فى أسواق الجند ، ويعيشون «مماليك» لواحد من الناس . وكذلك كان أهل الشام وأهل العراق وغيرهم من أهل البلاد المستقرة العريقة فى الحضارة ، لهذا أوصد باب الجندية المنتظمة فى وجوههم ، ولم يبق لهم إلا باب التطوع الحر ، فكانوا فى جيوش بلادهم متطوعين . ولهذا أهمل المؤرخون معظم أعمالهم، لأن المؤرخين كانوا يكتبون للسلاطين وأمرائهم وأصحاب العروش ، ولم يكن يعنيهم أن يطيلوا الحديث عن « متطوعة » أدت واجبها ، واستشهدت فى الميدان ، أوكتبت لها السلامة ، فعادت بعد المعارك ، واندرجت فى تيار حياتها الوادعة المد ، وغابت عن الأنظار .

وأنا أنقل لك الساعة حديثاً يؤيد ما أقول ، فاقرأه ، عساك تمضى فى دراسة تاريخ بلادك على هديه ، فأنت مفيد من ذلك فهما لتاريخ مصر العزيزة جديدا .

* * *

أهل القرن الثالث عشر الميلادى ، ومضت سنوات تجرى سراعا يتلو بعضها بعضاً ، وأقام الصليبيون فى بلاد الشرق ، يدافعون عما بقى لهم من الأملاك على ساحل الشام ، يُمنَون بالخيبة تتلوها الخيبة ، وبالهزيمة فى إثرها الهزيمة فى ميادين الشام بمصر . وقد كانوا - حينما أقبلوا - يحسبون الشرق كله فريسة هينة ، يصيبونها فى جرية فرس وهزة رمح ثم يعودون ! ولقد كان رهبانهم وقادتهم قد حدثوهم - يوم نهضوا لهذه الحرب فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى — أنها لن تدوم إلا فترة قصيرة من الزمان ، وأن المسلمين لن يستطيعوا ثباتا ، ولن يلبثوا أن يسلموا عن خوف ويتوبوا عن مغفرة ، فأقبلوا سراعا يغريهم الظفر الهين باحتمال مشقة السفر الطويل .

ولكن أقدامهم لم تكد تطأ أرض الشام حتى رأوا أمراً عجبا ، رأوا جند المسلمين الذين كانوا يحسبوهم متفرقين ممزقين يتقاربون ويتضامون ، فلم تكد الشراذم الممزقة تتنسم ريح الأجنبى حتى اجتمعت تحت لواء واحد ، يرتفع فى العراق خفافاً تهزه سواعد أمراء الموصل، ثم ينتقل إلى الشام منصوراً فوق هامات أمراء حلب ، ثم يمضى إلى مصر مظفراً تُعليه

ذراع صلاح الدين . واجتمع المسلمون يدا واحدة وقلباً واحداً ، صدموا العدو صدمة زعزعت فؤاده فى ميدان حطين سنة١١٨٧ ، وتضاءلت أحلام الصلبيين ، وتسارعوا إلى سواحل الشام يعتصمون فيما بقى لهم فيها من معاقل ، ويتحصنون فيما ترك لهم صلاح الدين بعد أن قصهم ظهورهم فى هذه الواقعة الخالدة التى هى منعرجٌ تحول عنده سير التاريخ .

فإذا بلغ اليأس بهم هذا المبلغ فقد جرى بذهنهم أن ينفضوا أيديهم من الشام ، وأن يوجهوا ضرباتهم نحو مصر ، وخَيَّل لهم النظر القيصر أنها أسهل فتحا وأقرب موردا ، فليس فيها جبل ولا تل يتحصن فيه المسلمون ، وإنما هى سهل مبسوط تسيل فيه الجنود سيلا ، وماهى إلا أن تطأ قدمٌ شاطىء دمياط حتى تخطوا الأخرى فى القاهرة ! وبهذا يُقضى على المقاومة الإسلامية فى قلبها ، ولا يعود سلاطين مصر ولا أحد من أهلها يناجزهم هذه المناجزة العنيدة التى أصابهم منها فى الشام شر كثير .

هكذا كان بعضهم يناجى بعضا وهم فى طريقهم إلى دمياط فى الحملة التى قادها جاندى بريين سنة ١٢١٩ ، وعُرفت بالحرب الصليبية الخامسة ، وطرقوا أبواب مصر على حين غرة من ناحية دمياط ، فما شعر أهل الناحية إلا وهؤلاء الطُّرّاق يجتاحونهم اجتياحا . ولم يكن عندهم جند ولا حامية ، فعظم بلاء الفرنج فيهم ، ولكنهم تسارعوا فأغلقوا أبواب دمياط وتحصنوا خلف أسوار مدينتهم ، وأخذوا يناجزون العدو ريثما تأتيهم الإمدادات . «وأنزل الله عليهم الصبر ، فثبتوا مع قلة الأقوات عندهم وشدة غلاء الأسعار » [(١)] ، وزُلْزل سلطان مصر الكامل ناصر الدين بن محمد لهذا الخبر أول الأمر ، وبدا له أن يغادر مصر ليستعد لحربهم فى الشام ، ولكن ثبات أهل دمياط ثبَّت روعه وأنسأ له فى مجال الأمل فمضى بمن وَجَد من جنده نحو دمياط ، وعسكر عند أشمون . وتلاحقت به العساكر وأقبل إليه أخوه « المعظم عيسى » صاحب دمشق فاشتد به ساعده .

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة جـ١ ، ص١٩٨) .

واشتدت نكاية الفرنج بأهل دمياط ، ولكنهم استبسلوا وبدت عليهم من النجدة مخايل تذكرنا باستبسال الإسبرطيين عند « ترمويل » . ظهر فيهم فتى من أهل القاهرة حديدالقلب صادق الإيمان يسمى « شمايل » ، كان يخاطر بنفسه ويسبح فى النيل ومراكبُ الفرنج به محيطة ، وشوانيهم يغص بها ماؤه ، ولكنه جعل يسبح حول السفن وتحتها حتى يصل إلى المدينة ، فيأخذ رسائل أهلها ويعود سابحاً من حيث أتى ، ورماة الفرنج تتبعة بالسهام ، ومحاربوهم يرمونه بالحراب ، وهو يتهارب كسمكة فى الماء حتى يخلص من منطقتهم ، ويفضى إلى حيث أسطول المسلمين عند أشموم ! ففكر ـ وفقك الله ـ فى بطولة فتى كهذا ، يكاد يعدل بما أبدى من النجدة والصبر ما أبداه ليونيداس ! ولو كان إغريقياً لعبرت أخبار نجدته القرون على أفواه الشعراء والمنشدين ، ولكن ما الحيلة وشعراؤنا لاتتوقد عبقريتهم إلا فى خد أسيل أو ذهب يسيل ؟ .

وبينما أهل مصر يجالدون عن حريتهم هذه المجالدة التى تروع النفس ، كان أصحابنا أمراء المملكة يكيدون لسطانهم الكامل ! يحاولون انتهاز الفرصة لإزالته عن عرشه ، غير حاسبين للخطر المحدق ببلادهم حساباً ، غير مفكرين فى هذا البلاء الذى يقاسيه أهل دمياط ! وربما صح ذلك أن يتخذ مثلا للمقارنة بين هؤلاء « الأجانب » الذين يُنسب إليهم كل فضل فى تاريخ مصر ، وبين أهل مصر الوادعين الذين يود الرواة لو لم ينسبوا إليهم من الفضل فتيلا .

واستمر أهل دمياط ومن معهم من الجند القليل يقاتلون العدو الدؤوب ، وينتظرون المدد من الملك الكامل ، ولكن الملك الكامل كان فى شغل بمؤامرات الأمراء عليه ، حتى كاد أن يترك نجاة من القتل ! واشتد قتال الفرنج ، وعظمت نكايتهم فى أهل دمياط ، وكان فيها نحو العشرين ألف مقاتل ، « فأهلكتهم الأمراض وغلت عندهم الأسعار حتى بيعت البيضة الواحدة من بيض الدجاج بعدة دنانير ، وامتلأت الطرقات من الأموات ، وعدمت الأقوات ، وصار السُّكَّر فى عزة الياقوت ، وفُقدت اللحوم ، فلم يُقْدَر عليها بوجه ، وآلت الحال بالناس إلى أن لم يبق عندهم غير شىء يسير من القمح والشعير فقط . فتسور الفرنج السور ، وملكوا منه البلد ، يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان سنة تسع وستمائة ، فكانت

مدة الحصار ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً ، وعندما أخذوا دمياط وضعوا السيف فى الناس ، فلم يعرف عدد من قتل لكثرتهم ... » (١).

وريع الكامل لهول النازلة ، ونادى أهل مصر أن يخفوا لعونه وإنقاذ بلادهم ، «واجتمع الناس ، من أهل القاهرة ومصر وسائر النواحى ، ما بين أسوان إلى القاهرة » حتى صاروا جيشاً حافلا من المتطوعة ، لا يطلبون شيئاً غير نجاة بلادهم من يد الغالب المعتدى . واعتز الكامل بهم ، فتقدم على حذر حتى أدرك « المنزلة » التى عرفت فيما بعد با لمنصورة ، وتقدم الفرنج حتى لم يبق بينهم وبين المسلمين إلا ترعة تعرف ببحر أشموم ، ولاحظ بعض المتطوعة من أهل مصر تخاذلَ جند السلطان المرتزقين ، الذين كانوا يتحدثون فى إخراجه من البلاد وطمعوا فى أمره واستخفوا به ! ولو لم يكن أهل مصر فى الجيش لفعلوا ذلك وكسروا ظهر الإسلام ، ولكن الكامل استطاع الثبات بفعل هؤلاء المتطوعة حتى وصلته إمدادات المخلصين من أمرائه فى الشام .

وأخذ المسلمون يهاجمون الأعداء ويتخطفونهم حتى بانت للنصارى طوالع الهزيمة ، فأخذوا يفاوضون فى الصلح رجاء النجاة ، ثم أتتهم النجدات من فرنج الشام ، فقويت قلوبهم وعاودوا الهجوم ، واشتد القتال بين الفريقين براً وبحراً ، « وقد اجتمع من الفرنج والمسلمين مالا يعلم عددهم إلا اللّه ، وكانت العامة تكُر على الفرنج أكثر مما يكر عليهم العسكر ... » ،وتلك شهادة عابرة تؤيد لك ما قلناه من جهد أبناء مصر البررة فى الدفاع عنها يوم سنحت لهم الفرصة .

وكان جند السلطان المرتزقون مترددين قلقين ، لا يكادون يَكُرُّون كرة إلا ارتدوا مرات ، فظل الكامل مضطربا النفس متخوفاً على نفسه ، حتى مال إلى مصالحة الفرنج على أن يتركوا دمياط فى مقابل كل ما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل فى الشام ! وكان من الممكن أن يتم هذا الصلح المشئوم لولا أن نفراً من أهل مصر بدا لهم أن يستعينوا بماء النيل على العدو المهاجم ، وكان الأوان أوان الفيضان ، والماء يضطرب بين جسور الترع اضطراباً ، فتقدم المصريون ينقبون الجسور من ناحية الفرنج ، فما كادوا يحدثون

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك (طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، جـ١ ، ص٢٠٦).

بها بعض الثغرات حتى اندفع الماء فيها وجرف الجسور ، وانساح فى البقعة التى أقام فيها الفرنج ، وكانت لساناً من الأرض محصوراً بين فرع دمياط ومخرج ترعة بحر أشموم ، فلم يلبث الفرنج أن وجدوا الماء يغمرهم ويطغى عليهم ، فأصابهم من ذلك ذعر ، وشاع الاضطراب فى معسكرهم ، واكتسح الماء خيامهم وآلات حربهم . ودهش السلطان وأصحابه وهم ينظرون إلى ذلك وقويت قلوبهم ، فتقدموا يجهزون على عدو قصم المصريون ظهره بالقوة تارة وبالذكاء تارة أخرى ، واشتد الحال على الصليبيين ، فلم يجدوا مفراً من الانسحاب من أرض مصر بما بقى فيهم من رمق ، تاركين دمياط من غير عِوَض ، وكان السلطان وشيكاً أن يعطيهم فيها كل ما كسبه جده العظيم صلاح الدين ؛ وانعقد بين المسلمين والفرنج صلح مداه ثمان سنوات .

* * *

وبعد ذلك بست وثلاثين سنة ...

كان على عرش مصر السلطان نجم الدين الصالح أيوب ، وكان رجلاً شهماً قادراً ، ولكن قواه كانت مفرقة لا يكاد يلم شعثها لاضطراد وثوب أمرائه ونوابه فى الشام به ، وكان أشدهم عليه أمير أيوبى هو الصالح إسماعيل صاحب بعلبك . وقد اشتد أذى الصالح إسماعيل هذا بالصالح أيوب ، حتى لقد حالف الفرنجة وأعطاهم بيت المقدس وطبرية وعسقلان ، ووعدهم بإعطائهم جزءاً من مصر إذا هم أعانوه على الصالح أيوب . فاشتغل قلب هذا الأخير بأمر خصمه العنيد ، واشتدت به علة كانت تلح عليه ، حتى لقد كان الناس ينقلونه فى المحفات ، وتناوبته الهموم ، وأقام على القلق والخوف ، ينتظر ضربة من الفرنج تنزل به فى أرض مصر وهى قلب بلاده .

ولم يكذب ظنه ، فقد طرق الفرنج دمياط مبكرين فى صباح التاسع من صفر سنة ٦٤٧ فى جموع عظيمة لا تحصى كثرة ، يقودها ملك فرنسا لويس التاسع المعروف بالتقى ، والذى يسميه رواة المسلمين ريد افرانس (روى [١] دفرانس = ملك فرنسا) وكان من فرط الثقة فى

---

(١) هكذا كانت تنطق كلمة « روا » فى فرنسية العصور الوسطى .

نفسه وفى فرسانه لا يكاد يتصور إلا أن سلطان مصر الصالح أيوب مسرع إليه تائباً ضارعاً، وتقدم حتى عسكر خلف أسوار دمياط . وكانت بالمدينة حامية من عساكر السلطان ، يقودها أمير يسمى فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، فخاف على نفسه ، ولم يكد الليل يرخى سدوله حتى اتخذ جملاً ، وهرب بمن معه من الجند ، فريع أهل البلد لهول ما رأوا ، وركبهم الخوف . ولو تُركوا لأنفسهم لاستبسلوا كما فعلوا فى المرة الماضية ، ولكن عسكر السلطان المرتزقين تخونوهم هذه المرة ـ فخرجوا ـ أى أهل دمياط ـ خلف العسكر على وجوههم حفاة عراة جياعاً ، « حيارى بمن معهم من الأطفال والنساء ، وساروا إلى القاهرة ، فنهبهم الناس فى الطريق .. » . هكذا فعل الجند المرتزقون الذين ينسب إليهم كل فضل فى حروب الصليبيين ، وفى ذلك عبرة لمن يريد أن يستبطن أسرار التاريخ ويقرأ بين السطور .

ودخل الفرنج المدينة ، فإذا هى خلاء قواء من أهلها الأبطال ، فلم يصدقوا أعينهم ، وظنوا أن فى الأمر مكيدة ، فتريثوا قبل أن يجرؤوا على ولوج العرين الذى خلا من الأسود .

وعسكر الصالح أيوب فى المنزلة التى عرفت فيما بعد بالمنصورة ، وأخذ يتحصن للقاء العدو فيها ، « وقدمت الشوانى المصرية بالعدد الكاملة والرجالة ، وجاءت الغزاة والرجال من عوام الناس الذين يريدون الجهاد من كل النواحى ، ووصلت عربان كثيرة جداً ، وأخذوا فى الغارة على الفرنج ومناوشتهم ... » بلى .. فى هذه اللحظة التى استبان للسلطان فيها عجز جنده الرسمى ، وبدرت منهم الخيانة فى دمياط ، حتى قال الصالح يخاطب بعضهم : « أما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج ؟! » ، فى هذه اللحظة أقبل أهل مصر ممن يسميهم المقريزى « عوام الناس » ، يتدافعون للذياد عن حياض بلادهم ، تدفعهم هذه الحمية العريقة فى قلوب أهل هذا الوادى العزيز ، وأرادت المقادير أن يموت السلطان الصالح أيوب فى هذه اللحظة الرهيبة من تاريخ البلاد ، مات بعد آلام طويلة تحملها فى شجاعة ، وكانت لوناً من الروماتزم ، كان ينتابه حتى ليقعده عن الحركة ، فلما استجاب لنداء ربه والحال كما رأيت ، رأى المخلصون من أهل بيته أن كتمان الخبر أحجى وكان أعظم ما يخافون هو انقلاب أمراء البيت الأيوبى ، وانضمامهم إلى عدو مصر الملك

الصالح إسماعيل فى الشام ، ومحاولتهم الفوز من تركة الصالح أيوب بأى نصيب ؛ ولو قد حدث هذا لتفرقت البلاد بدداً ، ولاغتالها العدو الجاثم أمامها يلتمس الغِرة ويتحسس الثغرة ، فكان من حظ البلاد أن وُجدت فى القصر السلطانى سيدة فى كمال « شجرة الدر » واكتمال حجاها ، استعانت برجلين من خاصة المِلك الصالح أيوب هما : فخر الدين بن الشيخ ومُحْسِن الطواشى ، تكتَّم ثلاثتهم الخبر عن الناس ، وصارت مكاتبات الدولة تدخل القصر وتخرج موقعة كأن السلطان حى قائم ، وأنفذت « شجرة الدر » الرسل إلى ابنها توران شاه ، وكان أبوه قد ولاه حصن « كيفا » فى الموصل فأقام فيه .

واتصل خبر موتِ السلطان بالعدو فى دمياط رغم كل هذا الحذر ، فما هو إلا أن ترددت الألسن بالخبر ، حتى تحركت الأقدام للمسير حرصاً على انتهاز الفرصة المواتية ، وتحركت أساطيلهم وسارت فى النيل بحذائهم حتى أدركوا « فارس كور » ، ولم يطيلوا الإقامة بها ، وإنما عجلوا السير نحو القاهرة . وتواردت الأخبار بذلك ، فاضطرب الناس وكتب أهل المعسكر كتاباً يستنفرون فيه أهل مصر للجهاد العام ، وقرىء الكتاب فى القاهرة فارتجت ، « لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للمسير ، فخرج من البلاد والنواحى لجهاد الفرنج عالم عظيم ... » .

ووصل الفرنج المنصورة فى أول رمضان سنة ٦٤٧ ، وعسكروا عند شارمسارح ، ثم تقدموا إلى البَرَمون ، ولم يعد بينهم وبين المسلمين إلا ترعة بحر أشموم طناح ، ويبدو أن جيش المسلمين النظامى كان قليلاً ، لأن موت السلطان هاض جناحه ، وفرق عنه الكثير من رجاله ، ولكن المتطوعة من أهل مصر ممن يسميهم المقريزى « العامة » كانت أثبت ماتكون جناباً ، حتى ليذكر هذا الراوية : « أنه ما من يوم إلا ويُقتل من الفرنج ويؤسر ، وقد لقوا من عامة المسلمين نكاية عظيمة ، وتخطفوا منهم وقتلوا كثيراً ، وكانوا إذا شعروا بالفرنج ألقوا أنفسهم فى الماء ، وسبحوا إلى أن يصيروا فى بر المسلمين ، وكانوا يتحيلون فى خطفهم بكل حيلة ، حتى أن شخصاً أخذ بطيخة أدخل فيها رأسه ، وغطس فى الماء إلى أن قرب من الفرنج ، فظنوه بطيخة ، فما هو إلا أن نزل أحدهم فى الماء ليتناولها ، إذ اختطفه المسلم وعام حتى قدم به إلى المسلمين » .

واستمر الأمر على ذلك أياماً ، والمسلمون فى نصر والفرنج محصورون فى لسان الأرض الضيق الواقع بين مخرج ترعة أشموم وفرع دمياط ، وكت سفنهم فى فرع دمياط خلفهم تحمل المؤونة ، وكانوا يتلمسون مخاضة فى الماء يعبرون عليها دون أن ينالهم المسلمون بأذى كبير أثناء العبور . وساق لهم الشيطان من دلهم على مخاضة فى بحر أشموم ، فعجلوا بابتدارها فى ظلام الليل ، ولم يصبح الصبح حتى وجدهم المسلمون معهم يخالطونهم ، فسرَى رعب عظيم فى المعسكر ، وقُتل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ كبير أمراء المسلمين ، وتقدم لويس التاسع يقود جنده وفرسانه فى الهجوم الأخير على المنصورة ، وفيها معسكر المسلمين . وكان اضطراب الناس عظيماً من هول المفاجأة ،ونفذ بعض فرسان الفرنج إلى البلد ، ودار القتال فى شوارعه ، ولم تلبث بقية الفرنج أن أقبلت ، واشتد الضغط على الشرذمة القليلة التى بقيت فى المنصورة من عسكر المسلمين ، وكادت الكسرة تحل بهم، لولا نجدة نفر قليل من جند المسلمين كان يقودهم مملوك يافع هو ركن الدين بيبرس البندقداري ، الذى سيصل إلى سلطنة مصر بعد ذلك بسنوات ، قاد فرقته بما عرف فيه من النخوة والهمة ، ومازال بالفرنج حتى كسرهم وردهم إلى منزلتهم فى جديلة إلى شمال المنصورة ، فأمِنَ المسلمون بعد خوف ، وقد كادت الدائرة أن تدور عليهم .

وكانت الميرة تأتى للفرنج من دمياط فى مراكب تسير فى النيل ، فخطر للمصريين أن يهاجموا هذه المراكب ، حتى يقطعوا عن العدو المدد الذى يشتد به ساعده، فجعلوا دأبهم ترصد هذه المراكب على مراحل الطريق والإيقاع بها وإغراقها أو الاستيلاء عليها . فلم يلبث الفرنج أن أحسوا أنهم محصورون بين جند المسلمين من أمام وهؤلاء المصريين الذين يهاجمونهم ويتخطفون سفنهم من خلف ، فلم يلبث مركزهم أن تحرج ، وأحسوا أن مصيرهم إلى بوار إذا هم لم يعجلوا بالانسحاب . وكان معظم القائمين بهذا الهجوم الخلفى من أبناء مصر وأهل ريفها وملاَّحى المنزلة ودمياط ، وهم ملاحون مهرة يحسنون الحرب فى الماء ، ويعرفون كيف يهاجمون سفن الأعداء . ولم يكن للسلطان جندٌ بين المنصورة ودمياط ولم يكن فى جنده ملاحون يحسنون هذا النوع من حرب الماء ، ولو لم يقم هؤلاء المتطوعون المصريون المجهولون بهذا العمل لما انهزم الفرنج ، ولما حدث لهم ما حدث ، فكأنهم فى الواقع أصحاب النصيب الأوفى من فخر هذا النصر المجيد .

ولم يقتصر جهدهم على هذا الجهاد الضعيف ، بل كانوا فى صفوف العسكر يحاربون بما ملكت يمينهم ، لأن السلطان كان لا يفرق السلاح من خزائن الدولة إلا على الجند المأجورين المحترفين ، وقد اعترف السلطان بفضلهم فى بيانه الذى أذاعه بعد النصر يقول فيه : « ولما آن يوم الاثنين مستهل السنة المباركة ، أتم الله على الإسلام بركتها ، وبذلنا الأموال وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان والمتطوعة وخلقاً لا يعلمهم إلا الله ، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق .. » .

وأخذ الريد افرانس لويس التاسع ومعظم من كان معه من كبار الجند أسرى ، وسجنوا فى دار كان ينزلها القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان فى المنصورة ، وظلوا هناك حتى دفعوا فدية كبيرة ، وبارحوا أرض مصر مع من بقى من جندهم على أسوأ حال ..

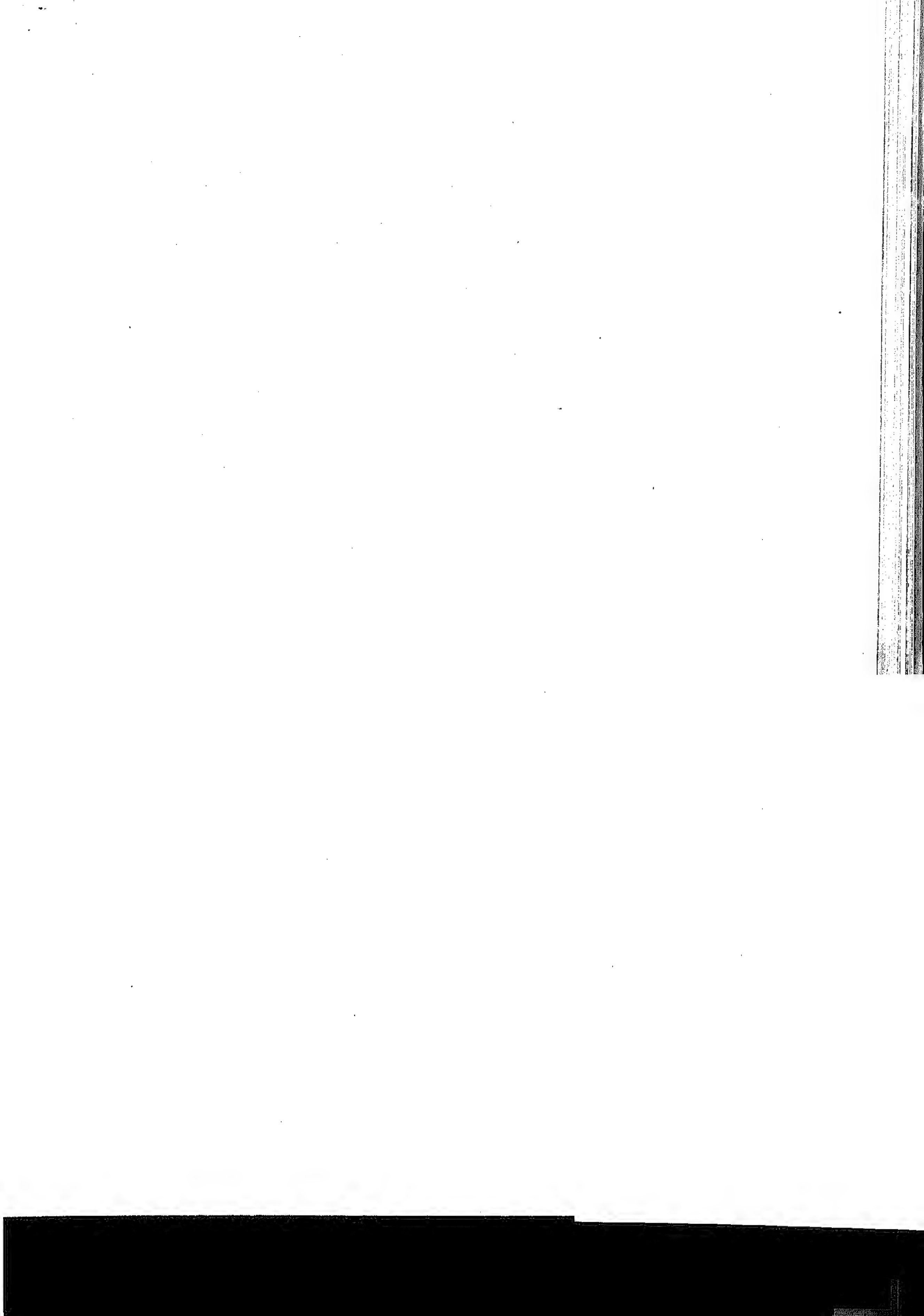
* * *

تلك قصة الصليبيين فى مصر ، تنبئك تفاصيلها عما أبدى أهل بلدنا من كريم التضحية فى سبيل سلامة الوطن العزيز ، وقد كانوا كما رأيت عُزلاً لا يملك أحدهم من عدة الحرب إلا ما يستطيع أن يشتريه بماله . وقد كان جند السلطان المأجورون فى وفرة من السلاح ، ومع هذا فقد رأيت ترددهم وتهاربهم ، واختلافهم على مولاهم فى لحظات الحرج والخطر ، ورأيت خوف السلطان منهم وغضبه عليهم وإنكاره لجبنهم وفرارهم من دمياط تاركين البلد للعدو المهاجم دون قتال ، فقارن ذلك بثبات الأبطال من أهل هذا البلد المصرى الكريم ، وصبرهم على الحصار سنة وأربعة شهور ، وتفانيهم فى محاربة الفرنج وتخطفهم ، وجند السلطان من خلفهم يرقب الأمور بعين المعجب الدهش ! وتأمل سعة حيلتهم فى فتح جسور الماء ، وبعد نظرهم فى مهاجمة سفن العدو من خلف ! .

اذكر هذا كله ، واحن الرأس إجلالاً لهؤلاء الجنود المجهولين من أهل بلدك ، واذكر أن أرض مصر لم يحمها من قديم الأزل إلا أبناء مصر ، وأن هذا الوادى وادينا بحق ما سقينا من أرضه بدمائنا ، وما ضحينا فى سبيله من أهلنا وفلذات أكبادنا .

القسم الثالث

صور من البطولة
فى العصر الحديث



فيلسوف شهيد

جيوردانو برونو

هلمَّ بنا إلى إيطاليا ! هلم نخفُّ إلى هذا البلد الجميل لنَلقى إماماً من أئمة الفكر الحر وشهيداً من شهداء الاستبداد . هلم إلى قرية « سكالا » فى أحضان الألب لنرفع التحية إلى هذا الفيلسوف ، الذى جمع الله عليه من جلال الفلسفة ومجد الاستشهاد ما جعل سيرته فى تاريخ البشرية آية تُتْلى وتعاد . تعال لتقدِّم إليه باقة من زهر الشكر والإجلال ، عساه يقبلها ويرضى عنها ، عساه يحدثنا حديثاً ينفعنا .

يعرف الناس عن الفلاسفة أنهم جماعة التأمل والهدوء ، وأنهم أكثر الناس هدوءاً وصمتاً ، ويعلمون أن المرء إذا كثر حديثه وازداد اضطرابه فى مناكب الأرض فليس حقيقاً أن يُعد فى الفلاسفة وأصحاب الآراء . ولكن برونو لم يكن فيلسوفاً من هذا الطراز ، لم يكن ممن يعجبون بفلسفة الصمت والتأمل ، وخداع الناس بالحركة المقدَّرة والكلام الرزين الذى يخرج من الشفتين وكأنه يخرج من صدع جبل ! وإنما كان علماً على الثورة والاضطراب ، وكان دائم النشاط لا يكف عن العمل والكتابة والمجادلة والاجتماع والإنكار ، وكان كثير الأعداء حتى كأن به ولعاً بالخصو مة ، وميلاً إلى الصراع العنيف .

وما قولك فى إنسان كان كل كتاب له إعلانَ حرب أو إيذانا بمعركة ؟ وما ظنك فى إنسان كانت الأيام تضيف إليه الأعداء فى غير حساب ، وتحاربه كأن لها عنده ثأراً قديماً ؟ أحسب أن حديثه سيحمل إلى أصحابنا الذين لا يفهمون من مظاهر العلماء غير صمت المدعى ، وجدال المجادل ـ الذى يتكلم ليقالِ إنه متكلم ـ لوناً جديداً من أصحاب الأفكار وقادة الرأى لم يكن يطوف بخيالهم . سيعرفون أن الصمت وحده لا يعنى العالم ، وأن الذهول أو التذاهل لا يعنى الفلسفة ، وأن الكلام فى كل موضوع من غير علم أو درس

لا يسمح للإنسان بالانتساب إلى هذا الفرع الجليل من فروع المعرفة الإنسانية . وإنما العلم الحق هو أن تبحث وتنقب حتى تنتهى إلى رأى ، وأن تؤمن بالذى تعتقد أنه الحق ، وأن تنافح عنه ما استطعت المنافحة ، وأن تكون أنت ورأيك شيئاً واحداً ، تعيشان معاً ، أو تذهبان إلى النار معاً .

* * *

ذلك عصر استيقظت فيه الإنسانية بعد طول سبات ، فأخذت تفتح عينيها وتنظر نظر الدهش الذى لاتصافح عيناه إلا جديداً عليه غير مألوف لديه ، وتدبر فكرها فى كل ما يحيط بها ، وتطيل التفكير فى شأنه ، وتتعجب كيف لم تفكر فيه قبل ذلك ، وكيف لم تلمس هذه الحقائق التى لا تحتمل الشكَ إلا الساعة : هذا جاليليو يخترع منظاراً وينظر فيه ثم يقول : « يا قوم ! إن أرضكم تدور حول هذه الشمس ، وإن هذه النجوم كلها لا تدور حول الأرض كما تحسبون ! » . وهذا كوبرنيق يقول : « أحسبتم الأرض بساطاً ممدوداً ؟.. إنما هى مستديرة كالكرة أو كهذا القمر الذى تبصرون ! » . وهذا إرازمس يهيب بالناس : « أتلتمسون العيش فى الطبيعة الطلقة الواسعة الرحاب .. فى هذا الجبل أو فى تلك الغابة أو فى هذا الروض الأنيق ! .. » .

وتتوالى هذه الصيحات وأمثالها من كل مكان وفى كل صقع ، وتتردد أصداؤها فى الأفئدة ، ويؤمن بها فريق ويتنكر لها فريق : يؤمن بها ذوو الطبائع الصاحية والنفوس الطامحة إلى كل ماهو حسن وكل ما هو حر وكل ماهو حق . ويتنكر لها أولئك الذين يحرصون على كل ما هو قائم راهن ، لأنهم يفيدون منه ، ويصيبون منه لأنفسهم خيراً ، وأولئك الذين ران على نفوسهم الجمود ، وتراكم عليها غبار القرون حتى عادوا هم والتراب شيئا واحداً ، وأولئك الذين يحسدون كل صاحب فكرة على ما أوتيه من رأى ، يرون أن كل رأى لم يصدر عنهم فهو خطأ ! .

واشتبكت المعركة بين الطرفيْن ، ولم تكن القوى فيها متكافئة ولا متقاربة . لأن أنصار القديم كانوا أقوياء تؤيدهم الكنيسة ويؤيدهم جمود الناس الشائع ، ويؤيدهم أصحاب

المنافع ، وهم كثيرون . وأما أنصار الجديد فقلة من ذوى الجرأة ، وأصحاب الإيمان فى الإنسانية وحقها فى التقدم والسير إلى الأمام ، وآراؤهم بعدُ موضع جدال لم يستقر عامة الناس فى أمرها إلى القول الحق ، وربما كان هناك من يؤيدهم ، ولكنهم يخشون بأس الكنيسة ورجالها ، فهم يزهدون فى أفكارهم ويطلبون العافية .

ذلك كان عصر النهضة الأوربية ، عصر الصراع المحتدم بين عالم قديم وعالم جديد يتبدى كما تتبدى معالم الأرض لراكب السفينة من بعيد : أشباحاً مختلطة يكسوها ضباب . ولم يكن من الميسور أن يكون الصراع هادئاً أو منظماً ، لأن أصحاب الجديد متحمسون لايطيقون الصبر على جمود الآخرين ، ولأن أنصار القديم مروَّعون لا يطيقون السكوت على ما يقال ، خوفاً من انتشاره وإيمان الناس به ، وانقلاب الدنيا بعد ذلك عليهم ، وهم لهذا لا يناقشون صاحب الفكر الحر مجادلة من يريد إقناعه، بل مجادلة من يريد إحراجه وإخراجه عن الطور ، ثم التمسك عليه بكلمة هنا وإشارة هناك ، يفسرونها أسوأ تفسير ، ثم يقودون الرجل المسكين إلى حتفه على نطع الجلاد أو على نار السفود ، وقد غاب عنهم أن كلمة الحق لا تفنى وإن فنى صاحبها ، وأن هذه الآراء لا تموت بموت أصحابها ، بل يزيدها استشهاد هؤلاء الأصحاب هيبة وقدسية وجمالاً ، فما هو إلا زمان حتى تكون أفكار المجددين على كل لسان ، وحتى ينهار القديم كله ويختفى تحت أقدام الجديد المنتصر .. ذلك أن الدنيا لا تعرف الجمود ، ولابد لمن يعيش فيها من أن يسير معها ، بل لابد أن يسبقها ، فإذا تخلف عن الركب داسته الأقدام وراح فى عداد السواقط من ركب الإنسانية الخالد الذى لا يوقف سيره إلا علام الغيوب .

كان جيوردانو برونو فى طليعة ركب الحرية الناهض ، وكانت الإنسانية قد قضت قبل ميلاده وميلاد عصره قروناً عشرة توقف خلالها سيرُها إلى الأمام ، وتعثرت خطواتها ولم تعرف إلى أين تتجه ، وسيطرت الكنيسة على مصائر البشرية وسيَّرتها فى غير الوجهة التى تنبغى لها ، فانتكست واحتاج الأمر إلى من يردها إلى الطريق القويم . ثم أخذت تستفيق رويداً من القرن العاشر ، حتى إذا أقبل القرن الخامس عشر فقد فتحت أعينها على نور جديد فى كل ناحية . فى هذه الفترة أقبل جيوردانو برونو على الدنيا فى فجر النهضة الأوربية ، أقبل فى تلك الفترة الزاخرة التى عمر فيها التاريخ البشرى بالعلماء والفلاسفة والفنانين ، فوجد

السابقين والمعاصرين من الفلاسفة يتوارثون فى العلم آراء أدركها البلى ولم تعد مما يرضى العقل الحر أو الفكر السليم .

كان المفكرون والفلاسفة ورجال اللاهوت يؤمنون بأرسطو وكل ما نُسب إلى أرسطو إيمان المطمئن الذى لا يريد أن يجهد نفسه فيما يحرمه اطمئنانه . وليس إلى الشك سبيل فى أن أرسطو عَلَم من أعلام الفكر الإنسانى ، لم يغادر ناحية من نواحى الوجود وما بعد الوجود إلا شغل بها ذهنه ، ولم يشغل ذهنه بشىء إلا وصل فيه إلى غايات لا تدركها المدارك العادية ، ولا شك كذلك فى أنه أنار سبيل الإنسانية بذهنه المتألق باجتهاده المتصل ومحاوراته التى تفيض منطقاً وبساطة ، فلم يزل أصحاب اللاهوت خلال العصور الوسطى يعالجون آراءه ويفسرونها ، ويأخذون منها ما يريدون ويغادرون مالا يريدون ، حتى جعلوا من فلسفته ضرباً من اللاهوت يؤيدهم فيما يريدون ، فإذا انتهوا إلى ذلك فقد قيدوا الناس بهذه الأفكار وجعلوها حدوداً للتفكير الإنسانى لا يجرؤ أحد على أن يتعرض لها بنقد أو مخالفة .

بيد أن أرسطو ـ على اتساع ذهنه ـ قد أصدر من الآراء ما يدعو إلى الاستدراك وما يحتاج المناقضة ، فهو يقول بقدم العالم : أى أنه لم يُخلق فى الزمن كما تقول الأديان جميعاً ؛ وهو يقول بأن الله يعلم علماً كلياً ، فهو لا يعلم الجزئيات ، وعلمه بالأشياء علم كلى ، فهو لايعلم أن الشمس مثلاً ستكسف فى الساعة الفلانية من اليوم الفلانى ، ولكنه يعلم قانون دورة الشمس والأفلاك الأخرى ، وعلمه لهذا لا يعدو المعرفة بأن الشمس ستكسف مرات عديدات فى دورانها الفريد ، ومثل هذا القول يدعو إلى القول بأن الله لا يعنى بالمخلوقات لأن جزئيات حياتها لا تعنيه ، وفى ذلك معنى عدم الاهتمام ، وذلك ما تنكره الأديان جميعاً.. ولم يتعرض الفلاسفة اللاهوتيون لهذه المواضيع من فلسفة أرسطو إلا على حذر ، وكان لابد من إنسان جرىء حر الذهن لا يتردد أمام شىء ، يبحث كل شىء ويصدر فيه رأيه صريحاً جريئاً لا يعرف الخوف .

نظر جيوردانو برونو إلى المتفلسفة من معاصريه فإذا هم يسلمون بما يسلم به أرسطو ولايتعرضون لما لا يجوز التعرض له ، فثارت نفسه ، وأخذ ينهج فى البحث والتفكير منهجاً

جديداً حراً ، وكان عاملاً مجتهداً لا يكف عن الاجتهاد والقراءة والدرس ، فلم يلبث أن اختلف مع أصحاب التقليد الرسمى المقرر من أهل زمانه ، وكان إلى جانبه نفر من أحرار الفكر يضيقون بالحدود المرسومة ، ولكنهم كانوا أطوع منه قياداً : كان لورنْت فالاَّ إنسانياً يؤمن بالإنسان ، وكان أبيقوريا روحياً لا يرضى عن فلسفة أرسطو الطبيعية ، وكان ساخطاً على بُويْسيوس أحد آباء الكنيسة المقدسين لا يرضى عن كتاباته أو أسلوبه ، ولكنه ـ أى لورنت ـ كان عاملاً من عمال الدولة وكان لهذا لا يجرؤ على الكلام .

وكان كاردينال « كوزا » يتوقع ثورة شاملة على الحاضر ، ويؤكد أن اندفاع الناس إلى تدارس الآثار اليونانية الرومانية مفضٍ بهم دون شك إلى انقلاب الأوضاع جميعاً ، ولكنه كان يقول ذلك فى ترفق وهدوء وكياسة ، لأنه كان من رجال البابا وأقطاب دولة الكنيسة . ولكن الله لم يرزق برونو من هذا الترفق وتلك الكياسة شيئاً قليلاً ولا كثيراً ، فكان همه إذا مادار برأسه رَأيٌ أن يجاهر الناس به فى غير مصانعة ولا مداراة ، فكان يثير حفائظ الناس ويؤلبهم عليه . وكان العصر كله ـ كما حدثتك ـ عصرَ انقلاب كل ما فى الكون ، أقبل الناس فيه على دراسة الطبيعة وقوانينها وبدأوا يشكون فى هذه التفاسير اللاهوتية الأرسطية التى كان الناس يعللون بها كل شىء ويردونه إلى علة واحدة ، لأن هذه التفاسير لا تريح العقل ولا تحل مشاكل الحياة للعقول الحائرة التى تبحث عن الحقائق لذاتها .

لا غرابة أن يكون برونو أشد الناس سخطاً على أرسطو ، ولكنه لم يسخط عليه كفيلسوف ومفكر ، بل لأنه كان ينكر على الناس هذه الذلة التى يقفون بها بين يدى المعلم الأول ، وكان يرى أن إيمان الناس بكل ما قاله وكل ما نسب إليه قد عطل الأذهان وحدد للفكر سبلاً محدودة لا يجوز له أن يعدوها ، وربما كان يكرهه لأنه كان يمثل ـ فى رأيه ـ القديمَ الذى ينبغى أن ينصرف الناس عنه انصرافاً ليؤمنوا بما أتى به المحدثون من بنات أفكارهم ، أو مما كشفوا عنه من فلسفات نفر من القدماء كان وهج فلسفة أرسطو قد أخملهم ، مثل ديموقريط صاحب النظرية الذرية ، وبرمنيد صاحب نظرية وحدة الكون ، وكوبرنيق القائل بأن الشمس هى مركز الكون .

اختلطت هذه الآراء جميعاً فى ذهن «برونو» فجعل يصدر كتباً فى تفسيرها ومناقشتها

ومناقضتها ، وريع الناس من هذا الحشد الهائل من الكتب والآراء التى صبها هذا الرجل على الناس صباً ، وتشكك الكثير منهم فيما يقول حتى لقد نفر منه اللوثريون والكلفنيون أنفسهم ، وبدأت أعين رجال الكنيسة ترميه بنظرات الشك ، وأخذ عمالها يتسقطون أخطاءه لكى يفرغوا من أمره جملةً .

ولو أن رجلاً آخر كان مكانه لخاف وتريث وحسب للأمر حسابه ، ولكن «برونو» لم يكن ليعرف المراعاة ولا الحساب ، فمضى فى طريقه حتى ضاق الناس به فى وطنه ـ إيطاليا ـ وأخذوا يطاردونه . فخرج مستخفياً حتى أشرف على جنيف ، وهى يومئذ مهد من مهاد الحرية الواسعة ، وظل من ظلال الفلسفة الوارفة ، فقضى فيها زماناً مضطرباً . وكان كوبرنيقوس قد أعلن على الناس آراءه فى ثبوت الشمس وحركة الأرض حولها كما ذكرتُ ، فاستقبلها الناس استقبالاً غير جميل ، أما «برونو» فقد رأى فيها رأيا آخر .

رأى كوبر نيقوس على الحق ، فمضى يدافع عن آرائه ويدعو لها حتى روع الفلاسفة من هذا الفيلسوف الذى لا يكف منازعاً لهم مخاصماً لآرائهم ، ومالت نفوسهم إلى الخلاص منـه ، وما عتم الرجل أن استبان له أن المقام بجنيف قد أصبح أمراً يعسر على أعزل فقير مثله ، فطوى متاعه وخف إلى تولوز ، وهناك رضيت عنه الدنيا زماناً قصيراً . استقبله الناس هناك بالرضى والترحيب ، وأنزلوه منازل الفلاسفة الموقرين ، فأخذ يعلن آراءه فى سرعة وحِدَّة روعت أصدقاءه المخلصين ، ووجدوا أنه يعسر عليهم الدفاع عنه لأنه تطرف فى آرائه تطرفاً لم يدع لحمايته سبيلاً ، فآذنوه بالفراق فخف إلى باريس حيث لقى صديقه كاستلفاد ـ وكان من كبار القوم وأصحاب الجاه فى الدولة الفرنسية إذ ذاك ـ فتوسط له عند هنرى الثالث ملك فرنسا ، فشمله بعطفه وأقامه أستاذاً للفلسفة بجامعته بباريس .

وجد «برونو» فى باريس وجامعتها أمراً عجباً ، وجد الإيمان بأرسطو فرضاً واجباً على كل عالم وطالب ، ووجد أن كل من تحدثه نفسه بمخالفة المعلم الأول يدفع خمسة فرنكات عقاباً له على ما ارتكب من ذلل جسيم ! وبديهى أن أمراً كهذا حقيق بأن يثير ثائرة «برونو» لأنه لا يرضى عن هذه السيادة المطلقة التى تبسطها فلسفة أرسطو على أذهان المفكرين . ولم يفكر لحظة فى أن ثورته على أرسطو قد تجر عليه غضب الملك ، وقد تؤدى إلى طرده من

النعمة التى يأمن فى ظلالها ، إذ أن العلم كان حياته التى يسعد بها أو يشقى ، وكان يرى الحياة وسيلة للعلم ،ولا يرضى أن يهين العلم فيجعله سبيلاً من سبل الحياة ، ومن هنا بدأ يناقش أرسطو ويعارضه ويقارعه الحجة ، فذهل العلماء والطلبة وعرفوا أن مقام الرجل بينهم لن يطول .

وليته وقف عند هذا الحد ، ليته هاجم أرسطو وحده ، ولكن الأيام لم تلبث أن أظهرت أن الرجل أخطر مما تصور الذين كانوا يخشون على أرسطو ، فقد كان «برونو» لا يرضى عن هذه الفلسفات التى يذيعها رجال الدين ، كان لا يرضى للرهبان أن يختلقوا على الناس أشياء يزعمونها من الفلسفة وليست من الفلسفة فى شىء ، وكان يسخطه أن تكون رحاب العلم ملجأ لكل مدع ومقاماً لكل جاهل لا يقدر العلم قدره .

ومن ثم بدأ يهاجم الرهبان المتفلسفين ويسفه آراءهم وهى يومئذ معتبرة من صميم الفلسفة . كان الرهبان يفرضون على الناس الإيمان بالمعجزات التى اختلقها المختلقون وإدعاها المدعون ، وكم يختلق المنافقون من معجزات لا يرضى العقل عنها ولا يطمئن إليها ! وكم تقاسى العقول من الهوان فى تصديقها والإيمان بها ! وكم يسكت العلماء والفاقهون عن هذه الاختلافات ويدَعون الناس يضلون فى متاهاتها حذراً على أنفسهم من غضب رجال الدين وسخط العامة ، وكم يخشى العلماء سخط العوام ! وكم يصانعونها حذراً من غضبهم وطلباً للعافية ! .

ولكن «برونو» لا يرضى لعقله هذا الهوان ولا يقسر فكره على صمت المجبر المضطر ، إنه ليعلن للناس فى غير رهبة ولا خشية أن المعجزات خرافات لا يليق بالمؤمن الكريم أن يقهر عقله على تصديقها ، إنه لينكر على الرهبان قدرتهم على إسعاد الناس ، إنه ليذهب إلى أن قصص بنى إسرائيل مثلها كمثل خرافات الإغريق سواء بسواء ، إنه ليقول كل هذا ولايعلم أى حرب تقيمها عليه هذه الأقوال .

ثم تطرق من هذا إلى فلسفة جديدة ، وأخرج للناس فى سنة ١٥٨٥ كتاباً يزعم فيه أن الله والعالم شىء واحد ، وأن العالم صورة الله ، وأن الله رمز العالم . ولم يفهم معاصروه هذه

الأقوال ولم يطيقوا سماعها ، وأنكروها عليه إنكاراً بالغاً ، فبدأوا يعلنون عليه هذه الحرب الحامية التى انتهت به إلى الاستشهاد .

طرده الناس من باريس ، فخف إلى ماربُرج وونتبرج - وكانتا مهد اللوثرية وحصنها الذى يلجأ إليه الأحرار والمجددون - ولكنهما لم تطيقاه . كان الأحرار يجمدون حين يقرأون فلسفة هذا الرجل ويرون تطرفه ، كانت جرأته تفزعهم وتذهب بهم مذاهب بعيدة من الخوف ، لأنهم كانوا يتحاشون إغضاب الأمراء الذين يعيشون فى حمايتهم . فرحل إلى براج ، فأقام فيها زمناً . وأقبل عليه الطلاب ، ولكن الرهبان تعقبوه وأخرجوه منها . فلجأ إلى هِلمشتات ، ولكن أعداءه لم يغفلوا أمره بل تبعوه إلى حيث أقام ، وبرز له من بين صفوفهم جيوفانى موكنجو - وهو راهب متعنت شديد التعصب - وطلب أن يناقشه .

كان «برونو» يعلم أن الرهبان لا ينوون به خيراً ، وكان أصدقاؤه يحذرونه مما يبيِّت له أعداؤه ، وكان أحجى به أن لا يذهب للمناقشة ، لأنها كانت شركاً لا يريد هؤلاء القساوسة من ورائه إلا أن يحرجوه ويخرجوه عن طوره ، ثم يفسروا كلامه كيف شاءوا ويسلموه بعد ذلك للجلاد . ولكنه حسب أن فى المناقشة مجالاً يُفهم الناس عن طريقه آراءه ويبسطها لهم ، فأقبل مسرعاً كطير يخف إلى الشرك .

لم تكن مناقشة وإنما كانت محنة ، طُلب إلى الرجل أن يتنازل عن آرائه فأبى : خيروه بين الموت وبين التسليم بما يقولون فسخر منهم ضاحكاً ، والتف حوله أصدقاؤه وألحوا عليه فى التسليم بما يطلب منه الرهبان فغضب غضباً شديداً ، وآلمه أن يهبط مقام العلم إلى هذا الدرك عند تلاميذه الأوفياء .. ثم أعلنه الرهبان إعلانهم الأخير : إما التسليم بآرائهم والإيمان بها وإنكار آرائه كلها ، وإما الموت ..

ولكن برونو أبى التسليم !

ألقوا به فى السجن ، وفاوضوه مرة أخرى وبعثوا إليه من تلاميذه نفراً يعرفون حبه لهم وتقديره لوساطتهم ، ولكنه أقام عل آرائه لا يتزحزح .

فإذا ألزموه الحجة وسدوا عليه المخارج على هذا الأسلوب ، فقد أعلنوا أنه لابد من عقابه.

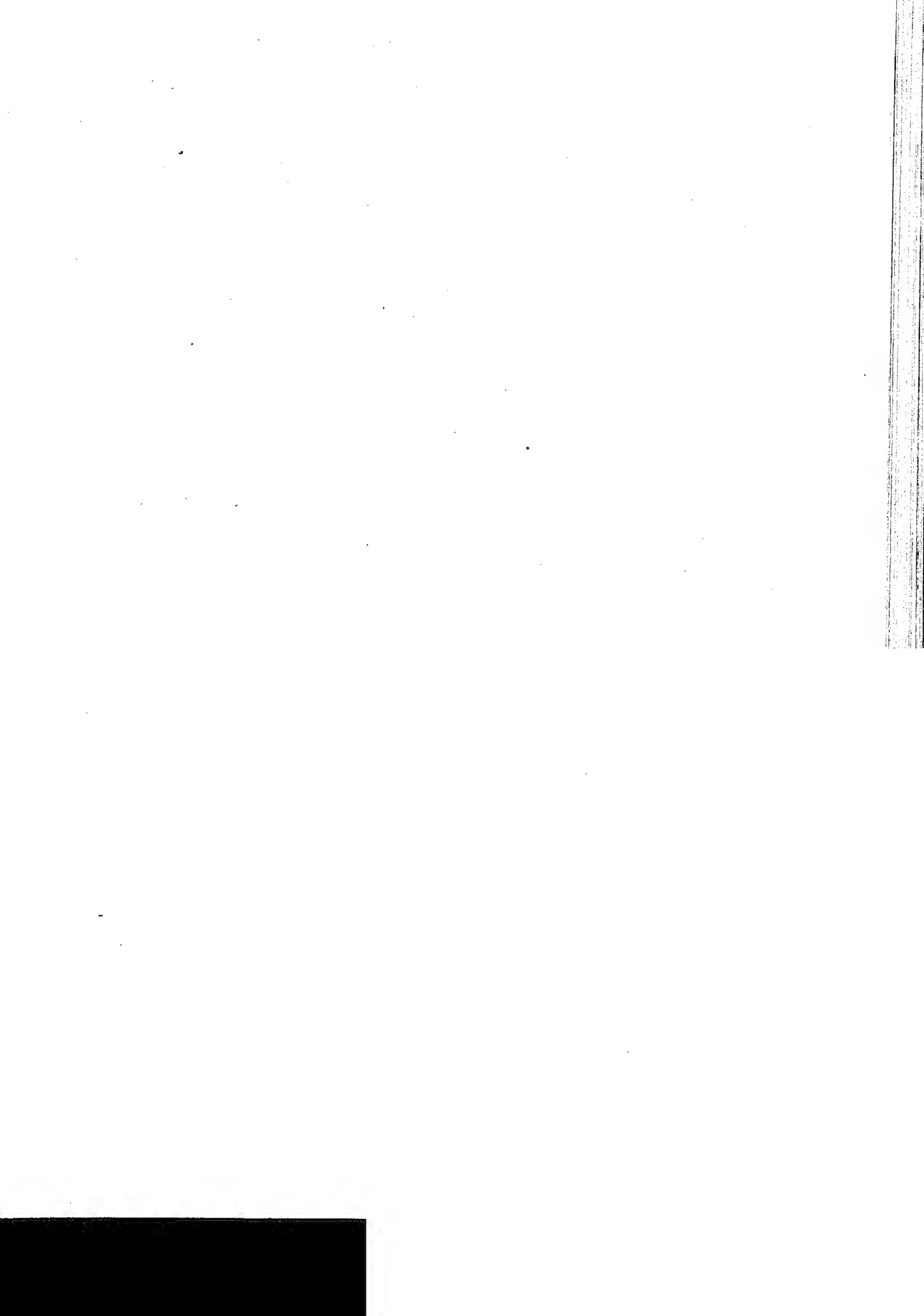
ثم عقدوا لمحاكمته مجلساً ، وقرروا إعدامه حرقاً .

وأعطوه فرصة أخيرة لينقذ نفسه من النيران .

ولكن «برونو» لم يتحرك ، بل ظل صامتاً .

وأشعلت النيران ، وألقى فيها «برونو» ، وصعدت روحه إلى بارئها مع الدخان ..

وكان ذلك فى ١٧ فبراير سنة ١٦٠٠ .



صقر البحار

فرانسيس دريك

صفا الزمان لإسبانيا من أواسط القرن الخامس عشر ، أعانها الدهر على بقايا المسلمين فى بلادها ، وسطا ملوكها على ما خلف هؤلاء المسلمون من مال وعتاد ، ووقع هذا المال العريض غنيمة تقسمها ملوك قشتالة وأرغون ومن فى ركابهم من الفرسان ورجال الدين . ولم يجد الملوك وجهاً ينفقون فيه هذا المال الطارىء خيراً من استكثار الجند وابتناء الأساطيل ليمكنوا لعروشهم وليزدادوا عتواً وسلطاناً .

وكانت الحرب مع المسلمين قد زادت جند الإسبان ضراوة ، وكان النصر المتواضع على بقاياهم القليلة قد ملأ نفوسهم طمعاً وطموحاً ، فمضوا يتدفقون يمنة ويسرة يطلبون أرَضاً يسطون عليها أو عدوا يحاربونه . وأحس كولومبس أن فى بلاط قشتالة مالاً لا يعرف أصحابه كيف ينفقونه ، فمضى يطلب إليهم العون ويمنيهم بوفرة الكسب وكثرة الغنيمة إذا هم أمدوه بالسفن والمال والرجال ليكشف عالماً جديداً يضعه تحت أقدامهم ، واستهوت الدعوى نفوسهم فأمدوه بالمال والسفن والرجال ، فكشف العالم الجديد .

وأتاهم هذا الكشف بمُلك من وراء العقول ضخامةً وغنى ، وتدافع الإسبان إلى العالم الجديد ، وفاض الذهب فى شبه الجزيرة وعم ربوعها الرخاء وتطلع ملوكها إلى سيادة الدنيا ، فسادوا أوربا فى أيام شارل الخامس وسيطرت سفائنهم فى عهد فيليب الثانى على أمواه الأطلسى ، ومضى رجالهم يهدمون دولاً من وراء المحيط وينشئون دولاً ، وارتفع نجم إسبانيا وطأطأت لها الدنيا رأسها ، فأذلت جيوشها الأرضين وطوت أساطيلها البحار ، ووقف الناس من غير الإسبان بمبعدة يأكل قلوبهم الحسد ، وما جرؤ سفين على عبور

المحيط إلا نظر الإسبان فى أمره وأنكروا منه هذه الجرأة ، كأن الله قد خلق الدنيا لهم وقصر خيرها عليهم .

وإن الإنسان إذ يتأمل الجوليات الإسبانية من أواسط القرن الخامس عشر إلى ختام القرن السادس عشر ليدهش من ضخامة الجهد الذى بذله أبناء الجزيرة الإيبيرية ، ويتساءل عن الأسباب التى حفزت هذا الشعب الوليد إلى القيام فجأة بهذا الجهد الذى لايكاد التاريخ يسجل له مثالاً فى هذه القرون . فقد استكشف الإسبان معظم سواحل أمريكا الجنوبية واحتلوا الجزر المحيطة بها وأعلنوا فى أوائل القرن السادس عشر سيادتهم الفعلية على المحيط الأطلسى ، وفى سنة ١٥١٧ اكتشفوا شبه جزيرة يُقَطَان ونفذوا إلى البحر الكاريبى ، وفى سنة ١٥١٩ اقتحموا المكسيك بعد حروب سالت فيها الدماء أنهاراً، وفى السنة التالية دار ماجلان حول الأرض لأول مرة فى تاريخ البشر ، وفى سنة ١٥٢٩ فُتحت بيرو أغنى أقاليم أمريكا الجنوبية بالذهب وأصبحت فيما بعد درة التاج الإسبانى وأزهى بلاد العالم الجديد ، وفى سنة ١٥٣٥ أسس الإسبان بوينوس أيريس درة المحيط الأطلسى الجنوبى وأسسوا ليما أعلى عواصم الأرض مكاناً ، وفى سنة ١٥٣٩ فتحو شبه الجزيرة المزهر « فلوريدا » وهكذا ...

فتوح تلاحق فتوحاً ومنشآت تتلوها منشآت . هذا إلى حروب فى القارة سال فيها الدم من بروج وأوستند إلى روما ونابلى ، بل إلى ليبانتو من سواحل كريد . فلم يكد القرن السادس عشر يقارب نهايته حتى كان أبناء شبه الجزيرة قد استنفدوا جهدهم وأكلتهم الحروب وتقاسمتهم البحار ، وهم مع هذا يتشبثون بسيادة الدنيا لا يكاد أمير فى طرف القارة الأوروبية يتحرك لحرب أمير يجاوره إلا نفر الإسبان كأن الأمر يعنيهم وحدهم ، ولا يكاد سفين يخرج من ميناء إنجليزى أو هولندى إلا عجبوا كيف لا يستأذنهم والبحار بحارهم وأمواه الله ملك يمينهم لا يجوز لأحد غيرهم أن يمضى فيها بشراع ! .

وضاقت الدنيا على الملاحين من الإنجليز والفرنسيين والهولنديين ومن إليهم : أقفلت إسبانيا أبوابها فى وجوههم وحرمت عليهم الرسو فى أى ميناء خاضع لإشرافهم مثل سبتة ووهران ، فكان عليهم أن يهيموا بسفائنهم شمال المحيط الأطلسى وينزلوا بسواحل كندا

وأمريكا الشمالية ـ وكانت فى ذلك الحين بلاقع قفراء ـ أو يقصدوا موانى غربى إفريقية ويدوروا حول رأس الرجاء الصالح ليصلوا إلى محيط الهند وبحار آسيا ، وكانت تلك رحلة شاقة كبرى . ومضت السنون وهؤلاء الملاحون مشردون بين أقصى الشمال وأقصى الجنوب، يرمون سفائن الإسبان بعين الحاسد المحروم وهى تمضى إلى المكسيك وبلاد أمريكا الجنوبية وتعود بالذهب والجوهر وغالى المتاع .

وكان الإسبان قد سلكوا فى استعمار هذه الأقاليم مسلكاً لا يدل إلا على فساد رأى وقصر نظر ، فقد بدأوا بمذابح شائنة أنزلوها بالأهلين حتى وقع الرعب فى نفوسهم وتشرد من بقى منهم فى قنن الجبال وصخور الهضاب ، ثم أقبل الإسبان يحملون ما وجدوا من ذهب غنيمة تارة وضرائب تارة أخرى ، تحمله البغال إلى مراكز حصينة سميت بمراكز الخزانة ، مثل نومبر دِديُوس (اسم الله) على ساحل بناما ، وفيرا كروذ (الصليب الحقيقى) على ساحل أمريكا الوسطى . فكان ذهب البلاد ومال أهلها الأصائل ينصب فى هذه المراكز ثم يحمل منها إلى إسبانيا فى سفن محروسة ، وهناك يبعثر فى ترف البلاط وجشع رجال الكنيسة ومطامع القواد والجند فى كل مكان .

ويستطيع الإنسان أن يتصور مقدار حسد الملاحين من أهل البلاد الأخرى وهم يتأملون هذا السيل الذهبى يفيض فيضاناً متصلاً وهم لا يكادون يجرؤون على الاقتراب منه .

طبيعى إذن أن يبدأ هؤلاء الملاحون من إنجليز وهولنديين يحومون حول الموانى الإسبانية فى المكسيك وأمريكا الجنوبية ، وكانت للإنجليز والهولنديين بضعة مواضع قليلة فى جزائر الهند الغربية وشمال أمريكا الجنوبية يستطيعون النزول فيها برضى من الأهلين الذين كانوا يكرهون الإسبان مثلهم ، ولكنهم كانوا إذا وطئت قدمهم هذه النواحى لايزالون فى خوف متصل من سفائن الإسبان ، إذ لا تكاد هذه السفن تلمحهم حتى تهاجمهم وتقضى عليهم . وكانت ملكة الإنجليز إذ ذاك هى مارية الإسكتلندية وكانت كاثوليكية تربطها بفيليب الثانى ملك إسبانيا قرابة ونسب ، فلم تعترض على هذا الوضع وتركت الإسبان سادة البحار يفعلون فيها ما يشاءون .

وكانت السفن الإسبانية ضعيفة لا يصعب على ملاح ماهر قهرها والاستيلاء عليها ،

كانت ضخمة بطيئة الحركة يُسيرها ملاحون أشقياء تجمعهم الحكومة الإسبانية من موانيها أو من غيابات السجون وتلقى بهم فى عروض البحار يقضون حياتهم فى ذل وإسار ، وكانت طوائف منهم تثب بقباطنة السفن فى عرض البحار وتستولى على السفينة وتمضى فى البحار قراصنةً فلا تلقى سفينة ـ إسبانية أو غير إسبانية ـ إلا فتكت بها ونهبت ما فيها ، فأصبح الأطلسى وأمواه أمريكا مسارح للموت لا يكاد يخطر فيها سفين حتى يتخطفه القراصنة من كل صنف . فمن أفلت من قراصنة الإسبان لم يفلت من قراصنة الإنجليز ، ومن نجا من هذين وقع فريسة لسفائن الحكومة الإسبانية ، ولم تكن خيراً من هؤلاء وأولئك ولم يجرؤ على تسيير شراع فى بحار الموت هذه إلا الربابنة ذوو القلب الجرىء والخبرة الواسعة ، وسماهم الناس : « جوّابى البحار » أو « كلاب البحار » ، سخرية أو إعجاباً . ومضى الحال على ذلك زمناً مديداً .

* * *

كان أكبر « كلاب البحار » هؤلاء فى ذلك الوقت ملاحاً ماهراً ومغامراً مروعاً اسمه السير جون هوكنز . طار صيته فى إنجلترا وتحدث الناس بجرأته ، إذ كان يمضى بسفائنه لايكاد يعبأ بقرصان خلال المحيط المخوف حتى يصل إلى غيانة الإنجليزية فى شمالى أمريكا الجنوبية ويحمل منها البضائع ويعود إلى بلاد الإنجليز محملاً بالخيرات ، وتحدث الناس فى أمره وسعى ناشئة الملاحين والراغبون فى المغامرة إلى الانضمام إليه للإفادة من خبرته وإشباع لذة المغامرة خلال رحلاته وغزواته .

وفى سنة ١٥٦٧ انضم إلى زمرة رجاله شاب فى السابعة والثلاثين من عمره ، تتوفز الحماسة فى عينيه الزرقاوين ويتحدث شعره الأحمر بجرأة بعيدة وقلب حديد ، كان هذا الفتى هو فرانسس دريك ابن قسيس بروتستنتى ، وكان قد ولد على سطح الماء فى سفينة خَرِبة راسية على البحر ، ونما وشب على ظهر الماء كأنه حوت صغير ، ثم التحق بخدمة السفن بين فرنسا وإنجلترا ، فأفاد من ذلك خبرة كبرى . وكان يعمل إذ ذاك فى خدمة ربان كريم وحيد فى هذه الدنيا ، فلما توفى الربان خلف السفينة للملاح الشاب فمضى يذرع البحار بها ويزداد مع الأيام خبرة وتجريباً . وكان يمضى بسفينته إلى السواحل الإسبانية

ليحمل المضطهدين الدينيين الفارين من ديوان التحقيق ، ويسمع منهم أخبار تعذيب الإسبان الكاثوليك لمن يخالفونهم فى الدين ، فملأ ذلك قلبه حفيظة على الإسبان وسخطاً .

ولم يكد يسمع أن السير جون هوكنز قد أزمع القيام برحلة كبرى إلى غيانة حتى باع سفينته وذهب يطلب مرافقته . وكان السير جون ابن عمه ، فرحب به وجعله مساعده ، ومضى الاثنان فى ثلاث سفن خفيفة يعبران المحيط . ولم يكد الملاحون يرونهما يعملان معاً ويسمعانهما يتحدثان ، حتى أيقنوا أن أمرا غير عادى لابد واقع أثناء هذه الرحلة الخطيرة .

وأصيبت إحدى سفن الإنجليز بالعطب على مرأى من فيراكود ، وكان الأسطول الإسبانى راسياً فى الميناء ، فأرسل السير جون إلى القبطان يستأذنه فى أن ترسو السفن ريثما يصلح عطبها ، فتردد القبطان حيناً ثم أذن له وهو شديد الشك فيما عسى أن ينتويه هؤلاء الإنجليز . وربما كان هذا القبطان على حق ، لأن الإنسان لا يكاد يعرف ما يطوى إنجليزى نفسه عليه ! ودخلت السفينة الإنجليزية وألقت مراسيها ومضت تصلح العطب فإذا هى فى ذلك إذ دهمها الإسبان على حين غرة . ولسنا نعرف أسباب هذه الغدرة المفاجئة ، لأن الإسبان من ناحيتهم يزعمون أن الإنجليز كانوا ينطوون على الغدر حينما استأذنوا فى الدخول ، وأن الإسبان رأوا الحزم فى مفاجأتهم على هذا النحو . وعلى أى الأحوال كان لهذه التجربة أسوأ الأثر فى نفس دريك ، لأن سفينته التى كان يقودها أغرقت ووقع هو فى الماء، وأخذ يسبح حتى أدركته إحدى السفينتين الإنجليزيتين الناجيتين من المعمعة ، ثم مضى مسرعاً إلى إنجلترا يحمل نبأ الفجيعة ، وقرر من ذلك الحين أن يكرس حياته لحرب الإسبان والقضاء على هذه السيطرة التى يفرضونها على البحار .

وكانت الأحوال إذ ذاك قد تغيرت فى إنجلترا : قُتلت مارية الإسكتلندية واعتلت العرش غريمتها اليصابات ، وكانت بروتستانتية تكره الإسبان وترجو أن تثأر منهم لما أصاب الإنجليز على يديهم فى عهد غريمتها . وقد سخط فيليب أشد السخط على الإنجليز لما فعلوا بنصيرته ، فأصر إصراراً شديداً على تحريم موانيه ومواني مستعمراته عليهم . وقد كان رجاله قبل ذلك يتشددون مع سفن الإنجليز التشدد البالغ ، فلما فعلت اليصابات بمارية ما فعلت وآزرها الشعب وهلل لها ، سخط الإسبان على الإنجليز جملة ،

وأمر فيليب رجاله أن يكونوا لهم رصداً ، فتعقبهم الإسبان بالأذى ، وكادوا لا يجدون إلى مراكزهم فى البحر الكاريبى أو فى أمريكا الجنوبية سبيلاً . ثم قام وليم الصامت بثورته على الإسبان فى هولندا ، وآزره الإنجليز ونصروه على فيليب ورجاله ، فاشتد سخطه عليهم وصارحهم بالعداء ، واتصل ذلك باليصابات ورجالها فمضوا يقابلون الإسبان عداء بعداء ، وتراءت فى الأفق طلائع حرب مقبلة بين الجانبين يتقرر بها مصير السيادة على البحار .

كان هذا بمثابة فتح السبيل أمام هذا الملاح المتيقظ الذى أخذت نفسه تتطلع فى شوق إلى فرصة يحقق فيها أمانيه من النصر والغزو ، وكان فؤاده يضطرم حقداً على الإسبان لما أصابوا به بلده من المهانة ولما أنزلوه به من الخسارة فى مأساة فيراكروز . وكان منذ حين مقيماً فى موطنه فى ديفونشير على الساحل يتأهب للفرصة ، فما إن أحس بسنوحها حتى أسرع فأعد سفينتين صغيرتين هما : « باشا » و « سْوَان» ، ومضى نحو جزائر الهند الغربية لسيتطلع الموقف هناك وليمهد السبيل للاشتباك المنتظر مع إسبانيا . وكانت الملكة اليصابات تشجعه وتؤازره سراً على هذا النحو البغيض من المراءاة الذى جرى عليه الإنجليز فى سياستهم : يؤيدون رسولاً فى السر ثم يعلنون للناس أن لا علاقة للحكومة به فهو فى ظاهر الأمر تاجر لا يجوز لأحد أذاه ، وفى باطن الأمر جاسوس خطر ينبغى القضاء عليه ، فإذا اعتدى الإسبان عليه قامت عليهم قيامة الإنجليز وصاحوا : ما هذا ؟ عدوان معيب على ملاح برىء ! وما أسرع ما تتطور المسألة وتتدخل الحكومة وتنقلب الدنيا ! .

كانت المهمة التى أخذها دريك على نفسه خطيرة حقاً : كان عليه أن يهاجم مال الخزانة الإسبانية المكدس فى « نُومبِر دِ دْيُوس » فى إقليم بناما ، وكان الإسبان يحمون هذا الموقع حماية من يدافع عن روحه ، وليس يستطيع الإنسان إلا أن يعجب بجرأة هذا الملاح الذى يتصدى لعمل بهذه الخطورة ، ولكنه كان إنجليزياً يشعر أنه يسير فى خدمة بلاده ، ويكفى أن يشعر الإنجليزى بهذا حتى يقتحم على الشيطان داره .

كانت المهمة الملقاة على عاتقه مهمة قرصان فاتك . ولو قد أزمع القيام بها ضد قوم غير الإسبان لما ذُكرت فى مفاخره ، ولكن الإسبان كانوا ينزلون بغيرهم من الناس أشد من ذلك وأنكى ، فقد كانت دواوين التحقيق فى ذلك الزمن تسلم المئات من المسلمين واليهود والبروتستانت إلى سيوف الجلادين وسياط المعذبين فى غير رحمة ، وكان الإسبان أنفسهم

أشد الناس بلاء بهذا النكال ، لأن القائمين بالأمر فيهم كانوا طغمة من المفسدين المتعصبين .

أبحر دريك بسفينته فى الرابع والعشرين من مايو سنة ١٥٧٢ ـ وإن الإنسان ليعجب بهذا القلب الجرىء الذى يعبر البحار إلى الشيطان ليسرق ماله ـ وألقى مراسى سفينتيه على مقربة من هدفه فى مكان هادىء من الشاطىء . وتخير أمسية مظلمة ومضى بستين من رجاله ليهاجم بلداً حصيناً يحرسه بضعة آلاف .

وطرق البلد بليل مظلم ، فأحدث فيه هيعة ملأت نفوس الحرس والجند رعباً ، فولوا على وجوههم مدبرين ، واقتحم دريك برجاله السور ومضوا إلى خزانة المال ووقفوا يتأملون أكوام الذهب التى وقعت فى أيديهم غنيمة باردة ، ولكن القدر أراد أن يفجعهم فى هذه اللحظة التى أوفوا فيها على مرادهم . فبينما هم يحاولون نقل المال إذا صائح يصيح : لقد سقط القائد ! كان دريك قد جرح جرحاً بليغاً فى أول المعركة ، ولكنه تركه يشخب ومضى فى الهجوم حتى لا تفلت الفرصة وقد وقعت ، فلما كانت هذه اللحظة كان قد نزف من جرحه من الدم ما أعياه ، فسقط على الأرض وتسارع إليه جنده يحملونه قبل أن يفاجئهم العدو ، وحملوه ومضوا مخلفين المال خلفهم ، فكانوا فى هذا أبطالاً جديرين بالقائد ، ولو جندٌ غيرهم لما صرفهم عن الغنيمة شىء .

ولو قائد غيره لعاد أدراجه ليستعد مرة أخرى فى بلاده ، ولكن الله قد وهبه قلباً من حديد لا يستريح إلا إلى أوار المعارك ، فلم تكد صحته تتحسن حتى مضى يشن الغارات فى كل وجه ، ويسطو على ما يلقى من سفن الإسبان ، ويفجأ ما أمن من مواقعهم على الساحل . وأعجب به نفر من قبائل « المارون » الهنود الحمر فآزروه على الإسبان ، فاشتد ساعده بهم ، ومضى يروع أعداءه على نحو لم يعرفه الناس ولم يألفوه من أعتى القراصين وأشقاهم ، فقد كان الرجل جناً رهيبًا لا يستريح ليلاً ولا نهاراً .

قُتل أخوه فى إحدى المعارك فلم يثبط ذلك عزمهُ ، وتهاوى جنده مرضى من أثر الحمى حتى لم يبق له إلا ثلاثون رجلاً ، فلم يرهبه ذلك ومضى يعد العدة لمهاجمة المال عندما ينقله الإسبان من الخزائن الحصينة إلى الساحل ، وكانت عادة الإسبان قد جرت بأن يحملوا هذا

الذهب فى قوافل من البغال يحرسها الجند ورجال من قبيلة المارون ، فلما اطمأن دريك إلى صداقة هذه القبيلة اشتد أمله فى التوفيق ، وبقى يترقب الفرصة كنمر كاسر ربض فى سواد الليل يترقب الفريسة على مرأى من الغدير .

ولكن الحظ تخونه مرة أخرى ، إذ أن ملاحاً من رجاله تحدث بالسر فى لحظة لعبت الخمر برأسه فيها ، فاحترس الإسبان وضاعت الفرصة وأفلتت الفريسة العنيدة من يد النمر الصبور . وقد أثار ذلك غضب دريك مثاراً أخرجه عن صوابه فمضى يعبث فى البحر عبثاً شريراً بغيضاً ، فإذا هو فى ذلك إذ سنحت له فرصة ، فنزل إلى البلد وسار برجاله فسطوا على بعض مال الخزانة ، ومضى رجاله بالمال إلى الساحل يلتمسون سفنهم فلم يجدوها ، إذ كان العدو قد فجأها فأقلع بحارتها ولبثوا فى عرض البحر ينتظرون ، فلم يكن من دريك إلا أن أمر رجاله فصنعوا من جذوع الأشجار عائمة استقروا على ظهرها ومعهم غنيمتهم ، ومازالوا يبحثون فى ثنايا الأمواج حتى عثروا على سفنهم فانتقلوا إليها .

وعاد إلى بلاده فى سنة ١٥٨٣ مؤملاً أن يستقبله الناس استقبال البطل الفاتح ، ولكن نفراً فى بلاط اليصابات كان قد استاء من اشتداده فى أعمال القرصنة ، وعنفه الذى أجج عداوة الإسبان ودفعهم إلى التفكير فى غزو إنجلترا وتأديب أهلها جملة ، وخشى دريك أن يدبر أعداؤه هؤلاء عليه شيئاً فظل بعيداً فترة يترقب ، وأرسى على الشاطىء بما معه من الغنيمة وأقام برهة يستريح ويريح رجاله . ثم بدا للحكومة الإنجليزية فجهزته فى خمس سفن وأرسلته إلى أمريكا مرة أخرى ، وحزم أمره هذه المرة على أن يهاجم الإسبان فى « بيرو » حيث يجمعون الذهب كله ثم يرسلونه فى البحر إلى بناما ومنها إلى فيراكروز حيث ينتظره الأسطول الإسبانى الكبير .

ولكن أمواه البحر تخونته : غرقت سفينتان من سفنه وضاع رجالها فى ثبج الأمواج ، وروعت سفينتان أخريان فعادتا أدراجهما ، ومضى وحده بسفينته « جولدن هِند » فاخترق المضيق الرهيب الذى تتعالى أمواجه حتى لتدرك الجبال طولاً ، وأفضى آخر الأمر إلى سواحل شيلى وبيرو ، وأخذ يروِّع سفائن الإسبان ، فلما قضى من ذلك وطراً مضى يخترق المحيط الهادى بسفينته الوحيدة ، وأفضى إلى سواحل آسيا ، واخترق مضايق أرخبيل الهند الشرقية ثم دار حول رأس الرجاء الصالح ثم صعد إلى إنجلترا . وهكذا عبر هذا الرجل

الفريد الأرض من جانب لجانب يقاتل ويحارب خلال سنوات ثلاث ! فأعاد بذلك تجربة ماجلان بعد ستين سنة ، وعاد إلى بلاده وقد طوّف فى بحار الدنيا السبعة كما يقولون ، وطوى الأرض ونشرها بقلب جرىء لا يرهب الأهوال .

فلما عاد إلى بلاده سنة ١٥٨٠ كان صيته قد ملأ الدنيا ، وكانت نفوس مواطنيه قد ملأها الإعجاب به ، فاستقبل استقبالاً كريماً رغم إلحاح رسل الإسبان فى ضرورة عقابه على أعمال قرصنته وإعدامه ، ولكن الإنجليز ادخروه ليوم عبوس يشتبكون فيه مع الإسبان ، فرفعوه إلى مرتبة الفارس ومنحوه لقب « سير » ، ودخل البرلمان .

ومضى الإنجليز على دأبهم يثيرون خصمهم فى صبر وخبث ، يحالفون أعداءه ويهاجمون مواقعه بين الحين والحين ، يبغون بذلك أن يخرجوه عن طوره ثم يذيعوا على الملأ أنه يدبر عليهم ويرجو هلاكهم . فمن ذلك أنهم أرسلوا دريك فى حملة قاسية على قادش من جنوب إسبانيا ، فدهم الميناء على حين غرة ، وأغرق فيه نحو مائة سفينة بما فيها ، ثم نزل الساحل وعسكر عليه ، وأقام الليل يتحدى الملك فيليب الذى لم يكن الشيطان نفسه ليجرؤ على تعكير صفوه أو السير بين يديه بما لا يحب ، ولكن الإنجليز فعلوها فأخرجوا الإسبان عن كل طور ، فلما فكر الإسبان بعد ذلك فى غزو بلاد الإنجليز كما غزا هؤلاء بلادهم ، صاح الإنجليز على مسمع من الدنيا : انظروا .. يريدون غزو بلادنا ليقضوا علينا .. عدوان ما بعده عدوان ! .

وعاد دريك إلى بلَيْموث وأخذ يلح على الحكومة الإنجليزية فى ضرورة تحطيم الأسطول الإسبانى فى المياه الإسبانية ، وفطنت الحكومة الإنجليزية لأهمية ما كان يدعو إليه ، فأخذت تستعد لليوم الموعود وهى أوثق ما تكون إيماناً بأن عدوهم الإسبانى سيهيىء لهم بحماقته الفرصة لهزيمته كما هيأ لهم كل عدو برز لهم أو سيبرز لهم على مدار الأيام .

وكان الإسبان يعدون هذه « الحماقة » فى السر ، يحسبون أنهم يباغتون الدنيا بها وينتصفون لأنفسهم بعد طول صبر وهزيمة ، كانوا يعدون أسطولاً مسلحاً مدرعاً (أرْمَادَا) ليغزوا به إنجلترا وليلقوا على شعبها العنيد درساً لا ينساه ، وكان عدوهم أدرى بهذا السر منهم ، لأن جواسيسه كانت تجوس موانيهم يتنطسون الأخبار وينقلونها أولاً بأول ،

واستيقظ فى الإنجليز هذا الانتباه الغريزى والشعور باقتراب الخطر ، ولا يدانيهم من أهل الأرض أحد فى ذلك : باتوا يحرسون موانيهم ويبعثون الطلائع يترقبون العدو المباغت ، وأخذ كبار ملاحيهم من أمثال دريك وهوكنز وهَوَارد وفْرُو بيشر يعدون أنفسهم لليوم العظيم .

ولم يلبث هذا اليوم أن أقبل : تراءت سفن الأسطول المدرع الإسبانى لطلائع الإنجليز ، ودقت الأجراس فى كنائس الساحل وتقاطر الملاحون على السفن ، وكان دريك يلعب مع بعض أصحابه فى ميناء بليموث بكرات يدحرجونها فمن أرسلها أبعد وأصاب أهدافاً أكثر فهو الفائز ؛ وأقبل الرسول بالخبر الخطير فريع أصحابه وأدركهم الخوف ، فقال باسماً «أكملوا اللعبة يا رفاق .. لدينا من الوقت ما يكفى لكسب هذا الدور وضرب الإسبان كذلك ! » .

وفى صبيحة اليوم التالى كان الأسطول الإنجليزى على الأهبة تحت قيادة اللورد هوارد أوف إفْينْجهام ، ووقف أبطال البحر وسادة الأمواج على رأسهم هذا الداهية فرانسس دريك ، يكاد قلبه يقفز من مكانه حميةً وتوثُّباً . وأدرك الإنجليز أن لا طاقة لهم بسفائن الإسبان الضخمة فى عرض البحر ، فجعلوا يتقهقرون أمامها حتى دخلوا فى مضايق القنال الإنجليزى ودخلت وراءهم ، وهنا أمكنتهم الفرصة لأن الخوانق لا تسمح للسفن الكبيرة بالحركة .

وكان الإسبان قد صفوا سفنهم على هيئة الهلال يريدون أن يحتووا الأسطول الصغير بين ذراعى أسطولهم ثم يصلوه ناراً ، فلما دخلت سفنهم المضايق واعترضتها الصخور عسرت عليها الحركة وانفرط عِقدُها وتمكنت منها السفن الإنجليزية الصغيرة ، ومضت تمطرها وابلاً من النار . وأرست السفن الإسبانية فى ميناء كاليه تنتظر أن يأتيها المدد من الجيش الإسبانى فى الأراضى المنخفضة ، ولو أتى هذا المدد فى الوقت المناسب لاستحال على الإنجليز الهجوم على هذه السفن الضخمة المدرّعة يحميها الرجال ومدافع الشاطىء من خلفها ، ولكن المدد تأخر ، وأقبل الإنجليز بسفن صغار تقذف اللهب ، وجعلوا يصلون السفن الإسبانية ناراً ، فروع رجالها وحسبوا السلامة فى الخروج من الخليج ، فما إن خرجت سفنهم حتى تلاحقت بها ذئاب السفن الإنجليزية تنهشها نهشاً ، وأخذت تتهاوى إلى قاع

اليمّ واحدة فواحدة . وكان دريك ـ روح الأسطول الإنجليزى ـ يدير المعركة من ظهر سفينته ، وأصيبت سفينته وغرقت فانتقل إلى غيرها ، ومازال يتابع الأسطول الهارب على هذا النحو حتى كاد يفنيه ، وأقبل الليل فحال بين الأسطولين .

واتخذت سفائن الإسبان الليل ستاراً ومضت تشتد طالبة النجاة ، وخشيت العودة من نفس الطريق فصعدت فى البحر ترجو أن تطوف حول أسكتلندة وتنجو فى عباب الأطلسى الواسع ، فكان البحر أقسى عليها من الإنجليز ، وغرق مما بقى منها عدد عظيم ، ولم يصل منها إلى إسبانيا غير فلول مبعثرة تحدوها الخيبة وترفرف عليها أعلام الهزيمة .

هكذا تحطمت الأرمادا العظيمة وانكسرت شرة الإسبان ، ولم ترتفع لهم بعدها على أمواه البحار راية مظفرة . تسلم الإنجليز منهم سيادة البحار ، وبدأ فى تاريخ البحرية العالمية عصر جديد : تقطعت الأسباب بين إسبانيا ومستعمراتها ، وتخونها الحظ ، فأخذت تهوى فى دركات الانحلال شيئاً فشيئاً . وعلى أشلائها قام الإنجليز وقد ملكوا زمام البحر ، ومن ملك زمام البحر دانت له الأرضون . ومعظم الفضل فى ذلك يعود إلى هذا المخاطر فرانسسَ دريك ، رجل شرى بنفسه مجدَ بلاده ومضى يحمل فؤاده على كفه يحارب من عاداها حتى أرداه وخلصها منه وكتب لها عزّاً جديداً !.

فهل ترى مواطنيه كافأوه بما ينبغى له ؟ لا .. تكاثر عليه الأعداء والحاسدون حتى كادوا أن يُخْملوه ، وقضى الرجل سنوات بعد ذلك يدافع عن نفسه أذى الأعداء من بنى وطنه ، فهل كفر بوطنه وآله ؟ حاشا ... وهذا هو يخرج فى رحلة خطيرة فى مطالع سنة ١٥٩٦ ليعقد لبلاده مجداً جديداً ، ولكن الموت كان فى آثاره : أصابته حمى عند سواحل الهند الغربية ، واشتد به المرض ، وتوفى فى الثامن والعشرين من يناير من ذلك العام ، وورى جثمانه بين طيات الأمواج على مقربة من بورتو بلْيُو على مرأى من شواطىء شاهدت مجده الطالع قبل ذلك بثلاثين عاماً .

راهب يهز الدنيا

مارتن لوثر

١٤٨٣-١٥٤٦

كان رجلاً هو أقرب إلى أن يكون ولياً من أولياء الله ، ولكن كرامته لم تكن الإسراف فى الصلاة والتظاهر بالتقوى ، ولم يكن إيمانه مقصوداً به خداع الناس وكسب القوت ، وإنما كان إيمانه حرباً على الفساد وذلاً للمفسدين ، وكانت كراماته ألواناً من الفضيلة الإنسانية ومُثُلاً من الجهاد المخلص فى سبيل الناس . لم يزعم أنصاره أنه أتى بالمعجزات أو قَدَر على الخوارق ، ولم يتكلف فى حياته أن يأتى من الأمر غير ما يأتيه عامة الناس ، بل كانت كرامته الكبرى أنه تيمَّم الصدقَ غاية وابتغى وجه الحق هدفاً ، واستنجد بالهدى وخاض الحياة مايبالى بالموت أو بالسخط ، وما يخشى أن يجتمع له الناس كلهم أعداء ..

وإن الأعداء لينهضون له ويتكاثرون عليه ، وإن الملوك لتهوى عليه بصوالجها ، وإن البابا ليحرمه من بركات ربه ، فما يبالى هذا كله ، وإنما هو ماض فى طريقه لا توقفه الفتنة التى مدت أسبابها ، ولا الثورة التى أخذت أهبتها ، ولا الأعداء الذين جمعوا جمعهم وصبوا شرهم ! احتمل كل هذا راضياً حتى أوفى على حاجته وأفضى إلى غايته ، وبلغ من خير الناس ما كان يريد ، وأقام من صلاح الدنيا ما كان ينبغى ، وكسب من نعمة ربه ما كان يطلب ، ثم انثنى ومضى إلى حيث يمضى كل الناس .

وفى الأبطال من تكون بطولتهم لوناً جديداً من الحياة يفيض على الوجود فيبدل أمره ، فلا تفتأ الدنيا من بعده تحمل طابعه ، ولا تعود عظمته بعد ذلك فى حاجة إلى التأكيد أو البرهان ، لأنها برهان نفسها وإعلان جلالها ، كعظمة هذا القس الألمانى مارتن لوثر . لست تنظر فى ناحية من حياة الناس اليوم إلا وترى له فيها أثراً : تراه فى البروتستنية التى تضم

الملايين من البشر ، وتراه فى الثورة الفرنسية التى كانت تتمةً لجهاده الجليل الطويل فى سبيل تحرير الذهن البشرى ، وتراه فى عظمة الفكر الألمانى التى لا يفرغ عنها حديث ، وتراه فى حيثما قلبت بصرك فى نواحى الحياة الواسعة .

* * *

وتوسم فيه أبوه النجابة فى بكرة الصبا فاتجه به نحو دراسة القانون لكى يصير محامياً يدر على عائلته المال ، أو قاضياً يتحدث بِعَدْلِهِ الجيران والأقارب ،ومضى الفتى فى دراسته مُجِدًّا حتى كاد أن يوفى على غايتها . فإذا كان يوماً فى طريقه إلى جامعة إيرفُرت فى صحبة صديق له إذا بعاصفة تثور ، وإذا الرياح تضطرب والصواعق تنهال ، وما يشعر الفتى مارتن إلا وصاعقة تنقض على صديقه المسكين فترديه حطاماً ، وإذا الفتى فى حيرة من أمره ومن أمر هذه الدنيا . إنه ليغذ فى السير حتى يبلغ الجامعة ، وينبىء رفاقه بما أصاب صاحبهم فيتسارعون لنجدة الصريع . ثم ينزوى عنهم ، ويختلى بنفسه ويأخذ يفكر .

لقد أتاه حادث اليوم بالأمر العظيم : لقد رأى بعينيه هوانَ الحياة وقربَ الموت ، ولقد استشعر بقلبه قدرة الله جل جلاله . إنه ليفكر فى الأمر فيطيل التفكير ، وإنه ليطيل النظر فيزداد حيرة ، وإن نفسه لتفتر عن الدرس فيأخذ ينصرف عنه انصرافاً ، وإنه لَيُحس فى نفسه حيرة لا يعرف لها سبباً . إنه يخشى الآخرة ويخشى أن يكون مصيره إلى النار إذا أدركه الموت هكذا بغتة ، وإن هذا الخوف ليعذبه ويطغى على نفسه فيلتمس الخلاص منه فلايجده . إنه يقرأ كتب القديسين والأحبار ويسرف فى الصلاة فلا ينتهى إلى شىء من الراحة أو إلى جانب من الاطمئنان الذى يرجوه . فإذا استبدت به الحيرة فقد ترك الحياة ودخل الدير دفعة واحدة .

وروع أصحابه وآله وأقبلوا عليه يسألونه عن سر هذا الجنون المفاجىء ، فلم يجب بأكثر من أنه يريد أن يخلِّص نفسه من عذابها وينجو بها من ضلالها وشكوكها : وتنقضى على الفتى فى الدير أيام وشهور وهو يمعن فى الصوم ويطيل فى الصلاة ، وينصرف إلى التفكير حتى يكاد كيانه أن ينهدم . إنه ليبحث عن الهدى ويلتمس سبيل رضى الله فلا يوفق ، ويشكو الأمر لرؤسائه فى الدير ويطلعهم على حقيقة حاله فينصحونه بأن يثق فى رحمة الله ،

وأن يضع فيها أمله ويلتمس عندها هداه . وينتصح الفتى بقول الرؤساء ، فيعتصم من رحمة الله بأوثق عروة ، ويتشبث من مغفرته بأرسى طود ، فإذا الهدى يفيض فى قلبه ، وإذا السخط ينصرف عن نفسه ، وإذا الرحمة ترفرف على رأسه فيعتدل حاله ويرضى عنه الناس .

عرف الأحبار فيه ذكاء القلب ومضاء الفكر فأخذوا يسألونه فيما يعرض لهم من الحاجات ، واستبان لهم أن الرجل على علم وثيق وذكاء بعيد المدى ، فجعل رئيس الدير يندبه للخطير من شئونه ، وذهب ذات مرة إلى وتنبرج فى مهمة كنسية ، وجلس إلى أميرها وتحدث معه فأعجب به الرجل إعجاباً عظيماً ، وأحبه وتوثقت بينهما من ذلك الحين صلة أكيدة سيكون لها فى مستقبل لوثر أثر عظيم .

ثم رأى رئيسه أن يوجه به إلى روما فى مهمة خاصة بالدير ، فسر بهذه الفكرة سروراً بالغاً ، وحمد الله أن أمكنته الفرصة لزيارة قدس البابوية ومزار الكاثوليكية ، مضى إلى روما تحده الآمال ، حتى أشرف على المدينة وامتلأت نفسه بالغبطة لرؤية قبابها من بعيد ، شأنه فى ذلك شأن كل حبر وثيق الإيمان ، وعجل بالمسير حتى أفضى إليها وزار حبرها وسدنتها ، وهنا أدركه هم ناصب وألم لاعج ، فما كان يحسب أن الشر يأتلف على موئل الخير فيملؤه دنساً ، وما هكذا كان يتصور ذلك الحبر الكبير وسدنة كنيسة القديس بولس وما كان يرجو أن يرى البابا ينعم من خيرات الدنيا فى هذا الفيض العميم ، وهل ينبغى للرهبان هذا الإسراف فى المعصية والإيغال فى الترف ؟ إن نفسه لتنكر هذا كله وتمتلىء منه سخطاً . وإن الحيرة لتشتد به أكثر مما كانت عشية نزل الدير منذ سنوات ، فها هو ذا يشك من جديد ويشكو حيرة النفس ، لأنه فقد أمله فى الكنيسة فلم يعد أمامه إلا أن يلتمس الهدى فى نفسه ، وأن يجد الحق فى إيمانه والرشاد فى فضيلته وحدها .

عاد الفتى إلى دراساته ، واجتهد فيها حتى حصل على الدكتوراه ، وعاد إلى ولاية فتنبرج فانتخبه أميرها فردريك ليكون أستاذاً فى جامعته ، ورضى عنه الناس فأقاموه عضواً فى مجلس بلدهم التشريعى ، وهنا ظهر لوثر بمظهره الحقيقى : بدأ استقلاله فى الرأى يبدو فى أستاذيته ، وبدأ ميله إلى الحق يتجلى فى جرأته . بدأ يلقى إلى تلاميذه آراء وأفكار لم يعهدها الطلبة من قبله ولا الأساتذة ، كان ينصرف عن النظر والجدل العقيم اللفظى والبلاغى

الذى يصرف الإنسان عن لباب الأمور ، ويأخذ يلتمس الرأى الذى يفيد الناس ويصلح من شأنهم ، ثم أخذ ينقد دراسة اللاهوت التى كانت تلقى إلى التلاميذ . وكتب فى ذلك بضع مقالات تسامع بها الناس وجرى بها ذكره على الألسن ، فتهافت إليه الطلاب من كل حدب وصوب ، وسار اسم لوثر على الألسن ، وازداد له الأمير حباً أن أذاع اسم جامعة فتنبرج وجعلها مزار الطلبة ومحط الراغبين فى العلم .

تشجع الفتى وازداد فى الحق ثقة ، وبدأ يتجه فى دروسه ودراساته اتجاه المصلح الراغب فى خدمة الحق . وبدأ يناقش ما كانت الكنيسة تسميه فى ذلك الحين بصكوك الغفران ، وكانت هذه الصكوك أوراقاً تباع للناس فيها دعوات وصلوات يدفعون شيئاً من المال ثمناً لها ، وكان المفروض أن تنفق الكنيسة هذا المال فى وجوه الخير ، فرجال الدين فى الدنيا كلها يجمعون المال من الناس لينفقوه فى وجوه الخير ، ولكن ما أدهش لوثر هو أن رجال الكنيسة كانوا يؤكدون للناس أن من يشترى هذه الأوراق ويغلى ثمنها يغفر له الله من ذنوبه بقدر ما يدفع .

وتطورت المسألة فلم يعد الناس يدفعون المال طلباً للخير وإنما طلباً للغفران ، وأصبح الناس يعتقدون أنهم يشترون مغفرة الله عما يبدر منهم من ذنوب ببضع من المال يدفعونها للقسس ولا يعرفون مصيرها ، واستغل القسس هذا وأسرفوا فى الاستغلال حتى أصبحت أوراق الغفران تجارة صريحة رابحة . ذلك ما أنكره لوثر ولم يقبله عقله . وأنشأ يتفهمه فلم يَخْفَ عليه أن الكنيسة لم ترج به خلاص الناس وإنما زيادة الدخل وكثرة المال ، وانقلب تأمله سخطاً على الكنيسة التى تفسد أجلّ العواطف وتوطئها حتى تضعها فى الرغام .

ولو أن البابا ورجاله وقفوا من العبث بعقول الناس عند هذا الحد ، لكان من المعقول أن يسكت الناس عنه ، لأن دعاة الكنيسة كانوا يثبتون للناس بعبارات من الكتاب المقدس أن الله أباح للقديس بطرس ولِمَنْ بعده من خلفائه أن يتوسطوا فى غفران الذنوب للناس ، وقد كان القسس يخترعون المناسبات لجمع المال ويلتمسون فرضها ، فكانوا مثلاً يزعمون أنهم يريدون تجديد كنيسة القديس بولس ، أو يمهدون لحرب صليبية ضد الأتراك ، ثم يدعون الناس للتبرع ويقولون للمتبرع : إن الله سيجازيك على هذا بإقفال أبواب الجحيم دونك وفتح أبواب مملكة الجنة أمامك Claudo tibi portas inferni et januas aperio paradisi

وذهب البابا ليو العاشر فى استغلال سذاجة الناس إلى أبعد من ذلك ، فزعم للناس أن من شارك فى الحرب الصليبية ضد الأتراك أو تبرع لها غفر الله له من ذنوبه ما تقدم وما تأخر .

وكان من الميسور أن تمر هذه المسألة دون أن تثير لوثر من هدوئه أو تهون عليه الخروج على البابوية ، لو أن هذه لم تندب الراهب يوهان تِتْسِلْ لجمع التبرعات وبيع أوراق الغفران فى مقاطعتى ما يِنْتِس ومجد بورج ، فقد كان تِتسل مُشَعْبِذاً يخطب الناس ويقول : « إذا أنتم سخوتم فى البذل لنا حصلتم على الغفران كاملاً غير منقوص ، وتحولت تلال أنَّابُورج إلى تلال من الفضة الخالصة ! وإن قطعة العملة إذا سقطت فى الصندوق وسمع رنينها انفكت روح من دُفعت باسمه من عقالها ومضت إلى الجنة رأساً ! » إذ لم يكن من المعقول أن يرى لوثر ذلك ويسمعه ويلحظ سخر الناس به وانخداع بعضهم فيه دون أن يتصدى له ويحاول مناقشته .

لهذا عول لوثر على التصدى لهذا الراهب المشعبذ إذا مر فى بلده ، فلم يكد هذا يصل ويمضى يذيع فى الناس خزعبلاته حتى عوَّل لوثر على العمل ، فتناول أوراقه وقضى الليل كله كاتباً . حتى إذا أشرقت شمس أول نوفمبر سنة ١٥١٧ فقد أقبل الناس على بيعتهم ، فإذا على بابها وثيقة فيها خمس وتسعون حجة على بطلان صكوك الغفران ، وقرأ الناس الحديث فلم يفهمه إلا الذين يعرفون اللاتينية منهم . وترجمت الوثيقة وتناقلتها الألسن ، وتسامع بها الناس وأخذت مطبعة الجامعة تطبعها ، وانهالت الطلبات وعملت المطبعة ليل نهار حتى تسد حاجة الراغبين فى القراءة ، ولم يكد ينقضى أسبوعان حتى علم بأمرها كل ألمانى وحتى كانت على لسان الناس جميعاً .

وكان لوثر قبل أن يقدم على هذا العمل قد أوغل فى الدرس وذهب مع المتأمل إلى مدى كشف له عن حقائق كبرى جديرة بأن تهدم الأسس التى كان يقوم عليها سلطان البابوية على نفوس الناس ، وكان قد قبس آراءه هذه عن حَبْرٍ من أكبر أحبار الكنيسة الغربية هو الراهب القديس أوغسطين . كان لوثر قد أحسَّ أن الإسراف فى الصلاة والصيام وتعذيب النفس لا تؤدى بالإنسان إلى راحة النفس وخلوص الروح للخالق جل جلاله ، وكان لايشك فى رحمة الله وفى أن الإنسان يستطيع الحصول عليها ، ولكن .. عن أى طريق ؟ فأما رجال الدين هؤلاء فلا يصلحون سبيلاً لله ، لأن معظمهم يقترفون من المعاصى ما يجعلهم

أبعد الناس عن الرحمة . فلم يبق إلا أن يحاول الإنسان الوصول إلى الله مباشرة ، ينبغى أن يؤمن الإنسان بالله لا بالكنيسة .

وتحدث لوثر فى ذلك إلى حبر جليل هو شتاوبتْس قسّ إيرْفُورت ، فأيده الرجل فى ذلك ونصحه بأن ينصرف عن الكنيسة ، وأن يجعل صلته بالله دون وسيط كما نفعل نحن المسلمين . ومن هنا وقر فى نفس لوثر أن الأعمال التى تنصح بها الكنيسة ، من الحج إلى روما وإهداء الشموع إلى الكنائس وتقديس مخلفات الرسل ، إن هى إلا عقبات تحول بين الإنسان وخالقه . إن الإيمان بالله وحده هو سبيل الرحمة ، ورحمة الله هى الجزاء الوفاق للمؤمن . فإذا انتهى لوثر إلى ذلك فقد وجد أن واجبه الأول هو الخروج من الكنيسة التى تحول بينه وبين الخلاص ، وتضع نفسها بين المخلوق والخالق .

وكان معنى ذلك أن الرجل عول على إعلان خروجه عن الكنيسة فى أول فرصة تسنح له، ولم يكن ذلك بالأمر البسيط ، بل كان الناس يعتبرونه رِدَّةً عن الدين تبيح للكنيسة وللحكومة إهدار دمه ، ولم يكن من اليسير على رجل أن يتعرض لمثل ذلك إلا إذا كان فى نفسه من الإيمان ما يهون عليه عقابيل مثل هذه المخاطرة ، لأن القول بأن الكنيسة والبابوية تحولان بين الناس ورحمة الله معناه اعتبارهما خارجتين عن الدين ، واعتبار البابا عدو للمسيح ، واعتبار روما بلداً كافراً ينبغى على المؤمنين الانصراف عنه بل هدمه ، وكان من الطبيعى أن تتوجه البابوية بكل حولها للقضاء على رجل يقول بمثل هذه الدعوة ، ولم يكن من المعقول أن يتعرض إنسان لمثل هذا الخطر وهو يعتقد أنه أقوى من الكنيسة ورجالها مجتمعين !.

ثم إن دعوى لوثر ضد أوراق الغفران أعقبها كف الناس عن شرائها مما أدى إلى نقص عظيم فى دخل الكنيسة . عرف الناس أن شراء الصكوك بدعة باطلة فأنكروها وامتنعوا عنها ، وحاول الرهبان أن يردوهم إلى الإيمان بها فلم يقوَ باطلهم على حق لوثر ، وأدركهم اليأس وفكروا فى الاستنجاد بالبابا ، فبعثوا بنسخة من احتجاج لوثر إلى روما ، واستمع البابا إلى الأحبار وهو يبتسم ـ وكان ثعلباً ماكراً من أسرة مديتشى ـ وتليت عليه ردود لوثر فسخر منها ومن صاحبها ، ثم قال لمن معه : « لا أحسب أن لوثر هذا عبقرى عظيم ! » ثم تمطى فى مجلسه وأهاب بأتباعه أن ينهضوا للرد على هذا المتبجح ، فانهال الرهبان بكتاباتهم يردون

بها على لوثر ، فصمد لهم وقام لهم بالحجة حتى ريع الرهبان وتوجهوا إلى البابا بالشكوى ، وأضرب الناس عن صكوك الغفران فلم يعد يشتريها أحد ، وأحس البابا أن لوثر هذا يجب أن يحارب وأن دعايته يجب أن تبطل .

هكذا استطاع هذا الرجل الواحد الذى نشأ فى ركن من أركان ألمانيا فى قرية أيزْليبن أن يزعزع الكاثوليكية كلها والبابوية بجلالها ، وإذا البابا يستدعيه ، وإذا أصحاب لوثر ينصحونه بأن لا يخف إلى روما وإلا كانت النار مصيره كما كانت مصير سابقه « هُوسْ » الذى أحرق فى بوهيميا جزاء له على الصراحة فى القول والحرية فى الفكر ، وإذا بأمير سكسونيا يرفض تسليمه لرجل البابا ، ويطلب أن تكون مناقشة لوثر فى ألمانيا نفسها فى المجمع الألمانى فى أوجْزبُورج . ووافق البابا ، وانتدب طائفة من أعرف القسيسين بالفقه وأخبرهم بالمناقشة ، ووجههم إلى لوثر . ودارت المناقشة فى ردهة المجمع ، فإذا الحق يعلو والباطل يخبو ، وإذا برسل البابا يطأطئون الرأس أمام حق لوثر ، وإذا المجمع يعلن انتصار الحق ، وإذا الأمير يقسم ليحمين لوثر مهما كلفه ذلك من جهد ، وإذا لوثر يطبع مناقشته فى كتاب ويذيعه على الناس فتشتد الحماسة له ويحفل ركبه بالتابعين .

هنالك ينتدب البابا راهباً ممتازاً اسمه منلر ليفاوض لوثر ، فيفشل الراهب الممتاز فينتدب غيره فيفشل ، ويعود فيعلن فى روما أن حركة لوثر ليست حركة فرد بل ثورة الأمة الألمانية كلها على البابوية الإيطالية . وما كانت هذه البابوية إذ ذاك إلا قيصرية لها على حياة الناس من السلطان مالا يطمع فيه قيصر أو إمبراطور ، وكان الألمان قد خضعوا لهذا السلطان وأخلصوا فى ذلك ظناً منهم أن المسألة مسألة دين ، وحاولوا فى أوخر القرن العاشر أن ينقلوا الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى بلادهم فوفِّقوا فى ظلال أتو الكبير ، ولكن البابوية نهضت لهم وظلت تنافحهم حتى غلبتهم وردتهم إلى الطاعة ، وظلوا فى حدود الطاعة بعد هذه الهزيمة تبحث نفوسهم عن مخرج أو مهرب من هذا السلطان المستبد ، فلم يكد لوثر يرسل نداءه حتى دوَّى فى نفس كل ألمانى ، وأسرع الناس لتأييده لأنه لم يكن مجرد نداء دينى بل نداء وطنياً فى الواقع ، وجدت النفس الألمانية فيه تحقيقاً لحلم قديم ، ومخلصاً من استبداد إيطالى طال أمده وبعد مداه .

ورأى لوثر أن الشعب بدأ يتطلع إليه ويستمع إلى حديثه ، فشحذ قلمه ومضى يكتب

ويكتب حتى عمت كتاباته ألمانيا كلها ، كتب رسالة جليلة بعنوان : « حول حرية رجل مسيحى VON der Freiheit eines christichen Menschen » .فأثار كوامن النفوس التى استبعدتها الخرافات ، ثم كتب كتاباً عنوانه : « خطاب إلى نبلاء الشعب الألمانى المسيحى An der christichen Adel der deutschen Nation » فهز سكان القصور هزًّا ، وأعقب ذلك بكتاب باللاتينية إلى البابا جعل عنوانه : «مدخل فى الأسر البابلى للكنيسة De captivitate Babylonica Ecclesiae praeludium » قال فيه إن البابوية أسيرة فى يد الكفر وأنها لن تزال فى اختلال ما دامت تصر على أن تجعل نفسها وسيطة بين الله والناس ، وعلى أن تجعل نفسها قيصرية ذات بلاط مترف لايقل ترفاً ولا فساداً عن أشد الناس انصرافاً إلى الدنيا وأكثرهم إيغالاً فى الشر والفساد .

وقد ختم كتابه الأول : « حول حرية رجل مسيحى » بهذه العبارة ، يخاطب بها البابا ليو العاشر : « فأنت ترى الآن أي شيء تكون جماعة رجال الكنيسة الرومانيةcuria Romana ولست تستطيع ، ولا يستطيع أحد غيرك أن ينكر أنها أشد فساداً من بابل وسَدُوم . لقد أعلنت سخطى ، ولقد أنكرت أن يغرر بالشعب المسيحى باسمك وباسم الكنيسة الرومانية . ولهذا قاومت وسأقيم على المقاومة مادام روح الإيمان يعمر كيانى » . وهذه كلمات لو قالها رجل من المفكرين لما قنعت الكنيسة بأقل من إحراقه ، فكيف وقائلها راهب من رجال الدين ! ومن الطبيعى أن تثور عليه الكنيسة ثورة بالغة ، وأن يبلغ بالبابا الغضب كل مبلغ ، فيتناول قلمه ويكتب وثيقة يحرم بها لوثر من رحمة الله ! .

أتدرى كيف قابل لوثر ذلك ؟ كيف صنع بهذا القرار الذى كان يهز دولاً من أقصاها إلى أقصاها ؟ لقد اعتصم بالحق فى نفسه واعتصم بالهدى من ربه ، ونادى طلبته وأتباعه وأحرق أمامهم وأمام الناس أجمعين نص الحرمان فى العاشر من ديسمبر سنة ١٥٢٠ .

عجزت أسلحة البابوية عن أن تثبت لهذا الرجل ، فلم يبق لها إلا أن تستعين بالقوة ، فلجأت إلى الإمبراطور . وكان شارل الخامس إذ ذاك فتى يافعاً يزهى بغرور العرش ويحرص على مظاهر السلطان ، كان فتى هولندياً فى التاسعة عشرة من عمره ، وكان قد رقى العرش بعد أن فرّق فى الناس مالاً طائلاً وكسبهم إلى صفه بمؤامرات لا تنتهى ، وكان فى حاجة إلى

البابا ورجال الدين حتى يؤيدوا عرشه ضد الطامعين فيه ، وكان ينتمى إلى بيت الهابْسْبورج، وكان راعياً للكنيسة لأنه إمبراطور الدولة المقدسة ، ولو أنه كان بعيد الذهن لانضم إلى لوثر وكسب بذلك تأييد الجانب القوى من رعاياه وهم الألمان وأهل الشمال كافة ، ولكنه « ضيع الفرصة التى سنحت له » كما قال نابليون فيما بعد ، وأعلن تأييده للبابويين وقرر محاربة لوثر وأنصاره ، فأوقع دولته فى أزمة أدت إلى حروب أضعفتها وقضت على هيبتها .

بدأ الإمبراطور شارل الخامس فنادى لوثر لمناقشته فى مجمع وُرْمْزُ ، فكتب لوثر يؤكد له أنه مستعد للذهاب إلى ورمز على شريطة أن لا يحتج عليه المناقشون بآراء أصدرتها المجامع الدينية من قبل ، لأنه يعتقد أن كل المجامع الدينية كانت عبثاً وأن قراراتها كلها ضلال ، وأن الحجج الوحيدة التى يقبلها هى التى تعتمد على نصوص صريحة من الكتابات المقدسة وحدها . وَرُوِّع أنصار لوثر من ذلك ونبهوه إلى أن هذه الدعوة إن هى إلا شرك من شراك البابوية ، وأن الإمبراطور لا يكاد يمسك به حتى يحرقه ، ولكن لوثر أبى أن يتراجع ومضى إلى وُرمز واخترق الجنود والناس يحيونه حتى اتخذ مكانه فى المجلس . وبدأت المناقشة وحمى وطيسها ، وعلت حجته وبدا للبابويين أنهم منهزمون ، فأشاروا على الإمبراطور فأهدر دم لوثر ووضعه خارج القانون .

ولو ترك لوثر وحده فى هذه الآونة لاغتاله أعداؤه ، ولو أنه لم يجد أصدقاء مخلصين وحماة ذوى حول وميداناً ينشر فيه آراءه لضاع أمره ولأخفقت حركته فى مهدها ، ولكن الله يسر له هذه الثلاثة على أحسن حال .

فأما الحماية فقد وجدها فى كنف الأمير « فردريك العاقل » منتخب سكسونيا ، ولم يكن أميراً قوياً ولا بارع الذكاء ، وإنما كان أميراً عاقلاً رزيناً كريم القلب ، آمن بما ألقى إليه لوثر وشعر أن واجبه كأب وأمير هو أن يحميه من أعدائه الموغلين فى العناد والضلال ، وكان شديد الفخر بجامعته التى أنشأها فى فتنبرج والتى كان لوثر أحد أساتذتها . ولولا هذه الحماية التى بَسط رواقها على المصلح المجدد لما استطاع هذا أن يفوز بالوقت والهدوء اللازمين لكسب الأنصار للدعوة ووضع الأسس المكينة لها .

وأما الأصدقاء فكان فيهم رجل مثل فيليب ميلانكتون ، رجل واسع الذهن والقلب والمعرفة، يتحدث عنه لوثر فيقول : « كنت جلفاً كثير الضوضاء تثور فى نفسى العواصف وأتشوق إلى الكفاح تشوقاً ، وقد برأنى الله على طبع كفيل بأن يعيننى على حرب عدد لايحصى من الجبابرة والشياطين ، وأن أقتلع الجذور والأحجار وأن أجتث الشوك والقتاد ، وأن أزيل أشجار الغابات الواسعة ، ولكن الأستاذ فيليب أقبل على رقيقاً عطوفاً مستبشراً بما وهبه الله من صفات أفاض الله خيراتها عليه ... » ، وكان أستاذاً فى اليونانية فقدم للوثر كتاباً جمع فيه عبارات الإنجيل التى تتصل بالأسس القويمة التى ينبغى أن تقوم عليها الكنيسة الصحيحة وسماه : « Loci Communes » ، وكان هذا الكتاب على صغر حجمه أول كتاب ظهر منذ قرون شاملاً لأصول المسيحية مأخوذة من الإنجيل وحده كما قال ليوبولد فون رانكه أبو التاريخ الحديث .

أما الميدان فكان جامعة فتنبرج التى أصبحت مركز تعاليم لوثر ، وأخذت تتحدى التعاليم التقليدية التى كانت الجامعات القديمة الكبيرة ـ مثل السوربون ـ تصر عليها . إلى هذه الجامعة خف الناس من كل صوب ليأخذوا أصول الإصلاح الدينى العظيم عن لوثر وزملائه ، وفى رحابها ألفت المؤلفات الكثيرة فى تأييد العقيدة الجديدة ، وتحت سقفها ولد الشعور القومى الألمانى فى أثناء الحركة اللوثرية ، وفيها ظهرت أوائل الكتب باللغة الألمانية. ومن موارد هذه الجامعة استقى بعض طلبة الإنجليز مبادىء البروتستنتية التى ستنتهى بفصل إنجلترا عن البابوية وتحريرها من أثقال الكاثوليكية .

قضى لوثر فى معتزله سنتين ، قرأ فيهما الإنجيل بالعبرية . فازداد سخطه على الكنيسة وتمثل له الأذى الذى تنزله بالناس والخداع الذى تطويهم فى أحابيله حين تقدم إليهم نسخة من الإنجيل ملأى بالأغاليط فإذا أراد أحد تصحيحها غضبت واتهمته با لمروق عن العقيدة والخروج عن الدين ، فأخذ يترجم الإنجيل إلى الألمانية ، وفرغ من الترجمة فإذا هى آية فى الصدق والبلاغة حتى ليقال إنها أبلغ ما كتب الألمان نثراً . وكانت هذه الترجمة مظهراً آخر من مظاهر القومية ، وقيام لوثر بها يجعل له مكاناً بين آباء الشعب الألمانى وواضعى أسس نهضته .

ولقد طالت غيبة لوثر فى هذا المعتزل حتى حسب الناس أنه قد مات ، فثار أنصاره

وانقسمت ألمانيا قسمين : البابويين واللوثريين (المحتجين أو البروتستنت) ودارت رحى الحرب بين الفريقين .

كان لوثر رجلاً هادئاً يكره القتال والثورة ، ويحب أن يمضى فى إصلاحه هادئاً ، ولكن الناس تعصبوا له فقام الفلاحون بالثورة ، وكانت مطالبهم عادلة من غير شك : كانوا يريدون أن يتخففوا مما كان الأمراء والأغنياء يثقلون عليهم به من ضرائب ومغارم ، وكان حرياً بلوثر أن يقف إلى جانبهم ، ولكنه روع حينما أتته أخبار ثورتهم وعسفهم بمن وقع فى يدهم من الأمراء والأغنياء ، وقد كان حرياً به أن يسرع إليهم ليرى أسباب سخطهم ويحاول إقناع الأمراء بأن يمنحوهم ما كانوا يطالبون به من حقوق ، ولكنه أخطأ وظن أن انضمامه للأمراء يقر الأمن ويقضى على الفتنة ، ومن ثم أخذ جانب الأمراء وعضدهم فيما أنزلوه بالفلاحين المساكين ، فأصابهم شر كبير ، وأصاب الوطن الألمانى من وراء ذلك بلاء شديد.

ولو أن لوثر انضم إلى الفلاحين لانتصرت حركتهم وخلصت ألمانيا من عقابيل العصور الوسطى من زمن مبكر جداً ، ولكنه أخطأ وأضلته السياسة ، فانتصر الأمراء وسيطرت على البلاد إقطاعية العصور الوسطى ، ولم تتخلص منها إلا خلال الحرب العالمية الأولى ، وذلك خطأ منه لا يشفع له فيه إلا جهلة بالسياسة وعجزة عن فهم أسرار تطور الأمم . والغالب أنه انضم إلى الأمراء لأنه كان يكره الثورات وسفك الدماء ، أو لأنه كان يحب أن يسود النظام بأى ثمن ، حتى لا تصبح البروتستانتية مرادفة للفوضى ، وحتى تستطيع تنظيم أمورها والثبات لحرب الكاثوليكية . ولم يوفق الرجل حتى إلى ذلك ، إذ استمرت الحرب قرنين من الزمان ، ثم انتهت بانقسام البلاد قسمين : قسم للبروتستنتيين ، وقسم للكاثوليك .

ما كان لوثر المطمئن ليريد هذا ، إنه ليتأمل الفتنة الصارخة والمذبحة الدامية فيحز فى نفسه الألم ، وإنه ليرجو الناس أن يخلدوا إلى السكينة فيرفضوا ، ويشتد الأوار ويحتدم القتال وتكثر الضحايا ، ويعظم الأمر على لوثر فينزوى ، ويشتد به المرض فيموت فى سنة ١٥٤٦ .

بعد مائة واثنين وعشرين عاماً من وفاته عقد صلح وستفاليا المعروف ، سنة ١٦٦٨ ، به ثبتت قدم البروتستنتية ، وبدأ الناس يجنون ثمار جهد هذا الرجل المتواضع الجليل . فلما عاد السلام وهبت الريح رخاءً نظر الناس إلى هذا الذى جاهد وتعذب فى سبيلهم وقادهم فى حلكة الفتن والضلال ، فعرفوا أنه أنشأ عصراً جديداً وعالماً جديداً ، بل حضارة جديدة .

أوليفر كرومويل

حياة تغرى بالسعى إلى المجد وتبعث الأمل ، وجهاد يملأ النفس عـزة وإيماناً بقوة الخير ورجل هو الإيمان ظاهراً والإيمان باطناً ، وهو البطولة الصادقة الأصيلة التى تتحدث عن نفسها بغير حاجة إلى تعمق فى درسها أو مبالغة فى وصفها . لا تكاد تقرأ سيرة من سيره الكثيرة حتى تؤخذ نفسك بما ركب الله فى هذه النفس من الإيمان ، وما فطرها عليه مـن البساطـة والاستقامة ، وما اقتدرت عليه من جليل العمل فى غير تكلف ولا طول تدبير ، ولا تكاد تمضى فى صحبته قليلاً حتى يدركك العجب من إنكاره نفسه ونسيانه ذاته ، حتى كأنما كان يشعر أن نفسه فى غير حاجة إلى رعاية ، وأن ذاته لا تستحق التفاتاً .

ولقد روى لنا نبأه كارليل فى أسلوبه الشامخ الذى يفيض قوة وجمالاً ، وكشف لنا عن أسرار نفسه ومواطن بطولته بفكره النفاذ وعقله القادر ، ولا يزال صدى حديثه باقياً فى النفس يعاودها برنينه الفخم وأسلوبه الساحر . ولقد كنا نحسب أن معظم السحر إنما يرجع إلى أسلوب كارليل ، فلما قرأنا أخبار كرومويل عند غيره استبان لنا أن الجمال فى شخصية كرومويل كان سر جمال أسلوب كارليل ، لأن البلاغة لا تكون بلاغة إلا إذا ضمت حقاً ، وأن معظم القوة فى كلام كارليل إنما مرجعها إلى أنه كان يتخير الموضوع الصادق القوى الذى تزيده البلاغة صدقاً وقوة .

* * *

نشأ أوليفر كرومويل فى أسرة طيبة ذات مال وجاه ، ونشأ فارساً شجاعاً تقيا مسرفاً فى التقى ، لا يكاد يفرِّط فى نافلة من نوافل العبادة ، وانصرف إلى ما كان ينصرف إليه أمثاله من

البيوريتان الإنجليز من العمل المتواصل لكى ينمى ثروته ، وكان هؤلاء البيوريتان طوائف من المتشددين فى الدين يؤمنون إيماناً لا يناله الشك فى أن المؤمن ينبغى أن يكون خالص النفس طاهر الدين ظاهرا وباطناً . ولا سبيل إلى تطهير النفس إلا بالعمل والاجتهاد فى عمار الأرض ، فالعمل الشريف الذى يؤدى إلى الكسب يعتبر عملاً دينياً أو صلاة فى نظرهم .

وهم يعتقدون أن انصراف الإنسان لعمله وإنفاقه وقته فى تجويد هذا العمل يصونانه عن الكسل ويحميانه من الفقر ، وهما - أى الكسل والفقر - فى نظرهم لعنتان من الله ، فالكسول الذى لا يجتهد فى كسب رزقه وزيادة أرباحه وتعمير الأرض رجل دَنِس غير جدير برحمة الله أو بعطف الناس ، وهو لهذا محتقر عندهم ، مشكوك فى خلقه ودينه . والفقير الذى فشل فى تحصيل الثروة والفرار من مخالب الفاقة إنسان لا يستمتع بشىء من رحمة الله ، ولو رضى الله عنه لأغناه ، إذ لا معنى لأن يكون الله راضياً عنه ثم يتعقبه بالفشل ويثقل عليه بالفقر والحاجة حتى يهبط به إلى احتقار الناس .

من ثم كان هؤلاء البيوريتان جميعاً على مال يتراوح بين الكفاية والغنى ، ثم إنهم كانوا يعتقدون أن المؤمن الصحيح ينبغى أن يكون متقشفاً ، فلا يسرف فى نعيم ولا يبالغ فيما يأذن به لنفسه من ألوان الرفاهية . ولما كانوا يعملون بلا انقطاع ولا ينفقون إلا القليل مما يربحونه، فقد اجتمعت لديهم الأموال وأصبحوا من أوفر أهل الأرض مالا وأقدرهم على القيام بالمشاريع المالية كالشركات الضخمة والمؤسسات التى تحتاج إلى المبالغ الوفيرة ، يجمعونها فيما بينهم ويؤسسون بها شركات كبرى ، فأصبحوا لذلك قوة مالية يحسب حسابها .

فلما استبد ملوك الإنجليز بشئون الضرائب وأخذوا يزيدون فى مقاديرها ، بدأت طوائف البيوريتان تفكر فى إيقاف ذلك الاستبداد وتتحفز للدفاع عن أموالها ضد الملوك ورجالهم ، وزاد فى سخطهم تدخل الملوك فى شئون العقيدة ، فلم يبق فى قوس صبرهم منزع ، وأصبحوا على أهبة الثورة ، ولم تعوزهم إلا مناسبة تطلق غضبهم من عقاله وتنقلهم من الغضب الساكن إلى الثورة المتفجرة .

ولم تكن البلاد موحدة التوحيد الكامل التام الذى تظهر به اليوم : كان النظام الإقطاعى باقياً ما يزال أساساً لنظام إنجلترا السياسى ، كان فى كل ناحية شريفها يقيم فى قلعة إقطاعية حصينة يحيط به عدد من الفرسان خاضعين لأمره مستعدين لقتال من يخاصمه ، وكان سلطانه على القاطنين فى منطقته عظيما ، وكانت الحرب بين الأشراف متصلة لا تكاد تنقطع .

وربما اجتمع عدد من الأشراف وكونوا حلفاً فى ناحية من النواحى للتعاون على إقامة الأمن أو لحماية أنفسهم من أعدائهم ، وكانت المدن ناشئة ما يزال معظمها آخذاً بسبيل القوة ماضياً فى طريق الثروة بفضل الصناعة والتجارة ، وكانت هذه المدن تقتطع حقوقها من الأشراف اقتطاعاً ، وربما اشترتها بالمال . وكانت تستعين بالملك فى لندن وتستمنحه سلطانها وحقوقها ، وتوثق صلاتها به لكى يحميها من الأشراف المحيطين بها ، لأن مطامعهم كانت لا تكاد تتوقف أو تعرف حداً ؛ ومن ثم انعقد الولاء بين الملوك وأهل المدن الناشئة ومن فيها من التجار وأصحاب الصناعات . وكان الملك يرسل إليها قضاته وعماله ، فأصبحت المدن مع الزمن معاقلَ الملكية فى منازعاتها مع الأشراف .

وكان هذا من أسباب التوازن السياسى الذى امتازت به إنجلترا دون غيرها من الأمم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر : فإن قوة الملك لم تبلغ مبلغ السيطرة الشاملة كما كان الحال فى فرنسا : وقوة الأشراف لم تبلغ مبلغ سلطان الأشراف فى الإمارات الألمانية . فقد أصبحت فرنسا آخر الأمر ملكية مستبدة غاشمة ، وأصبحت ألمانيا مجموعة لا حصر لها من الإمارات فى كل منها دويلة وأمير ، أما فى إنجلترا فقد سار النظامان جنباً لجنب : الأشراف فى نواحيهم يعملون على تحسينها وترقيتها والنهوض بها لكى تشد أزرهم ساعة الخطر ، والملوك فى لندن يحاولون بسط سلطانهم والاستعانة بأهل المدن وما لديهم من المال فيما يشجر بينهم وبين الأشراف من نزاع ولكى يؤكدوا نفوذهم فى النواحى .

إلى هذا أيضاً نستطيع أن نرد قوة البرلمان الإنجليزى وما وصل إليه من سلطان فى زمن مبكر ، إذا قيس إلى البرلمانات ومجالس الشعب فى فرنسا وألمانيا . فقد انمحى النظام البرلمانى فى فرنسا فعلاً بسبب ما كان للملك من سلطان شامل ، وتحولت المجالس الألمانية إلى مجالس أمراء ليس للشعب فيها نصيب ، أما البرلمان الإنجليزى فقد وقف فيه

الأشراف أمام مندوبى المدن ـ وكانوا فى الغالب فرساناً ـ وجهاً لوجه يتنافسون ويقوِّمُ بعضهم بعضاً ، لا يكاد الأشراف يحاولون طغياناً حتى ينهض لهم نواب المدن يؤيدهم الملك فيردوهم إلى الصواب ، ولو حاول الملوك الاستبداد يؤيدهم أحلافهم وأنصارهم لوقف أمامهم الأشراف يناجزونهم ، فسارت السفينة بين هذين التيارين فى جو من الأمان ، وأخذ الفرد يكسب حرياته واحدة واحدة مع الأيام .

وأقبلت الأخطار الخارجية ـ الحروب مع فرنسا وهولندا و إسبانيا ، ثم النزاع مع البابوية فى روما ـ تربط الحزبين أحدهما بالآخر وتقوى أواصر الوحدة القومية فى البلاد ، فكانت إنجلترا إذا اشتبكت مع عدو خارجى ـ مثل إسبانيا مثلاً ـ فى حرب، اتحدت الطوائف الإنجليزية كلها للدفاع عن مصالحها أمام العدو : أهل المدن والموانى يريدون أن يؤمنوا متاجرهم وسفنهم ، وأشراف النواحى يؤازرون المدن التى تمدهم بما هم بحاجة إليه من مصنوعات ، والملك من ورائهم جميعاً يحمى تاجه وسمعة بلاده .

وأعانتهم العزلة فى الجزيرة على الشعور بهذه الوحدة ، فتضامت الصفوف وأصبحت البلاد رغم تفرقها فى الداخل جبهة واحدة أمام أى خصم خارجى ، بل أصبحت هذه الوحدة أعز على أهلها من مسائل العقيدة ، فإذا اختلف ملكهم مع البابا نصروا الملك وآزروه فيما أراد من الاستقلال بكنيسة إنجلترا كما حدث أيام هنرى الثامن ، وأصبحوا ينظرون إلى من تهفو نفسه إلى بابا روما كأنه أجنبى لا يؤمن غدرُه ، وسموه كاثوليكياً رومانيا ، وربما اضطُهد وأوذى لا لشىء إلا لأنه باق على الولاء لأمير أجنبى هو البابا فى روما .

من ثَم لا غرابةَ أن يشهد الإنسان فى إنجلترا فى هذا القرن السابع عشر صوراً عنيفة من الاضطهاد الدينى ، لأن البيوريتان كانوا متشددين لا يكادون يطيقون أن يخالفهم أحد فى شئون العقيدة . ولم تكن أصول البيوريتانية محددة إذ ذاك ، وكان المؤمنون بها يتفاوتون : من المتعصب البالغ التعصب إلى الحر الواسع الذهن ، وظهرت منهم طوائف بلغت فى التشدد والتعصب مبلغاً لا يكاد يقاس إليه تشدد الحنابلة فى الإسلام مثلاً .

فى أعطاف واحدةٍ من هذه الطوائف.نشأ أوليفر كرومويل ، نشأ بيوريتانيا متعصباً ،

وكان بطبعه حاسماً بتاراً لا يعرف الحلول الوسطى ، وإنما يلزم رأيه لا يتزحزح عنه ، ويكافح دونه كفاح الموت ، وكان قد تتلمذ لأستاذ من المتشددين يعتقد أن الله يتدخل فى شئون البشر لعقاب الشرير ، وأن الكتاب المقدس هو كلام الله الصريح ، وأن الإنسان يجد فى كلماته كل ماهو بحاجة إليه من توجيه فى شئون الدنيا ، فآمن كرومويل بذلك إيماناً بالغاً ، وجعل الكتاب المقدس دستورَ حياته .

وقد بالغ فى ذلك مبالغة جعلته مثلا يتندر به ، فقد كان يحمل الكتاب المقدس لا يكاد يسير خطوة بدونه ، وكان لا ينفك يقرأه ويعلق على عباراته تعليق المتأمل المتعمق ، وكان لا يكاد يحرك قدماً فى سبيل أو يداً فى عمل إلا تلا الفقرة أو الفقرات من الكتاب المقدس يؤيد بها عمله ، وكان إذا صف جنوده للحرب تخير عبارة من هذا الكتاب يهتف بها أمام جنده ويرددها وهو فى حماسة الهجوم وعنفوان المعركة ، وكان إذا أشكل عليه أمر أو حزبته معضلة لم يأخذ يدرس ويفكر ويوازن على نحو ما يفعل غيره من السياسيين أو رجال الحرب ، بل يأخذ يطالع فى الكتاب باحثاً فى فقراته وقصصه عن الرأى الصواب ، فلايلبث أن يجده ! .

وكان إذا وقف يخطب لم يحاول أن يؤثر فى قلوب سامعيه بالبلاغة والمنطق ، بل يمضى يتحدث فى أسلوب غامض هو أشبه ما يكون بأسلوب الكتاب المقدس ، ويروى أقاصيص وأخباراً من العهد القديم أو العهد الجديد ، وكان هذا الأسلوب من الحديث أفعلَ فى نفوس سامعيه من بلاغة البليغ أو وضوح المتحدث الفاقه لما يقول ؛ ولا غرابة فى ذلك فقد كان معظم من حوله من طرازه .

وكانت الترجمة الإنجليزية للإنجيل جديدة فى أيدى الناس ، وكانوا لهذا مفتونين بأسلوبه فى التعبير وبطريقته فى التصوير ، وكان المتشددون فى العقيدة من البيوريتان أشد الناس فتنة بالكتاب المقدس وأكثرهم استعمالاً لعباراته وإعجاباً بغموضه ، وكان كرومويل قد أشبع روحه بروح الإنجيل وفكره بأسلوبه ، فكان إذا تكلم سحر الناس بكلامه ، على قلة ما لهذا الكلام من البلاغة والجمال .

ولكنه كان يمتاز عمن حوله بأنه كان عملياً . كان يعرف ماذا يريد وماذا ينبغى أن

يعمل لتحقيقه ومتى وكيف يعمله ، فبينما كان من حوله خياليين يرون الغاية ولا يعرفون السبيل إلى تحقيقها ، كان هو يحدد لنفسه أهدافاً قريبة محدودة ويرسم لنفسه خطة التنفيذ فإذا بلغ هدفاً تراءى له ما يليه فأنفذه ، وبهذا وحده استطاع أن يحقق أغراضاً بعيدة كان الناس من حوله يعتبرونها خيالاً .

وقد قيل إنه كان يرسم الخطط البعيدة ويطويها فى نفسه ليخذل الناس أو ليصرفهم عن منافسته ، ووقر فى نفوسهم أنه منافق يخدع الناس عن مراميه ويتظاهر بما ليس فى نفسه ، وأيد ظنونهم ما رأوا من استعماله فقرات من الإنجيل فى كل مناسبة وتفسيرها على النحو الذى يهوى ، وبدرت منه فى حياته بوادر يستطيع الإنسان تفسيرها بالغدر والانقلاب ، فأيد ذلك ظنون هؤلاء الناقدين .

والواقع أن الإنسان لا يستطيع أن يتهمه بالنفاق ، وإن كان لا يستطيع أن يزعم أنه كان صريحاً واضحاً دائماً ، ولكنه لم يكن شريراً على أى حال . إنما كان الرجل يؤمن بما يعمل إيماناً يدفعه إلى العنف فى تنفيذه كاملاً غير منقوص ، فربما حاصر حصناً حتى اضطر من فيه إلى التسليم ، فوضع فيهم السيف حتى أفناهم ، فأنكر ذلك معاصروه ورأوا فيه مالايتفق مع شهامة الفارس المسيحى ، ولعلنا لو عرفنا ظروفه لتبينا أنه كان مضطراً إلى ذلك فقد كان يخشى دائماً أن يفلت أحد خصومه فيذيقه الويلات فيما بعد .

وربما جاز أن نرد ذلك إلى طبيعته العملية ، لأن الرجل العملى بتارٌ سريع التنفيذ ، وقد توقعه العجلة والحمية فيما يؤسف له . ولا يشذ كرومويل فى هذا عن غيره من المتحمسين الذين يتفانون فى سبيل عقيدة أو فى سبيل غاية ، وكان هؤلاء يصرفهم الهدف عما عداه ، وتغلق العقيدة المتمكنة قلوبهم عن فهم غيرها من العقائد .

* * *

ومن طريف الأمر أنه ظل حتى بلغ الثلاثين من عمره مطمئناً إلى لون من الدعة وخمول الاسم ،لا يميزه شيء عن غيره من المزارعين الموسرين ، وقد وصفه بعض من رآه فى سنة ١٦٤٠ فذكر « أن مظهره كان عادياً لا يتحدث عن تفوق فى ذكاء أو امتياز فى شخصية ،

وأنه كان يرتدى ملابس خشنة ريفية من الكتان الصافى ، وأن قبعته كانت مما يلبسه صغار الفلاحين لا يزينها شريط » .

كان كروموميل من أهل هذه الطبقة الموسرة العاملة التى كانت تسمى بالجنترى ، وكان يقضى معظم وقته فى مباشرة أعماله وفى التعبد، والقراءة ، وكان إلى ذلك ذا ولع بالخيل ، فكان ينفق وقتاً طويلاً على صهوة جواده . وانصرف بعض الوقت إلى مطالعة أخبار الحروب حتى ألم بشىء كثير من شئون الحرب وأصول قيادة المعارك ، ولكنه ظل رغم ذلك كله مطمئناً إلى حياته قانعاً بما أفاض الله عليه من سعة الرزق وخفض الحال ، فظل خاملاً لايسمع له صوت ولا يرجو إنسان له مستقبلاً . دخل البرلمان مرتين : الأولى سنة ١٦٢٨ والثانية ١٦٤٠ ، ولكنه لم يفعل فى المرتين شيئاً ، شأنه فى ذلك شأن غيره من موسرى الريف الإنجليزى الذين كانوا يذهبون إلى البرلمان طلباً لشرف النيابة لا رغبة فى النهوض بتكاليفها .

وكان ملوك أسرة ستيوارت مستبدين بشئون البلاد ، لا يغادرون لأعضاء البرلمان جانباً من السلطة أو حقاً فى رأى يقوّمون به ما عسى أن يطرأ على شئون الدولة من اعوجاج ، وكان فيهم إلى جانب ذلك عنف وجهل بالطباع البشرية ، فنفرت منهم النفوس . وقد كان آل تيودور من قبلهم يستبدون ولكن فى سياسة ، ويطغون ولكن فى حسن تصرف وكياسة ، فلم ينكر الناس عليهم شيئاً كثيراً ، فلما أقبل آل ستيوارت هؤلاء مضوا فى الناس على أسلوب يشعر بعدم المبالاة ، وقد أورثهم أصلهم الأسكتلندى حدة وشراسة ، وكانوا إلى ذلك متعصبين لمذهبهم البروتستنتى ، فجعلوا يعهدون إلى الموالين لهم من رجال الدين بالوظائف وفى إدارة النواحى ، فزاد ذلك من نفور الناس منهم ، لأن رجل الدين إذا تناول مالا ينبغى له من شؤون الدنيا لم يلبث أن يقع فى أخطاء تزيد على ما يقع فيه غيره . ولازال آل ستيوارت هؤلاء ينفرون الناس حتى عجز النواب عن أن يخفوا إنكارهم لهذا الطغيان ، فبدأت المعارضة تشتد ، ولم يحاول الملوك تقصى مواضع الشكوى لإزالتها وكسب القلوب وإنما كانوا إذا أغضبهم من البرلمان شىء أغلقوه وسرّحوا نوابه .

وكان كروموميل يرقب هذا الاستبداد الغاشم الذى كان مواطنوه يُرغمون عليه ، وكانت

نفسه تنكره ، فجعل من حينه يميل إلى ناحية المعارضة ، فلما اختلف الملك شارل الأول مع النواب وألغى البرلمان القصير العمر ثم عبث بالبرلمان الطويل المدى ، ضاق ذرع كرومويل ، وبدأت نفسه تحدّثه بالثورة . ولما قام النواب بمظاهرتهم الكبرى بعد ذلك لإرهاب الملك انضم كرومويل إلى المتظاهرين ، وأقسم ليغادرن إنجلترا إذا لم يُجَب النواب إلى ما طلبوا ، ولكنه لم يلبث أن استبان أن البرلمان عاجز عن أن يفرض احترامه على الملك لأن أعضاءه غير عمليين ، فهم ينفقون وقتهم فى مناقشات لا طائل وراءها ، ثم إنهم لم يكونوا مخلصين فيما يبدونه من مظاهر المعارضة ، ولم يكونوا يداً واحدة ، ولم يكن لهم جيش قوى يستطيعون الاعتماد عليه . فأدرك كرومويل أن الموقف لا ينجلى إلا بحرب يعلنها البرلمان على الملك ليرغمه على احترام إرادته ولزوم حدوده ، فاعتكف فى مزارعه وبدأ يفكر فى السبيل التى يجمع بها هؤلاء النواب فى قبضة يده ، ويهيىء لهم قوة عسكرية كفيلة بتعزيز جانبهم ، ثم يمضى فى مقدمتهم ليخوض بهم حرباً تقطع دابر الاستبداد قطعاً وتمكن الشعب من حقه فى تقرير مصايره بنفسه ، وكان أشد ما يؤلم نفسه تعصب الملك ورجاله لآرائهم فى العقيدة واضطهادهم البيوريتانيين لمجرد انحرافهم بعض الشىء عما يريد الملك وقساوسته ، وكان القساوسة ـ كما أشرنا ـ رجال حكم وطلاب سلطان أكثر منهم رجال عقيدة .

وكان المعارضون للملك من أعضاء البرلمان كثيرين ، وكان معظمهم على مال وجاه يستطيعون أن يعدوا للحرب آلافاً من الفرسان إذا جد الجد وانتهى الأمر إلى حرب ، ولم تلبث عين كرومويل الفاحصة أن استبانت أن هؤلاء الجند والفرسان لا يضمنون النصر ضماناً تاماً ، لأنهم أحد رجلين : فارس شريف يمارس الحرب رياضةً وفروسيةً ، أو مقاتل فقير على قدميه ، جنده الشريف صاحب المزرعة ليحارب عن قضية لا يعرف عنها شيئاً .

لم يسترح كرومويل إلى تكوين هذا الصنف من الجيوش ، وعرف أنه لن يصل إلى نتيجة حاسمة إذا هو اعتمد عليها . وكان ـ كما عرفنا ـ مؤمناً عميق الإيمان متشدداً فى عقيدته ، وكان هذا الإيمان يضفى على نفسه قوة معنوية كبرى ،. فوقر فى نفسه أنه لو استطاع أن يجمع حوله عدداً من الرجال تملأ نفوسهم قوة روحية كهذه التى تملأ نفسه ، ويؤمنون بالله

إيماناً يهوّن فى نظرهم الموت ، ويعرفون ما يطلبون ويمضون فى تحقيقه يحملون قلوبهم على أكفهم لا يكادون يحسبون للموت حساباً ، لو استطاع أن يؤلف قوة صغيرة من هذا الطراز من الجند لما عسر عليه أن يكتسح خصوم البرلمانيين وأعداء التسامح الدينى اكتساحاً .

فإذا استبان له ذلك فقد أسرع فى تنفيذه ، وانزوى فى إحدى المقاطعات فى شرق إنجلترا، وقد تخيرها لأن أكثر أهلها كانوا من البيوريتان مثله ، ولم يكن يشك فى أن قوتهم الروحية وتفانيهم فى سبيل عقيدتهم ستفتح لهم سبيل المعجزات ، ووفق فى أمد قصير إلى تكوين فرقة صغيرة من الفرسان دربها تدريباً عظيماً ، وأفاض فى نفوس أعضائها من إيمانه ما جعلهم أسد وغى حقيقة لا مجازاً ، ولبث يتحين الفرصة لإطلاق هذه الأُسد على أعداء الحرية والبرلمان .

ولم تلبث الظروف أن تحرجت بين الملك والمعارضة فى البرلمان ، وأصر الملك على ما أراد ولم يكن فى استطاعة المعارضة التراجع ، فلم يبق إلا حسم النزاع بحد السيف . وأخذ المعارضون يضمون صفوفهم ويوحدون جبهتهم استعداداً للنزاع المقبل مع الملك ، وأحس هذا أن مركزه فى لندن غير مأمون ، فغادرها بجنده وأتباعه ومضى ليلتجىء إلى مدينة « هَل » ، فأقفل أهلها أبوابها دونه ، ومضى رجاله يجمعون الجند والفرسان من أنصارهم حتى استطاعوا أن يهيئوا جيشاً طيباً أقاموا عليه الفارس الأمير ريوبَرْت ، واجتهد البرلمانيون من ناحيتهم حتى جمعوا جيشاً من عشرة آلاف رجل ، وخف كرومويل للالتحاق بهذا الجيش ومعه ستون فارساً هم خيرة رجاله ، بل خيرة رجال الدنيا بأسرها فى حومة الوغى يومذاك ! .

وسار الملك نحو لندن ،. وبرز جيش البرلمانيين للقائه ، فلم يكد اللقاء يقع ، ولم يكد الأوار يشتد حتى تفرق البرلمانيون وطلب معظمهم النجاة ، وثبت كرومويل فى هذه الحفنة من الرجال ثباتاً هزَّ العدو وألقى فى نفسه الرعب . إذ تهاوى من جنده المئات على أيدى هؤلاء الأبطال ، وهكذا أنقذ كرومويل موقف البرلمانيين بعد أن كاد أمرهم يتفرق ، وبدأ اسمه يظهر ، وأخذت الأنظار تلتفت إليه ، وقد كسب من هذه الوقعة درساً عظيماً .

ثم عاد إلى مناطقه التى كان يتخير منها جنده ويعدهم فيها ، وأخذ يوسع دائرة تدريبه

بعد أن استبان له مقدار القوة التى يحصل عليها إذا أحاط نفسه بعدد كاف من هؤلاء البواسل ، فأخذ يجمع الرجال ويدربهم ، وكان معظم عنايته موجهاً إلى الناحية الروحية الدينية ، حتى كان معسكره أشبه بالدير العظيم ، لا يخلص الناس من تدريب إلا أخذوا فى صلاة ، ولا يفرغون من صلاة إلا أخذوا فى تدريب .

وكان يقول لمساعديه المكلفين بانتقاء الرجال للجيش الجديد : « إننى لأرجوكم أن تكونوا حذرين فى اختيار الفرسان ، وفى اختيار من تلقون إليهم بأعنة الخيل . إن فئة قليلة من رجال ذوى أمانة لتعدل أعداداً لا حصر لها ، فإذا راعيتم الله وتخيرتم رجالاً فاضلين للخيل استطاع كل منهم أن يأتينا بعدد من الرجال ذوى البأس من أتباعه وأصحابه وأهله إنه لخير لى أن يكون فى جيشى فرسان بسطاء أجلاف يفهمون القضية التى يحاربون فى سبيلها ويعرفون كيف يدافعون عنها من أن يكون فيه رجال من طراز الوجهاء (جنتلمن) إذ أنهم ليسوا فى الواقع إلا وجهاء » . وكان يقول : « إنه ليهمكم أن يكون تحت أيديكم رجال ذوو ضمائر حية » .

وتهافت الرجال عليه ، فسره ذلك وجعل يقول : « إن جنودى فى زيادة وإننى لفى صحبة ممتعة ، ولو عرفتهم لاحترمتهم ، إنهم ليسوا أنانيين بل هم مسيحيون فضلاء عقلاء » . وكان لا يعجب بشىء فى الرجل أكثر من بساطة نفسه واستقامة خلقه ، وقد قال: «خير لى أن يكون معى رجال بسطاء من ألا يكون معى أحد ، وأحسن الناس جميعا هم أصبرهم على مطالبهم وأوفرهم أمانة وأرعاهم لضمائرهم» .

وكل أولئك دلائل على أن الرجل كان فى نفسه قوةً خلقية كبرى ، وأن آماله لم تتعلق فى الواقع بثورة فى السياسة وإنما بثورة فى الأخلاق ، وقد كانت عنايته بتربية رجاله أشدَّ من عنايته بتدريبهم ، لأن قوةَ روحه كانت تفوق حدة ذكائه ، وقد كسب المعارك وساد أهل زمانه بقوة الروح وحماسة العقيدة .

ولم تكن خططه فى كسب المعارك خططاً فنية مرسومة تقدر فيها حركة كل جندى ويقرر فيها لكل فارس مكانه ، بل كانت صلوات يقوم بها الجيش كله يتوسطه كروموبل نفسه ، كأنه ساحر كبير يقرأ التعاويذ بين سحرة صغار ! فإذا قُضيت الصلاة جرَّد سيفه من قرابه وهتف بعبارة من عبارات الإنجيل ، كما كان المسلمون يصيحون : « الله أكبر ! » ، ومضى

فى مقدمة الجند ، وقد استحال جِنًّا يَفلق الهامَ ويخبط المناكب ويقتحم الحصون وهو فى شبه جنون ، فلا يهدأ إلا إذا أهلك الأعداء وسالت دماؤهم بحاراً حقيقة لا مجازاً .

وكان رجاله يمضون خلفه كالبنيان المرصوص لا يكاد عدوهم يجد فى صفوفهم فرجة ينفذ منها ، حتى سماهم الناس « جوانب الحديد » « أيرن سايدز » . وكان العدو إذا رآهم مقبلين على هذه الهيئة من النظام والتكاتف امتلأت نفسه رعباً وفسد نظامه ، فلا يملك أن يصيبهم بأذى ، حتى لقد تنجلى المعركة عن بضعة آلاف من القتلى من أعدائهم ، وبضع عشرات منهم ! .

وقد حدث فى معركة دُنبار أن حصره الإسكتلنديون حصارًا شديداً ، وما زالوا يدفعونه حتى أشرف على البحر ولم يعد له مهرب ، وتساقط جنوده مرضى حتى لم يبق منهم على أقدامهم إلا بضع مئات ، وكاد اليأس يستولى على كرومويل نفسه ، فكتب إلى بعض أصحابه يرجوه أن يهيىء أذهان الناس لخبر سيىء ، فلما شد عليه الإسكتلنديون هتف : «الله رب الجيوش ! » ورفع السيف ومضى يهتف بهذه العبارة ومن ورائه جنده يرددونها ، فلم يلبثوا أن اقتلعوا العدو من مكانه ووضعوا السيف فى رجاله حتى أفنوهم أو كادوا : قتلوا منهم ثلاثة آلاف وأسروا عشرة آلاف ، فلما رأى كرومويل انكسار عدوه على هذا النحو المروع استوقف جنده لحظة ليرددوا معه ترنيمة دينية شكراً لله ، فلما فرغ مضى فى أعقاب العدو ، ومازال يتأثره حتى احتل إدنبره عاصمته ، ولم يخسر كرومويل فى المعركة كلها أكثر من اثنين وعشرين رجلاً ! هذا على ما اشتهر به الأسكتلنديون من ضراوة على الحرب وبأس فيها ، ولم يسجل التاريخ عليهم هزيمة ساحقة معيبة كهذه ، ومردها إلى هذه القوة الروحية التى كان كرومويل يبعثها فى رجاله ، وهى قوة تعود بالذهن إلى قوة المسلمين الأول واليونان القُدامى وكل جماعة يعمر قلوبها إيمان متوفز دفاع ، يكاد من حيويته وقوة دفعه أن يزحزح الجبال .

بيد أن الإنسان لا ينبغى أن يرد ذلك كله إلى كرومويل وحده ، فقد كان رجاله من حوله على إيمان يقرب من إيمانه ، وكان طول عهود الرخاء ومداومة قراءة الكتاب المقدس قد ارتفعا بأصاغر الناس إلى درجة من الوعى والإحساس بالنفس وبمعنى الكرامة الشخصية جعلتهم ينفرون من الظلم والمهانة نفوراً طبيعياً واعياً . وإن من يقرأ كتابات العصر ،

وأخصها « توفيق الحجاج » لجون بَنْيَان ليستبين أن العصر كان عصر يقظة روحية انفرد بها الإنجليز بين أهل هذا الزمان ، وليس إلى الشك سبيل فى أن الحرب بين البرلمانيين والملك كانت حرب ناس يريدون أن يُعترف لهم بحقوقهم فى الحرية والكرامة مع طبقة قديمة تأذّن زمانها بالزوال وتريد رغم ذلك أن تعيش .

وربما كان ذلك سراً من أسرار قوة الإنجليز ، لقد استيقظوا من سبات العصور الوسطى قبل غيرهم بقرنين من الزمان ، وإلى هذا السبق يعزى تفوقهم على غيرهم من شعوب الأرض ، لأن المتأمل فى صفحات التاريخ ليلحظ أنهم فى صراعهم مع الفرنسيين مثلاً لم يكونوا أذكى ولا أقدر ، وإنما أنضج وأرشد وأكثر تجربة ، كأنهم كهل تقلبت على عينه الدنيا يكافح صبياً فى سن اليفاع .

لا غرابة إذن فى أن يكتسح كرومويل ورجاله كل شيء أمامهم ، فلم يلبث إعجاب رؤساء كرومويل وزملائه من البرلمانيين به أن تحول إلى حسد وخوف من هذا الرجل الطامح الذى لا يكاد يرفع علَمه فى ميدان حتى يواتيه النصر ، وتعب هو من رؤسائه هؤلاء وود لو انفرد بالعمل دونهم ، لا عن رغبة فى الانفراد والاستبداد وإنما عن إيمان منه بأن أساليبهم لاتحقق نصراً ، ومن ثم كثرت الدسائس والمؤامرات حوله ، فلم يلجأ إلى مناورات السياسى ومداوراته يتقى بها أذى حاسديه ، بل مضى قُدُماً كأنه لا يحس بهم ، أو كأنه لا يشك لحظة فى أن إيمانه بالله يكفى ، وأن عدالة مطالبه تغنيه عن كل حيلة .

ومن غريب الأمر أن خصومه ـ على كراهيتهم له ، وانصرافهم إلى التدبير عليه ـ كانوا يشعرون أنهم لا يستغنون عنه ، فكانوا كلما جد الجد أسلموا له القيادة من جديد . ولم يزل يقود البرلمانيين من نصر إلى نصر حتى كسر قوات الملك كسرة قصمت ظهرها فى « نازبى » فى يوليو سنة ١٦٤٤ ، وأصبح كرومويل بعد ذلك سيدَ إنجلترا دون منازع ، وأضحى الملك طريداً يتجهم له الناس وتتهرَّه المدائن ، حتى لقد حاول أن يستعين بأحلاف فى اللورين وفرنسا والدانمارك فلم يغنوا عنه شيئاً ، وحلت به وبأتباعه الهزيمة النهائية فى سنة ١٦٤٦ .

من هذا اليوم أصبح الشعب سيداً غير منازَع فى بلاد الإنجليز ، وارتفع رأس الزارع البسيط والعامل المتواضع حتى ساوى رأس الشريف النبيل المعتز بأملاكه من المال

والعقار وأنسابه من حملة الألقاب ، وبدأت الديمقراطية تصبح أساساً للحياة وشريعة للعيش فى تلك البلاد ، ولم يحاول أحد أن ينتزع من هذا الشعب الإنجليزى هذه الحقوق التى نالها بحد السيف .

ولم يحاول الشعب أن يستغل نصره ويقلب الأمور قلباً كما فعل الشعب الفرنسى إبان ثورته الكبرى بعد ذلك بقرنين ونيف ، لأن الشعب حينما تابع كرومويل إنما تابعه واعياً لما يريد ، عارفاً لحدوده لا يريد أن يعدوها ، ولم يكن ليستطيع أن يعدوها لأن القائد كرومويل كان قد ملأ نفوس الناس إيماناً بقوة الحق وجماله ، وغرس فى قلوبهم احترامه ، فلما بلغوا مطلبهم واطمأنوا على حقوقهم وقفوا ، ومن هنا صانت الثورة الإنجليزية نفسها عن جهالات الثورات ، وعرف هذا الشعب معنى الاعتدال والاتزان وتمالك النفس فى لحظات الطيش والغضب . وقد لازمته هذه الخصلة طوال تاريخه ، وكانت من دعائم قوته ، فما دخل مرة فى صراع إلا عرف متى يقف ، ولم يملكه الغضب مرة إلا عرف كيف يهدأ ، ولم تزحمه الكوارثُ والأخطار مرة إلا عرف كيف يحافظ على اتزان نفسه وهدوئها ليتصرف التصرف الحكيم الممكن ، وقد أنجاه ذلك من مهاوى الأمم ، ومضى به فى مدارج التوفيق أشواطاً لايكاد يدانيه فيها شعب فى التاريخ .

بيد أن الملك لم يكُفَّ بعد هذه الهزيمة عن المحاولة ، بل أنشأ يستعد ويتربص ، فلم يدع له كرومويل فرصة يستعد فيها ، بل عاجله فى المناطق التى كان يتحفز فيها ، وكان أهل ويلز وأسكتلندة قد نفروا من أساليب كرومويل فى العمل ، فبدأوا يعطفون على الملك ومدوا له يداً ، وخشى كرومويل أن يشتد ساعده من جديد ، فمضى على دأبه فى معاجلة الخصم بضربة تقصم ظهره : أسرع فأغرق ثورة ويلز فى الدم حتى ريع الويلزيون وسكنت ريحهم ، ثم أسرع إلى الإسكتلنديين الثائرين فأوقع بهم وقيعة نجلاء فى « برستون » لعلهم لاينسونها له أبداً ، إذ لم تقم لهم بعد ذلك قائمة . واستبان له آخر الأمر أن لاسلام للبلاد إلا إذا لقى الملك المشاغب جزاءه ، فقبض عليه وقدمه للمحاكمة ، وألفت محكمة نظرت فى أمره وقررت إعدامه ، ونفذ فيه الحكم ، ولازال إمضاء كرومويل باقياً فى ذيل وثيقة الحكم بإعدام شارل الأول إلى اليوم .

بهذا استقامت حكومة الشعب ولم يعد هناك ما يروع أمنها ، فبدأ كرومويل يرتب وينظم ويربى الشعب لهذا النظام الجديد الذى لم يعرفه الإنجليز ولا غيرهم منذ انقضت أيام الجمهورية الرومانية على يد أغسطس . وبينما كان آخذاً فى ذلك ترامت إلى سمعه أنباء ثورة شاملة فى إيرلندا ، والإيرلنديون كاثوليك متعصبون لا يقلون تشدداً فى مسائل عقيدتهم ولااستمساكاً بمذهبهم عن كرومويل ورجاله ، ، وقد كان حرياً به أن يدعهم وشأنهم ، لأنهم لم يهددوا إنجلترا ولم يروعوا لها سرباً ، ولكن القدر القاسى أراد لهم أن يكونوا جيران الإنجليز ، وقد شقوا بهذه الجيرة شقاء بالغاً يكاد يسود تاريخهم كله : يصر الإنجليز على احتلال بلادهم ويأبى الإيرلنديون إلا أن يكونوا أحراراً ، ويريد الإنجليز أن يتبعوهم فى مسائل العقيدة ويتركوا هذا الولاء للبابوية الذى يصيرون عليه ، والإيرلنديون لا يزدادون مع الأيام إلا استمساكاً بما لديهم ، وقد فطرهم الله على طبع عنيد لا تكاد قناتهم تلين ، ومن ثم اتصل الصراع بينهم وبين الإنجليز ، ولازال قائماً إلى يومنا هذا .

وقد كان حرياً بكرومويل أن يدعهم وشأنهم ، ولكن عصبيته لمذهبه وعصبيته لبلاده جرتاه إلى الخطأ وأوقعتاه فى شر ما كان أغناه عنه ، فقد قسا على الإيرلنديين وأنزل بهم مذابح مشينة فى دروغيدا ، ولم يبلغ بعد ذلك العناء منهم مبلغاً : لا هو غير عقيدتهم ولاهو أذل نفوسهم ، بل زادتهم الحرب إباء وعناداً ، ولو كانت عصبيته أخفَّ مما كانت لما شانت تاريخه مثل هذه السقطة . ولكنها آفة التعصب ، ما داخل نفساً إلا أضلها ونأى بها عن الحجى .

وقد كان كرومويل متعصباً متفانياً ، فدفعته العصبية إلى أمجاد وهبطت به فى سقطات ، ولم يغفر الإنجليز له ذلك أبداً ، وتأصل فى نفوسهم نفور منه وإنكار لأعماله ، جعل الكثيرين من مؤرخيهم يحملون عليه ويبغضون شخصه رغم ما أدى لبلاده من خدمات . فوصفه كلارندون مثلاً بقوله : « كان رجلاً شجاعاً شريراً ، حفلت نفسه بكل الشر الذى أعدت له نيران الجحيم » . وقال آخر : « لقد عاش منافقاً ومات خائناً » . بل ذهب نفور قومه من ذكره بعد مماته مبلغاً دفعهم إلى نبش قبره وإخراج جثته وتعليقها فى حبل مشنقة . وكتب جون إيفلين الفارس فى مذكراته بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٦٦١ يصف هذا المشهد البغيض : « فى ذلك اليوم ـ ويا لعظمة أحكام الله التى لا تكاد تُفلت شيئاً ! ـ استُخرجت

حطام رؤساء الثائريـن كرومويل وبرادشو (القاضى الـذى حكم على الملك بالإعدام) وأيرتـون (صهر كرومويل) وجُرت من مراقدها الفاخرة فى وستمنستر بين الملوك إلى تيبورن حيث علقت فى المشانق من التاسعة صباحاً إلى السادسة مساءً ، ثم ألقيت بعد ذلك فى حفرة عميقة تحت هذه الآلات المشينة (المشانق) ، وقد شهد هذا المشهد آلاف ممن رأوا هؤلاء الثلاثة من قبل فى أيام عزهم وكبريائهم..» .

ولو كان كرومويل من رجال السياسة لالتمسنا له العذر فى ركوب هذا المركب الخشن ، لأن السياسة مركب وعر لا يزال راكبه يخلط خيراً بشر وعدلاً بظلم ، متعللاً بالنظر البعيد حيناً وبضرورات الحياة حيناً ؛ والسياسة لا تحرص على الأخلاق ولا يكاد صاحبها يحفل لحديث الأخلاقيين ، بل هو يسخر منهم ويزرى بآرائهم ، ويدفعه الحرص على نفسه أوحزبه إلى السخر من الأخلاق والأخلاقيين ، وربما وصفهم بالهوس والجرى وراء الأحلام ولكن العبرة فيما نحن بصدده أن يصدر هذا عن رجل هو فى الذروة من أنصار الأخلاق والأخلاقيين ، ولكنه التعصب ـ كما قلنا ـ يعمى قلب صاحبه ويضل نفسه فيقسو على خصومه ويقع فى شرٍ مما أراد أن ينأى بنفسه عنه ، ولله فى خلقه شؤون .

ولم تكد ريح الإيرلنديين تخمد حتى رفع الإسكتلنديون رأسهم . وكانوا هم شيعة الملك وأهله ، وكان نفورهم من كرومويل قد أعادهم إلى العطف على الملكية ، وزاد فى تغيير نفوسهم إعدام الملك وما ألقاه هذا الحادث الرهيب من الرعب فى النفوس . وكانت ثورتهم شديدةً تنذر بالخطر ، فتخوف الناس منها خوفاً بالغاً ورفض فيرفاكس القائد الأعلى لجيش البرلمانيين أن يتولى قيادة الجيش ، فلم يتردد كرومويل فى قبولها ، وسار إلى دُنْبار حيث قضى على الثائرين ومزق جمعهم تمزيقاً سنة ١٦٥١ على ما وصفنا . ولكنهم عادوا الهجوم كرة أخرى يقودهم شارل الثانى ابن الملك المقتول ، فخف إليهم كرومويل وأوقع بهم هزيمة قاصمة فى الثالث من سبتمبر سنة ١٦٥١ .

* * *

إلى هنا ينتهى مجد الرجل الحربى ، ويبدأ جهده ينصرف ناحية أخرى لها أهميتها . هدأ الحال وسكن الثائرون واطمأنت البلاد ، فإذا كل شىء قد خرب أو أشفى على الخراب

بسبب هذه الحروب الأهلية المتصلة التى دامت ما ينوف على الأعوام العشرة ، اضطربت خلالها كل مرافق البلاد وضاعت مصالح الناس ، وأحسَّ كروموبل فى نفسه أنه أبلغ رسالته وقام بالمهمة التى ألقاها الله على أكتافه .

ذهب الطاغية وأصحابه وصارت أمور الناس إليهم ، فشعر أن واجبه الآن هو أن يدع الأمر للنواب يتصرفون فى مصالح البلاد كما يريدون . واعتكف زمناً قصيراً عن الحياة العامة ليصلى إلى الله طالباً الغفران من آثامه كما كان يقول ؛ والواقع أنه كان يشعر شعوراً متصلاً بأنه مخطىء ، شأنه فى ذلك شأن غيره من المسرفين فى الإيمان ، ولكنه رُوِّع إذ وجد أن هؤلاء النواب الخياليين يتطرفون ويسترسلون فى مناقشات ومناورات تدفعهم إليها عواطف شخصية لا تمت إلى الصالح العام بسبب ، حتى كادوا يوردون البلاد موارد الهلكة ، وهى بعدُ فى أشد الحاجة إلى الدعة والسلام ، ووجدهم يندفعون فى هذا الخطل حتى ليجرُّون البلاد إلى هاوية الخراب .

ولم يزالوا فى ذلك حتى دفعوا بالبلاد إلى حرب مع هولندا انتهت بهزيمة مشينة ، ولم يصرفهم ذلك عن المناقشات وإنفاق الوقت فى المساجلات فى ساحات البرلمان ، لاتكاد همتهم تنهض بهم إلى إبرام أمر فيه خير ، وبصر كروموبل فإذا بالفوضى تنذر بالدخول ، وإذا النواب أعجز عن أن يردوها إلى نصابها ، ولم يزدهم الخطأ إلا غلواً فى الضلال ، حتى ذهب الغرور ببعضهم أن اقترح وضع نظام جديد يهيىء لهم من السلطان فوق ما كان بين أيديهم ، وكاد يعفيهم من كل رقابة .

وكان كروموبل يتأمل الحالة بعين المشفق ، فلما بلغ به الإشفاق مداه نادى فئة من فرسانه وخفَّ بهم إلى البرلمان فاقتحم الباب على النواب وطردهم ، وأغلق البرلمان فى ٢٠ أبريل سنة ١٦٥٣ ، ثم عقد بعد ذلك مجلساً من ضباطه وأنشأ هيئة حاكمة للبلاد على رأسها كروموبل ولُقِّب « حامى الدولة » لإنجلترا وإسكتلندا وأيرلندا ، ومنحت الهيئة الجديدة سلطة مطلقة ، وتركت لكروموبل الخيار فى دعوة البرلمان أو عدم دعوته .

بهذا حدث ما كان كروموبل يخشاه . انتهت الأمور إلى يديه على رغمه ، وأصبح حاكماً بأمره فى البلاد يقضى بقضائه فيها كما يريد . وكان الرجل يكره الاستبداد بالأمر والانفراد

به من دون الناس ولو كان هو المستبد ، ويخشى الانفراد بالأمر ولو كان هو المنفرد به ، فثقل ذلك على نفسه وأصبح يشعر أنه طاغية لا يلبث أن يحل به العذاب جزاء على الطغيان . وساد نفسه فى هذه الفترة حزن عميق ، وأخذت هواجسه النفسية تعذبه حتى لقد أفرط فى الصلاة وزاد انصرافه لأمور العبادة التى كانت نفسه متعلقة بها ، وجعل يشتكى من أثقال الحكم وأوزاره ، ويؤكد للناس أنه اضطر إلى حمل ما حمل من أموره اضطراراً ، فقد كانت البلاد فى حاجة إلى من يحكمها وأعوزتها اليد السائسة التى تدير الأمور .

وكان يشعر أن نظامه غير طبيعى لأن النفس الإنجليزية لا تعرفه ، فقد اعتاد الإنجليز الحكم النيابى واحتفظوا بأصوله من أيام بداوتهم الأولى ، أيام كان الأحرار من كل قبيلة يجتمعون فى ضوء القمر ليقرروا مصائر قبيلتهم ومهام أمورها . حافظ النورماند على هذا التقليد بعد فتحهم إنجلترا بقيادة وليم ، فكانوا يحرصون على أن يدعو الملك كبارهم إلى مجلس عام ، ومضوا على ذلك ، ودرب عليه الملوك والأشراف حتى أصبح أسلوب الحكم الوحيد الذى يستريحون إليه . وقد عبث ملوك التيودور وستيوارت بالبرلمان ، ولكنه ظل قائماً يلقى فى روع الناس أن الأمر أمرهم ما يزال .

فلما أقبل كروموِيل وفض البرلمان بدا الأمر للناس غير طبيعى ، وشعر هو بذلك وخشى كراهية الناس له ورميهم إياه بالاستبداد ، وكان هو نفسه لا يكاد يفهم كيف تسير الأمور من غير برلمان ، ولو قد وجد برلماناً صالحاً لألقى إليه الأمر ومضى إلى عزلته ، بل كان يشعر أن الأمر لا يطمئن ببرلمان دون ملك ، ولكن ما ذنبه وقد استرسل الملك مع العبث استرسالاً جعل حريات الناس وكرامتهم فى خطر ؟ .

وما ذنبه كذلك وقد أساء البرلمان التصرف وكاد يودى بالبلاد إلى الهاوية ؟ .

وما ذنبه إذا صار إليه الأمر كله وهو كاره لا يكاد يبقيه فى مكانه إلا شعور خفى بقوة الواجب ؟ .

كان يشعر شعوراً متصلاً بأنه يؤذى روحه بحمل أعباء الحكم ، ولكن ما العمل وقد أراد الله له ذلك ، ولا حيلة للمرء فيما أراده الله له وإن كان شراً خالصاً ؟ .

تلك كانت عقيدة الرجل ، وهكذا كان شعوره خلال الفترة التى أقام فيها حامياً للدولة الإنجليزية .

وانقضت خمس سنوات وهو على هذه الحال من القلق وعدم الاستقرار النفسى ، وجعل يترقب الفرصة لإحداث التغيير المطلوب ، وزاده ترقباً له ما أحس من كراهية بعض الناس له وانتقادهم أعماله ورميه بالغصب والطغيان . وقد سنحت الفرصة فى أغسطس سنة ١٦٥٦ فطلب إلى زملائه فى مجلس الحكم عقدَ البرلمان فعُقد ، وصرف زملاءه الضباط الذين كانوا يتولون الأمور معه ، وطلب إلى البرلمان أن يعيد النظر فى الدستور ويعدله على نحو يحول دون عودة مساوىء الماضى وتجاربه القاسية ، فأعاد البرلمان النظر وانتهى أعضاؤه من الدراسة وقرروا أن يرفعوا كروموبل إلى العرش ويعرضوا عليه التاج ! .

فكان قرارهم هذا أغرب ما كان يتوقع ، وعجب كيف يشكو إليهم أثقال الحكم ويطلب إليهم تخفيفها عنه فيأبون إلا أن يكبلوه فى قيده إلى آخر حياته ! ورفض التاج فى غير تردد ، كأنما استكثر على جهاده أن يؤدى إلى عَرَض من أعراض الدنيا ، ولو كان هذا العَرَض هو العرش بجلاله وبهائه ! ولقد زعم خصومه أنه رفض التاج سياسة وكياسة ، وأنه عَرَف أنه لو قبله لثار الشعب فى وجهه .

وليس لدينا دليل واحد يؤيد هذا الرأى ، بل كان أبعد ما يكون عن الطمع فى الجاه والسلطان الذى يدفع الناس إلى طلب العرش . لقد رفض العرش لأنه كان فى نفسه رجلاً صوفياً ينفر بطبعه من الأبهة والسلطان . وقد فعل ما فعل وبلغ ما بلغ يدفعه شعور داخلى بأنه يؤدى واجباً إلهياً نحو العقيدة والناس ، وليس إلى الشك فى إيمانه هذا من سبيل . بل هو فى الواقع لُباب شخصيته وموضع الجمال فيها .

لم يعجبه من البرلمان هذا الرأى ففضه وصرفَ نوابه وجمع برلماناً آخر ، فلم يكد أعضاؤه يجتمعون حتى انصرفوا إلى المناقشة فى تفاصيل وأمور لا طائل وراءها ولا تكاد تنفع فى شىء وكان الرجل كما قلنا عملياً لا يطيق الجدل فى غير طائل ، ولا صبر له على جدل البرلمانيين ، ورأى أن لا فائدة ترجى من هذه البرلمانات ، وأحس خيبة الرجاء حينما وجد

الشعب يتوجه إليه مسلماً إياه أزمة الأمور ، فاضطر إلى البقاء حيث هو جامعاً لأزمة الأمور كلها فى يده .

* * *

فى هذه الفترة الأخيرة من جهده المتصل فى هذه الدنيا يبدو كروموبل رجلاً جديداً منظماً مدبراً محنكاً ، كأنما فهم آخر الأمر أن لا مناص له من موالاة الأمور والصبر عليها حرصاً على صالح الناس ، ووقع فى نفسه أن ذلك كله بقضاء الله ، وأن الله يريده لكى يصلح شئون قومه وقد تلفت أو كادت .

كانت الحرب قد أكلت الناس وخربت البلاد والمزارع ، وخلفت نفوس الناس بلاقع من الخير هى أشد جدباً من جدب المزارع والبلاد ، وكان السياسيون الذين تعاقبوا على قيادة الأمور خلال الفترة الأخيرة من عهد الملكة قد قارفوا من الأخطاء ما كاد يقضى على سمعة البلاد بين الأمم ، فنهض كروموبل لذلك كله ، وتلافى أضراره . ولم يكن رجل سياسة ، وإنما كان رجل جد واستقامة . وقد كان يحل المسائل بالنظر السليم والنية الصادقة وحدهما ، وقد وفق بهذا إلى أكثر مما وفق إليه ثعالب السياسة والإدارة ..

اتجه فى سياسته الخارجية وجهة أخرى ، فترك عداء هولندا وتودد إليها حتى كسب ودها وأمن على الشواطىء والتجارة الإنجليزية من ناحيتها ، وكانت للرجل عناية ظاهرة بالأسطول ورجال البحرية وأهل المدن المشتغلين بالتصدير ، وكان حالهم قد تحسن بعد أن ألغيت ضريبة السفن البغيضة ، فتنفس الناس الصعداء . وحالف «مزران» وشد أزره فى غزو إسبانيا . وكانت فرقه الحربية الجديدة محل إعجاب أوروبا كلها ورمز النصر فى كل ميدان . فلم يمض زمان حتى كانت الجيوش الإنجليزية منصورة موفقة فى كل الميادين ، وعاد للإنجليز مكانهم بين الشعوب ، وكانت بحريته العظيمة تحت قيادة « بنيك » تمهد البحار لسلطان إنجلترا ، حتى أصبحت البلاد فى عهده رمزاً لكل رفعة وعنواناً لكل فخار .

أما فى الداخل فكانت خطته التشدد فى إصلاح مفاسد الماضى ، أو ما بدا له أنه من مفاسد الماضى . وقد بالغ فى التشدد مبالغة نعرفها فى عامة المتشددين الدينيين ، ولقد شل

الفكر وآذى الفن بتشدده وتعصب أنصاره حتى كادت ريح الفن الإنجليزى البديع أن تسكن . ولم تعد الأيدى تتناول إلا الكتب الدينية الأخلاقية أو ما يجرى مجراها ، وقد كان لهذا التقييد لحرية الفكر أثره السيىء ، ولكنه على كل حال لم يدم ، لأن الفترة الكرومويلية لم تدم طويلا ، ولم يلبث الفكر الإنجليزى أن استعاد حريته بعد أيام كرومويل ، وبعد أن عادت أيام الملكية وأطلقت الحريات فى مداها القديم ، بل إلى أبعد من مداها من جديد .

ولم يكن هذا التشدد شراً كله ؛ بل أثرت عنه حسنات ، كالقضاء على المبارزة ، وكانت شراً بالغاً ، لا يكاد يختصم رجلان فى أمر هو من توافه الأمور حتى يحتكما إلى السيف ويفقد أحدهما حياته . وحرم كرومويل ألواناً من الرياضة الوحشية التى يتسلى الإنسان فيها بإطلاق حيوان على حيوان أو ديك على ديك ، وليس هناك آلم للنفس من رؤية هذه الديكة تصطرع وتتناشب بأظافر تثبتت فيها مخالب من الحديد ، فتسيل دماؤها ولا تزال تتخامش على هذا النحو الوحشى حتى تخمد أنفاس واحد منها ويرتمى على الأرض تشخب جروحه دماً حتى يموت .

وجه كرومويل البلاد كلها وجهة تطهيرية صالحة ، فلم تكد تمضى سنوات حتى عادت للبلاد الرفاهية ورفرفت عليها ألوية السلام . وتمتعت فى ظله وحمايته بعصر زاهر سعيد ، حتى حان حينه ومضى إلى حيث يمضى كل الأحياء وهو فى أوج عظمته فى سبتمبر سنة ١٦٥٨ فى « دنبارا » .

* * *

أجمل المؤرخ ف . هـ هيوارد خصال كرومويل وأسرار قوته فقال : « كان كرومويل يقرر أن الإنسانية تقودها ثلاث قوى : كان يعتقد أن الإنسان يستطيع أن يتعلم كثيراً من الكتابات المقدسة وما كتب فى شرحها والتعليق عليها إذا قرأها وحده وحاول فهمها حراً . ويستطيع أن يتعلم من قراءة التاريخ الذى يزيده لأحوال البشر فهما . ويستطيع أن يتعلم من تأمل الحوادث الجارية ، وهى التاريخ الذى يتكون . ويستطيع أن يتعلم كثيراً أيضاً إذا عنى بأن يصغى إلى صوت ضميره الداخلى الذى طالما أهمله . وإن اعتقاد كرومويل فى هذا

الثالوث من القوى ليدل دلالة أكيدة على أنه كان واحداً من كبار أهل الفكر ، وأنه لم يكن مجرد رجل تنفيذ عنيف » .

وهذه مقالة مجملة ، ولكنها تجمع خصال الرجل وتفصلها على نحو يكاد يغنى عن كل بيان . فلم يكن كروميل رجل علم بعيد المدى ، أو سياسة معقدة الألفاف أو دراسة واسعة المجال ، وإنما كان ذا إيمان عميق فى قوة الخير وذا بصر فى صحائف التاريخ وأحوال الناس ، وعلى هدى هذا الإيمان وهذا البصر سار فى حياته موفقاً .

وقد كرهه الناس كما قلنا لتشدده ولما بَدَر منه من القسوة والعنف فى أعماله ، فإن أحداً من مؤرخى الإنجليز لا ينكر مدى الخدمة التى قدمها هذا الرجل لبلاده ببساطته وشجاعته، فقد قضى على الإقطاع ورجاله وأقام الدولة الإنجليزية الحديثة الموحدة على أسس ثابتة ، وبدأ لها عصراً جديداً من الحرية والتقدم والقوة ، وخرج بها عن التسكع فى مهب الريح فى ظل ملكية مترفة عابثة إلى السير الحثيث الواعى إلى الأمام .

لقد أيقظ الإنجليز من خمولهم الذى كانوا قد استراحوا إليه ، ونبههم إلى ملكاتهم الكامنة ، وحفزهم بجده وصرامته إلى العمل الجاد الصارم .

فلما عادت الملكية بعد وفاته بثلاثين سنة ، عادت رشيدة حريصة على السير بالبلاد إلى الأمام . وتعلم الشعب الإنجليزى على يديه درساً لم ينسه إلى يومنا هذا : أن الحياة ليست عبثاً ولا متاعاً خالصاً ، وإنما هى عمل وجهد وتضحية ، وإذا طلب الإنسان أمراً لم يدركه إلا إذا هانت نفسه عليه فى سبيله . أما الاستنامة إلى أن الحق يحمى نفسه ، وأن الحياة تجرى من تلقاء نفسها على أعنتها ، فهى باب من أبواب الركود والتقهقر والزوال .

وعرف الإنجليز بفضله قوة الحق وتعلموا احترامه ، وأن الحقوق لا تكون حقوقاً حتى تحترم وترعى ، فلو عدا الملك على حق الرعية ضاعت حقوقه هو وانقلب الأمر عليه وفقد عرشه ، ولو عدت الرعية على الملك لانقلب وبالاً عليها ووقعت فى فوضى لا يؤمن شرها؛ ولهذا رفض التاج لأنه ليس من حقه وإنما كان من حقه أن يصلح المعوج وأن يقَوّم الملكية ويضمن لمواطنيه ظروفاً كريمة من العيش .

عند هذا الحد وقف وملك زمام نفسه ، وليس بين رجال التاريخ إلا قليلون جداً استطاعوا أن يملكوا زمام أنفسهم حينما امتدت إليهم الأيدى بالتاج والصولجان ..

قصة وزير

هينريخ فردريك كارل شتاين

لم يكن الرجل وزيرًا على مثال ما تواضع عليه الناس من ألوان الوزراء ، لم تكن له دار ولا قصر ولا خدم ولا حشم ، بل كان طريدًا ! وظل أكثر أيامه مشرداً تستقبله لعنات الأباطرة ويطلبه الشرط حيثما كان ، وما ظنك برجل كان عدواً لنابليون فى مساء « ينا » ؟ وما قولك فيمن سخر من هذا الطاغوت فى صبيحة « أورَشْتات » ؟ وما عساك قائلا فى رجل لم يدخل المدرسة قط ، ولم يتعلم فى صباه شيئاً يسلكه مع المفاخرين بالعلم المتكسبين من خيراته المباهين بدرجاته وشاراته ؟ .

ومع هذا فقد سما بشخصه ، ورجاحة قلبه ، وفضل إخلاصه ، واتصال جهده ، إلى مرتبة يطلب إليه الملك فيها أن يصبح فى عداد الوزراء ؛ وكان الملك يحسب أن هذا العرض مِنَّة كبرى يقابلها هذا الرجل بالشكر وتقبيل اليد ، فما راعه إلا وهذا الرجل يطلب أن تغير الوزارة كلها شرطا لدخوله فيها ، فإذا رفض الملك رفض الرجل ! .

كان هَينْريخ فردريك كارل شْتاينْ فى هذه السن التى ينصرف فيها الشباب إلى أمور القلب ونزوات البدن ، كان فى سن العشرين التى تزدحم فيه نزعات الهوى وزفرات الحب على قلوب الفتيان ، ولكنه كان بعيداً جداً عن ذلك كله . كان شابا مكتمل الفتوة ظاهر الجمال ، وكانت ألمانيا تفيض إذ ذاك بالعشاق الذين أنصفهم « جيته » وخلد ضعفهم وعطَّف الناس عليهم فى حديثه عن « فرتر » ولكن شتاين كان فى شغل عن آلام الهوى ومصارع العشاق ..

كان شديد الضيق بالإمبراطورية الرومانية المقدسة التى وصفها فولتير بقوله : « إنها لم تكن إمبراطورية ، ولا رومانية ، ولا مقدسة ! » ، وكان شديد الإعجاب ببروسيا وعاهلها

العظيم فردريك الأكبر ، وكانت عائلته تدين بالطاعة للإمبراطور الرومانى المقدس ، ولكن نفسه كانت تتسامى به عن طاعة يبذلها لرجل لا يستحقها ، فلم يكذب أن اتجه إلى بروسيا ليكون فى طاعة من يحب .

نزل برلين ، وأعلن الولاء للعرش البروسى ، ورحب به فردريك وليم ، وتقبل منه الولاء شاكرا ، ثم عهد إليه بالعمل فى مصلحة المناجم والصناعات التى يديرها هاينتس ، فلم يكد الفتى يتولى أعماله فيها حتى وجد فى رئيسه خير عوض عما خسره من إهمال الدرس والتحصيل فى صباه .

أقبل عليه هاينتس يعلمه الاقتصاد ، ويلقى إليه من القانون المدنى ما أثار نفس الفتى وأفاده أجلّ الفائدة ، حتى لم يكد يمضى زمان قصير حتى تسامع الإمبراطور بهذا الموظف الذى تهيأ له من العلم بسياسة الدولة وفنون الاقتصاد شىء كثير غريب فى بابه ، لأن الفتى اجتهد فى هذا المطلب وتفانى فيه تفانيه فى كل مطلب سيتصدى له فى حياته ، ولم يلبث أن أصبح عالما يتحدث الناس بعلمه ، فاستدعاه وعهد إليه بأن يفتيه فى موضوع « إقليم ماينتس » . ولم تكن نفس شتاين راضية عن الوضع الشاذ لهذا الإقليم ، وكان ضميره يأبى عليه السكوت على هذا الشقاء الذى كان يرزح الشعب الألمانى تحته ، كما يسكت غيره من السادة الذين لا يطلبون أمراً بعد رضى الرؤساء وأصحاب الأمر .

كان إقليم ماينتس ـ على الخصوص ـ نهباً مقسما بين بروسيا والنمسا وفرنسا : كانت الأولى تود لتغتاله بما لها من حق القوى على الضعيف ؛ وكانت الثانية تجره فى ذيلها ، لأنه كان معتبرًا جزءاً من الإمبراطورية المقدسة ؛ وكانت الثالثة تراه جزءاً لا ينفصل عن إقليم الرين الذى كانت تعتبره فرنسا حدها الطبيعى إذ ذاك . وكان شتاين يرى أن المعقول أن تترك ماينتس لنفسها ، وأن يقوم أدواقها بولايتها على الوجه الذى يرضاه أهلها ، ولكن حكام ماينتس لم يكونوا ليرضوا لأنفسهم هذه الكرامة ، وكانوا يوزعون طاعتهم بين الملك فى باريس والإمبراطور فى فينا والعاهل فى برلين ؛ أما الشعب الألمانى الذى يقيم فى هذه المنطقة ، أما الاصلاح ، فلم يكن يدخل لهم فى حساب . إزاء هذا كله أنفت نفس الرجل العمل ، فرفع يده ساخطاً واعتزل السياسة مغاضباً .

أطلق الرجل نفسه من إسار القيود ، وأخذ ينتقل من بلد إلى بلد . طاف بانجلترة بين

١٧٨٦ و ١٧٨٨ ، وكانت حكومة هذه الدولة حلم السياسيين فى ذلك الوقت . كانت حكومتها المثل الأعلى لمنتسكيو ، ومضرب المثل عند روسو ، والمثل القويم للحكومة الرشيدة عند الكثرة الغالبة من أهل السياسة فى ذلك الزمان ، فلا غرابة أن أعجب شتاين بحكومة إنجلترا إعجاباً زاده بغضا لحكومة ألمانيا ، وجعله يحلم ـ والحسرة تطغى على نفسه ـ فى إصلاح بلاده ، وإسعادها على النحو الذى تسعد به إنجلترا .

ثم هبت الثورة الفرنسية فأدرك الفتى من مطالعها دلائل الشر تبيت لوطنه ألمانيا . فسخط على الثورة وزعمائها ، وخشى أن تنتقل حُماها إلى بلاده التى لا تنقصها الحمى ؛ ولم يكذب ظنه ، فقد كان ما كان من هزيمة بروسيا أمام فرنسا ، واضطرارها إلى عقد الصلح المهين فى « بازل » ، ومن هزيمة النمسا وإذلالها فى كامبوفورميو ، فأسرع إلى بلاده على عجل إسراع جندى ناشت بلاده الأعداء ، فاستقبله الملك استقبال اللهيف ، وعهد إليه بوزارة التجارة فقبلها كارهاً ، لأنه كان يرى أن مناصب الحكومة ليست سبيلا معقولاً لخدمة الأوطان .

كان دائم النصح لملكه بألا يغامر بدولته فى موج الثورة الفرنسية الدافق ، كان يحذره من شر نابليون ، ولكن الملك لم يستمع له ، ومازال على رأيه فى ضرورة الاشتباك مع فرنسا حتى رأى مصرع بلاده فى « ينا » ، فتذكر نصيحة « شتاين » وأسرع إليه يستشيره وعرض عليه وزارة الخارجية ، فاشترط تغيير الوزارة كلها حتى يتمكن من العمل بعيداً عن الدس والرجعية ، فرفض الملك هذا وأصر عليه شتاين ، وبارح القصر مغضوباً عليه . ولم يدفعه هذا الغضب إلى السخط على صديقه « هاردنبرج » الذى حل محله فى وزارة الخارجية ، بل أقبل عليه ينصحه ويوجهه حتى ضج نابليون من تصرفات هاردنبرج وطلب إلى ملك بروسيا أن يطرده ، فإذا سأل الملك عن خليفة للمعزول ، فقد حسب نابليون أن « شتاين » المغضوب عليه قد يكون على أحر من الجمر للصعود إلى كرسى الوزارة ، وأنه يكون بهذا شاكراً لفرنسا وأنفع لها من هاردنبرج ، فأشار على فردريك وليم باستدعائه ، فاستدعاه الملك وعهد إليه بالوزارة .

أقبل الرجل ، وكانت « مِـمِل » أولى البلاد البروسية التى نزل بها ، فلم يكد يستقر به المقام فيها حتى أصدر قرارا أفزع نابليون وأثار أوربا كلها ، أصدر قراراً ألغى به رق الأرض

من بروسيا كلها ، وسوى بين عمايلق الجرمان والبروسيين الذين كانوا يتشبثون بحق السيادة على عمال الأرض وأرقائها ، ومحا هذه البقية البغيضة التى لازمت ألمانيا منذ القرون الوسطى، ثم سار حتى حط رحاله فى برلين ، وهناك أصدر منشورا آخر خيب فيه ظن نابليون ، أعلن حرية التجارة فى ألمانيا كلها . وكانت ألمانيا إذ ذاك فسيفساء مختلفة الألوان من الإمارات والممالك والدوقيات ، وبهذا خطا الخطوة الأولى نحو الوحدة الألمانية المنشودة وكان بهذا أول من مهد السبيل لبسمارك .

وكانت ألمانيا تعانى فى هذه الفترة محنة قاسية من عقابيل هزيمة « ينا » ، كان مجد فردريك الأكبر قد انهدم ولم تعد بروسيا سيدة أوربا ، بل أصبحت دولة من الدرجة الثانية يتصرف النسر الفرنسى فى أرضها تصرف المالك فيما ملكت يمينه : يجمع الولايات الألمانية على ظاهر ، ويفرقها فى باطن ، ويفوز منها فى كلا الحالين بأوفر نصيب ، وكان الجيش البروسى قد حُلَّ ، وأصبحت الحكومة البروسية خاضعة للإمبراطور فى فرساى ، يصرف أمورها كما يشاء .

وكان الشعب الألمانى كله قد أخذ ينهض نهضته العظيمة التى اقترنت بأسماء « شتاين» و « شاهرنهيرست » و « جلاوسوتز » والملكة الجليلة لويزا ، فانصرف « شتاين » انصرافا تاما إلى معاونة أنصاره : شجع شاهرنهيرست فى إصلاحه الحربى الذى مهد به الطريق إلى انتصارات ليبزج وميونيخ ووُترلو ، ونفخ من نشاطه فى مشروع جلاوسْوِتز الاجتماعى ، حتى بدأت الحياة تدب فى جسد المجتمع الألمانى الذى أنهكته الهزائم المتتالية . ثم عقد الخناصر مع الملكة المصلحة ، وبذل لها النصح خالصًا ، فما عتم نابليون حتى أحس بخطر هذا الرجل ، ورأى بعينيه أنه يوشك أن يقلب عليه الدنيا ..

وكان نابليون قد بدأ يحس اضطراب كرسى الإمبراطورية تحت قدميه ، كانت جيوشه قد بدأت تذوق الهزيمة للمرة الأولى فى وديان إسبانيا ، فهلل « شتاين » فرحا ، وبعث إلى صديق له بخطاب تمنى فيه لألمانيا نصراً على الفرنسيين يشبه نصر الإسبانيين . ويشاء الحظ العاثر أن يعثر جواسيس الإمبراطور على هذا الخطاب ، وأن يترامى نبؤه إلى الإمبراطور ،

وهو آنئذ بمدريد ، فأصدر قراراً صادر به أملاك شتاين فى وستفاليا ، وطلب إلى الملك عزله، فإذا عُزل فقد أعلن نابليون أن « شتاين » عدو لفرنسا والاتحاد الألمانى .

وهناك يتهدده الخطر من كل ناحية ، كان جواسيس فرنسا يتتبعونه من مكان إلى مكان، وكان رأسه طلبة يرتاح إليها نابليون ، فاختفى عن الناس وقد أصبح شريدًا لامال له ولا جاه ، طريداً لا يؤويه إنسان ، حتى وسعته رحمة الله فيسرت له مقاماً هادئاً فى كنف صديقه فون ريدن ، فظل مختبئاً عنده سنوات ثلاثاً .

* * *

وكان نابليون قد بدأ يلتفت إلى الروسيا : كان قيصرها يزعم لنفسه حق معارضة إله أوربا، وكان يجد نفسه فى حِل من أن يخضع تاجه لهذا الاستبداد الذى يفرضه نابليون على قارة بأسرها ؛ ولكنه كان يخشاه ، كان يخشى على دولته عاقبة هزيمة مثل أوسترلتز أو انكسار مثل مارنجو ، ومن ثم وقع فى حيرة مقلقة ، حتى هداه الله إلى شتاين ، فبعث إليه فى معتزله يستقدمه ويستنجد به .

أسرع شتاين إلى القيصر إسكندر الأول وأصبح مشيره وأمين سره ، فجعل هذا الوزير الجليل يبسط للملك سياسة أوربا ويشرح له مواطن الضعف من عاهل أوربا ، فتشجع القيصر وتقرب من بروسيا ، وعقد الحليفان صلحًا فى « كاليش » قررا فيه محاربة نابليون حتى النفس الأخير .

هنالك بلغ الغضب من نابليون كل مبلغ ، وصمم على سحق « شتاين » وحاميه القيصر ، وساق على الروسيا فى خريف ١٨١٢ ذلك الجيش الهائل الذى انفرد فى التاريخ بلقب « الجيش العظيم » . وكان جيشاً قميناً بأن يمحو القيصر ورجاله وبلاده لولا شتاين، لولا نصح الوزير الجليل الذى جعل جنود الروس يتقهقرون هذا التقهقر التاريخى المجيد ، حتى إذا أدرك نابليون موسكو ودخلها وجد أن قواه قد تفرقت بدداً ، وهناك عرف النسر ، على أضواء نيران موسكو وهى تحترق ، أى رجل هو شتاين ! .

انقلب نابليون راجعاً يجرر أذيال الهزيمة الماحقة ، ومن خلفه شتاين كأنه يسوقه بعصاه،حتى إذا بارح نابليون حدود روسيا ، أسرع شتاين إلى ليبزج ، وهناك جعل يعد

العدة ليستقبل نابليون بهذه الجيوش التى دبرها وساقها عليه من أركان أوربا حتى سميت حربها « حرب الأمم » ، فإذا تمت هزيمة نابليون فى ليبزج ، وانحدر الحلفاء خلف نابليون إلى فرنسا ، فقد بقى شتاين فى ليبزج ليمهد للحلم الذى كان يخامره طيلة أيام حياته ، وحدة ألمانيا ! .

وهنا وقف فى وجهه حائل لم يكن يتوقعه ، حائل لا يقل عن نابليون خطورة ولا قوة ، هو مترنيخ ! ذلك المستبد الذى كان لا يفزعه شىء مثل وحدة ألمانيا ونهضات الشعوب ، ولم يكن فى استطاعة شتاين أن يهاجم مترنيخ ، إذ كان حبيباً إلى نفس الإسكندر ثقيل اليد على العرش البروسى ، فوقف شتاين أمامه مكتوف اليد حائراً لا يدرى ما يفعل : أيهاجم ملك بروسيا وهو وليه الأول ومعينه على إتمام الخطوات الأولى فى إصلاح ألمانيا ؟ أم يطيع الإسكندر وهو صاحبه وناصره ؟ أى الأمرين أهون ؟ وأيهما أرضَى للضمير الحر الكريم ؟ .

ولكن الحيرة لم تطل ، وقد كان شتاين من أولئك الذين يرون أن قتل النفس أهون على الضمير من هذه الخيانة ، والاعتزال خير من حرب حامية يعلنها على ضميره وماضيه ، وليس هو بالذى يعض اليد التى تطعمه ، فلا معنى لإعلان الحرب على الملك أو القيصر ، وإنما الخير هو أن يمضى فى كفاح مترنيخ منفرداً ، وقد استطاع أن يهدم طاغية ، فليهدم خليفته الطاغية الآخر ! .

اجتمعت الدول فى فينا ، وجلس المنتصرون يقتسمون الغنيمة الطيبة ، وأخذ القيصر مجلسه فى المؤتمر ، وأراد أن يتحدث وأن يبدى آراءه بالبلاغة والجمال الجديرين بمركز القيصر العظيم فأعوزه الكلام ، وشعر أنه بحاجة إلى الرجل الذى كان يعينه بقلبه ولسانه ورأيه كلما طلب الحديث . وتلفت ملك بروسيا يلتمس نصيحة ذلك الذى مهد له طريق هذا النصر ، فلم يجده إلى يمينه . وكانا فى حيرتهما هذه يحاول كل منهما أن يفوز بشتاين إلى جانبه ، ويود لو يستأذن فى ذلك صاحبه ! .

ولم يطل صبر القيصر فقد كتب يستقدم الرجل على عجل . فإذا كان القيصر فى كرسيه العظيم فى المؤتمر ينتظر قدوم شتاين بين آونة وأخرى ، إذا برأس تنحنى عن يساره ، فالتفت فإذا رسوله يناوله خطابا . وقرأ القيصر الخطاب ، واختلط فى سمعه صوت مترنيخ يدوى فى

قاعة المؤتمر ، وأنبن نابليون فى إلبا بكلام شتاين فى خطابه : إن الرجل ليعتزل العمل ، إنه ليترك الطاغية الجديد يعمل ما يشاء ، فهو لا يستطيع شيئاً حياله ، لأنه لا يريد أن يعاديه وهو صديق القيصر والملك ، وإنه ليرجو أن يقضى بقية أيامه فى دراسة التاريخ ! فربما كانت دراسة التاريخ أخف من بناء التاريخ ! .

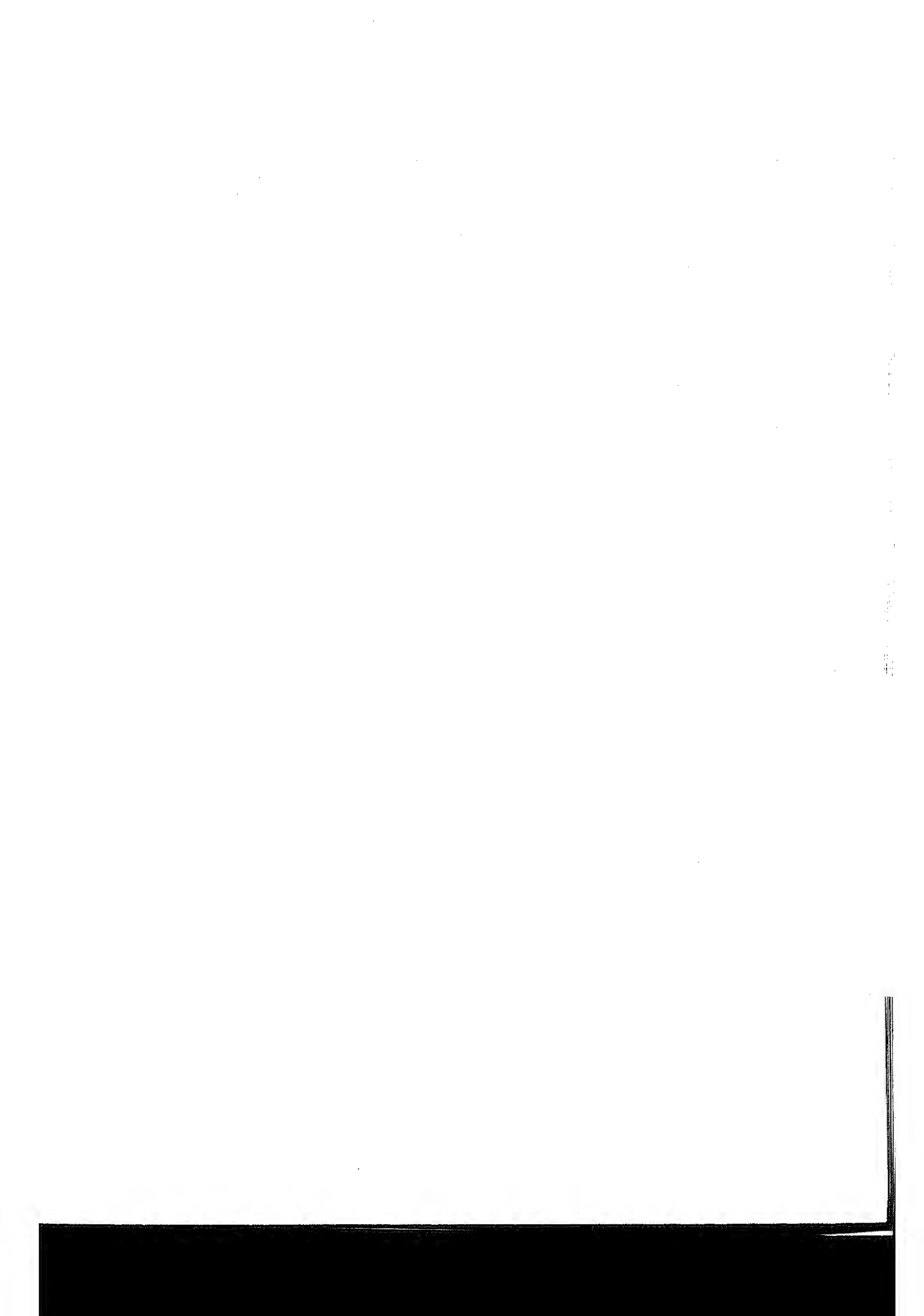
استطاع القيصر أن يُخفى حيرته واضطرابه عن كل الجالسين ، واستطاع أن يلقى بعض الأحاديث خلص بها من حرج الجلوس فى المؤتمر ، ولكن إنساناً واحداً فهم حيرته وعرف سرها وأدرك كسبه منها ، فابتسم ! والتقى وجهان : وجه ملك بروسيا الباسم ووجه القيصر المحزون ، وكان ينبغى أن يتحدثا وأن يتبادلا التحية ، لأنهما حليفان ألقت الدنيا مصايرها إليهما ، وكان عليهما أن يسيرا جنباً إلى جنب لكى يهيئا للدنيا سلاما جديداً ، ولكنهما كانا يشعران أن أيديهما مغلولة لا تستطيع من الأمر شيئاً ، لأن مترنيخ يسيطر على الأمر كله ويأبى عليهما مجرد الرأى ! .

ولم يكن لهما من رجاء إلا شتاين ! فهو الوحيد فى هذه القارة العظيمة الذى يستطيع أن يقف أمام طاغية فينا ، ويهيىء لهما شيئاً من الحرية ! ولكن كيف ؟ .

إن الرجل ليعلن فى صراحة أن العمل فى ظلال مترنيخ مستحيل عليه ، وأن أول ما يراه هو معاداة هذا الرجل وإقصاؤه ، لأنه عدو الحريات وعدو الشعوب ، وشتاين لا يعمل إلا مع أنصار الحرية وخُدَّام الشعوب . وهو يعلن كذلك أنه لن يستطيع معاداة مترنيخ ، لأنه يرى فى ذلك عقوقا لحقوق القيصر وإنكارا لأفضال ملك بروسيا ، فليس هناك من مخرج والحالة هذه إلا أن يعتزل العمل جملة ، وأن يمضى إلى معتزل هادىء ينفق فيه بقية أيامه فى قراءة صحائف الماضين .

وفهم العاهلان ألا سبيل لرد شتاين عما رأى ، فهو رجل صلب لا يحيد عما يراه حقا ! وكان قلبا الملكين يخفقان على دقات قلب الوزير المسكين ، فلم يجدا بُدًّا من تركه يتسلى مع أخبار الخالين ، فلعل الفرصة أن تبدو مرة أخرى فيعود الرجل من جديد .

ولم تسنح الفرصة بعد ذلك أبدا ، لأن الأجل المحتوم وافاه ، ومضى مع الخالدين وهو يدرس أخبار الغابرين ! .



على تلال فالمى

تلك أوطان بارك الله لها فى أهلها ، تلك أوطان أعزها الله بمن يعيشون فى أعطافها ، أكرموها وخرجوا لها عن نفوسهم فأعزها الله وأصبحت بين غيرها من الأوطان كالتبر بين التراب . وفى الأوطان الغالى وفيها الرخيص ، فيها الغالى الذى يقوم على الأعناق ، وفيها الرخيص الذى يستكثر أهله السير فى سبيله ! فيها ما يحطه أهله فى الرغام ، وفيها ما يرفعه أهله فوق السماك . والأوطان بضعٌ من أرض الله الواسعة ، لا تمتاز بضعة منها على بضعة أخرى إلا بمن يعيش فوقها من الناس ، فإن كان الناس أعزةً عزت الأرضون بهم وارتفع مقامها ، وإن كانوا أذلة هانت على الناس وداسوها بالأقدام ونشروا فى ربوعها الذل ، ورفرف على آطامها الفقر ونعق على خرائبها البوم .

وفى بنى الأوطان من يرون حب الأوطان فرضاً واجبا ، وفيهم من يراه هَمًّا ناصبا . فيهم من يبذل النفس للوطن ، وفيهم من يبذل الوطن لقاء مال ؛ وكيف لا يكون الفرنسيون أعزاء بالوطن الفرنسى ؟ وكيف لا يكون الوطن الفرنسى عزيزاً بالفرنسيين ، إذا كانوا لايعرفون فرقاً بين تراب الوطن وحبات العيون ؟ وإذا كانت أرض بلادهم قد رَوِيت من دمائهم أكثر مما رويت من ماء المزن والأنهار ؟ إنما الوطن وحى أفكارهم ومدار أحلامهم وملتقى آمالهم .. وما الموت ؟ وما الحياة ؟ .. وماذا يساوى كل ما فى الأرض من طارف وتليد إذا لم يرتفع علم الوطن عزيزاً ، وإذا لم يرتفع به أهله فيخفق فوق الرؤوس ويطمئن فى حبات القلوب ؟ .

ووطننا نحن قد شراه أجدادنا بدمائهم ، وما من بقعة منه إلا شُرِيت ببضعة من قلب أو جارحة من بدن . ودونك تاريخ بلادك فاقرأ حيثما شئت وكيف شئت ، فأنت واجدهم آخذين بحجز الدهر أبداً ، يرميهم بالعدو بعد العدو ويرمونه بالجحفل بعد الجحفل ، ولو

أقمنا لكل شهيد نُصُبًا لما رأت عينك غير نُصُبٍ تغشى الأرض من قسما يو فى تخوم زنزبار إلى جبال طوروس فى آسيا الصغرى ، ومن حدود فارس إلى برقة من تخوم المغرب ! .

وكل الأعزاء من بنى الدنيا على هذا الغرار ، ليس فيهم إنجليزى أو أمريكى أو ألمانى أو هولندى إلا جادت نفسه بهذا الفداء راضية .

ولا يغرنك ما يتعاورهم من الهزائم بين الحين والحين ، فإنها مداعبات زمان يرفع حينا ويضع حينا ، والأعزاء من بنى الدنيا لا يزالون بين نصر وهزيمة ولكنهم لا يستكينون أبداً؛ إذا مال الزمان بهم يوماً علا بهم أياماً .

* * *

هذه ثلاث سنوات انقضت على الثورة الفرنسية ، هدم الثوار فيها كل ما خلفته قرون الاستبداد من الفوضى والانحلال هدما ، استفاقوا قبيل الثورة فإذا وطنهم العزيز أطلال أو يوشك أن يكون أطلالا ، وقد عبرت بهم حقب من الانحلال فسد فيها كل شيء : لم يعد الجيش للشجعان وإنما للصفوة المجتباة من أبناء السادة والنبلاء الذين يطلبون مناصب الجيش للزهو والزينة ، ولم تعد مناصب الدولة الكبرى للقادرين الأكفاء وإنما للمقربين وذوى الجاه ، يطلبون المناصب للمغانم والمكاسب وإذلال المساكين . ولم تعد رعاية الدين للورع المتدين بل للمحتال المغامر الذى يلتمس المال والمتاع عن طريق المسوح .

فى مثل هذه الظروف هبطت قيمة الإنسان إلى مستوى الجماد الذى لا يُحسب لإحساسه حساب ، وبَعُدت الشقة بين الترف المونَّق والمتاع الباذخ فى مغانى فرساى والبؤس الشامل فى حقول الفلاحين وفى أزقة باريس . وكلما زادت الشقة بعداً اشتد شوق الناس إلى الخلاص من هذا الحال السيىء ، وأخذ كتابهم ومفكروهم يكتبون فى الحرية والإخاء والمساواة ، وأقبل الناس يقرأون هذه الكتابات إقبال النهم الذى يلتمس المخرج من أى سبيل .

وآمن الناس بحقهم فى المساواة وفى العدل ، وجعلوا يترقبون الفرصة لتحقيق أحلامهم فيها ، وما إن تولى أمورهم لويس السادس عشر ولمسوا فيه الضعف والطيبة والحيرة والتردد

حتى ثاروا ثورتهم الكبرى فى يوليو سنة ١٧٨٩ ، ثاروا على الرق وعدم المساواة والظلم ، وثبتوا لحرب هذه الشرور ثباتا انتهى بهم إلى النصر وإلى القضاء على الاستبداد . ولم يكد يمضى زمان حتى أصبحوا طلقاء كالطير أحراراً كما ولدتهم أمهاتهم ، لم يحفلوا لشىء ولم يترددوا فى شىء ، وإنما قذفوا بالماضى جملة ، ووقفوا بأنفسهم يدبرون أمرهم وينظرون ويقيمون بناء وطنهم على أسس جديدة تؤمِّنهم من شرور الماضى ومساءاته .

أثبت الفرنسيون فى الواقع أنهم جديرون بالثورة التى أشعلوا نيرانها ، فقد عملوا فى جد وهمة يبعثان على الإعجاب فى تحقيق مثل عليا ظلت إلى الساعة أحلام فلاسفة ، وظهر فيهم عبقريون موهوبون فى كل ناحية من نواحى الحياة ، فلم يغادروا ناحية من نواحى العمل إلا أنشأوا فيها شيئاً جديداً . بيد أن الحماس مضى بهم حتى جاوز الحد المأمون ، فأسرفوا فى التغيير ولم يعد يعجبهم شىء ، وكلما بنوا اليوم نظاما أصبحوا من الغد فهدموه ، وانقضوا على أصحابه فى قسوة المتعصب المتحمس ، فتواترت عليهم الأنظمة وملأت قلوبهم الحزازات ، واضطرب بهم الأمر ورفرفت طلائع الخيبة على هذا الانقلاب الإنسانى العظيم .

هناك تحرك الطمع فى قلوب الذئاب الضارية ، تحرك الطمع فى قلوب البروسيين وهزهم الشوق إلى قطعة من أرض فرنسا ، واستفاقت الغريزة فى نفوس النمساويين ومالت بهم الرغبة إلى نصيب من الوطن الفرنسى المضطرب ، وحسبوا أنهم لن يجدوا من يردهم عن إدراك هذا المطلب ، فالثوار كانوا قد هدموا الحكومة هدما ، وألغوا الملكية إلغاء ، وشردوا الأشراف تشريدًا ، ووقفوا فى منتصف الطريق يديرون الأعين فى خوف ورهبة لا يكادون يعرفون لأنفسهم مصيراً .

واستبان هذا للفريقين الطامعين ، فعقدا الخناصر على إنقاذ مآربهما معًا ، واتفقا على أن يسيرا معاً لحرب هذا النظام الجديد والقضاء عليه ، وجمعا من أجنادهم نفراً عزيزاً ، وأعدا جيشاً قوياً ، وأعلنا فى غير خشية أنهما سيتدخلان فى شئون فرنسا ، وزعم قادة الجند أنهم إنما ينهضون لإغاثة الملكية الفرنسية التى أصابها من نزق الثائرين أذى شديد ، وما هى إلا شهور حتى كانت الجيوش النمساوية البروسية تخطو على أرض فرنسا على مهل يقودها

الشيخ العجوز برنسويك حتى أدركت فردان ، وأصبح الطريق إلى باريس هيناً يسيراً .

روع الفرنسيون لهذا وملكهم الخوف ، وبرز من صفوفهم شبح طاغية من أذكى وأقدر وأقسى ما نعرف من صنوف الطواغيت ، ذلك هو جورج جاك دانتون : رجل وهبه الله من القدرة على البت فى التنفيذ ما لم يهبه لغير القليلين من الناس ، جمع السلطان فى يده وأعلن فى البلاد حكومة الرعب ، وأظل فرنسا كلها بخياله الضخم ، وجمع الناس حوله ومضى بهم من مذبحة لمذبحة ، ومن مغامرة إلى مغامرة ، حتى استقام له جيش مضطرب مهلهل لم تسبق إلا للقليلين من أجناده تجربة فى الحرب والقتال ، وكان جرىء القلب ثابت النفس حسن الظن بنفسه شديد الإعجاب بما آتاه الله من بلاغة وجلد ، فجعل يؤكد لمن معه أنه لن يكتفى بسحق المهاجمين ، بل سيفتح بلجيكا ، وسيصل بقواته إلى شاطىء الرين ، وصدقه الناس بين ذاهل فى لجة الحماس وغارق فى غياهب الخوف ! .

وأعلن دانتون « أن الوطن فى خطر » وارتفعت الراية السوداء فى جو باريس ، فأثار خفقُها فى نفوس الناس هما لاعجا ، وأُعلن التجنيد الإجبارى فتهافت الناس تهافتاً ، إذ لم يطيقوا أن يروا الوطن فى خطر وهم سكون ، وأخذت فرق المتطوعين تترى لتنضم إلى جيش المركيز مارى جوزيف دِلافاييت الصغير الذى كان يسير قدما ليلقى برنسويك المحنك وجيشه العظيم .

وأصيبت البلاد جميعها بالحمى ، وتجسم الخطر الخارجى أمام الناس ، ولم يكن لهم عهد بإدارة الحكومات ولا بقيادة الجنود ، فاشتد الضيق بهم وشملهم الخوف ، وتوالى الوزراء على وزارة الحربية ، فلم يوفق منهم أحد إلى حل المشاكل وتسكين الخواطر : تعاقب عليها ناربُون ودى جراف وسِرفَان وديموريبه ولادْجَار ودابِنكور فى ستة أشهر ! وكانت البلاد على شفا الإفلاس : لا نعال ولا ملابس للجند ولا سلاح للحرب ، وإنما شعب هائج مضطرب يرى العدو مقبلا من الخارج ويتخيل شبحه فى الداخل ، فيزداد حاله سوءاً ، وتنتابه حالات من الرعب والعصبية لا يجد مخرجا منها غير الانقضاض على من تحوم حوله شبهة الخيانة وإسلامه للجلاد فى غير رحمة ، حتى سيطر على الناس الرعب وفقدوا شعور الأمن وارتدوا إلى حالة من الهمجية لم تعرفها الإنسانية فى أحلك أيامها .

وبسط زعماء اليعاقبة يدهم على كل أحد وفى كل شىء ، وجعلوا كلما تقدم العدو شبرًا زجوا فى السجون بضعة آلاف ممن يشتبهون فى وطنيتهم وفى ممالأتهم للملكية أو للعدو المهاجم ، حتى غصت السجون بمن تكدس فيها ، وحتى كلت شفرات المقاصل من كثرة ما قطعت من الرقاب ، والشبان والشيوخ المتحمسون فيما بين ذلك يتطوعون فى الجيش بالآلاف ، ودانتون يحشدهم حشداً ، ولافاييت يتلقاهم لا يكاد ما لديه من الملابس والمؤن يساعفه على قبولهم ، حتى أصبحت باريس وغيرها من مدائن فرنسا معسكرات .

ولو قد وقف الإنسان فى أى طريق من طرق فرنسا فى تلك الأيام ، لرأى سيول الرجال يسيرون خلف العلم المثلث الألوان يقصدون باريس وليون وريمس وغيرها من مراكز التطوع ينشدون المارسيلييز ، وتكاد نفوسهم تنفذ من إهابها من فرط التوفز والحماسة . واستمر الحال على ذلك حتى أقبل أغسطس سنة ١٧٩٢ ، واشتد الحال سوءًا ، وخاف الملك على نفسه فاستسلم للجمعية العمومية ، ونهب الناس التويلر . ونظر لافاييت فى الأمر فلم يحتمل أن يرى هوان الملك ـ وهو الملكى الأمين ـ فترك قيادة الجيش وعبر الحدود وأسلم نفسه للأعداء ، وأصاب الناس من ذلك هول لا يوصف ، وسارت جموعهم فى شوارع باريس تهتف بسقوط لافاييت وتفتك بكل من حامت حوله الظنون .

ترى ماذا يفعل الفرنسيون وقد حُرموا حتى من القائد المحنك ؟ ترى ما عساهم صانعين إزاء هذا العدو الذى يطرق الأبواب ؟ هنالك نهض دانتون نهضته التى لن ينساها له التاريخ ، وأهاب بالفرنسيين أن يثقوا فى ديمورييه ، فأسلمت القيادة إليه وعادت إليه ثقة الناس ، وانهالت سيول المتطوعين حتى عجزت الحكومة عن أن تدبر لهم ما يلزمهم للميدان ، وأسرع ديمورييه إلى الشمال ليلقى الغدو بمن معه من شراذم المتطوعين والحرس الوطنى واثقاً مطمئناً .

كان البروسيون قد اتخذوا الخط الواصل بين مِتْز ودَنْكِرك قاعدة لدفاعهم ، وتقدمت فرق منهم فى الوطن الفرنسى حتى قاربت باريس وتحصنت بتلال قريبة من المدينة الخالدة، وتريث برنسويك فترة عسى أن يوفق إلى إفهام الفرنسيين أنهم لن يستطيعوا الثبات أمامه وأمام جنده البواسل ، وجعل إذا تحدث وصف الفرنسيين « بالشراذم »

و«الغوغاء» و «قتلة الأشراف» ، وأخذ يسخر منهم ويبدى الرحمة والرفق بهم ، حتى لم يكن سامعه ليشك فى أنه مبدد هؤلاء الفرنسيين فى طرفة عين .

ثم بدا له فكتب إلى حكومة الجمهورية يحذرها من المساس بالملك ومن معه ، وينذر رجالها بكل شر إذا هم جرؤوا على المساس بشعرة من رأسه . ولم يكن هذا البروسى المخدوع ليستطيع إيذاء الملك وأسرته بأكثر من هذا الخطاب ، فقد كان الثوار قد أبقوا على الملك الطيب إيماناً منهم بطهارة يده وبُعده عن الاشتراك مع أعداء الوطن فى شىء ، وكان هو قد أعلن قبل ذلك سخطه على أعداء الثورة من المهاجرين والنبلاء من أمثال كونت دارتوا ، فأحبه الناس ومالوا إلى الرفق به ، فلما أذيعت الرسالة وَجد خصوم الملك من المتطرفين فيها تعلة يتعللون بها ويغرون الناس به ، وجرؤوا على المطالبة برأسه ، وأسلموه وزوجه إلى الجلاد .

وتحمس الفرنسيون حماسة لم يكن أحد يتوقعها ، فلم يقنعوا بموقف المدافع بل تقدموا على عجل حتى احتلوا منطقة تلال « فالمى » وتحصنوا فيها ، وأقاموا مدفعيتهم على مونت إيفرون ، وثبتت البقية الباقية منهم على تل فالمى نفسه .

وأقبل البروسيون تتقدمهم المدافع الضخمة وتتبعهم الذخائر التى لا تنفد ، وانصبت نيرانهم على الفرنسيين حامية ، ولكن هؤلاء ثبتوا لها ثباتا دهش له البروسيون أيما دهش ، وعجبوا لهؤلاء القوم الذين لا تنال منهم النيران ولا تزعجهم المدافع ، بل ما هى إلا ساعات حتى بدأت المدفعية الفرنسية ترسل النيران من تل مونت إيفرون ، وحتى أخذ مُشاتهم يتقدمون كلٌّ بما اتفق له من سلاح ، وأخذوا يهاجمون عمالقة البروسيين ويردونهم الواحد بعد الآخر ، ويزحزحونهم عن أماكنهم بين عينى برونسويك وسمع الدنيا كلها .

ورأى القائد البروسى مصارع جنده ، وتوارد على سمعه سخر الناس بهم ، وبصر بالفرنسيين يجتاحون الأرضين ويكادون ينزلون بجيشه الجليل كارثة لا يزول على الدهر أثرها، فآثر الانسحاب بجنده ، وانطلقت شراذم الفرنسيين فى أثرهم حتى أدركت الرين وانساحت فى سهول بلجيكا وبلغت هولندا . وأدرك أهل أوربا جلال هذه المعجزة الكبرى

التى تجرى بين أعينهم ، وصاح جيته أديب الدنيا : « يا قوم ! نحن على أبواب عصر جديد!» فأجمل بهذه العبارة ما حار أهل زمانه فى فهمه ، شأنه فى كل ما قال .

بهذه الوطنية العزيزة ثبت الفرنسيون فى فالمى ، وردوا العدو عن بلادهم مدحورا ، وقد كان الناس لا يشكون فى أن الفرنسيين منهزمون لا محالة ، وأن باريس واقعة لا ريب ، ولكنهم حينما فكروا هذا التفكير أخرجوا من حسابهم وطنيةَ الفرنسيين وقوتَهم المعنوية ونفوسهم التى اشتعلت بالوطنية اشتعالاً .

إن الفرنسيين قد أشرقت نفوسهم فى هذه الحقبة من تاريخهم بشعور روحى عظيم ، ملأ نفوسهم بقوة أغنتهم عن السلاح الوافر والخبرة الطويلة ، وكان برنسويك ينظر إلى هذا الذى يجرى تحت بصره وهو لا يكاد يفهم من أمره شيئاً ، وكان الإنجليز يتلقون الأخبار من خلف قنالهم ويتوقعون للفرنسيين كل هزيمة ، لأنهم كانوا يعيشون حتى هذا الزمان على أمل استمرار القارة الأوربية وأهلها فى الاضطراب والفوضى وسوء الحال حتى يجنوا من وراء ذلك الأموال ، فضايقتهم أخبار هذه الثورة وحسبوها جرأة لا تغتفر على الأوضاع السارية والنظم التى لا ينبغى أن يستبدل بها غيرها .

ولكن ذوى البصر من أهل ذلك الزمان لم يخف عليهم المعنى الجديد الذى ضمه انتصار فالمى رغم أنه تم بعد قتال قصير ، لأن الواقع أن برنسويك تعجل الانسحاب نجاة بجيشه من هزيمة يبقى على الدهر عارها ، ولو وثق من النصر لتقدم ودخل باريس ، ولكنه أحس أنه يواجه قوة لا تغلبها مدافعه ولا فنونه العسكرية ، ولا عماليقه ذوو الدربة ، إذ كان أمامه شعب بأسره يقاتل ، شعب من الجند البواسل تعمر قلوبهم قوة تجعل من كل منهم قائدا . فأين منهم جنده المدربون لا يتحركون إلا بأمره ، ويقاتلون فى سبيل شىء لايفهمونه ولا يهمهم تحقق أم لم يتحقق ؟ .

لقد كانت شراذم فالمى تمثل عصرا جديدا كما قال جيته ، وكان ذلك مفترق طرق فى تاريخ الإنسانية ومنعرجاً فى قضية البشر ، ولم يكن فى استطاعة برنسويك ولاكِلرْمان ولاغيرهما من قادة العصر أن يهزم العصر الجديد الطالع بفلول عصر قديم يجر ذيوله كما تجر الشمس الغاربة بقايا نهار ذابل من فوق الروابى والجبال .

كانت هذه رسالة الفرنسيين إلى الدنيا وأهلها ، وسيحفظها الناس عنهم فى طيات الخلود ، فقد كانوا أول من ذكر الناس بأن الحرية حق لكل إنسان ، وأن كل من يحسب من البشر ينبغى أن يطالب بحريته وينافح فى سبيلها ، وإلا لم يعد إنسانا ، وأن كل حكومة ينبغى أن تقوم على حرية الأفراد وإلا لم تكن حكومة ، وأن أمة من الأحرار تساوى عشرات من أمم غير الأحرار ، ولرعية حرة تفهم واجبها وتقوِّم الحاكمين عليها ، خير من رعية ذليلة مستعبدة لا تدرى إلى أين يُسار بها ، وينتهى أمرها ـ حكومة وشعبا ـ إلى زوال .

حياة أديب

أونوريه دى بلزاك

هلم بنا إلى دار هذا الأديب الفريد .. هذا هو شارعه ، وهذا هو منزله وأخيراً هذه هى حجرته تضطرب فيها شموعه ، وهذا هو يبدو لنا من نافذته مكبا على منضدته الصغيرة إنه يكتب ، إن يده لتجرى على القرطاس خفيفة كأن روحا خفيا يسيِّرها ، فيتناول الأوراق واحدة فواحدة ، ولا تكاد دقائق تنقضى حتى يكون قد فرغ من تسويدها بسلاسل من خطه المعجل الذى لا يكاد يقرأ لعجلته ، وكلما فرغ من واحدة ألقى بها على الأرض كأنه لايحفل لها ، وقد انقضت الساعات وهو مستغرق فى كتابته كأنما لا يدرك مما حوله شيئاً ، وكأنما هو يعيش فى سطوره لا فى دنياه ! .

انظر كيف ينهكه التعب من فرط الجهد واستمرار العمل ، حتى إن يده لتقف عن هذه الحركة الدائبة التى تتصل ساعات بأسرها ! ولكنه يريد أن يكتب ، بل لازالت أمامه أفكار وصور أخرى تتلاحق فى ذهنه ولابد له من تسجيلها ، فليتوقف هنيهة يستريح فيها ليعود إلى العمل من جديد .

فإذا وضع القلم فقد مضى إلى المنضدة الأخرى وأوقد النار ليضع إناء القهوة ، ثم يعود فيجلس على كرسيه منهكاً ، إنه ليتأمل الأوراق المتناثرة على أرض الغرفة ويتمنى لو استطاع أن يجمعها ، ولكنه مكدود لا يكاد يستطيع حراكاً .. ها هو ذا يلوى عنقه ليلقى نظرة على المرآة من خلفه ، فيطالعه شحوب وهزال ، فيملكه الخوف ولا يستطيع أن يطيل النظر ، وينثنى إلى الأمام يتأمل الأوراق التى لم تزل أمامه بيضاء ، ثم يسرع إلى القهوة فيشربها معجلاً ، ويعود إلى مجلسه فيتناول القلم ويقرأ آخر كلمة كتبها ثم يكتب التى تليها ويمضى خفيفا ، وتتناثر الأوراق على أرض الغرفة من جديد .

إن المشهد لفريد حقا ، فهذا الرجل الجالس يكاد يجمع فرنسا كلها فى ذهنه ، إنه لاينفق الدهر يتسلى برؤية الناس كما يفعل غيره ، ولكنه يرى الدنيا بعينيه ليطبع صورها فى ذهنه ، حتى إذا تقدم الليل عاد من سهراته الطويلة إلى داره وأخذ يستعرض ما تجمع فى ذهنه من صور الحياة ، ثم نفث فيها الحياة من روحه الفياضة وهو فى خلواته الساكنة التى نشهد الساعة إحداها . لقد مضت علينا ساعة ونصف ساعة وأوشك الصبح أن يطلع ونحن نتأمل هذا الرجل خلسة ، إنه ساهر يقظ مادامت باريس نائمة كأنه ملاكها الحارس ، فإذا استيقظت أذن لنفسه فى الراحة ومضى لينام .

هاهم أولاء أهل باريس قد نهضوا إلى أعمالهم ، وبدأت المدينة النائمة تتحرك فى مضجعها ، وها هو ذا عامل يأتى فيطرق باب صاحبنا فينهض ويفتح له الباب ويعود إلى مجلسه ليمضى فى الكتابة ، وينحنى العامل فيجمع الأوراق ويأخذها وينصرف دون أن يلقى بالا إلى الرجل المكب على أوراقه ودون أن يلقى هذا إليه بالا ، كأن أحدهما لا يعنيه ما يفعل الآخر ، ثم يرفع الرجل رأسه ، فإذا أضواء النهار تبدو ، فيضع القلم فى هدوء ويمضى إلى فراشه ويختفى خلف غطائه ويستغرق فى نوم عميق .

هلم بنا ، فقد نام بلزاك العبقرى ليصحو فى مساء اليوم التالى ، فإذا صحا أثناء النهار فلن نرى فيه إلا رجلا عاديا . لقد نام الرجل الذى يحرس باريس ويصورها ، ويعجب بها ويعايش أهلها ، وينفذ إلى أعماق نفسها ولا يرضى بها بديلا ، وصحت باريس التى تحب هذا الرجل وتعجب به ، وتردد اسمه وتشهد بعبقريته .

فها هى ذى مطابع باريس لا تكاد تكفى حاجة الناس من فنه وإنتاجه ..

وهذه هى الصحف والمجلات تقدم إلى قرائها فصولاً من قصصه ورواياته ..

وهؤلاء هم أهل باريس يلتهمون ما يقدم إليهم من ثمرات فكره ، ويتحدثون عنة ويعجبون به فى غير انقطاع ..

فهذا رجل لا يكاد يشعر بما حوله من فرط انصرافه إلى ما يقصه بلزاك عن الأب جُوزيو..

وهذه فتاة تضطرب أنفاسها أسًى لآلام « أُوجنيه جرانديه » ..

وهذه هى المجالس الأدبية تتحدث عن « إهاب الأسى » ..

بل أكثر من هذا : هذه امرأة فى أقصى بولونيا ، تقرأ فى شغف كل ما يصل إليها من كتابات بلزاك ، وتلح على بائع الكتب أن يوافيها بكل ما لديه منها ..

إنها لتعجب بهذا القلم الذى يصور لها الناس فيبعثهم فى خيالها أحياء . فهذا جاك ، وهذا لوسيان ، وذلك رُستنياك ، وتلك إستر ، وهذه دِلفين .. كلهم من خلق بلزاك ، وهم فى خيالها أحياء كأنها رأتهم رأى العين ، وصاحبتهم من حياتها الأيام بعد الأيام ! .

إن إعجابها بالرجل ليبلغ مبلغاً لا تملك معه مشاعرها ، إنها تحبه وتعشقه وتمضى إلى وصيفتها فتسر إليها هواها ، ثم تخلو المرأتان إحداهما إلى الأخرى فتكتبان خطابا إلى الساحر البعيد .

ولكن فريقا من الناس لا يرضَون عنه بل يسخطون عليه سخطا بالغا . ليسوا أدباء ولانبلاء ولا ممن يلقاهم الناس بالاحترام والتقدير ، إنهم المرابون الذين لا يرون فيه إلا مصرفاً يأخذون منه فوائدهم بانتظام ، ويدفعونه إلى الكتابة دفعاً ويرغمونه على سهر الليل، ويهدِّدونه بالسجن إن لم يفعل ..

وهو الآخر يكرههم ويسخر منهم ، ويتعمد الإطالة فى الحديث عنهم فى رواياته لتضحك منهم باريس ، بل لتضحك منهم الدنيا ، فلا تكاد إحدى رواياته تخلو من بخيل أو شحيح أو مُراب أو من أحد أولئك الأوغاد الذين لا ينجو من شرهم من يقع تحت رحمتهم ، ولا يرون للإنسان قيمة إلا بقدر ما يملكه من الذهب وما يحتجن من المال .

فهذا الرجل لا يكتب طواعية إذن ، إنه مجبر على ذلك ، إنه لا يتأنق تأنق تيوفيل جوتييه، ولا ينتظر الوحى حتى يأتيه على مهل مثل فكتور هيجو ، ولا يكاد يجد الوقت ليتحنن تحنُّنَ لامرتين ، أو ليذرف الدمع كما يذرفه ألفريد دى فِنْىْ ، ولا يسرف فى القراءة والدراسة إسراف أدولف هيبوليت تين ، لأن الوقت يعوزه ولأن الدَّين يثقل عليه ، وهو لهذا يصف ما يرى فى سرعة ودقة ، ويستلهم عينيه ولا ينصت كثيرًا إلى ما يقوله هؤلاء الأدباء

المتأنقون إذا اجتمع جمعهم فى صالون « جيرار » ، ولا يكترث لسخرهم وتندرهم به وبما يكتب .

إنه يكترث لشىء واحد : لباريس وأهلها ، يصفهم ويتحدث عنهم حديث العارف اللبيب المتفطن ، وإن تيوفيل جوتييه ليعجب من هذا عجبًا شديدًا ، ويقص على أصحابه كيف ذهب مع بلزاك إلى اللوفر ذات مرة ، وكيف انتهيا إلى تمثال فينوس ، فدار جوتييه حوله يعجب بروعة الفن وجلال المشهد وسحر الصخر الناطق ، ومضى يتفلسف ويتحذلق ، يشرح لبلزاك ما خفى عليه من نواحى الفن فى هذا التمثال الفريد ، ثم حانت منه التفاتة إلى بلزاك فإذا هو منصرف عن التمثال وما فيه من الفن ، مشغول بباريسية حسناء تتأمل التمثال ، إنه لا يغازلها بل يتفحصها من قمة الرأس إلى الحذاء ، لكى يصفها لقرائه إذا خلا إلى أوراقه ، ولكى يصوّرها لأهل عصره ولمن سيأتى بعدهم من أهل الأعصر المقبلة ..

لقد طالما ضحك تيوفيل جوتييه من ذلك وأضحك منه المتحذلقين المتفلسفين أمثاله ! ولَكَمْ رثوا لبلزاك وأسفوا على إنفاقه أوقاته فى وصف العوام وأصاغر الناس ، ولكم تمنوا أن ينصرف عن ذلك ويشاركهم فيما كانوا يقطعون الوقت فيه من فلسفات ينقطع النفس قبل أن يدرك مداها ، وفى صياغة عبارات حسنة تخلب اللب ولا تشغل النفس لقلة ما فيها من الحياة ! .

كم أسفوا لأن بلزاك لا يشاركهم فى هذه البهلوانيات ، وكم سخطوا عليه لما وفق إليه من إعجاب الناس وخلود الاسم بما كان منصرفا إليه من خلق وإبداع ! .

لقد غاب معظمهم اليوم فى ألفاف النسيان ، وبقى هذا الرجل الذى كانوا يعتقدون أنه بسيط : أونوريه دى بلزاك .

* * *

كان بلزاك يسمى نفسه « دكتورا فى العلوم والعلل المستعصية » ، وليس أصدق فى وصف هذا الرجل من ذلك التعبير الدقيق . كان طبيب عصره الذى يفحصه ويكشف عن أمراضه ويستبطن علله ، لم يكن ينظر إلى الماضى ، وما كان الغد ليعنيه ، بل لم يغادر فرنسا

بخياله أبداً . كان همه مقصوراً على شيئين : النظر والكتابة . يرى جيداً ، ويصف جيداً . يقدم لك الشخص ويرسمه فى براعة تحيله لك حيا يخطر ويتحرك أمامك ..

وإن أشخاصه ليكوّنون عالما كاملا ، هم ألفان أو ثلاثة آلاف فى أنماط متباينة وألوان متغيرة ، يتفرقون فى مسالك الحياة ولكنهم يجتمعون بين دفتى هذه « المأساة الإنسانية » الكبرى التى جمع فيها بلزاك كل كتبه . هم فقراء وأغنياء ، ورجال ونساء ، وصبيان وشيوخ، وهم ملائكة وهم أبالسة ، وهم هذا العالم الواسع الذى تعيش فيه عبقرية الأديب العظيم راضية . خلقهم ، ورعاهم ، وكتب مصائرهم ، وأسعدهم ، وأشقاهم ، ثم توفاهم ، ووقف يرثيهم ! .

لقد أهلك الرجل نفسه ليخلق هذا الخلق العظيم ، أضناه طول السهر وأضعفت عينيه الكتابة على ضوء الشموع . لقد كان فى شبابه بدينا ، فأصبح وقد أشفى على الخمسين هزيلا ناحلا كأنما قد نيف على التسعين . وخبا نور عينيه ، وكانا رسول الحياة إلى نفسه ، بهما كان يكتب . ثم أقبلت الأمراض ، فاستقبلها جسده ضعيفا متعبا . ثم أقبل ملك الموت ، فوقف أمامه صامتا لا يدرى كيف يمضى برجل كهذا إلى عالم الصمت والنسيان ، بعد أن أبدع هذا العالم الحافل من الناس . وإن مخلوقاته الألفين لتخلد من بعده فلاتذكرها المنايا ، وإن بلزاك ليمضى إلى لقاء ربه وأبطاله ينظرون إليه ، وهم لا يصدقون أن خالقهم يموت !.

ولم يكن الرجل ـ مع هذا كله ـ مصابا بالغرور ، بل لم يكن يرى فى نفسه هذا الأديب العظيم الذى ستخلد كتاباته أدهاراً طوالاً . كان ينظر إلى الأمام أبدًا ، ويرقب المستقبل بعين القلق ، ينتظر اليوم الذى تنتهى فيه ديونه وتنتهى معها آلامه ، فلا يعود يضطر إلى الكتابة هذا الاضطرار المجهد . ولكن ديونه كانت تتجدد ، لأنه كان مسرفاً لا يطيق المالُ صحبته : لا يكاد يصل إليه منه شىء حتى يتسرب إلى غيره من الناس ، كان يشترى التحفة النادرة بالمال المكسوب بسهر الليل وضنى الجسد ، فلا تكاد تستقر فى بيته حتى يسرع الدائنون ليضعوا يدهم عليها ويرغموه على بيعها بأقل المال ، حتى لقد اشترى آنية من خزف صينى غالى الثمن فلم يمهله الدائنون حتى يستمتع بها بعض الوقت وباعها بعد أربعة أيام !

كانت ديونه فى سن الثلاثين مائة ألف فرنك ، فأجهد نفسه ليخلص منها ، وأرهق نفسه إرهاقاً شديداً : كتب « هونورين » فى ثلاثة أيام ، وكتب « الغرام الأخير » فى ثلاثة أيام أخرى ، وأخرج غرة من أروع الغرر هى « الأب جوريو » فى بضعة أشهر ، و « نائب أرسى » فى بضعة أسابيع .

كان يعمل طول الليل وجزءاً من النهار ، ويغامر فى مشاريع اقتصادية رجاء أن يفوز منها بربح ضخم يسد منه ديونه ويستريح : افتتح مسبكا للحروف ، وافتتح محلاً لبيع الفواكه ، وأجهد نفسه إجهاداً لا يستطيعه أحد ، واتصل ذلك مدى عشر سنوات ، ثم نظر آخر الأمر فإذا الديون تضاعفت ، وإذا برقمها يزداد فيصبح مائة وسبعين ألفاً بسبب إسرافه الشديد وسوء تصرفه فى المال .

هنالك كف عن الكتابة ، ويئس من الدنيا بل فكر فى الانتحار ، وما يطيق هذا الرجل أن يجبر على العمل حياته كلها كأن عصا تسوقه ، وركبته هموم الديون وخشى أن تزيده الأيام غرقاً فيها ، ولم يجد أحداً ينقذه من المرابين والدائنين ، ولم يمسكه فى قيد الحياة إلا شعوره بأن عليه رسالة ينبغى أن يؤديها قبل أن يبارح هذه الدنيا : إنه فنان لا مندوحة له عن أن ينتج ، وأن الإنتاج ليصدر عنه طواعية كما تصدر التفاحة عن الشجرة ، ثم إنه مدين لا مفر له من أن يدفع ديونه .

لهذا عاد إلى العمل ليقضى عشر سنين أخرى فى هذا العذاب المتصل ، كان نزَّاعا إلى الغنى يحلم بالترف ، ولكنه كان إلى جانب ذلك يستطيع أن يقسر نفسه على العمل ، وكان يعرف كيف يقنع من حياته بالقليل إذا لم يكن لديه إلا هذا القليل ، فقنع بحياة ساذجة بسيطة فى غرفة صغيرة فى شارع مظلم ، وأخذ يعمل . واستعان على هذا الجهد بوحى من البولونية التى حدثناك حديثها فيما تقدم من القول .

كان زوجها قد مات وخلصت له ، فلحقت به فى باريس ، واستطاع أن يصحبها معه فى غدواته وروحاته ، فخفف هذا من آلامه ، لأنها كانت امرأة ذات غنى وجاه وفتنة ، وأطلق الناس عليه لقب « كونت دى بلزاك » فلم يغن عنه ذلك شيئاً ، وكأنما ألفت نفسه سخر الناس فأحب أن يعطيهم فرصة يسخرون بها منه إلى أبد الدهر ، فعقد عقودا كبيرة

مع الناشرين وأصحاب الصحف ، وأحب أن يخلص من الدين كله ، وأن يدَّخر مالا ليكون جديرا بزوجته الغنية المترفة ! .

كان يرجو أن يسدد كل ديونه فى خمس سنين ، وكان ينتظر سنة ١٨٤٨ ـ وهى آخر المهلة التى أعطاها لنفسه ـ بفارغ الصبر ليكون صاحب قصر منيف فى باريس ، وتحدث الناس فى ذلك وتفكهوا به ، وعجب هو من أمرهم ، وجعل يتساءل : كيف لا يستطيع ذلك وعقوده مع الصحف والناشرين خلال هذه السنين تبلغ نصف مليون من الفرنكات؟ ولكنه كان يخشى أن يموت قبل أن يدرك هذه الأمنية ، وكان على صدق فى هذا الإحساس المحزن .

ها هى ذى السنة الموعودة تُقبل ، وديونه على ما هى عليه ، إنه لا يطيق عن الإسراف صبرا ، لقد اشترى قصراً كبيراً ، واقتنى كراسى من طراز هنرى الرابع ، وابتاع صوراً لوَاتُو وأخرى من عمل دافيد ، وأعد العدة ليستقبل السعادة المرموقة ، ولكنه مسكين .. إن جسده ليرق ، وإن نظره ليضعف ، وإن قواه لتهبط حتى ترين المخاوف على قلبه ، وإن آلام الحياة لتحرمه الاستمتاع بلحظة من الهناء المرجو ، وعز عليه كل شىء حتى فقد لذة العمل! وقد كانت إلى الآن عزاءه عما يلقى فى الحياة من وَصَب .

مضت سنة ١٨٤٨ وتلاها عام متعب محزن ، ثم أقبلت سنة ١٨٥٠ ، وفى إحدى أمسيات أغسطس من هذه السنة اختفى هذا العبقرى الجليل من عالم الأحياء ، مخلفاً بعده مجلدا كاملا من وثائق الديون التى لم تدفع ، ومائة مجلد من القصص الخالد الذى لايموت. ثم يقبل الغد ، فتجتمع باريس كلها فى وداع حارسها الأمين ، يقف هيجو ليصف هذا المشهد الرهيب فى كتابه « المرثيات » فيشعرنا بجلال الراحل حقا ، ويصور لنا خسارة الدنيا فى هذا الرجل العظيم .

وكان بلزاك على رغم ذلك كله راضيا قانعا ، كان الضيق الذى يغمره يتردد عليه بين الحين والحين ، فيحتال لصرفه بما ركب فى طبيعته الصافية من طيبة وسذاجة . كان يضحك دائماً ويسرِّى عن نفسه أبداً ، ويوما زاره تيوفيل جوتييه فى قصر أنيق اشتراه خلسة من الدائنين ، فرآه جذلان طربا ، واستمع إليه ينبئه نبأ العقود التى أمضاها مع الناشرين

وأصحاب الصحف ، ونظر إليه يعرض عليه آنية بيته وأثاثه وحريره وذهبه فقال : « لابد أنك صاحب ملايين يا بلزاك ! » فسَرى الألم إلى نفسه ومضى يؤكد لصديقه : « ما أنا إلا بواب لهذا القصر ! لا شيء ملكى ، كل شيء مرهون بعسف الدائنين ! » .

لم يكن مغروراً ولا متكلفاً ، وإنما كان سهلا سَمْحاً ، شديد الرضى ولم يكن فيه إسراف مع النساء أو الخمر ، ولم يفضِّل مجالس الهوى على الكتابة أبدا . ثم إنه لم يقصد بكتاباته رضى ملك أو جود أمير ، ولو أراد لوفق إلى ذلك ـ كما كان أنداده ومعاصروه من الأدباء يفعلون ـ ولكنه لم يكتب عن الملوك أو الأشراف ، بل كتب عن السوقة والأوساط الذين نشأ فيهم وأشرب حبهم ..

ولم يكن يتكلف أو يدعى ، بل كان يرى ويصف ما يرى وصفاً بسيطاً قد يهبط إلى مستوى الركاكة لبساطته . كان له خيال خالق خصب إلى حد لم نعهده فى واحد من الأحياء ، وتلك كانت علته ، لأن حياته أصبحت خيالاً فى خيال ، ولم يستطع أن يعيش فى حدود الواقع أبداً . كان الخيال يفسد عليه هدوءه واطمئنانه ، ومن هنا نشأت مصاعبه مع الدائنين وأصحاب الأموال .

كانت حياته كلها مشروعات يتخيلها وتهدمها له الحياة حجراً من بعد حجر .

وكانت حياته كلها خيالاً شقى هو به وسعد الناس به من بعده ..

ولم تكن عبقريته ثمرة الاطلاع والبحث بقدر ما كانت صورة الوحى والإلهام ..

فى سماء الأنغام

لودفيج فان بيتهوفن

خرج إلى الدنيا فى عنفوان الثورة الفرنسية ، فنفثت فى كيانه روحاً عجز عن حملها جسمه الضعيف ، وأفضى إلى زحمة الحياة فى قرن فياض زاخر تواترت فيه الثورات وازدحمت فيه العبقريات ، حتى خُيل للناس أن أوربا تكاد تتمزق من فرط ما اجتمع فى كيانها من نشاط وما فاضت به قلوب أهلها من نزعات . وكان بطبعه إنساناً رقيقاً مرهف الحس لا يكاد يمر به نسيم حتى يتأثر به كيانه ، فكيف وقد عبرت به عواصف تهز الفؤاد الجامد وتحرك النفس الموات ؟ ففاض قلبه بالأحاسيس وزخرت نفسه بالمشاعر الإنسانية حتى ضاقت بها .

وأخرجته الأقدار من والدين على طرفى نقيض : والد شديد ، قليل الخبرة بالحياة ، عنيف الطبع ، مريض العقل ، مسرف فى الشراب لا يكاد يفطن إلى ما ركبه الله فى طبع ابنه الرقيق من أصول العبقرية ، يضربه لكى يعزف ، ويقدمه للناس ويرغمه على العزف ويقول : «انظروا .. إنه فى السادسة ويعزف خيراً من موتسارت ! » كأنما كان الصبى ألعوبة فى يديه ، ولا يكاد يفطن إلى أن الفرق بين عبقريتى موتسارت وبيتهوفن عظيم ، فعبقرية موتسارت كانت سريعة النضج شديدة التوقد ، بينما كانت ملكات لودفيج فان بيتهوفن بطيئة النضج تحتاج إلى رعاية متئدة صبور حتى تنضج على مهل ، فلم يكن من الصواب أن يُقْهَر الصبى على العزف ولا أن يؤخذ بالشدة لكى يواصل دراسته .

ولقد أضرَّ به عبث والده به ضرراً بالغاً ، وترك فى كيانه الضعيف آثاراً لازمته طول حياته، وكيف لا يتأثر كيانٌ ضعيف مثل كيان هذا الصبى إذا كان أبوه يعود من المشرب مخموراً ، فيجر الصبى النائم من السرير جراً ويأمره بأن يجلس إلى المعزف ليتمرن ؟ وكان الصبى لصغر حجمه لا يستطيع أن يجلس إلى المعزف ، فكان يقف طول الوقت على قدميه

الناحلتين ، يغالب النوم والبرد ؛ وقد استمر هذا العذاب فى بعض الأحيان حتى مطلع الصبح .

وأما أمه فكانت مسرفة فى الرقة والحنان ، فالتقى فى كيان هذا الصبى طرفا الخلق الإنسانى من قسوة العاتى ورقة اللين المستكين . وكانت ظروف الأسرة إلى ذلك عاتية قاسية كان أبوه مغنياً فى فرقة القصر ، وكان يتقاضى أجراً متواضعاً لا يكاد يقوم بأود الأسرة، وكان إلى ذلك مسرفاً لا يكاد المال يستقر فى يده حتى يسرع به إلى الخمار ، فكانت الأسرة تعيش أبداً تحت ذل الفاقة المجهدة والرعب من الأب السكير . ولم يكد الصبى لودفيج يشب عن الطوق حتى أقبل عليه الفقر فطواه فى أردانه وأذاقه من مرارات الحياة وأوصاب العيش شيئاً كثيراً ، ولم يكد يخطو فى الحياة حتى بدأ يشعر بأعراض المرض تدب فى بدنه حتى لتحطم حياته تحطيماً ، ولكن الملكة الأصيلة لم تتأثر بهذا إلا قليلاً ، وكأن القدر رماها به لتصفو وتتجلى .

ومضى الفتى يرتقى فى سبيل الفن ويسمو فى أجواء الإلهام حتى أدرك مع فتوة الشباب شأواً لا يدانيه فيه فى عالم الفن إلا قليلون لا يزيدون على أصابع اليد ، فكان إذا جلس إلى معزفه ـ وهو يقارب العشرين ربيعاً ـ طوى الدنيا ونشرها بين أنامله ، وفاض عنها اللحن سائغاً شجيًّا ، وإذا استلهم وجدانه فقد مس النفس الإنسانية وهزّها هزاً عنيفاً ، ويُرْوَى أنه ذهب فى ربيع سنة ١٧٨٧ إلى فينا ليطلب الموسيقى على يد موتسارت ، فلم يكد هذا النابغة يسمعه حتى قال لمن حوله : « أصغوا إلى هذا الفتى ، فسوف تسمعه الدنيا كلها غداً! » .

* * *

كان أبوه مغنياً ، سيىء الخلق ، جافى الطبع كما قلنا ، وكانت زعامة الموسيقى قد انتهت قبيل مولده إلى موتسارت ، فتغنى بألحانه الناس ، ورددت أنغامه المعازف ، فدرجت عليها خطى الراقصين ، وارتفعت عن رواياته الموسيقية ستر المسارح وانسدلت على صياح الإعجاب .

ونظر يوهان بيتهوفن ـ والد لودفيج ـ إلى هذا المجد الموسيقى فامتلأت منه نفسه

وجاشت به مطامعه ، والتفت فإذا فتاه الصغير يشتدُّ من السادسة إلى السابعة ، وطمع بأن يبلغ بابنه الناشىء ما بلغه ليو بولد موتسارت بابنه العظيم وُولفانْج أماديوس موتسارت .

وقد بدأت أصابعه تجرى على المعزف فى إحكام ودقة ، فلم يطق أبوه الصبر ، وأحب أن يمضى به فى طريق النبوغ خبباً ، فراح يدفعه إلى المعزف قسراً حتى كان الصبى يعزف وإن دموعه لتنحدر على خديه ، وإن نفسه لتنفطر أسى وألماً ، فإذا فرغ من هذا الجهد المضنى أسرع يعدو إلى أحضان أمه الساهرة ، فارتمى بين يديها ليجهش إجهاش المروع الشاكى ، فتُفيض من نفسها على آلامه صبراً ، وعلى أعصابه هدوءاً وسكوناً ، ولا تزال تهدهده وتدلك أصابعه الصغيرة المتورمة بيديها حتى يدركه النوم فينام والأنغام تطوف بذهنه يخالطها صخب الأب المستبد وأنات الأم الحانية . ولو أن غيره مكانه لكره الموسيقى والعزف من ذلك الحين ، ولكن الأقدار كانت قد وهبته قبساً من نور النبوغ لازال يتوقد ويقوده إلى العزف وإلى الدرس حتى أدرك منه مبلغاً طيباً .

ولم ييسره الله أول الأمر إلى أساتذة ذوى خبرة ، ولكن الأقدار أرسلت إليه أستاذاً كريماً هو جوتلوب نيف ، كان يعزف على الأرغن فى قصر أمير فورتمبرج ، فلم يلبث أن تنبه إلى استعداد الصبى ، فمضى ينميه ويقوّمه على أصول الفن الصحيح . ومن حسن الحظ أن كان الرجل من أهل الفن المخلصين ، كان من تلاميذ مدرسة سباستيان باخ ، وكان عارفاً بكل إشارة موسيقية كتبها هذا الأستاذ الجليل الذى مازال يجتهد حتى انتقل بالبيانو من معزف بسيط لا يكاد أحد من كبار الموسيقيين يهتم به إلى هذه الصورة التى هو عليها اليوم ، والتى أصبح بها سيد الآلات الموسيقية جميعاً ، وكان إلى ذلك رجلاً مثقفاً مفكراً ، فلم يقتصر فى تكوين تلميذه على مجرد العزف ، بل جعل الموسيقى فى نفسه فلسفة وروحاً ، فلا غرابة أن أصبح لودفيج فيلسوفاً موسيقياً ، يفكر بأنغامه ويصور فى قطعه الموسيقية بالألحان ما يصوِّره غيره بالكلمات .

ولم تكد تنقضى عليه سنتان وهو يجتهد فى تكوين نفسه وتأصيل فنه حتى انتظم فى فرقة القصر عازفاً حيناً ومديراً حيناً آخر ، وحتى توسم فيه ولى عهد فورتمبرج ماكس فرانتس النبوغ فعهد إليه فى قيادة الفرقة الموسيقية فى مسرح البلدة ومنحه راتباً صغيراً . وبدأ نجم

الفتى فى الصعود ، وبدأ يشعر بالرغبة فى الذهاب إلى فينا حيث يأخذ الفن عن موتسارت الموسيقى العظيم الذى أدرك الشأو وأصبح إمام الموسيقيين فى عصره وهو بعد فى حدود العشرين ! رحل لودفيج فان بيتهوفن الشاب إليه ليأخذ الفن عنه ، فوجده فى حُمَّى العمل لا يكاد يجد من الوقت متسعاً للعناية بهذا التلميذ الفريد ، ولكنه استمع إليه على أى حال، وأدرك أن نفسه تنطوى على ملكة موسيقية لها خطرها ، وقال فيه قالته التى رويناها .

وكان الألمان قد سَمَوْا فى ذلك الحين بالفن الموسيقى سُمُوًّا جعله فى الصف الأول بين الفنون الإنسانية الرفيعة ، وانتقلوا به من تنغيم يراد به تسلية الناس إلى تفكير يراد به التعبير عن المشاعر الإنسانية العالية ، فكان « جيته » شاعر الإنسانية يجلس إلى الموسيقيين ويبادلهم الرأى ويأخذ عنهم ويأخذون عنه ، وكانت كل بلدة تفخر بمن عندها من أهل الفن ، وترفع رأسها بهم ، فما كان فيها مثل سباستيان باخ ، أو جوزيف هايدن ، أو فيليبالد فون جلوك ، أو وولفجانج أماديوس موتسارت ، فهى أرفع المدن ومقصدُ الناس .

ولم يأت هذا الارتفاع الموسيقى عفواً ولا رهن المصادفة ، وإنما جاء نتيجة لانصراف نفر من أعظم أهل الأرض فكراً إلى هذا الفن وإفناء أنفسهم فى سبيله : لقد قضى سباستيان باخ حياته يكتب الأناشيد وينظم الألحان ، وأنفق هايدن حياته ينظم ويطوف الأرجاء يعزف منظوماته ، حتى أصبحت القطع الموسيقية قصائد نغمية كبرى يستمتع بها الذهن والأذن معاً . وتحمس الناس لهذا الفن الجليل حتى كنت لا تجد أباً إلا يتمنى أن يكون ابنه من النابغين من أهل الفن ، ثم جاء موتسارت فكأنما كان روحاً هبطت من سماء الفن ، من مجمع آلهة الفنون عند جبل بارناسوس إلى أرضنا هذه . عزف فى السابعة ، ولحن فى الثامنة ، وقاد الفرق الموسيقية فى الثانية عشرة ، وأنفق حياته القصيرة يعمل وكأنه شمعة تحترق : يخرج للناس فى كل حين ملحمة موسيقية تأخذ بمجامع الأنفس ، ويكتب مسرحيات موسيقية فيها من جمال النغم وحسن التنسيق وسمو اللحن ما لو اجتمع عشرات من الناس ما وصلوا إليه ، وهاجمته العلة من فرط العمل ، وأكل الداء رئتيه من طول العكوف على المعزف والأوراق ، فألقى القلم وهو فى الثالثة والثلاثين ، ومضى مخلفاً فناً بديعاً رائعاً سحر الناس وأطلعهم على جمال الموسيقى ؛ مضى والناس تنشد ألحانه وتتأثر خطاه فلم يبق بلد فى ألمانيا أو فرنسا أو إنجلترا إلا تردد فيه اسم موتسارت .

وطلعت الناشئة الجديدة واسم الموسيقى الشاب يدوى فى أذنيها ، فلم يكن أحب إلى الشاب فى ذلك العصر من قيثارة يحسن التوقيع عليها أو معزف يقضى الوقت حانياً عليه، ودارت المطابع تطبع النوتات وتوزعها بالآلاف ، وعلا نجم مدرسى الموسيقى حتى أصبح تدريسها من موارد الرزق المأمونة ، وازدهرت فى البلاد مسامع الموسيقى ومسارح الأوبرات ، واتصل الجهد وتوالى الإنتاج حتى استقام الفن الموسيقى ثابت الأسس فى هذه البلاد ، ولعل هذا ييسر لنا فهم المكانة التى بلغها هذا الفن فى أوربا . إنها نتيجة جهد متصل وعمل مجهد ، شأنها فى ذلك شأن كل ما وصل إليه الغرب ؛ ولعل هذا أن يفتح عيون الشرقيين إلى أن العمل والتفانى فيه وحدهما هما عماد الحياة ، ولن يستقيم لشىء قوام إذا تناوله الإنسان تناول الشرقى المتساهل : إذ لم يأت الأمر مصادفة وبأقل كلفة فلا كان ، وإذا احتاج إلى تضحية النفس وإنفاق العمر فليبق مكانه ولا حاجة إليه . إن الشعوب الأوربية تصغرنا بآلاف السنين ، ولكنها بذلت من الجهد خلال عمرها القصير أضعاف ما أنفقنا فى عمرنا الطويل ، بهذا وحده انتهت إليها قيادة الدنيا وزعامة الناس .

* * *

ولكن الأيام لم تُنظر لودفيج إلا قليلاً ، إذ امتدت يد الأقدار فاختطفت أمه الحانية وهو بعد فى السابعة عشرة ، واستبدت آفة الخمر بأبيه فعجز عن العمل ، وهبط على عاتق الفتى المسكين حمل الأسرة . وقد قاسى من مصيبة أبيه بالخمر بلاء لا يحتمله إلا صبور كريم النفس مثله ، فقد كان الأب يسرف فى الشراب ويسقط فى الطريق أو يعربد حتى يقبض عليه الشرط ، فيضطر الابن إلى الإسراع فى خلاصه ، وساءت سمعة الأسرة وبرم بها أهل «بون » حتى فكروا فى إخراجها منها ، لولا توسط بعض ذوى الخير والجاه فى الأمر . ولم تلبث العلة أن اشتدت بالرجل المسكين فقضى بعد ذلك بزمان مخلفاً الفتى الناشىء يحمل على عاتقه عبئاً ثقيلاً ، وكان من علائم اقتداره أن نهض بالعبء ، وأنفق على أخويه حتى صار أحدهما كيميائياً والثانى موسيقياً . ولم يكن مع ذلك ضيقاً بالحياة ولا شاكياً منها ، بل مضى يعمل فى جد وإنتاج زاهر ، حتى ليدهش مؤرخوه لما أبدى فى هذه السن الباكرة من سعة القلب وطول الصبر وجلد العمل ووفرة الإنتاج .

انتقل إلى فينا بعد وفاة أبيه ، وأقام فيها من ذلك الحين معظم أيامه ، ولم يوفق فى معظم الأمر إلى الأساتذة الصالحين فى هذه البلدة ، ولكن عبقريته أغنته عن الأساتذة والموجهي ومضى فى حياته قادراً موفقاً . وساعفه الحظ ببعض العون فاستطاع أن يعطى دروساً فى الموسيقى أعانته على القيام بمطالب الحياة ، واتصل عن سبيل هذه الدروس بعائلات على شيء كثير من الثراء ، فخفف عن نفسه الكثير من وعث الحياة وخشونة العيش ، واستطاع أن يجد وقتاً يتعلم فيه الفرنسية والإنجليزية والإيطالية ، وبهذا رحبت آفاق الحياة أمامه وزاد ذهنه سعة وقلبه علماً .

وأخذ يقرأ فى الموسيقى وغيرها قراءة الشغوف النهم ، وأفضت به القراءة فى لغات شتى إلى رحاب المعرفة الواسعة ، فزادت ملكته خصوبة وسعة ، وتكشفت له أسرار جديدة ومعان من الجمال لا تتيسر للفنان إلا عن طريق القراءة والاطلاع ، وكان هذا كله يستحيل فى ذهنه إلى نغم ، لأن الله قد فطره موسيقياً صافى النفس رائعَ الملكة ، لا يرى الحياة إلا معزفاً تتردد فيه فلسفات نفسه الرحبة الشاملة ، فكان إذا لحن تذوق الناس فى موسيقاه ألواناً جديدة استوقفت أنفسهم وأسماعهم ، وأصغى إليه دوق فورتمبرج فى لذة وإعجاب ، وأيقن أن العناية كتبت له شرف رعاية هذا العبقرى الناشىء .

* * *

وتصادف أن مر جورج فريدريش هيندل ببلدة « بون » عائداً من إنجلترا ، فأقامت له البلدية حفلاً عزف فيه بيتهوفن فأعجب به إعجاباً عظيماً ، وحدَّث الدوق فى أمره ، وحصل له على إعانة شهرية تعينه على السفر إلى فينا للدراسة فيها ، فكان ذلك مفتاح الحياة لهذا العبقرى المجتهد ، فلم يلبث أن خف إلى فينا بتوصيات شتى من هيندل ، وكان الدوق قد طلب إليه « أن يدرس فَنَّ موتسارت على يد هيندل ! » ، وكانت تلك طرفة تندر بها أهل الفن فى فينا فى أوانها ، ولكن حوادث الأيام لم تلبث أن سخرت من الساخرين ، وأظهرت أن هذا الفتى لم يتلق فن موتسارت فقط ، بل تلقى فن الماضى الطويل كله ليبنى عليه فن الغد كله .

ومضى بيتهوفن إلى فينا يتتلمذ على من شاء فيها ، وكانت المدينة إذ ذاك غاصة

بالموسيقى والموسيقيين ، وسعد الفتى حين رأى ذلك كله تحت تصرفه تتغذى منه ملكته كما يريد ، ولم يشأ أن يكون من أول الأمر تلميذاً لواحد من أساتذة الفن وشيوخه ، وزهدوا فيه هم أنفسهم بعد حين . ذلك أنه لم يكن تلميذاً طيعاً ، إنما كان شديد الإحساس بنفسه وبما يجول فيها ، وكان يعرف ما يريد ، شديد الإصرار عليه ، وكان من فرط اهتمامه بالفن عديم النظام كثير النسيان للنصائح التى يتقدم بها إليه شيوخه ، وكان إلى هذا عنيف النظام كثير النسيان للنصائح التى يتقدم بها إليه شيوخه ، وكان إلى هذا عنيف الطبع تصيبه نوبات هى أشبه بالجنون ، فازور عنه الكثيرون وانحرف عنه أساتذة الفن وشيوخه من أمثال ساليرى ألبر ختسْ برْجَرْ .

وتعددت الشكوى إلى الأمير ، فحبس عنه المال الذى كان يرسله إليه ، فلم يكد يحفل لذلك ، لأن الله ركب فى نفسه طبعاً مستقلاً لا يكاد يعتمد إلا على نفسه . وقد ثقل عليه هذا الحرمان أول الأمر ، ولكنه أبى أن يشكو ، واحتمل حياة الشظف فى صبر وانطواء على النفس آذاه وزاده عصبية وانصرافاً عن الناس . ومن غريب الأمر أن الناس أخذوا يقبلون على فنه رغم ذلك كله : كان يذهب ـ وهو فقير معدم ـ إلى أحد الناشرين الموسيقيين ، ويعرض عليه قطعة من قطعه ، فيصعد فيه الرجل النظر ويحدره ثم يقول له : « هات ، أرنا ما لديك ! » فإذا جرت يده على المعزف دهش الرجل وقال له : « وددت لو غيرتَ هذا وعدلت ذاك وقصرتَ هنا وطولت هناك ! إن الناس تريد هذا ونحن أعرف بما يريد الناس! » فيطوى أوراقه ويتجه نحو الباب قائلاً : « أنت أعرف بما يريد الناس ، ولكننى أعرف بما أريد أنا » ، ويمضى .

وكان من عجائب المقادير أن بعض الناشرين كان يذهب به الإعجاب بما سمع مبلغاً يُنسيه إصرار هذا الفتى وعناده ، فيشترى اللحن كما يريد المؤلف الفقير ! وتلك ظاهرة انفرد بها بيتهوفن بين موسيقيى التاريخ كله ، لم يسعد بمثلها باخ ولا عرفها موتسارت ولابرامز أو شوبان أو حتى فاجنر ! .

بيد أنَّ طول الشظف وإنفاقه معظم مكاسبه على أهله أورثاه ألواناً من الشذوذ ظل يقاسى منها طول حياته ، ولو نظر الإنسان فى أغوار نفسه يشهد تفاصيل حياته لاستبان له

أن الله قد طواه على قلب هو أحنى من قلب الأم الرؤوم ، ولكنه كان شديد الاعتزاز بنفسه بالغ التقدير لفنه ، وكان ينظر حوله فيجد ناساً لا يفهمون الموسيقى فهمه ، ولا يريدون أن يتركوه يفعل ما يريد .

فأما شيوخُ الفن فشأنهم شأن الشيوخ عامة : ينتهى بهم طول المراس والتجريب إلى لون من الجمود يصعب عليهم الانحراف عنه ، فإذا خالفهم فتى ناشىء كهذا عجبوا لأمره وأنكروه وأكثروا فيه .

وأما الشباب فكان معظمهم منافسين حاسدين لا يرضيهم شىء ،لأن الحسد يأخذ عليهم طريق الرضى .

وأما جمهور الهواة فالعبث أقرب إلى نفوسهم من الجد ، وهم لا يطلبون من كل من يتصدى لمرضاتهم إلا أن يهبط إلى مستواهم .

وقد كان بيتهوفن أعرفَ الناس بما لقى موتسارت على أيدى الناس أجمعين : لقد وهب الله موتسارت عبقرية لا يسهل تصور مداها ، ولكن الناس أذاقوه من مرارة الكيد والعبث والحسد ما أدنى أجله وما عجل به إلى الآخرة فقيراً محروماً ، هذا على رغم أنه كان لا يدخر وسعاً فى محاسنة الناس ومرضاتهم ، فما زاده ذلك إلا تعباً .

كان بيتهوفن يعرف ذلك فآلى على نفسه أن لا يخفض للناس جناحاً ، ولم يقرر هذا بعد تفكير بل وقر فى نفسه دون شعور منه ، من هنا جاء ذلك النفور الذى حسبه الناس غروراً وهذا الجفاء الذى كان يجبهم به كلما ثقلوا على نفسه ، فحسبوه فظاً قاسياً سيىء الخلق . وإن من رزأه الله فى أبيه وأمه على النحو الذى صورت لك ، ثم آتاه بعد ذلك كياناً ضعيفاً مجهداً مثل كيان بيتهوفن ،لا عجب أن يكون عصبياً مهتاج النفس ، فما بالك وقد ثقل على كتفيه حمل أسرة بأسرها ، وما بالك ولم يكن فى هذه الأسرة التى شقى فى سبيلها إلا جاحد للجميل كافر بالنعمة ! .

مضى الفتى فى طريقه يعينه بعض أصدقائه ممن لمسوا رقة نفسه ، وأخذوا يشدون من عزمه على المضى ، ولكن طباعه التى ورثها عن أبيه وعن ظروفه كانت تستبد به بين الحين

والحين وتؤذيه أذى شديداً ، كان إذا غضب اندفع مع الغضب اندفاع من لا يعرف أخاً ولاصديقاً ، وكانت ثقته بنفسه تشتد حتى لتبلغ به مبلغ المتغطرس الكافر بالنعمة ، وكان اضطراب حياته ورزقه يخيفه ويشغل ذهنه حتى كان ليطيل الوجوم أياماً ويبدو للناس إنساناً ثقيلاً بغيضاً .

وكان شاباً متوفز العواطف ، فمسه الحب مساً رقيقاً حيناً وعنيفاً حيناً ، وهتفت به العيون وعصفت بقلبه الجفون ، فاندفع وتألم فى مذاهب الهوى . ولم يكن وجهه بالقبيح ، ولكنه كان جَهْماً عظيم الخلقة لا تألفه الرقيقات ولا المترفات من بنات حواء ، وأبى عليه نزوعه بنفسه وإعزازه إياها إلا أن يحب من هن أعلى منه بين الناس وأرفع منه مولداً . ولو قد كان ثعلباً محتالاً لبلغ منهن ما يبلغه من النساء كل ثعلب محتال متواضع الذكاء ، ولكنه كان صادقاً صريحاً يحب فى عنف ، ويتكلم فى عنف ، فلم يكتب له التوفيق . وتحطمت غرامياته وصوحت آماله فى الهوى ، وتفرقت عنه الحبيبات وتركته يؤكد لمحدثيه أنه وإن كان قد أحب كثيراً وفشل كثيراً ، إلا أن أمره لم يفتضح مرة ولا جرى على اسمه على الألسن مشفوعاً بسخرية أو احتقار . وهذا كلام هو أقرب إلى طلب العزاء ! وقد عاش الرجل محروماً أو كالمحروم ، رغم أنه كان فى الذروة من أهل عصره تألق نجم وعظم مكانة ؛ وربما كان ذلك فى ذاته من عجائب الزمان ! .

فى هذه الأثناء كان نجمه فى صعود وكانت ملكاته فى نمو ، كان لا يكف يؤلف الألحان ويضع الأنغام ، يتأمل الدنيا ويصغى إلى صوت نفسه ووحى إلهامه ثم يسطر صدى ذلك كله . ولم يعرف الفن الموسيقى الصحيح - بعد باخ وهيندل وهايدين وموتسارت - من قاربه فى إحكام النغم ودقة المعرفة بألوانه وقوانينه ، وقد سما بالموسيقى الخالصة التى لا يصاحبها غناء إلى أوج لم يدانه فيه أحد قبله ولا بعده . وقد كان يظل يكتب السطر الواحد أياماً وليالى لا يكاد يستقر على نحو يرضيه ، وكانت نفسه متفتحة لوحى الطبيعة الصادقة وكان ذهنه قديراً على صياغة ما يتلقى صياغة محكمة بديعة تهز النفس إحكاماً وصدقاً وعمقاً .

ولعل الكثيرين لا يعرفون من موسيقاه غير هذه السيمفونيات التسع التى جمعت الفن الموسيقى كله على نحو ما جمعت كتابات جيته الأدب والفن والفلسفة جميعاً . فى حين أن

له من الآثار الفنية ما يعدلها أضعافاً ، لأنه لم يغادر لوناً من ألوان الفن الموسيقى دون أن يكتب فيه ويكثر ويجيد . ومن غرائبه التى ينفرد بها أنه لم يخلف قطعة واحدة فيها ركاكة ، بل كل إنتاجه جيد رصين محكم ، وكل نغم عنده يحمل من المعنى أكثر مما يصل إليه ذهن السماع والمفسرين ، وقد كان لفرط ما يتجمع فى نفسه من المعانى يطلقها فى الأنغام يَزْحم بعضها بعضاً ، فأنت تسمع فى مطلع السيمفونية الروضية (السادسة) أنغاماً رقيقة ضاحكة من الناى الخشبى يجتمع فيها صفو الطبيعة ونداء الراعى ومناجاة الحيوان البرى الطروب ، ثم تعقبها هتفات قصار خفاف تتناوبها الآلات واحدة بعد واحدة فيخيل إليك أنها تصور تعابث الحملان أو مناجاة الطير أو هتاف الناس ، وهكذا تزدحم فى كل عبارة موسيقية عشرات المعانى .

وقد كان هو نفسه لا يفسر النغم بل يدع الناس وشأنهم معه ، وهو لم يطلق على واحدة من سيمفونياته الفريدة اسماً بعينه ، بل سماها باسمها الفنى بحسب مكانها من النغم . وأما قولنا : « الإيرويكا » أو « الباستورال » أو «سميفونية الأقدار » فتسميات مفسرين أرادوا تقريب المعانى الموسيقية للناس ؛ هذا إذا استثنينا السيمفونية التاسعة فقد أهداها هو بنفسه إلى المسرة لأنها كانت صدى لقصيدة فريدة للشاعر فريدريش شِلَر عنوانها «إلى المسرة An die Freude » ، وهى ـ فى بُعد مداها وتجاوب أنغام الهاتفين بلحنها وتناوب الترنم بين أصوات النساء والرجال ـ أقرب إلى أن تكون صلاة إنسانية شاملة ، فيها مناجاة لله وشكر للخالق وشكوى من ويلات الحروب وسعادة بسيادة السلام بين أهل الأرض أجمعين .

ومن منا لم يُلق بسمعه إلى هذا الموسيقى العظيم وهو يرسل المطر ، ويسير السحاب ، ويبعث البرق ، ويصوِّر الزهر ، ويهمس همس النسيم ، ويردِّد هتاف الطير السابح ؟ ومن منا لا يعجب بهذا النحو الفريد فى تصوير ذلك كله ؟ وإنك لتتأمل كيف يصور العاصفة فلا تجده يحدث لك صخباً تشترك فيه القوارع والطبول وتتعاون على إيذاء السمع وإنما يتصاعد بأصوات القيثارات ويعنف بمسِّها على الأوتار ويُصحِبُها أبواقاً تدَوِّى ، فتستشعر العاصفة فى نفسك دون أن تنزعج نفسك هذا الانزعاج الرخيص الذى يلجأ إليه ذوو الملكات الفقيرة ممن يضعون الألحان المصاحبة لروايات السينما .

وقد كان بعض الموسيقيين قبل بيتهوفن يلجأون إلى هذا النوع الرخيص من وسائل لتأثير فى السامعين ، فكانت أوبراتهم صخباً كلها كما ترى فى الأوبرات النابلية [1] ، فجاء هذا الأستاذ الكبير فأعاد النغم إلى جماله وحفظ عليه جلاله ، وحمله المعنى المراد دون انحراف به عن رِنَّته وانسجامه ، وعلم الناس كيف يكتبون موسيقى تصويرية ، بل علمهم كيف يتفلسفون بالأنغام .

ومن منا فكر فى هذا الجهد الشديد الذى بذله بيتهوفن ليخرج لنا هذه الألحان البديعة التى يخيل للإنسان وهو يسمعها أنها مقبلة من عالم آخر ؟ ومن منا يذكر أنه كان لا يزال يراجع ما يكتبه ويصححه ويعدله ويعيد كتابته ، ثم يتركه فترة من الزمان ليعود إليه مراراً أخرى قبل أن يذيعه فى الناس ؟ يقولون إن مراجعاته للحن الواحد كانت تبلغ عشرات المرات ، وأنه لفرط اهتمامه بموسيقاه كان لا يذيع شيئاً ولا ينشره إلا مرغماً ، وأنه كان إذا أسلم لحناً بعد طول العناء لم يسلمه لأنه يرضى عنه كل الرضا ، بل لأنه كان يتعب من طول التغيير والتبديل ويقف من هذين عند حد لا يقبل الزيادة .

وكان لفرط إيمانه بالفن لا يكاد يكتب شيئاً إلا إذا صدر عن إحساس صادق ونفس حفزتها عاطفة أو هيَّجها شجن ، فلم يكن إذا طلب التلحين يجلس إلى معزفه ويأخذ يجرب ، بل ينتظر لحظة تتحرك فيها نفسه ، فإذا طال به الانتظار خرج إلى الرياض والغابات يستوحيها ويستدنى فى أعطافها فيضَ النفس المتأثرة .

وكانت أوفر ساعات إلهامه فيضاً هى ساعات هياج الطبيعة : كان ينتظر حتى تغضب السماء ، ويبرق البرق ، ويُدَوّى الرعد ، وينهمر المطر مدراراً فيمضى فى وسط العاصفة وماء المطر يتساقط على رأسه ويتحدر على ثيابه ويبلل جسده حتى ليمس عظامه ، فتسرى الرعدة فى بدنه وتهتاج نفسه ، ويأخذ يشعر بالنغم يتردد بين أذنيه وقلبه ، فينقلب مسرعاً إلى داره ، ويجلس إلى معزفه وتمضى أصابعه تترجم وحى نفسه ، ثم يمسك القلم ويمضى

---

(١) نسبة إلى نابولى . وهى نوع من المسرحيات الموسيقية نشأ فى نابولى ومنها انتشر فى نواحى أوربا جميعاً .

يكتب ، وكلما جرب شيئاً واستراحت إليه أذنه كتبه فى عجلة الحريص على ألا تفوته همسة من هذا السيل الدافق ، وتنقضى الساعات وهو يكتب حتى تكل يداه ، وتراه خادمته فى نصبه هذا فتسرع إليه بشىء من النبيذ يدفىء به عظامه ويندى به فمه ، فإذا بلغ من الكتابة مطلبه ألقى القلم وخرج يتمشى .

ويعود بعد ساعة ، فربما وجد الخادم قد احتاجت إلى شىء تنظف به بعض الآنية فلم تجد إلا ورقة من الأوراق التى سجل فيها أنغامه طارت بها الريح إلى الأرض ، فأخذتها الخادم تحسبها بعض المهملات ! فتهتاج أعصابه ، ويمضى إلى الحان مغاضباً ، فإن وجد صاحباً له أفضى إليه بذات نفسه وسُرِّى عنه ، وإلا بقى الساعات وحيداً مقطب الوجه مجهد الفكر .

لا عجب إذن أن يبلغ بيتهوفن بالتلحين الموسيقى مداه ، كانت موسيقى الآلات إلى أواخر القرن السابع عشر مجردَ مصاحبةٍ لإنشاد المنشدين أو توقيعاً لأقدام الراقصين ، وكان الناس قد شعروا من أواخر القرن الثامن عشر بأن الآلة الموسيقية ينبغى أن تستقل بنفسها وألا يكون عزفها مجرد مصاحبة أو توقيع ، ومن ثم أخذوا يتركون الآلات ذات الصوت الضعيف ـ كالعود ـ ويقبلون على الآلات القوية الصوت ـ كالبيانو ـ أو البعيدة الرنين ، كالقيثارة والنفير بأنواعه .

وكان صوت البيانو أولَ الأمر يخرج من ضربات ريشات على الأوتار ، فاستعاضوا عنها بالمطارق ، فقوى الصوت وامتلأ وأصبحت إصبع اليد إذا مست إصبع البيانو دوى لذلك صوت رنان ملىء دقيق . وجوّد الإيطاليون صناعة القيثارة وتفننوا فى بناء صَدْرها وإحكام وضع الأوتار عليه حتى أصبحت أقدر ما تكون على إخراج كل نغم إخراجاً دقيقاً . فإذا اجتمع البيانو ذو المطارق والقيثارة بأحجامها المختلفة ، فقد ثبت أساس الموسيقى الحديثة وأصبح التعبير بها عن كل مطلب ميسوراً .

وكان باخ وهيندل قد أفادا من ذلك وحررا النغم من أواصر الغناء والرقص ، ولكنهما لم يجعلا الموسيقى الخالصة تعبيراً صريحاً عن أفكار ، فجاءت موسيقاهما ـ على جمالها ـ مجرد تراكيب موسيقية دقيقة تروع النفس والأذن ولكنها لا تشغل الذهن . وكان هايدن قد خطا

بهذه الموسيقى الآلية خطوة كبرى حين جدد السيمفونية ونسق أنغام الآلات وجعل منها وَحدة ، حتى أصبح الأوركسترا ـ على كثرة آلاته ـ يعتبر آلة موسيقية واحدة . ثم أقبل موتسارت بما آتاه الله من فيض العبقرية المشتعلة وفيض النغم السيال ، وبدأ « يفكر » بالأوركسترا : يكتب « موسيقى ليلية » ، ويصوّر « أحزان نفس » ؛ ولكن الموت عاجله وهو فى ريعان شبابه وعنفوان إنتاجه .

وأتى بيتهوفن ، فكأنما تسلم الرسالة واعياً أنَّ عليه أن يسير بها فى طريقها المقرر المرسوم : فصل بين الآلة والصوت ، وجعل النغمة فكرة ، تخطر برأسه الفكرة أولاً ثم يترجمها إلى نغم ، فأنت إذا مضيت تقرأ إحدى نوتاته الموسيقية قرأت كلاماً موسيقياً منطقياً مسلسلاً مفهوماً . ومن ثم لا غرابة أن يسمى الناس مجموعة النوتات المرتبطة ببعضها بعضاً « كلمة » ، ومجموعة الكلمات التى تكون لُحَيْناً مستقلاً « موضوعاً » Thema ، وكل لحن قائم بذاته « دافعاً » Motiv ، ومجموعة الدوافع أو الأفكار « جملة » أو فقرة Satz .

أصبح من الميسور إذن أن يفكر الإنسان بالنغم وأن يتكلم ويكتب به ، بذلك خطا هذا الفن ـ الذى لا زلنا نعتبره دعابة وتسلية ـ إلى مستوى الفنون الإنسانية العالية التى لا يقدر على الإلمام بها وتجويدها إلا من أوتى استعداداً فكرياً وقوة ذهنية يمكنانه من فهم التفكير النغمى بالضبط ، كما لا يستطيع فهم التعبير بالشعر أو التعبير بالألوان إلا من حباه الله بالاستعداد الفنى ويسرت له ظروفه فرص الدرس والتجويد .

وانقسمت الموسيقى من ذلك الحين إلى موسيقى رفيعة عالية هى موسيقى الفكر الجليل والعاطفة المهذبة العالية ، وموسيقى رخيصة هى التى يترنم بها صبية الشوارع وتنشدها غانيات الهوى المبتذل ويخرجها واضعو الموسيقى لأقدام الراقصين والراقصات ؛ وليس يستطيع فهم الأولى والاستمتاع بها إلا الذكى المثقف المرهف الطبع ، كما لا يفهم أشعار جيته وأبى العلاء إلا كل إنسان عالى النفس واسع الذهن . ومن عجب أنك تجد الآلاف عندنا يسُلِّمون بأنه لابد من صبر ودرس طويلين حتى يفهم الإنسان كلام جيته وأبيات أبى العلاء . ولا نجد فيهم إلا من يعزف عن بيتهوفن ، ويقول : « إننى لا أفهم موسيقاه ! » غير مُسَلّم بأن الاستماع إلى بيتهوفن يستلزم درساً طويلاً وصبراً ومعاناة وتعويداً للأذن ، لأن

موسيقاه ليست مجرد تنغيم عذب مريح ، بل تفكير مجهد ؛ ومن طلب الحسناء لم يُغلها المهر .. كما يقولون .

إلى بيتهوفن يرجع الفضل فى معظم ذلك التحول الحاسم فى تاريخ الموسيقى الأوربية ، فانفتحت أمامها سبل من التعبير وآفاق من السمو ، يسّرت لعشرات من العبقريات الإنسانية أن تجد فيها أسلوباً ميسّراً للتعبير والوصف ، لا يقل عما يسعد به الأدباء والشعراء من وسائل الإفصاح عن الأفكار بالكلام المنظوم وغير المنظوم ؛ وما من موسيقيٍ ممن نُعجب بهم فى القرن التاسع عشر أو فى قرننا الحالى إلا وهو بعض فضل بيتهوفن على الإنسانية ، وسيظل اسمه إلى أبد الدهر عَلماً على النغم الرفيع واللحن السامى البديع .

ومن عجب أنه ـ على رغم ذلك الاجتهاد فى التجويد والبحث عن القالب الموسيقى السليم لكل فكرة ـ كان مكثراً لا مقلاً . ففى السنوات العشر التى انقضت بين ١٧٩٣ و١٨٠٣ ـ وهى سنوات شبابه الحافلة بالآلام ، وفيها شعر بضعف السمع ـ فى هذه الفترة كتب الخمسين عملاً الأولى من ديوان أعماله الحافل ، ومن هذه الخمسين نجد « السمفونية العاطفية Sonate Pathe'tique » ، ولحن « ضوء القمر Mondscheinsonate » ، وست رباعيات للقيثارة ، والسيمفونيتين الأوليين ، وعدداً من القطع الكبرى للبيانو يصاحبه الأوركسترا كله ، بينها أعظم قطع البيانو قاطبة وهى المسماة Drittes Klavier Konzertin c-mII » وهذه كلها آثار فنية موسيقية خالدة وضعته عند معاصريه فى صف هايدن وموتسارت ؛ أى أنه استطاع أن يجمع تراث الفن كله بين يديه وهو فى حدود الثالثة والثلاثين .

ثم مضى بعد ذلك يضيف لَبنات جديدة إلى الفن الموسيقى الإنسانى ، فابتداءً من القطعة الثالثة والخمسين من ديوان أعماله ـ وهى « لحن فالدشتاين » [1] ـ نجد فن بيتهوفن المكتمل الناضج ، ثم تتابع إنتاجُ الغُرر بعد ذلك فى سرعة فائقة وكمال يحير النفس ومارأيك فى بدائع من أمثال الأباسّيناتا ، وقطعه للبيانو مع الأوركسترا (ج دُور)، ورباعيات

(1) Klaviersonate c, op 53

راسُومُوفسكى الثلاث ، ولحن القيثارة المعروف فى فيديليو ، ومقدمة كُوريولان ، والسيمفونية الخامسة ؛ كلها تتابعت فى نسق واحد وإبداع جليل استرعيا أنظار الناس جميعاً وأسماعهم إلى هذا العبقرى الصَّناع ، الذى يطرب الدنيا ويهز الأفئدة وهو مع ذلك حزين النفس مروع مما يعترى سمعه من ضعف متصل يحرمه الاستمتاع بموسيقاه !.

* * *

وكأنما ساء الأيام أن ترى هذا العبقرى لا يكاد يكترث لما تُثقل عليه به من متاعب الأسرة ومرارة الحرمان ، فقد ظل رغم ذلك مرحاً سعيداً يعمل عملاً متصلاً وينعم مع صحبه والمعجبين به بأوقات طيبة تعوض عليه بعض ما كان يلاقى ، فأدرك الأيام ذلك الحسد من العباقرة والسعداء الذى أحسَّ به الإغريق منذ فجر الإنسانية وعبَّروا عنه فى صور شتى، فأقبلت تفجعه فى أعز ما يملك وهو سمعه الذى يصله بالحياة ! .

وهل كانت الحياة فى حسابه إلا أنغاماً يفيض بها قلبه ويسمعها بأذنيه ؟ فكيف إذا غشَّى السكون سمعه وقعد به الصمم عن سماع أنغامه ؟ كيف يتصل بالحياة ويأخذ منها ويعطيها ؟ بل كيف يعيش بين الموسيقيين ويعزف للناس ويدير الأوركسترا وهو لايسمع ؟ .

هنا كانت مأساة حياته الكبرى : بدأ بيتهوفن يحس ضعف سمعه وهو فى حدود الثلاثين ، وكان إذ ذاك فى عنفوان عمله وإنتاجه ، فأخذ ينكر ضعف سمعه ويكابره ، ولكنه لم يلبث أن استبان أن هذا الضعف حقيقة لا سبيل إلى الهرب منها ، وزاد فى قلقه أنه كان يزيد على الأيام . ولو قد أتى هذا الضعف نتيجة للإجهاد لاستطاع تلافيه بالراحة ، ولو أتى نتيجة لمرض لأمكن علاجه أو إيقاف تقدمه على الأقل ، ولكنه أتى نتيجة لضعف داخلى فى أعصاب السمع ، لم يعرف أطباء ذلك الزمان له علاجاً ، وقد مضى بيتهوفن يستشير الأطباء ويعرض عليهم نفسه ، فلم يستطع واحد منهم تعرف السبب الحقيقى لهذه الكارثة .

واستمر الضعف يتزايد ، وأخذ السكون يشتد حول الموسيقى العظيم ، فزاد شعوره

بالوحدة واعتزال العالم ، حتى انتهى به إلى الصمم التام فى سنة ١٨٣٠ ، أى قبل وفاته بسبع سنوات .

وربما خفف وقع هذه الكارثة أنها أتت على مهل ولم تهبط مرة واحدة ، فلو أنه فقد سمعه إثر حادث أو نتيجة لمرض عنيف لربما ذهب ذلك بعقله وأطفأ شعلة نفسه ، ولكنه أقبل متئداً يتزايد مع الأيام حتى اعتاده الرجل واستكان له آخر الأمر .

ولو أن ملكة بيتهوفن الفنية لم تكن بهذا الكمال والصفاء لما استطاع الاستمرار فى التلحين والإنتاج ، ولكنه كان قد وصل عند الثلاثين إلى درجة من النضج الفني جعلته يتصوَّر الموسيقى ويكتبها دون حاجة كبيرة إلى سماعها ؛ ومن دلائل ذلك أن إنتاجه بين سنتى ١٨٠٨ و١٨٢٥ زاد واتصل حتى بلغ من الوفرة والعظمة مبلغاً لم تسجل الإنسانية مثله لموسيقى آخر فى مثل هذه الفترة ، فكان يُخرج فى العام الواحد الثلاث والأربع من غرره الخالدات ، فبين سنتى ١٨٠٨ و ١٨١٠ مثلاً فرغ من السيمفونيتين الخامسة والسادسة ، وأخرج درة من درر البيانو (كونسرت البيانو الخامس Es مؤلف رقم ٧٣) وسبعة عشر عملاً آخر .

وكان شعوره بالسعادة على أوفى ما يكون فى هذه الفترة ، فقد كتب فى سنة ١٨١٠ يقول : « إنه ليخيَّل إلىَّ أننى سأسجن يوماً ما لفرط ما أدركه من الشهرة ! إن الحظ السعيد يسعى فى أقدامى وإن ذلك ليخيفنى ، إننى لأخشى أن يكون ذلك نذير شر جديد مقبل ! » والواقع أن صراعاً كان يحتدم فى نفس هذا الرجل العظيم ، كان يشعر بأن الحياة تريد أن تصرعه وتمشى على جدثه كما فعلت بغيره ممن سَمَوْا إلى أوجه ، فكان يحاربها ويشتد فى حربها ويحاول أن يثبت لتيارها رغم كل شىء ، وكانت تنتابه من اليأس والحزن نوبات تزعزع فى نفسه الثقة حتى كاد يقتل نفسه خلال إحداها .

وكان سِرُّ هذا الضيق الذى كان يثقل على صدره بين الحين والحين أن الحياة لم تأذن له بفرصة واحدة كاملة من السعادة برغم كل ما بذل : غاصت غرامياته وغرقت فى بحر الحياة وظل وحيداً ، وتخوَّنه أهله وسرقوا ماله وأنكروا فضله وآذوه فى كل عزيز لديه ، واعتلت صحته حتى كان لا يستطيع الاستمتاع بطعام طيب أو بنوم هادىء ، ثم انضاف إلى ذلك

كله هذا الصمم الرهيب الذى كان يزيد عوامل اليأس ودوافع الموت فى نفسه .

وجاهد بيتهوفن ذلك كله جهاداً متصلاً ، وكانت آلام نفسه كلما زادت زادت معها حماسته فى العمل وزاد إنتاجه رقة وصفاء وحساسية ، ففى سنة ١٨٠٢ أخرج للناس السيمفونية الثانية المسماة « بسيمفونية الأقدار » التى لايكاد الفن يجد لها عديلاً فى الصفاء ولا فى الرقة ولا فى كمال النغم وعمق التفكير ، ولو أن الإنسان أحب أن يستنتج منها حالته النفسية لاستنتج أن يكون الرجل فى أحسن حالاته وأرضاها ، ولكن الواقع أنه كان فى أتعس حالاته وأوغلها فى الشقاء ، فقد كتب فى السادس من أكتوبر سنة ١٨٠٢ وصية يودع بها الناس ويقول : « أيها الناس ! يا مَن تحسبون نفسى محملة بالعداوة والعناد وكراهية البشر ... كم تخطئون فى حقى ! إنكم لا تعلمون سرَّ ما يبدو لكم منى وأسبابه لقد كانت نفسى منذ طفولتى أميلَ ما تكون إلى اللين والرقة ، ولقد حاولت تحقيق ذلك ما استطعت ، ولكن الدهر رمانى منذ ست سنوات فى جحيم لا مخلصَ منه ، وقد بذلت جهدى لأنجو من ذلك ولكننى لم ألبث أن ارتددت بسبب ما مُنيت به من سوء حال سمعى . إن شيئاً واحداً يحول بينى وبين قتل نفسى .. هو الفن ! إن الفن يمسكنى فى قيد الحياة ، وليس فى استطاعتى أن أبارح هذه الحياة قبل أن أتم ما أشعر بأننى قادر على إتمامه أيها الناس ! لو قُدِّر لكم ذات يوم أن تقرأوا هذه السطور فاذكروا أنكم لم تكونوا عادلين معى ، وليتعزَّ التعساء منكم بما جرى لواحد منهم حاول رغم كل عقبات الطبيعة أن يجد لنفسه مكاناً بين الفنانين والناس المحترمين .. ولكن لابد مما ليس منه بد ! إننى أتعجل الطريق إلى الموت فى سرور ... » .

إلى هذا الحد بلغ يأسه ومرارته بالحياة فى لحظة فاض فيها إلهامه وإنتاجه حتى عُدَّ أعجوبة من أعاجيب الزمان .

بيد أننا لا ينبغى أن نبالغ فى تقدير وقع كارثة الصمم فى نفسه ، فقد احتملها الرجل صابراً متجملاً ، وزاد على آلامها إنتاجاً وعملاً . وقد حاول أول الأمر أن يتغلب على ماوضعته فى طريق حياته من عوائق ، فمضى يدير الفِرَق الموسيقية ويعزف فى المسامع ، ولكنه لم يلبث أن أحس أن ذلك عسير عليه بل مستحيل ؛ وانتهى به الأمر إلى التسليم

بالانصراف عن الإدارة واكتفى بالعزف ، ثم انصرف عنه كذلك واكتفى بالتأليف . وقد استعاض عما فقده من لذة العزف والإدارة بزيادة الاتصال بالناس والاستمتاع بالحديث إليهم ، ولم يكن يسمع ما يقولون بل كانوا يكتبون له كل شيء ، وكان هو يتحدث ويشرب فى لذة ظاهرة ، وقد أصاب من اجتماعه بالناس هذا ومن حديثه إليهم ومن زياراتهم له أنساً خفف من عزلته وآلامه ، فرقّت حياته نوعاً وصفت نفسه أحياناً ، وعاد يحب الحياة قبيل وفاته أكثر مما كان يحبها فى عنفوان شبابه وأيام اكتمال صحته .

* * *

واتصلت آلامه على هذا النحو إلى آخر أيام حياته ، وكلما تقدم به العمر وزادت به وطأة الصمم اشتد ميله إلى الشراب والجلوس مع الناس فى المشارب والحانات ، ولم يصل به الأمر إلى حد الإدمان ، ولكنه أضر بكبده ، وقد كان يشكو ضعفه منذ حين . وفى العام الذى أخرج فيه للدنيا سيمفونيته التاسعة المعروفة بأنشودة السلام ، والتى لا زال الناس يرددونها كلما اشتدت بهم الخطوب أو اجتاحتهم الحروب ، بدأ مرض كبده يظهر فى شكل محزن منذر بالخطر ، وانضاف بذلك إلى متاعب هذا العبقرى الجليل عنصرٌ جديد لعله كان أشد ما عرف فى حياته ، فإن الكبد المريضة لا تزال تفسد على صاحبها أيامه وتهبط عليه بالأوجاع حتى تسود فى عينه الحياة ؛ وكان بيتهوفن بين أن يهجر المشارب جملة ويعتزل الناس ويسلم نفسه لوحدته وآلامه ، وبين أن يمضى إلى الحان ويجلس إلى أصحابه ساعات ينسى فيها متاعبه ثم يعود إلى بيته آخر الليل بكبد مُتَضرِّمة ! فظل يواتر بين هذين الوَيْلين خلال السنوات السبع الأخيرة من حياته .

وحدث فى أول ديسمبر سنة ١٨٢٧ أن ذهب يزور يوهان أخاه فى جنايكزنبرج لكى ينظر فى أمر ابن أخيه كارل ، ولم يشقَ إنسان كما شقى بيتهوفن بأقاربه جملة وبكارل هذا خاصة وكان أخوه يوهان رجلاً قليل الخير لا يكاد يشكر للموسيقىّ العظيم جميلاً ، ويبدو أنهما اختلفا فى أمرٍ فمضى عنه بيتهوفن مغاضباً ، وركب فى عربة مكشوفة والمطر ينهمر ، فلم يصل إلى داره فى فينا إلا وقد ملأ البرد رئتيه وأصابه فى مقتل . وقد جاهد المرض جهاداً شديداً ، ولكن النزلة كانت أشد مما يحتمل ؛ وقد قلت حـدة المرض بعد بضعة أسابيع ، فما

كاد يشعر بشيء من التحسن حتى بدأ يتحدث عن سيمفونية جديدة دارت خطوطها الرئيسية برأسه ، سيمفونية عاشرة لم يأذن له المرض فى كتابة سطر واحد منها ، ثم بدأ يخطط فى نفسه « أوراتوريوم » ـ أى مشهداً موسيقياً ـ عن داوود وشاءول !

وكان الأطباء قد أذنوا له فى أن يتسلى ببعض المطالعة الخفيفة ، فإذا به يطلب هوميروس وبلوتارك وأفلاطون وأرسطو لكى يغذى ذهنه المضطرب المشوق إلى المعرفة ! وأقبل عليه زواره جمعاً بعد جمع ، فكان على عهده أيام تسكت عنه المصائب مرحاً لطيفاً . وعاد الأملُ إلى قلوب الناس فى إبلاله وعودته إلى العمل ، ولكن الاستسقاء عاد إلى حِدته الأولى ، وامتلأ صدره وجلده بالماء حتى استحال عليه الكلام .

وفى الثالث والعشرين من مارس سنة ١٨٢٧ زاره الأطباء ، واستشعر من هيئتهم قلة الأمل ، فلم يكادوا يخرجون من عنده حتى نظر إلى عائديه وردد آخر عبارات أغسطس على فراش الموت : « صفقوا أيها الأصدقاء لقد انتهت المهزلة !.

« Plaudite amici, comoedia finita est

وفى الساعة السادسة من مساء السادس والعشرين من مارس سنة ١٨٢٧ صعدت روحه إلى بارئها بعد احتضار مضنٍ دام قرابة اليومين .

* * *

أكان الرجل سيىء الخلق حقاً ، أكان مصاباً بالجنون حقاً ؟ الحق أن الدنيا لم تظلم عبقرياً بمثل ما ظلمت هذا المسكين ، فقد تَقَضّى شبابهُ بين آلام الفقر والحرمان وعقوق الأهل وضعف الجسد وكراهة الناس له . وفى هذا الوقت نفسه كان جيته يتقلب فى مهاد النعمة ويتنقل من رعاية أمير إلى حب فاتنة ، يقضى الشتاء فى « بلاد الليمون » (إيطاليا ، وهكذا كان يسميها) وينفق الصيف فى غابات ألمانيا وينعم بإعجاب المعجبين . كان بيتهوفن يرى ذلك ويدركه منه شيء من الحسد ، ولكنه كان يتمالك نفسه . وليت جيته نفذ إلى أغوار نفس هذا الإنسان العظيم !.

لقد التقى العظيمان فى تِرْبتز فى سنة ١٨١٢ : دهش جيته أول الأمر ، وكتب إلى زوجته

يقول : « لم أر فى حياتى فناناً أكثر انكماشاً ولا أوفر نشاطاً ولا أغنى داخلاً من بيتهوفن . إننى أفهم تمام الفهم كيف كان ، لابد أن يصبح عجيبة من عجائب الدنيا » . وكان يسير مع بيتهوفن فى الطريق العام بعد ذلك بأيام ، وأقبلت الأسرة المالكة فى عربتها ، وتنحى الناس لها عن الطريق ، وتنحى معهم جيته ورفع قبعته باحترام وحيا الدوقَ الكبير رودلف والقيصرة ، أما بيتهوفن فقد بقى مكانه وسط الطريق ولم يرفع قبعته للتحية إلا بعد أن حياه الدوق والقيصرة ! فأنكر جيته من بيتهوفن هذا التصرف ، ورأى فيه تصلباً وعناداً وشذوذاً لا معنى لها ، وشابَ علاقاتهما لون من الجفوة ، وكتب جيته بعد ذلك بقليل إلى صديقه تْسِلتر : « لقد تعرفت إلى بيتهوفن فى تِرِبِتْز ، ولقد أذهلتنى مواهبه ولم ألبث أن تبينت أنه شخصية شرود ليس لها الحق فى أن تشكو من أن دنياها شىء كريه لأنها لا تعمل شيئاً يجعل الحياة محتملة لها أو للآخرين ! » .

هكذا أبى جيته أن يقرِّب هذه النفسِ الكبيرة المعذبة أو يفيض عليها حبه وحنانه اللذين أفاضهما على كل ما فى الوجود ، ولو فعل لوجد لبيتهوفن من آلامه مخرجاً . والواقع أن جيته لم يكن ليستطيع فهم بيتهوفن لأنه كان فناناً من طراز آخر : جيته يعبث بالحياة ويسخر منها ويجرب كل ما فيها ، وهو يقبل على ذلك كله فى شغف الفنان المتطلع إلى كل شىء ، الذى يريد أن يعرف كل شىء ، أما بيتهوفن فقلبه معلق بالمثل الأعلى فى كل شىء ، لا يأذن لنفسه فى لذة إلا إذا أجازت الأخلاق الاستمتاع بها ، وإلى هذا التزمت المجهد يرجع السبب فى حرمانه من المرأة ، وما استتبعه ذلك من شعوره بمرارة الوحدة والعزلة عن الناس .

كان بيتهوفن يرى ما يمرح فيه جيته من نعيم ، ويتسامع بغراميات شيلر وببعد صيته ، ويرى شبح نابليون حيثما سار ، وكان يشعر أنه ليس بأقل من هؤلاء ملكة ولا عبقرية ، فكان يتأمل ماهو فيه من الجهد والحرمان والمرض ، فتثور نفسه ويشعر أن الدنيا تظلمه ولاتريد أن تعطيه نصيبه . ولكن هذا الشعور لم يؤدِّ به إلى كراهية الناس أو إلى كراهة واحد ممن ذكرنا ، لأن أساس نفسه كان طيباً كريماً ، وكان فى نفسه رقيقاً عطوفاً لا يكاد فى حالات صفوه يغضب على أحد .

حكوا أنه كان يقضى بعض ساعات النهار فى مقهى صغير يؤلف ويقرأ ، فلاحظ أن فتى وفتاة يلتقيان فى نفس المكان ويقضيان معاً فترة من الزمن فى مناجاة كل يوم ، ثم لاحظ بعدئذ أن الفتى كان يأتى بعد ذلك ويجلس وحده حزيناً كئيباً ، فنهض إليه يسأله عن حاله ، فإذا فتاته قد خاصمته ، فما كان من الموسيقى الكبير إلا أن حمل رسالة اعتذار من الفتى إلى الفتاة ، ومازال بهما حتى عاد بينهما الود والصفاء ! ...

ولم يكن أعطف منه على من هو أصغر منه فى عالم الفن ولا أكثر تشجيعاً . لقد أطرى كيرُوبينى ، وهنأ روسينى على توفيقه فى « حلاق إشبيلية » ، حتى كارل ماريا فون فيبر ـ الذى ظل زماناً طويلاً يطلق لسانه فى بيتهوفن ويزعم أنه لا يفهم موسيقاه ـ لقى عنده قبولاً طيباً كان له أعظم الأثر فى نفسه ؛ بل كان يعرف أن فلاناً يناله بالسوء فلا يمنعه ذلك من إكرامه والعطف عليه إذا لقيه . أما مايقال من أنه لم يحسن لقاء فرانتس شوبرت ، وأنه لم يمد له يد المساعدة فغير صحيح ، وقد استحال على بيتهوفن أن يساعده ، لأن شوبرت كان خجولاً ، ولم يجرؤ على زيارته مرة أخرى . وقد سمع بيتهوفن شيئاً من موسيقى شوبرت وهو على فراش المرض فقال : « حقاً إن نفس شوبرت هذا تضم قبساً إلهياً ، وكان لا يفتأ يسأل عنه بعد ذلك .

إن قصة حياة بيتهوفن إنما هى قصة الفن المعذب فى الأرض .. قصة كل قَبس إلٰهى يؤتى به للناس .. إنها قصة بروميثيوس وقبسه الذى شقى به وأنار به للناس . وقد أحس هو ذلك ، وكتب قطعة موسيقية حول مأساة بروميثيوس [1] .. وقصة حياته هى قصة الأنبياء وذوى الرسالات الكبرى ، ممن تضيق بهم الأرض وينفر منهم الناس ، وتهبط عليهم المصائب جماعات يستدعى بعضها بعضاً ، لا يعرف الناس فضل هذا الطراز من قادة البشر إلا حين تفارق أرواحهم الأرض وتمضى إلى الملأ الأعلى ..

حدثوا أن اللحظة التى شهدت ختام حياة بيتهوفن شهدت عاصفة عنيفة اجتاحت فينا .

---

(1) Musik zum Ballet, Die Deschopfe des prometheus (op.)

وهزتها هـزاً ، فكان النُّعاة ينتقلون بالخبر المحزن فى ظلال العاصفة وفى رعب الرعد القاصف ، فكأنما مادت الدنيا بأهلها لوفاة هذا الإنسان الجليل .

وفى اليوم التالى ـ وهو الخامس والعشرون من مارس سنة ١٨٢٥ ـ اجتمعت فينا كلها ووقفت حاسرة الرأس خاشعة النفس تشيع الرجل العظيم إلى مرقده الأخير ، حيث يدرك الراحة التى لم يجدها فى هذه الدنيا ، ووقف واحد من أكبر أدباء الألمان ـ هو جُرِلبارتسر ـ يلقى تأبين الفقيد ..

وفى غمار المشيعين وقف شاب شاحب الوجه مجهد النفس واكف الدمع يشهد بيتهوفن العظيم داخلاً إلى عالم الخلود ، ويتحفز لتسلم رسالة الفن الموسيقى عنه للسير بها إلى الأمام ، ذلك كان فرانتس شوبرت .

محرر العبيد

أبراهام لنكولن

ترى ما الذى يرفع فى نفوسنا من مقام هذا الرجل ؟ ما الذى يضعه منها هذا الموضع الرفيع من الحب والتقدير ؟ أهذه الهيئة الجادة الجافية ؟ أم هذه الروح الصافية ؟ .. أم هذا التاريخ الطريف الحافل بالخير والحق ؟ أم هذه النفس العامرة بالحسنات والفضائل ؟ أم هذا الانتقال الغريب من الخمول الكامل إلى الشهرة الباهرة ، ومن الفقر المدقع إلى مركز الرياسة العظيم ؟.

لو قد كان سر عظمته أحد هذه فحسب لكفاه ، ولَحَق له أن يتخذ مكانه فى أرفع درجات الإنسانية ، فما بالك وقد جمع ذلك كله ؟ وما بالك فى رجل اشتركت هذه العوامل كلها فى تكوينه ، وتعاونت كلها فى صناعته وصياغته ؟ وما بالك وقد استقل عليه مواطنوه مكانه من الناس فرفعوه إلى مكان القديسين ، وقد رأوا فى جماع صفاته وحسنات حياته ما يجعله قديساً لا بشراً عادياً ، ومثلاً أعلى يحتذى لا إنساناً .

ولد فى كوخ خشبى ذى ثلاثة حيطان فى غابة فسيحة على مقربة من هاردْنكو فى ولاية كِنتَكى فى ١٢ فبراير سنة ١٨٠٩ ، وكان أبوه حطاباً فقيراً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، ولم تحتمل أمه مصاعب الحياة فى هذه الحال القاسية ففارقت الدنيا وهو بعدُ فى لفائف الطفولة يعانى من شظف الحياة ما يعانى . لقد نشأ جاهلاً لا يزينه علم ولا ثقافة ، وظل يعانى من هذه النشأة الوضيعة الخاملة حتى أخريات أيامه ! تلك هى الحقيقة الصريحة التى يفاخر بها الأمريكيون ويجعلونها إحدى آيات عظمته وبينات عبقريته ، لأنه فى رأيهم نموذج للعبقرية الصافية الساذجة التى تثبت نفسها بنفسها وتجدُ مكانها على رغم قلة المال وقلة العناية والوسائل .

ولم يكن إلى ذلك بالخارق الذكاء ولا الدؤوب المتفانى فى العمل ، إنما كان يبدو لمن يراه رجلاً بسيطاً عادياً لا يكاد يميزه عن آلاف الرجال حوله شىء . ولم يكن كذلك من الطامحين إلى المجد والعظمة ، الذين لا تمنعهم وضاعة المنبت من طلب الأمر العظيم والصمود له ، وإنما كان رجلاً بسيط المطامع يكاد من يراه يظن أنه لا يرجو شيئاً . ولكن الأساس الوحيد العظيم الذى قامت عليه حياته كلها هو الخلق : خلق ثابت متين يحسّ بقوة الحق ويلزمه ويتكلف كل وَصَب فى سبيله ، ويتحرى الصدق فلا تؤخذ عليه فى حياته السياسية كذبة واحدة . وكان لسذاجته لا يحتال على الفضائل ولا يتحلل منها ـ كما يفعل عامة الناس ـ ثم يحاول بعد ذلك أن يجد لتصرفه تعليلاً ، إنما كانت الفضيلة عنده وحدة لاتتجزأ ، وكان الصدق عنده قانوناً ثابتاً لا يجوز الانحراف عنه لأى سبب من الأسباب .

حكوا أنه تولى الدفاع فى شبابه عن رجل بسيط فى قضية ، وكان فقيراً يكاد لا يكسب عيشه إلا بمشقة ، إذ كان ذلك فى بدء اشتغاله بالمحاماة . فبينما هو فى المحكمة يترافع ، وبينما الاتهام يتحين الفرص ويحاول ليجد السبيل إلى إثبات اتهامه ، وبينما الجمهور معجب ببلاغة لنكولن الذى كان يرد رداً مفحماً على كل تهمة ، إذ به ـ أى لنكولن ـ يتبين أنه لايدافع عن الحق ، وأن موكله مجرم حقاً وأنه قد خدعه ، فلم يكن منه إلا أن انصرف إلى داره وكتب إلى القاضى يعلن إليه ما انتهى إليه ، ويتنازل عن القضية ويعتذر عما كان منه من إتعاب المحكمة والناس .

ثم إن شعوره بالإنسانية كان شعوراً كاملاً دقيقاً قلَّ أن يصل إليه فيلسوف أخلاقى يبحث ويدقق ويتحرى ، كان الناس عنده سواسية لا يزيد أحد منهم على أحد فى حقوقه عند الجماعة الإنسانية : قد تكون أذكى من فلان أو أرفع نسباً من فلان ، ولكن ذلك لايعنى أنك إنسان وهو غير إنسان ، وذلك لا يعنى أنك تفضله أو تمتاز عليه فى الحقوق ، بل إن ذلك لا يبيح لك أن تحسب نفسك أرفع منه مكاناً ... وله فى ذلك القصص العجيب الذى لا يروى مثله إلا لذوى الرسالات الإنسانية أو الإيحاءات السماوية ، فقد مر بزنجى خامل فحياه ، فلامه نفر ممن معه وقالوا له : « تكون رئيس الولايات المتحدة ثم تبادر بتحية زنجى ! » فقال : « أكنتم تريدون أن أنتظر حتى يبدأ هو بالتحية ، فيقول الناس إن رئيس الولايات المتحدة أقل أدباً من ذلك الرجل ؟ » .

وعن هذا الشعور الدقيق بمعنى الإنسانية صدر شعوره بالرحمة ورقة قلبه التى لا نكاد نجد لها شبيهاً فى أمثاله من قادة الشعوب ، فقد كان لا يطيق أن يرى عانياً أو جريحاً إلا سارع بنفسه لتضميد جراحه . حكوا أن سيدة شابة موسرة ركبت فى قطار أثناء الحرب الأهلية ، فوجدت القطار غاصاً بالجرحى ، فأنفت من البقاء فيه ، فبينما هى ضجرة تتأفف إذ بها تجد رجلاً طويل القامة واللحية منصرفاً إلى علاج الجرحى ، ينتقل من واحد إلى واحد حاملاً إناء الماء وأدوات التضميد لا يكاد يسمع أنة جريح إلا جرى إليه وأخذ يعالجه ، ولم تلبث السيدة أن عرفت أن هذا الرجل هو رئيس الولايات المتحدة كلها أبراهام لنكولن ، فأدركها الخجل مما بدر منها ، وأقبلت تضمد الجراح معه وهى تشعر بالسعادة . وهكذا كان الرجل يربى شعبه ويعلمه الإنسانية والرحمة دون أن يقصد إلى هذا قصد المتكلف الذى يتعالى على الناس لشعوره بأنه معلمهم ، أو لأنه يعلمهم مالا يعلمون .

وخطب مرة خطاباً هزَّ القلوب وأقام البلاد وأقعدها ، واجتمع مجلس الشيوخ ليوفيه حقه من الشكر والإعجاب ، وكان ذلك فى أعقاب معركة عنيفة بين الشمال والجنوب كُتب للشمال فيها النصر ، ولكن خسائر أهله فاقت حدّ الاحتمال . فبينما الرجل خارج من داره إذ بصبى يجرى ويصطدم به من فرط السرعة ، فيرفعه الرئيس عن الأرض ويسأله إلى أين يقصد ، فيذكر الصبى أنه ذاهب لإحضار محام يكتب لأبيه وصيته ، ويسأله الرئيس عن أبيه ، فيذكر أنه جندى فقد بصره فى المعارك الماضية ، وأنه يريد محامياً يرتب له أموره فى هذه الحال الجديدة التى صار إليها ، فيمضى معه الرئيس دون أن يعرفه بنفسه .

حتى إذا انتهى إلى غرفة المريض وجده ساكناً يردد كلمات خطاب لنكولن العظيم ، ويجد فى هذا الترديد أجمل العزاء ، وينظر الرئيس فإذا على سرير المريض صحيفة فيها الخطاب التاريخى ، فيفهم أن أحداً من الناس كان يقرأ له فيها ، وأن دخوله ـ أى دخول الرئيس ـ قد قطع عليه هذه اللذة ، فكتب للمريض ما أراد على اعتبار أنه محام عادى ، ثم سأله إن كان يريد أن يتم له قراءة الخطاب ، ومضى يقرأ . ثم انصرف عن الصحيفة ومضى يتلو بقية الخطاب عن ظهر قلب ، لأنه كان محفوراً فى صدره ، ولمحت زوج المريض ذلك ،

وخامرها الشك فى أن هذا هو لنكولن نفسه ، وسألته فى ذلك ، فأجاب بكل بساطة مخاطباً الجندى :

ـ أنا أخوك وزميلك لنكولن ، تجدنى فى خدمتك متى أردت ، كان الله فى عونك وأحسن جزاءك يا بنى ! .

هكذا يكون بناة الأوطان ..

ولقد بلغ من خشونة أيامه الأولى وقسوتها عليه ، وبلغ من شدة ما عانى خلالها أنه كان يتأذى من ذكراها ، لأنها تعيد إلى نفسه مشاعر مؤلمة لم يكن ليستحبها . وخلفت هذه الحياة القاسية فى نفسه نوعاً من الحزن الشامل الشديد ، كان يدفعه إلى نزوات كالجنون فى بعض الأحايين . وقد كثر عليه ذلك أيام شبابه ، أيام كان يعيش فى قرية سبرنجفيلد طالب قانون بسيط أو حطاباً محروماً أو عاملاً على مركب فى المسيسبى ، فكان يقضى نهاره يحمل الأثقال وينفق زهرة شبابه فى أتفه الأعمال . فى هذه الحقبة من تاريخه كان يصاب بلون من الذهول والسأم من الحياة ، حتى لقد فر ليلة زفافه واختفى دون أن يعرف أحد السبب فى ذلك ، وظل بقية حياته عرضة لحزن كامن دفين يتحرك عليه ويشتد على نفسه بين آونة وأخرى ، فكان يعتصم من ذلك بالعزلة والتأمل .

ولكن هذه النشأة الوضيعة أثَّرت فى حياته تأثيراً عظيماً من ناحية أخرى ، وأضفت على سيرته كلها لوناً من العظمة والقداسة لم يكن يتاح له لو أنه درج فى مهاد النعمة وتقلب فى مراتب العز . فقد كان عليه فى مستهل حياته أن يصارع بيديه ليعيش ، وأن يشقى ليبقى لنفسه صفاءها وطهارتها ، كان عليه أن يعمل بيديه ، حطاباً أو ملاحاً أو حامل أثقال ، فاحتمل كل ذلك وانتصر عليه . حتى إذا جد الجد بعد ذلك بسنين ، وتطلبت أحوال بلاده رجلاً قوياً يكشف عنها البلاء ، ويرد عنها السوء ، تقدم واثقاً مطمئناً ، وقد وجد نفسه مستعدة كاملة العدة للصراع والنضال . لقد أورثه صراع حياته قوةً استخدمها فى صالح أمته وبنى وطنه .

قضى الفتى فى هذه الحياة القاسية سنين طويلة يملؤها الشقاء ، وكان قانعاً كل القنوع راضياً كل الرضا بما يكسبه من قوت بعد طول الجهد ، ولكن نفسه كانت عطشى وإن كان

جسده راوياً ، وروحه جَوْعَى وإن رضى جسده بهذا الشبع الضئيل ، فبدأ يلتمس للنفس العطشى رياً فى القراءة والاطلاع ، وللروح الساغبة شبعاً فى دراسة القانون . ومن ثم أخذ فى أوقات فراغه ـ وما أقلها ـ يقرأ ويدرس ويبحث وينقب ، وكم لقى من سخرية رفقائه ، وكم قاسى من سخط رؤسائه ! فلم يكن ليرضيهم أن يروا هذا الفتى النحيل مضطجعاً على كومة من التبن ، أو على السلم الذى يصعد به إلى أعلى المخزن يقرأ فى كتاب قانون ، أو يدرس فى كتاب تاريخ . كم نهره الرؤساء وكم ركبه الرفقاء بالسخرية ! .

ولكنه كان لا يحفل لهم ولا لأحاديثهم ، وإنما كان يجد فى قوانينه ودراساته وأحلامه عزاء عن ذلك أى عزاء . وماذا يهمه إذا طرده اليوم هذا الرئيس الجاهل ، أو سخر منه هذا الشاب العابث ؟ وإنما المهم عنده هو أن يتبين لنفسه الفروق بين قانون سويسرا وقانون إنجلترا ، وأحب إلى نفسه من ذلك كله أن يسألها : لماذا لا يعدَّل تشريع اللِّنويس إلى هذه الصورة اللطيفة التى تتراءى له فى دستور فرنسا ؟ .

وهكذا استحال الفتى شيئاً فشيئاً إلى شخص خيالى حالم يعيش بفكره بعيداً عن الناس ويتسامى بخياله إلى أعلى ذرى الفكر الإنسانى وإن كان مقامه بين أحقر الناس وأحط الطبقات . إنه ليسعى فى أن يكوِّن من هؤلاء الرفقاء العابثين فرقة نظامية ، أو جمعية ذات أغراض مثالية ، وإنه ليسمى فرقته « فرقة فتيان كلارى جروف » ولا يزال بهم يدربهم ويتعهدهم لعمل عظيم ، حتى إذا قامت الحرب بين ولايته وزعيم الهنود الحمر المسمى بالصقر الأسود سنة ١٨٣٢ ، وجد الناس فى هذا الفتى شخصاً غريباً نافعاً ، وأعجبوا به إذْ رأوه فى فرقته الصغيرة يكسب فى هذه الحرب نصراً وتقديراً لم يتاحا لأحد سواه .

إلى هنا كانت دراسته فى القانون قد بدأت تفى عليه بعض الرزق ، فيسر له ذلك بعض مشاق حياته ، واستطاع أن يشارك تاجراً فى مخزن بضائع رجاء الهرب من آلام الفقر ومضانك الخصاصة الملحة . ولكن سوء الطالع حل به ، فأفلس فى التجارة إفلاساً حمله بالديون ، وهرب زميله ، وكادت أموال الدائنين تضيع ، فما كان من لنكولن إلا أن تعهد بسداد الديون كلها : ديونه وديون زميله ! قام بذلك وأجهد نفسه فيه إجهاداً شديداً ، ولو

أن إنساناً آخر كان مكانه لتنصل من المسئولية وسدد نصيبه وحده ؛ ولكن ما قولك فى رجل لا يعرف من الحياة إلا أنها أخلاق ، ولا يعرف فى الأخلاق تحللاً أو تهاوناً أو تعللاً ؟

وأحسن الله عزاءه عن هذه الخيبة ووفقه إلى رضى مواطنيه ، فانتخب عضواً فى المجلس التشريعى لولاية اللنويس ، وكانت شهرته فى المحاماة قد بدأت تجرى على الألسن ، وكسَب له شرفُ المعاملة واستقامة الخلق تقديرَ الناس ، فعينته الحكومة وكيلاً للبريد فى بلده الأصيل « نيو سالم » ، ووفقه الله كذلك فى المحاماة حتى أصبح أرفع أهل اللنويس شأناً ، وانتخب عضواً فى المجلس الأمريكى سنة ١٨٤٧ .

كان يوم دخل المجلس يحسب أنه مستطيع خدمة بلاده وتحقيق مبادئه على أهون سبيل ، ولكنه روّع إذ وجد أن هم الأعضاء منصرف إلى الخطابة وإلى المناقشات الفارغة والبلاغة التى تستدر الإعجاب وتنتهى عند التصفيق . ولم يكن بطبعه رقيقاً ولا مصقولاً ، ولم يكن يحرص على الإعجاب أو على التصفيق ، فانصرف عنه زملاؤه ، وما من رأى أبداه إلا قوبل بالإهمال أو بالاستهجان ، وما من طلب قدمه أو فكرة ألقى بها ، إلا انصرف عنها النواب وكأنهم لا يفهمونها ، فلم يطق على هذه الحال صبراً ، وهبط عليه اليأس ، فصبر على مضض حتى إذا فرغت دورة نيابته لم يرشح نفسه مرة أخرى .

وعاد إلى المحاماة وقد أطلق طول المران لسانه ، وأفاض طولُ التجريب بيانَه ، وبدأت مهارته الخطابية تتجلى ، فتحدث الناس بهذا الخطيب الصادق الفياض . فلما كانت سنة ١٨٥٤ وأقرَّ المجلس الأمريكى اقتراحاً بإبقاء الرق فى الولايات الجنوبية ، عقد الرجل اجتماعاً عظيماً فى « بيوريا » وألقى فيه خطاباً رناناً ، هاجم به هذا القرار ، وأعلن فيه سخطه على الرق ، فلم يبق إنسان فى الولايات المتحدة إلا استثارته كلمات لنكولن ، ولم يبق فى الوطنيين إنسان لا يضع هذا الرجل فى سويداء نفسه والمكان الأرفع من ثقته وتقديره على أساس أخلاق هذا الرجل ، وبمبادئه ، ولتحقيق مثله العليا نهض الحزب الجمهورى من جديد ، وأخذ الناس ينصرفون عن الديموقراطيين وزعيمهم ستيفن دوجلاس ، إذ لم يكن هذا الأخير إلا رجلاً أنيقاً لطيف المجلس كثير الحديث ، لا يعنى مما يقول شيئاً ، ويحاول أن يكسب الحياة بخداع الناس .

أخذ الناس يلتفون حول لنكولن ويؤيدونه فيما ذهب إليه ، ومن هذا الحين كتب للولايات الأمريكية الواقعة بين كندا والمكسيك أن تتجه اتجاهاً إنسانياً واحداً ، وكانت قبل ذلك تسير فى حياتها حسب مصالح أهلها المادية الواضحة ، وما كان ذلك إلا لأن لنكولن أراد ذلك .. لأن رجلاً واحداً ذا عزم وفضيلة أراد أن ينشىء عصراً جديداً .

ثم رشح نفسه سنة ١٨٥٨ عن اللّنويس لمجلس الشيوخ ، فنهض له شيخ الولاية القديم وخصمه العتيد ستيفن دوجلاس ، فلا عجب أن اشتد الصراع وحمى الوطيس بين الرجلين ، ولا عجب أن صارت المعركة الانتخابية بينهما حدثاً شُغِل به معاصروهما وأحدوثة لازال ذكرها باقياً إلى اليوم ، ولا عجب أن يفوز دوجلاس بسبب ما لجأ إليه من أساليب الدعاية والتمويه على الناس ، والناس فى كل مكان أغرارٌ يخدعهم الكلام المونق ، ولاعجب أن يشهد الأعداء قبل الأصدقاء رغم هذه النتيجة أن لنكولن أصبح - بفضل هذه المعركة وبخطاباته وكلماته وبقوة بيانه وسلامة حجته - شخصاً قوياً رفيعاً ، يحبه الأمريكيون جميعاً على السواء ، وبان فى الأفق أن المستقبل يسعى إليه . ثم جاءت انتخابات الرياسة ، وألح عليه أنصاره ومحبُّوه أن يتقدم ليخوض غمارها ، فتردد ، ولكنهم ألحوا عليه فقبل ، ولم يكد يفعل حتى اكتسح منافسه ستيفن دوجلاس اكتساحاً تاماً .

* * *

ويريد ربك أن تتعقد الأمور ، وتتداعى الويلات ، وتتواتر المصائب بعضها فى إثر بعض فى مطالع رياسة لنكولن ؛ كانت هذه الأمة الأمريكية إذ ذاك ناشئة ، ولم يكن كيانها قد قام على أسس ثابتة ودعائم متينة ، كان هذا الصرح الذى أقامه الأبطال من أمثال واشنطن وآدمز وهملتون فى حاجة إلى دعائم أخرى تشده وتقويه وتعيده إلى أصوله المعنوية التى أرادها له منشئوه ، وكان تاريخ الولايات المتحدة قد خطا خلال نصف قرن خطوات لم تكن تخطر لأحد فى حسبان : أخذت البلاد تعمر ، والثروات تنمو ، وموارد الرزق تتفتح ، وانهال على البلاد سيل المهاجرين ، كل يبذل قصاراه فى جمع المال ، ونشأت الولايات واحدة بعد واحدة ، لكل منها نظامها وقوانينها ، لا تكاد إحداها تحرص إلا على نجاح أهلها .

وكانت ولايات الجنوب معجلة لا تكاد تتريث فى استغلال مزارع بلادها الواسعة ، فجلبت العبيد ، وأخذ أهلها يفلحون بهم الأرض ؛ اشتروا هؤلاء العبيد بالمال ومضوا يعاملونهم كأنهم بعض المتاع ، وخالفهم أهل ولايات الشمال فى ذلك، لأسباب إنسانية واقتصادية ، وأخذت الولايات تزاحم بعضها بعضاً وتنافس بعضها بعضاً ، حتى خيف على الوحدة أن تتفكك ، بل تحدثت بعض الولايات فى ذلك ، وبدا للعيان ألا مندوحة عن عمل جديد حاسم يقرر أساس الوحدة من جديد ، وأن الأمر يتطلب رجلاً من طراز واشنطون حتى تعود الأمور إلى نصابها وتأمن الجمهورية الوليدة على مستقبلها كدولة موحدة آمنة الجوانب .

وكان الجنوب قد أثرى من الزراعة وغَنِى بوفرة الخير ، وكان يأبى على الشمال أن يتدخل فى شئونه حتى كادت ولايات الجنوب أن تكون أمة مستقلة قائمة بنفسها تتحدى الشمال فى أنفة وكبرياء ، فما العمل ؟ لقد أعلن مجلس الجمهورية الأمريكية يقوده لنكولن أنه ينوى مقاومة الرق ، فبكرت كارولينا وأعلنت أنها لا تسمح بإلغاء الرق فى بلادها لأن ذلك يهدد مصالحها الاقتصادية ، إذ كان الكثير من أهلها من ذوى الأملاك العريضة يزرعونها بأيدى العبيد بأقل نفقة ، ولو ألغى الرق لزادت الأجور وكثرت عليهم النفقات ، وأبدى مندوبوها من الحمق والجهل ما أفزع الرئيس الجديد وهو بعدُ بباب الرئاسة لم يستقر فيها ، فما العمل؟ .

هل يترك أولئك الراغبين فى الانفصال عن الاتحاد ينفصلون ويكونون لأنفسهم دولة قائمة بذاتها ؟ فإذا تم ذلك ونشأت دولة معادية فى الجنوب فماذا يكون المصير ؟ تكون عداوة مستمرة بين الحيَّين وتستمر الحرب بينهما أبد الدهر ، ويصبح العالم الجديد كهذا العالم القديم الذى لا يكاد أوار الحرب يسكن بين دولاته بسبب تعددها واختلاف وجوه النظر بينها . ذلك ما رآه لنكولن بفطرته الهادية ، وذلك ما توقعه وأحب أن يتلافاه حينما شبك يديه فوق صدره ، وقال لمن حوله بهدوء : « أيها السادة .. إن أهل الجنوب يسيرون نحو حتفهم ، وهم إخواننا ومن واجبنا إنقاذهم ! » فلما سئل : « كيف ؟ » قال : « نحاربهم حتى يعودوا إلى الصواب؟ » .

وكانت الحرب ، ولم تكن يسيرة ولا قصيرة الأمد ، إنما كانت كفاحاً عنيفاً قاسياً بذل الجانبان فيه من الجهد مالم يكن أحد يتوقعه ، وامتد لهبها وتعدد ضحاياها حتى ظن الناس أنها آخرة هذه الجمهورية الوليدة ؛ وبُذلت فى أثنائها المحاولات للوصول إلى حل «معقول» يُجاب فيه الجنوب إلى بعض مطالبه ويقنع فيه الشمال ببعض شروطه ، ولكن لنكولن لم تفزعه هذه الخطوب ولم تصرفه عن الهدف البعيد الذى كان يقصد إليه . إن الحق عنده لايتجزأ ، والواجب لا يقبل المساومة ، وقضايا الأوطان لا تقبل التهاون . إن ما يعرضه الناس عليه يهدد سلامة الوطن الأمريكى ، فلابد من السير فى الكفاح إلى نهايته ، ولو لم يبق آخر الأمر إلا أمريكى واحد يرفع راية الوحدة ويوقع قرار إلغاء الرق عن الشعب جميعه، فهذا الواحد خير من ملايين نصفها يتيه فى الضلال ونصفها لا يكاد يستطيع السير فى طريق الحق .

ولم يكن لنكولن قاسياً ولا متطرفاً ، ولم يقد هذه الحرب قيادة العدو الذى يريد أن يمحو خصمه بأى سبيل ، بل قاد الحرب قيادة الأب الحانى الذى يرد ابناً ضالاً له عن الضلال فى شىء من الحزم ، وقد استطاع بهذا أن يكبح جماح الحرب ويردها عن الحمق والتطرف ، واختطَّ لنفسه خطة اللين والإقناع حتى يتغلب على هذه القوى المتراصة التى حشدها أهل الجنوب أمامه لا تتردد ولا تتراجع .

كان يستدعى كلاً من وزرائه على حدة ويفاوضه ويجادله حتى يكسبه إلى جانبه ، حتى استطاع أن يفوز بتقدير ألدّ خصومه وأعظم أنصار الجنوب فى حكومة الاتحاد وهما سِيوَرد ونشيز ، وكانا شيخين فانيين لا يريان فى الرق أمراً كبيراً ولا جريمة تستنكر ، ولا يفهمان أن معارضة الجنوب فى هذا الأمر معناها تفكك الاتحاد الأمريكى وانفصام عراه ، وكانا يسألان فى بساطة : « وماذا يحدث لو أبيح الرق فى ولايات الجنوب ؟ » فكان لنكولن يجيب « يتخذ الجنوب سياسة أخرى ونظاماً اجتماعياً آخر غير الشمال ، ويأتى يوم لايبقى فيه أى لون من التفاهم بينهما ، وهنا ينفصلان إلى الأبد ، وينفرد بهما الأعداء إلى الأبد ، وينفرد بهما الأعداء كلاً على حدة ، وتتهجم عليهما ذئاب فرنسا وضباع إنجلترا ونمور إسبانيا ، ويتصدع البنيان العظيم ويهوى كأن لم يغن بالأمس ! » .

هكذا كان الرجل يقنع زملاءه حتى كسبهم إلى صفه ، وحتى استطاع أن يقنعهم بضرورة الاستمرار فى الحرب مع الجنوب كلما ضعفت نفوس بعضهم ومالت إلى التفاهم . وكان لنكولن إلى ذلك خبيراً بالرجال قديراً على فهمهم وتقدير كفاياتهم ، فرشح جرانت قائداً لجيش الشمال ، وقد تعب تعباً شديداً حتى أقنع زملاءه بالموافقة على هذا التعيين ، ولكن الأيام أثبتت زكانته وتوفيقه فى هذا الاختيار ، إذ وجد الناس فى جرانت أعظم قائد عسكرى أخرجته الولايات المتحدة حتى قبل الحرب الأخيرة .

أظهر لنكولن خلال هذه الحرب بطولة وثباتاً يضعانه فى الذروة بين الأبطال وقادة الإنسانية . لم يكد الأوار يشتد ولم تكد الهزائم تتوالى على الجنوب حتى أسرع رجاله يطلبون الصلح بشروط يسلمون فيها ببعض الأشياء ويحتفظون بالبعض الآخر ، فأبى لنكولن ذلك وأصر على التسليم التام ، حتى تم له النصر ، فملك الجنوب رعب عظيم ، وحسب أهله أن الرجل منزل بهم الويلات ، ولكنه أثار الدهشة والإعجاب حين عفا عن الجنوب ، لم ينزل به عقاباً ولم يصب عليه وبالاً ، بل كان أحنى عليه من أنصاره وأحب له من جنوده . ذلك أنه قطعة من أرض الوطن ، وأهله بضعة من فؤاده ، وقد كانوا ينافحون عما كانوا يحسبونه حقاً ، والآن قد فهموا وعادوا إلى الرشاد بعد أن حاقت بهم الويلات وألمت بهم المصائب ، ففيم عقابهم وفيم الانتقام منهم ؟ وما الخير فى انتقام تمليه سورة طائشة ولذة وضيعة ، ثم لا يعقبه بعد ذلك إلا ضغائن تتأصل فى النفوس ، ويتوارثها الأعقاب ولاتلبث أن تثور وتعرض حياة الوطن للخطر من جديد ؟ لا ثارات ولا عقوبات ، والعطف على الأخ الهزيم أولى ، وسلامة الوطن ووحدة بنيه خير من لذة شخصية أو انتقام رخيص .

لم تكد الحرب تضع أوزارها ـ وكم للحرب من أوزار ـ حتى أعلن عفواً عاماً وسلاماً شاملاً ، وأقبل بنفسه يضمد جراح أهل الجنوب ويصلح ما أفسده الكفاح من أرضه ومرافقه ، وحاول بعض أهل الشمال المعارضة فردّه إلى صوابه وألزمه بالتقدم للمعاونة بنفسه .

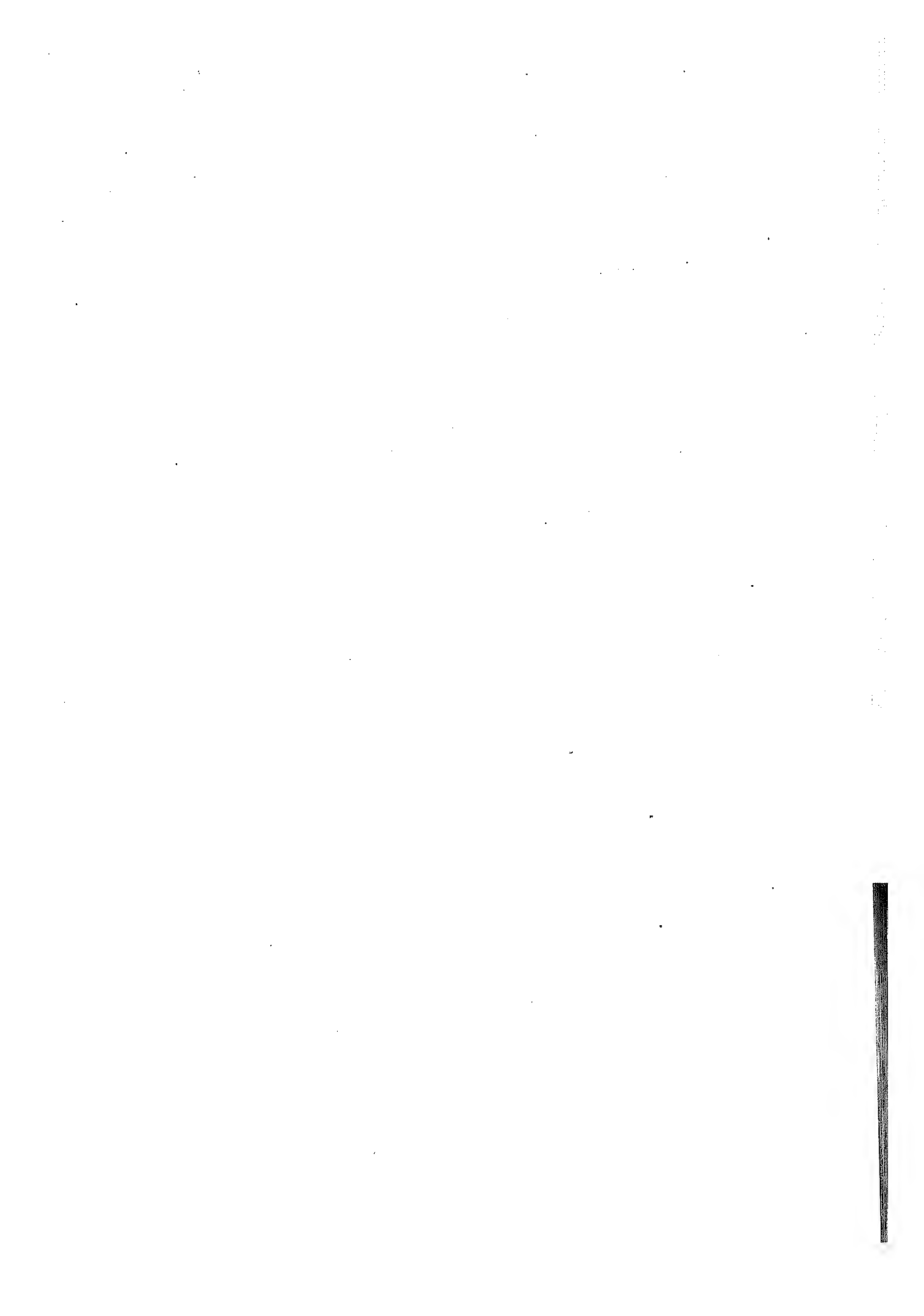
هناك أدرك الأمريكيون أى رجل هو لنكولن ، أى زعيم هو ، وأى مثل أعلى يكون !

فالتفوا حوله واستمعوا لما يقول ، فإذا به يحمل المجلس على أن يمنح الجنوب أربعمائة مليون من الدولارات ليعوّض بها ما خسر من أراضيه وبلاده ! .

ترى أكان يعفيه أعداؤه من المشنقة لو أن النصر كُتِب لهم ؟ لا ! وكان هو يعرف ذلك ، ولكن الخوف لم يملك نفسه ، وأثبت للتاريخ أنه أسمى من هذه المشاعر ، وبرهن على أنه أبو الأمريكيين جميعاً ، وأنه أبر الناس بهم .

أأنا فى حاجة إلى أن أخبر القارىء بعد ذلك أن الرجل انتخب للرئاسة مرة أخرى سنة ١٨٦٤ ؟ وهل أنا فى حاجة إلى التعقيب على هذه الحياة وتفصيل ما خفى من أسرار جمالها وشرح بدائع هذه النفس والإبانة عن فضلها ؟ أظن أنك رأيت فى القليل مما قصصت عليك كفاية تغنيك عن الإطالة ، وما يحتاج الحق الواضح إلى أكثر من مجرّد الإشارة ، وفى مجرد النظر ما يكفى عن طول الشرح ، وفى هذا الذكر العابر ما يوحى بالعبرة ويدل على العظمة . وإنما أنا بحاجة إلى أن أذكر للقارىء أن الله رضى عن لنكولن وأنه كتب له الشهادة ، فبينما هو جالس فى مقصورته فى المسرح مع زوجته ونفر من أصحابه إذ بالباب يفتح من ورائه فى رفق ، وإذا أنفاس مضطربة تتردد من خلفه ، ثم إذا رصاصة تبرق وتستقر فى ظهر الرجل فيسقط صريعاً .

أتحب أن أجمل لك فضل هذا الرجل على بلاده ؟ إذن فانظر صورة الولايات المتحدة ، هذه البلاد العظيمة التى تراها بين كندا والمكسيك ، هذا العالم العظيم الذى يفيض بالقوة والجد والنشاط ويقود مصائر العالم اليوم ؛ هذا الشعب القوى وهذه القارة الكاملة وهذه الحضارة الزاهرة ، وضع لنكولن أساسها من جديد بعد أن كادت تتداعى ، وبعد أن كادت تتفرّق كغيرها من الدولات ...



أوتوفون بسمارك

انظر إليه طويلا ، وتأمل قسماته مليا ، وأرسل البصر إليه مصعدا محدِّراً ، فأنت مفيد من ذلك شيئا كثيراً ، وأنت مدرك من التأمل كيف يبدو الإنسان والشيطان فى لمحة واحدة، ثم ألق بالك إلى حياته وأمعن الفكر فيها ، ولا تدع يوما من حياته إلا عرفته ، ولا تترك ناحية من نواحيه إلا ألممت بها إلماماً دقيقا ، فإنك مدرك من ذلك كيف يجعل الله الخير والشر فى نفس واحدة ، وكيف يرسل الله النعمة والنقمة عن كف واحدة ! .

ثم استمع إليه كثيراً ، وتفطن إلى ما يلقى إليك ، لا تفوتنك منه كلمة فى السياسة ، ولاحديث له فى الاجتماع ، فأنت مدرك من ذلك كيف يجتمع الخيال والواقع فى قلب واحد وفكر واحد .

ثم دع التأمل وانصرف عن القراءة ، وأغمض عينيك وحاول أن تتمثله فى خيالك ، وأن تلتمس موقعه من نفسك ونصيبه من إعجابك وتقديرك ، فأنت مدرك قدره ولكن فى غموض ، وأنت مستشعر الحب له والإجلال نحوه ولكن فى إبهام ، وكأن هناك ضبابا يكتنف الرجل ويقف بك عن أن تراه واضحاً جليا ، أو كأن هناك جانبا مستسرا من الرجل ـ لا تكتمل صورته بغيره ـ ينقصك ويستعصى عليك ، وينأى عن الفهم والإدراك .

ثم تناول خريطة ألمانيا وضعها إلى جانب الصورة وقلب البصر بين الاثنتين ، فإذا الغموض ينجلى ، وإذا المقارنة بين الرسمين تفضى بك إلى الرؤية النافذة شيئاً فشيئاً ، وإذا أنت تدرك أنه لا فرق بين صورة الرجل وخريطة ألمانيا القديمة ! .

فهذا الجسم القوى العظيم هو ألمانيا فى اتساعها طولا وعرضا ، وهذا الوجه البارز الملامح الواضح القسمات بهذه العيون الزرق وهذه الأهداب الطويلة ، وهذا الشارب

الضخم وهذه الهيئة الجليلة الرزينة ، ذلك كله ألمانيا ببحيراتها الزرق وأنهارها الكثيرة وغاباتها الحزينة وهيئتها الجليلة الرزينة ، وهذا الرأس الكبير ، هو الفكر الألمانى الذكى العميق .

بل إن صورة الرجل وصورة وطنه لتزدادان شبها كلما أمعنتَ فى تعمق نفس بسمارك وتعمق النفس الألمانية ، فهذا الإنجيل الصغير الذى يلازم الرجل يمثل حرصَ الألمان على الإنجيل وعنايتهم به ، فليس بين أمم الأرض أمة هى أقرأ للإنجيل وأفهم له وأشد عناية به من الألمان ، بل هم انتهت بهم هذه العناية إلى إيجاد إنجيل جديد ومسيحية أخرى ، هما إنجيل لوثر ويروتستنتية لوثر ، وهم مع هذا الدرس للإنجيل ليسوا أشد المسيحيين تديناً ، بل يكادون يكونون أبعدهم ضلالا ، لأن طول الدرس وكثرة التأمل تنتهى بالإنسان إلى الحيرة واضطراب الرأى ، وكذلك كان بسمارك يحمل الإنجيل فى ثيابه ، ويقرأ فيه إذا خلا إلى نفسه ، ثم تبدر منه بعد ذلك بدوات هى أبعد ما تكون عن الإنجيل وروح المسيحية ، فإذا ذهبت تناقشه فيما فعل أقنعك بأنه لم يصدر فيما فعل إلا عن إيمان خالص صاف ، ومضى يثبت لك ذلك بنص هنا وتأويل هناك .

وهكذا نستطيع أن نفهم هذا الرجل ، وبغير ذلك لن نهتدى فى فهمه إلى الكثير ، لأن هذا الرجل تمثل وطنه فى كيانه حتى صار هو وهذا الوطن شيئا واحدا ، فما من خالجة خالجت أفئدة الجرمان ـ منذ ظهروا على مسرح التاريخ قبل المسيح بنحو قرن ـ إلا تردد صداها فى نفسه وظهر أثرها فى أعماله . فقد احترب الرومان والجرمان قبل المسيحية واستمرت الخصومة مع الأعصر ، وأخذت فى كل عصر لونا جديداً ، ولقى الجرمان الهزيمة تلو الهزيمة من الرومان ومن ورثوا حضارة الرومان وتقاليد الرومان ، حتى إذا جاء بسمارك تجددت المعركة فى أيامه وقادها أحسن قيادة ، وجمع الألمان وأدرك لهم الثأر على ممثلى الحضارة اللاتينية ، وشفَى ما بأنفسهم من الحقد على جيرانهم فى الغرب من يوم قادهم شرلمان وأنزل بالجرمان من المذابح مالا ينساه التاريخ ، وأقام لهم مكانهم الجدير بهم بين الأمم .

فلنمض فى دراسته على هذا الأساس ، فسنرى أننا نوفق فى هذه الدراسة توفيقا

مشكوراً، وسنرى أنه من اليسير علينا أن نفهم لماذا خطا إلى النجاح قدما، ثم انحدر إلى السقوط بعد ذلك مسرعا ، ونحن نعلم أن هذه هى حال ألمانيا فى تاريخها القديم والحديث طفرات سريعة إلى ذروة المجد وسقطات سريعة إلى درك الانحلال . تلك سيرة الهوهنشتاوفن ، وقصة الهوهنتسُلرن ، وتلك حياة بسمارك نفسه ، وتلك قصة الألمان جميعاً منذ فجر التاريخ إلى أن يأذن الله فيطوى الأرض ومن عليها .

* * *

نحن فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فى عصر ثورات الشعوب وأحلام الأمم بالدساتير التى كانت تكتب لتنسى وتظهر لتختفى ، وتبدو للأحرار وكأنها « سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » .

كانت أوروبا تضطرب بأفكار الحرية والمساواة ، وكانت الشعوب ترنو إلى هذه الغايات الجميلة العسيرة التحقيق دون أن تهتدى إلى السبيل إليها : تلك إيطاليا برجالها وجماعاتها وشعبها المفرق القلق المضطرب ، وهذه فرنسا بأهلها الثائرين أبدا الساخطين أبدا ، وهذه البلقان بدو يلاتها الناشئة وشعوبها التى تستفيق من نوم طويل وتقبل رويدًا رويداً نحو لون غامض من اليقظة والوعى ، وهذه بلجيكا ناشئة وليدة ينوشها الفرنسيون تارة ويهددها الألمان تارة أخرى ، وإسبانيا بشعبها الساخط الذى لا يرضيه شىء ، ثم هو لا يريد أن يحرك ساكنا ليصلح أى شىء ، وهذه مصر تعدو نحو الحضارة والحرية عَدْوا ومن خلفها ثعالب الإنجليز والفرنسيين يجرونها إلى الوراء جراً ، وهكذا .. فى كل ناحية هاتف للدستور، وفى كل ركن بطل من أبطال الحرية . وهؤلاء هم أساطين العصر ورجاله يتشيعون للحرية ويفنون فيها فناء ، يكتبون فيها حينا ، ويدْعون إليها حيناً ، ويحاربون فى سبيلها حينا ثالثاً ، ويعلنون على المستبدين والطغاة حرباً لا هوادة فيها .

وقد وفق هؤلاء الأحرار إلى النصر فى بعض الميادين ، وفشلوا فى ميادين أخرى ، ولكنهم لم يفشلوا كما فشلوا فى ألمانيا .. إذ أن ملوك بروسيا كانوا ينفرون نفورا شديداً من البرلمان والدستور ، فهذا ملكها فردريك وليم يصارع الشعب صراعا عنيفاً ، ولكنه ينتهى إلى شىء يقرب من التسليم ، وها هو ينظر نتيجة انتخابات ١٨٦١ فى ألم وحسرة أن كانت الأغلبية

مع حزب التقدم ، الذى كان ينادى بضرورة قيام حياة دستورية صحيحة فى البلاد ..

أيقن فردريك وليم أن لا محيص له عن التسليم للشعب بهذا الحق ، فنادى وزيره ألبرخت فون رون وحدثه فى الأمر وشكا إليه مخاوفه ، وأكد له أنه يرى طاعة الشعب والنزول على رأيه لونا من الهوان غير خليق با لملوك ، فأشار عليه وزيره بالالتجاء إلى السيف ، ولكن الملك خشى مغبة ذلك ، ولم يجرؤ عليه ، لأنه كان رغم هذا العناد محبا للشعب حانياً عليه وكان يرجو أن يجد مخرجا غير هذا الذى أشار به الوزير . واتجه ذهنه إلى البحث عن رجل آخر غير فون رون هذا فيه سياسة ولين ، وفيه حزم وعنده بعد نظر ، فخطر بباله أوتو فون بسمارك سليل بيت شريف يملك ناحية لاونبرج من قديم الزمان ، وكان إذ ذاك وزير بروسيا فى باريس . وسأل ألبرخت فون رون عنه فأعجب الوزير بحكمة مسلكه وفطنته ، وأكد له أن بسمارك هو الوحيد الذى يستطيع أن يخرج با لملك والمملكة من هذا الحرج ، فلم يكذِّب الملك أن أمر باستدعائه على عجل ، فخف الرجل إلى برلين مسرعا ، فما كان يستطيع التأخر وهذه برقية يقول له المستشار فيها إن فى التأخر خطراً .

لم يكد بسمارك يصل حتى سلم له الملك زمام الأمور وعهد إليه بالوزارة خلفا لهوهنلوه، وكان الموقف يتطلب الإيمان والحزم والكياسة : الإيمان بما تريد والحزم والكياسة فى تنفيذه . وكان بسمارك يؤمن بالاستبداد بالأمر وترك البرلمانات ، ويعتقد أن مناقشاتها عبث لا طائل تحته ، بل كان يرى أن الانفراد بالأمر لون من الوطنية ، لأنه كان يشعر أن التشيع للديمقراطية تشيع لفرنسا عدوة بروسيا وتقليد لها ، وكان يعتقد اعتقادا راسخا أن طاعة الملك من طاعة الله ، ومن هنا كان شديد العطف على رجال الدين لأنهم كانوا يلحون على الناس فى امتداح الملوك وذوى التيجان . ثم إنه كان إلى ذلك سليل أشراف أثرياء « خدموا البلاد أكثر من الهوهنتسلرن ، كما قال هو نفسه لفرديك وليم ذات مرة ، فكان ميله للاستبداد عقيدة لا مجرد حيلة وسياسة ـ كما كان الحال مع مترنخ وأشباهه من ثعالب الساسة ـ وإلى هذا الإيمان العميق يرجع السبب فيما شاب استبداده من عدل وتَحَرٍّ لصالح الوطن وقصد لخير الناس .

وكانت ألمانيا فى ذلك الحين مضطَرباً متنافراً تسوده الفوضى ويشيع فيه الفساد ، ولم

يكن أحد يتصور أن تنضم ولاياتها وإماراتها بعضها إلى بعض لتتألف منها كلها دولة واحدة . لأنها ـ أى الولايات ـ قد نشأت على الاستقلال، فلم تعد ترضى بالدخول فى طاعة أحد ، ونمت كل منها وتطورت على حدة ، وكانت تعتبر نفسها دولا قائمة ، وكان الأمراء متمسكين بحقوقهم وألقابهم تمسكا شديداً بالغاً ، ولا سبيل والحالة هذه إلى إرغامهم على الاتحاد تحت لواء ملك واحد . ثم إن معظمهم كان لا يرى لأحد من ملوك بافَريا أو سكسونيا أو بروسيا أو أباطرة النمسا فضلا عليهم ولا امتيازاً ، إنما هم جميعاً ملوك سواسية كبرت دولهم أم صغرت ، امتد لهم الملك أو ضاق بهم السلطان .

ولكن أوتوفون بسمارك كان إنساناً غريباً ، كان يتطلع بعينه عشرات السنين إلى الأمام . وكان يرى أن السياسة العالمية سائرة نحو التكتل ، فإن كل جنس ينبغى أن يتحد ليدرأ عن نفسه عدوان الجنس الآخر ، وكان يرى أن أمر الجرمان ضائع لا محالة إذا أصر أمراؤهم على التفرق ، ومن حولهم الفرنسيون يسيرون فى طريق التوحد التام ، والصقالبة مجموعون إلى لواء القيصر فى بتروغراد . وكان يرى بعين البصيرة أن الصراع واقع لاشك بين هذه الكتل الجنسية العنصرية فى المستقبل القريب أو البعيد ، وكان يفكر جاداً فى تحقيق هذا الحلم الذى يهزأ منه الناس . وهذا جانب من بسمارك أحبُّ ألا يخفى علينا ولانعبر به دون تعليق، فإن السائد الشائع عن هذا الرجل أنه كان واقعياً ولا يذهب مع الخيال ولايؤمن بالأحلام ، وليس هذا صحيحاً على إطلاقه . فقد كانت له أحلامه وتحليقاته مع المنى ، ولكنه كان يعرف كيف يجد السبيل لتحقيق الأحلام ، وكان قديرا على تهذيب أجنحة المنى حتى لا تضِله وتطير به كلّ مطار .

والحق أن بسمارك كان ذا خيال بعيد ، وعاطفة مشبوبة ، وفكر بعيد المطامح ، وكان يصدر فى سياسته الدقيقة وخططه المدبرة عن تصور واسع وعاطفة قوية ، فجعلت نفسه تدفعه إلى تحقيق أمانيه ، فأصر عليها ومضى يخلق المناسبات السانحة لتحقيقها ، وجعَل يمهد لذلك فى أناة وتمهل ، حتى إذا سنحت له الفرصة ظنها الناس فرصة عارضة وهى وليدة التدبير الطويل ، وكان إذا تهيأت له الظروف عمل فى سرعة متناهية فيفوز بما يريد فى ضربة واحدة أو فى ضربتين ، ولكنها كانت ضربات « المعلم » كما يقولون ، وراء كل منها

من الخبرة والتفكير والتجربة والحساب مالا يدركه المؤرخ لطول أمده واسترسال مداه .

ثم إن سياسته كانت لونا من الفن ، فلم يكن يسوس الأيام والحوادث على أسلوب واحد ممل ، من الشدة المتصلة ، أو الخداع المتوالى ، أو الكذب المرسوم ، أو خداع الجماهير الذى لا يلجأ إليه إلا كل سياسى طارىء على التصدى لخدمة الشعوب والسياسات . بل كان يمازج بين هذه جميعاً فى ظرف ولباقة يدعوان إلى الإعجاب ، حتى لقد كان من العسير توقع أعماله وتصرفاته ، وكانت لهذا أشبه بالأعمال الفنية الجليلة . وكانت تهديه إلى ذلك كله فطرته السليمة ووطنيته المتوفزة ، ويصورها له خياله الصناع الصافى ، ويعينه على بلوغها إيمانه بضرورتها وثقته فى قوته وقوة بلاده ، وتدنيها منه سرعة إلى الحركة وقصد فى العمل ، فهو من غير شك أقرب أهل السياسة إلى أهل الفن ، وذلك هو موضع الجمال فى سياساته وأساليبه .

ثم إنه كان إلى ذلك كله حريصاً ذكيا ، فلم يكن يجرى مع الخيال إلى أشواطه البعيدة التى لا تنتهى ، بل كان يقف به عند حده المعقول ، ثم يصوغه فى صورة ثابتة معينة ثم يقصد إلى تحقيقها . فلم يكن كغاريبالدى مثلا ، ولا كأحد من سياسىّ الشرق فى العصر الحاضر : يتخيل فيسرف فى الخيال ، ويتصور فيغالى فى التصور ، ثم يفيق أخيراً على الخيبة القاسية حين يرى الهوة الواسعة بين الخيال والواقع ..

وكان واسع الحيلة : يلتمس كل سبيل ، ويركب كل مركب ، ويمضى فى كل طريق ، ويميل من جانب لجانب لا يكاد يتأخر عن شىء يشعر أنه يؤدى به إلى ما يريد .. يصالح الروسيا فى يومه ليضمن حيادها فى حربه مع النمسا ، ثم يصبح من غده ـ بعد أن يتم له النصر على النمسا ـ فينقلب على الروسيا ، ويأخذ يناوشها من جديد ، وهكذا ..

ذلك أنه كان لا يشغل باله بأكثر من شىء واحد ، يوجه إليه كل جهده ويلتمس كل سبيل لتحقيقه ، لاتكاد تفوته صغيرة أو كبيرة مما يلزم لإنجازه إلا احتراس لها . وكان منظماً فى كل شىء ، وكان يدخر كل شىء لحينه ، ويشترط النظام فى كل سبيل يطرقها . يدخر الصداقات ، والعداوات ، والرسائل ، والأسرار ، والأقوات ، والذخائر ، والقوات ليستعمل كلا منها فى حينه ..

فإذا حانت ساعة العمل رأيت خطواته فى نظام وترتيب محكم ، ربما جعلك إحكامَه تشك فى أنه من تدبير رجل واحد ! .

وقد فطن إلى مواهبه دزرائيلى السياسى الإنجليزى الأشهر ، إذْ استمع إليه يتحدث ـ قبل أن يصبح مستشارا للدولة ـ فأنصت إليه طويلا ، ثم قال لمن حوله بعد أن خرج : «احذروا هذا الرجل ، إنه يعنى ما يقول ! » . وكان دزرائيلى هو الآخر داهية يلاحق بسمارك فى مضامير السياسة ومجال المنافسات ، وقالته تلك تكشف لنا عن ناحية من نواحى بسمارك ، فقد كان على خياله البعيد لا يتحدث إلا بالممكن منه ، وكان على عاطفته المشبوبة لا يتحدث إلا قليلا ، فلم يتورط فى عمل ولم يخرج به لسانه عن القول المأمون مرة واحدة ، وتلك مرتبة فى ضبط النفس لم يؤتها فى التاريخ إلا القليل ، وربما رجع إلى ذلك الفضل فى أنه استطاع أن يخلق من فوضى بلده وحدة منسقة .

ثم يزعم الناس بعد ذلك أن كل حجر وضعه بسمارك هدمه الزمان ! وأن كل غاية رمى إليها انتهت بالشعب الألمانى إلى كارثة قاصمة ، وأن هذا الشعب كان أسعد حالا وأكثر خيرا قبل أن يتحد وتقوم له هذه الوحدة التى ملأته غروراً وخرجت به عن حدود العمل السلمى الحضارى الذى كان مطمئنا إليه قبل أن تظهر فى الوجود ألمانيا الكبرى هذه . وذلك صحيح من بعض وجوهه ، وكلما تقدمت الأيام بنا تبينا أن تمام الوحدة الألمانية كانت إيذانا بشقاء متصل لهذا الشعب .

ولكن بسمارك لا يمكن أن يعد مسئولا عن الأخطاء التى وقع فيها مواطنوه من بعده ، لأن الرجل كان يريد الخير الخالص لهذا الشعب الألمانى الكبير ، كان يشعر فى نفسه بنقائض شعبه ، وقد اجتهد فى بيانها وتنبيه الألمانى لها حتى لا يدركهم الفشل فى حياتهم السياسية . وإن من يقرأ مذكراته ويقارنها بمذكرات الأمير فون بيلوف خليفته فى مستشارية الرايخ ، ليتبين أن بسمارك كان يعرف مواضع الخطر التى تهدد الألمان ، وأنه لن يكف لحظة عن بيانها والتنبيه عليها .

لقد نصحهم بمحاسنة الروس والعيش معهم فى سلام ، وأكد لهم أن سلاماً فيه شىء من الخسارة مع الروس خير من حرب فيها شىء من الكسب ، لأن الروس أقوياء ، ولديهم

من موارد القوة ما يعادل ما لدى الألمان ، ثم إنهم - أى الروس - لن يتأخروا عن التحالف مع الإنجليز والفرنسيين ، وبهذا تقع ألمانيا بين المطرقة والسندان ! إلى هذا الخطر نبه الرجل موطنيه ، فتصور أنهم وقعوا فيه فى حربين متتاليتين خرجوا منهما بهزيمتين ساحقتين ! ولو أنهم ساروا على هدى بسمارك لما أصابهم شر .

وهذه حقيقة تعلى قيمة الرجل وتكشف لنا عن ناحية من نواحى عبقريته ، فإننا لنعرف أن الألمان شعب الخيال ، وأنهم لا ينجحون فى أحيان كثيرة لأنهم يطلبون مطالب وعرة لاتتحقق إلا بإدارة عبقرية وسياسة ذكية قادرة ، وأنهم لو تركوا لأنفسهم لشطح بهم الخيال واسترسلوا معه حتى يطول بهم الطريق وتكل أجسادهم من اضطراد الجهد ، فلا تلبث سفينهم أن تتحطم ..

هكذا حدث للألمان أيام الأباطرة الأُتُّونيين خلال القرن العاشر الميلادى ، حينما خدعهم اجتماع القوة فى أنفسهم فأرادوا كسر شوكة البابوية وسيادة ألمانيا وإيطاليا ، أضلهم هذا الحماس وأنساهم ما كان للبابوية إذ ذاك من سلطان قاهر على النفوس ، ولم يتنبهوا إلى أن العالم المسيحى لا يرضى عن هزيمة البابوية وضياع سلطانها من الوجود ، فلم يكادوا يبدأون الحرب معها حتى وقف الناس إلى جانبها ، فتشجعت وأخذت تحاربهم بسلاح الدين حتى تخلى عنهم الناس ولحقتهم الهزيمة والمذلة .

وتلك قصة ألمانيا أيام فردريك الأكبر وحروبه التى لا تنتهى ، ولو أن فردريك اكتفى بنصر واحد أو بنصرين لسلم ولسلمت ألمانيا معه ، ولكن النصر أغراه وأوسع له فى مجال المنى ، فمضى من ميدان لميدان حتى كلت قواه وتألبت الدنيا عليه ، وانتهى أمره بهزيمة قاصمة، وقضى ما بقى له من الأيام فى ظلال الخيبة والندم .

وهذا حالها أيام الحرب العظمى مما يعرفه الناس ، وتلك مصيبتها على يد هتلر ، فإن الذى لا شك فيه أن هذا الرجل بدأ بدءاً طيبا ، واستقبله العالم استقبالا حسنا ، ولكن التوفيق أضل سبيله ، وتوفرَ القوة فى شعبه خدعه عن حقيقة الحال فيما حوله ، فاستهان بالإنجليز واستهان بالروس بل بالدنيا كلها ، ومضى يضرب شمالا ويمينا ، وخرج عن

الطريق المعقول الذى بدأ به ، فلم يكن له مفر والحالة هذه من هزيمة ما نظن أن شعبا فى التاريخ منى بمثلها .

اذكر ذلك كله ثم انظر كيف استطاع بسمارك أن يوجه هذا الشعب أحسن توجيه ، وأن يحد من خياله ومن نشاطه وأن يحصره فى عالم الواقع ، فسما به فى عشر سنين إلى المكان الأرفع بين دول العالمين . فلا لوم على بسمارك إذن أن كوّن هذه الوحدة وأقامها كالطود فى قلب أوربا ، وإنما اللوم على الطبيعة الألمانية المضطربة التى تفسد عليها الروح العسكرية ـ كل شىء ، ويدفعها اعتدادها بنفسها إلى أحرج المواقف وأشد الأزمات استحكاما . وإذا كان بسمارك مسئولا عن سقوط ألمانيا فى الحرب العظمى ، لأنه ـ كما يزعم بعض المؤرخين ـ قد وضع بذور هذه الحرب خلال حياته ، فمن المسئول عن اضمحلالها فى أواخر أيام الأتونيين وعن انحطاطها بعد فردريك الأكبر ؟ .

الواقع أن الإنسان كلما تأمل تاريخ ألمانيا استبان أن التاريخ لم يرزق هذه الدولة إلا رجلا واحدا فهمها وفهم أوربا ، واستطاع قيادتها بنجاح ، ذلك هو بسمارك . ولو أنه استطاع أن يبقى فى مكانه إلى آخر حياته لوقى ألمانيا والعالم شرور الحرب العالمية الأولى ، لأنها فى الواقع نتيجة سياسة ولهلم الثانى وحدها ، وقد حاول بسمارك أن يوجه هذا القيصر كما وجه سلفه ، فأبى وسار فى طريق خاطىء ، وأصر على عداوة الإنجليز وإخافة الروس .

وكان بسمارك يرى بعينيه شرر الحرب العالمية وهو فى منفاه يقضى أخريات أيامه ، ولكن ما الحيلة والأقدار تأبى إلا أن تسير الشعوب فى الطريق التى خطها لها علام الغيوب ؟ .

* * *

وبعدُ ، هل أنت فى حاجة إلى أن أقص عليك حياته وأعماله ؟ وأن أشرح لك سياساته قبل مواقع سادوا وسيدان ؟ وأن أصف لك كيف وفق إلى تحقيق الوحدة الألمانية رغم العواصف والمصاعب التى لا تنتهى ؟ أظن أن هذا مطلب عسير لا نوفق إليه فى هذا الحيز الضيق ، وبحسبنا أن نراه فى سن الثمانين بعيداً عن السياسة والعالم ، وقد اختلف مع القيصر فتخلى عن عمله وتركه يفعل ما يشاء ، ثم انكفأ إلى أراضيه فى بوميرانيا حيث استطاع أن يخلو إلى نفسه بعد هذه الحياة الحافلة المضطربة ، وهنالك نلقاه وحيداً ...

ها هو ذا جالس على مقعده الخشبى فى الغابة المحيطة بداره ، إنه لا يفكر ولا يُطْرِق شأن الغاضب اليائس الحاقد ، وإنما يقرأ فى الكتاب المقدس . لقد عجزت السنون والسياسة عن أن تفسد عليه عقيدته فى الله وفى المسيحية ، إنه منصرف إلى القراءة انصرافا لا يحس معه شيئاً مما حوله ، ثم ها هو يكتب على هامش الكتاب كلمات قليلة ثم يعود للقراءة ، ثم يضع الكتاب ، وينظر إلى الكلب الأسود الضخم الرابض تحت قدميه ويداعبه مترفقا ، ثم ينهض ويمضى إلى الدار هادئاً متئداً ..

ترى ماذا كتب فى هذا الكتاب ؟

لقد جعل بين كل ورقتين من ورق الكتاب ورقة بيضاء ، وعلى هذه الصفحة سجل ملاحظاته وخططه ، فكأنما كان الرجل يرسم السياسة وهو يقرأ كلام الرسل ، وكأنما تلهمه كليمات الرسل خطط السياسة وحكمة الحياة . ومن الواضح المعروف أن سياسته لم تكن كلها فى صفاء حكمة الرسل ، وأنها اختلفت عنها فى كثير ، إذ لم يكن له بد وقد تعرض للسياسة من أن يحيد عن قواعد الدين والأخلاق .. ومن غريب الأمر أن الكثير من خطوط هذه السياسة سجله الرجل فى الكتاب المقدس نفسه ! وذلك من غرائب النفس الإنسانية، وذلك ما أردت قوله حين قلت لك فى مطالع حديثى : إن الله قد جمع فى هذا الرجل الملاك والشيطان .

ثم تعال نتتبعه لنرى ما عساه أن يصنع إذا خلا إلى نفسه فى الدار ..

ها هو ذا فى حجرته ، إنه يركع لله ويمسك الصليب ، وتنحدر من عينيه الدموع ، ثم يصلى لله ويدعو لألمانيا ! .

الملاك فى صورة إنسان

فلورانس نايتنجيل

قال : إلى الأمام يا فرسان الطليعة !

اهجموا على المدافع ...

فى وادى المنون ...

وكرت هذه المئات الست على ظهور الجياد ،

ليس شأنهم إلا أن يجاهدوا وأن يموتوا .

لقد ركبوا إلى وادى المنون ...

هؤلاء الستمائة !

كيف يخمد ذكرهم على كر الزمان ،

أو ذكر الهجوم الباسل الذى قاموا به ،

واستحقوا به إعجاب العالمين ؟

مَجّدوا الهجوم الذى قاموا به ..

مَجّدوا فرسان الطليعة !

هذه المئات الست من النبلاء !

ولكن الناس لم يمجدوا فرسان الطليعة هؤلاء ، إلا بعد أن أجهزت عليهم الجروح والحميات والأمراض وأكلهم التراب . وظلت أبيات الشاعر اللورد تنيسون هذه كلاما

بديعاً يترنم الناس به فى بلاد الإنجليز وهم غارقون فى كراسى الجلد الوثير تحيط بهم هالات من الدخان ، أما الأبطال فكانوا يتساقطون تحت نيران المدافع وتدوسهم سنابك الخيل ، وتمضى الساعات وهم فى التراب يتلوون من آلام الجراح ، ثم تقبل عربات خشنة تجرها البغال ، فيرفعهم الرجال ويضعونهم عليها كأنهم بعض المتاع ، وتنطلق العربات تضطرب بهم وتخلع عظامهم وهى تسير فى الطرق الوعرة الصخرية إلى المعسكر على مقربة من بَلاكْلاَفا . وهناك تضمد جراحهم بخرق بالية قذرة ، ثم يُرسلون مرة أخرى إلى ميناء صغيرة يحملون منها على ظهور السفن إلى أشقودرة على شاطىء البحر الأسود المقابل . وإليك وصف هذه الرحلة البحرية الشاقة التى كان « الأبطال » يقومون بها كما يصفها ليتون ستريتشى كاتب التراجم الإنجليزى المعروف :

« كانت السفن تقطع هذه الرحلة فى أربعة أيام ونصف فى الأوقات العادية ، ولكنها كانت تستغرق فى زمان حرب القرم وأهوالها غير العادية بين أسبوعين وثلاثة . وكانت تسمى لهذا « الرحلة الوسطى » أى رحلة ما بين الحياة والموت ، وكانت هذه التسمية حقا ، إذ كان الجرحى والمرضى يكدسون على أسطح السفن تكديسا ، وكان بينهم رجال قطعت أرجلهم ، ورجال بين أنياب الحمى ، وآخرون أهرأ الصقيع أرجلهم أو أيديهم فتحجرت وأخذت تموت . وكان الكثيرون منهم يقاسون ويلات الدوسنطاريا أو الكوليرا ، وكانوا يستلقون على الخشب دون أسرة ومن غير أغطية ، بل من غير ملابس فى بعض الأحيان ، فكان يموت منهم أثناء هذه الرحلة أربعة وعشرون من كل ألف ، وكانت جثثهم تلقى فى الماء . وربما كان هؤلاء أسعد حظا من أولئك الذين يصلون إلى أشقودرة ، فقد كان النزول إلى البر عنيفا مؤلما . فإذا كان الجو مضطربا بقى الرجال فى السفن أياما أخرى يعانون آلام المرض وسكرات الموت ، فإذا أُنزلوا إلى البر بعد ذلك كان لا بد أن يحملوا بضعة أميال حتى يصلوا إلى أقرب مستشفى ... » .

وأى مستشفى ! إليك وصفها كما ننقله من كتابات المس فلورانس نايتنجيل : « لم تكن لتوجد فى المستشفى فى أشقودرة ملابس نظيفة ، ولم يكن على المرضى إلا خرق ملطخة بالدماء . كان المستشفى فى أول أمره ثكنة للجنود ، تحتها أقبية تفيض بالأقذار ، وكانت

الريح تمر فى هذه الأقبية ثم تندفع إلى الغرف التى يرقد فيها الرجال . وكانت الجراح والأمراض والزحام وسوء التهوية تزيد الجو تسمما ، وكانت الحجر ملأى بالفيران والحشرات ، وكانت الأرض سيئة ، وكان كل شىء ناقصاً أو غير موجود : الأثاث ، وأبسط الآنية اللازمة للتنظيف ، وكل ما يليق بالكرامة الإنسانية أو يوفر الراحة ... » .

ووصف ليتون ستريتشى هذا المستشفى بقوله : « وماذا كان المرضى والجرحى يجدون فى هذه المستشفيات ؟ كانت الحاجة والإهمال والفوضى والشقاء ـ فى كل شكل وفى كل درجة ـ تملأ الممرات التى لا تنتهى ، وكل أجنحة الثكنة الواسعة التى حُوِّلت على عجل وبدون إعداد إلى مأوى رئيسى لضحايا الحرب . وكانت الرائحة كريهة إلى درجة لا توصف . لم تكن هناك أسِرة كافية ، وكانت أغطية الأسرة من الخيش ، وكانت خشونتها قاسية إلى درجة أن الجرحى كانوا ينفرون منها ، وكانوا يرجون أن يُتركوا فى ملابسهم . ولم يكن هناك شىء من الأثاث اللازم لغرف النوم ، لا مناشف ولا صابون ولا غرف نوم أو أدوات لتنظيف الأرض والحجر ، بل لم تكن هناك أطباق . وكان الضوء ينبعث ضئيلا . وكان الوقود دائما قليلا ، ولم يكن المطبخ معداً ولا كافيا ، وكانت المغسلة شيئاً مضحكا ، أما الأدوات الطبية فلم تكن أحسن ولا أوفر ، لم يكن هناك شىء من الأدوية ولا الأدوات التى تلزم للعلاج! ».
هكذا كان مصير الأبطال الذين تغنى بمجدهم الشاعر المتخيل ، الذى لم يكن همه إلا إذ كاء حماسة الحرب فى قلوب الشباب بمثل هذا الشعر لكى يذهبوا إلى هذا الجحيم ! ولم يكن حال جنود حرب القرم أشقى من غيرهم من الجند فى كل ميدان ، بل ربما كان هؤلاء أحسنَ حالا ، فقد جرت عادة الناس فى ذلك الزمان أن يذهب الجندى إلى الميدان فلاتهيىء له حكومته إلا وسيلة الحرب : السلاح والبارود . فإذا سقط أو جُرح كان مصيره بين يدى الأقدار وحدها ، وقد يكون جُرحه بسيطا أو قد يصاب بمرض عارض ، فلا يزال الإهمال يزيد علته حتى يقضى عليه . وقد حكوا أن نابليون مثلا كان يخَلف وراء جيوشه آلاف الجرحى لا يكاد يحفل بهم . وأن مصير معظم هؤلاء كان الموت الرهيب بين الغبراء والسماء ، إلا إذا ساق لهم القدر لصا يجهز على الجرحى منهم ليسرق ما معهم ، أو وحشا ضاريا من وحوش الفلاة يريحهم من آلامهم .

لنجدة هؤلاء خفت المِسْ فلورانس نايتنجيل .

* * *

كانت حتى الثلاثين من عمرها تحيا حياة كل فتاة إنجليزية ذات جمال وحسب ومال ، وكان أبوها المستر وليم شُور نايتنجيل سيداً غنيا يملك أرضا واسعة عند إمْبلى فى هامشير ، وكان سعيداً كل السعادة أن يجد ابنته فلورانس أجمل فتيات الأسرة ، وكان لا يشك فى أنها ستصبح أكثر الفتيات حظا ، وأن المقادير لا تلبث أن تيسر لها الرجل الكريم ذا الحسب والمال ، وكانت ابنته مرحة طروبا يتحدث بجمالها الفتيان .

ولكن فتاته فلورانس خيبت رجاءه .. لقد أقبلت عليه ذات يوم ، وأعلنت إليه أنها ستهب حياتها لخدمة المرضى ! وعجب الرجل كيف تفكر فتاة زاهرة مثلها فى احتراف تلك المهنة « المهينة » وكان احتراف التمريض فى ذلك الحين (١٨٥٠) عاراً أو ما يشبه العار ، وكانت الفتيات المسكينات أو اللاتى أضلهن الشيطان إذا قسا عليهن الزمان ووقعن تحت طائلة القانون يخيرن بين السجن أو خدمة المرضى ، وكن يرغمن إرغاما على الخدمة فى المستشفيات ، فكن لا يفتأن يحاولن الفرار أو سرقة المرضى ، وربما سأل الطبيب عن إحداهن فوجدها تترنح من فرط الشراب فى أحد أركان المستشفى . لهذا كان المجتمع الإنجليزى لا ينظر إلى الممرضات نظرة إكرام ، وكان تفكير فتاة مثل فلورانس نايتنجيل فى احتراف التمريض تفكيراً شاذاً جريئاً ، يحط من قدر الأسرة الكريمة ويهبط بسمعتها فى أنظار الناس .

ولكن الألمان كانوا ينظرون إلى التمريض نظرة أخرى ، كانوا يعتبرونه خدمة دينية جليلة لا تصبر على مكارهها غير النفس الكريمة المتدينة ، وقد افتتحوا له المعاهد وأخذوا يدربون الفتيات عليه بما عرف عنهم من دقة وتنظيم لكل شىء ، فاتفق أن وقع فى يد المس فلورانس نايتنجيل كتاب طريف هو التقرير السنوى لمعهد فِلِيدْ نَر أكبر معاهد التمريض الألمانية ، فمضت تقرؤه فى اهتمام ظاهر ، وألقت بعيدا ذلك الكتاب التافه الذى أهداها أبوها إياه لتقرأ فيه لكى تتهذب بتعاليمه وتعرف ما ينبغى أن تفعله وما لا ينبغى أن تفعله حتى تصبح فتاة رفيعة خليقة بمجتمع الأغنياء والسروات . وعجب أبوها لهذا وأنكره

عليها، ومضى يسألها فيه فقالت : « سئمت يا أبى هذه الحياة التافهة ! سئمت أحاديثكم الأرستقراطية عن اللورد ملبورن ، وكيف أن النوم يغلبه فتنحنى رأسه وينام والملك يتحدث سئمت الحديث عن الأمير ألبرت ومهارته في البلياردو ، ومللت التمدح بجمال عقد هذه السيدة أو تلك ، سئمت هذا الكذب وكرهت منكم الخداع والسخر من الناس فى أقفيتهم، سئمت هذا كله وأريد لنفسى شيئا خيراً منه وأكرم !» .

ولم يستطع أحد أن يردها عما أرادت . لقد أجمعت رأيها وأخذت الأهبة للعمل الشاق الذى قررت أن تكرس له حياتها ، واستطاعت آخر الأمر أن تذهب إلى ألمانيا لتدرس فن التمريض على الهر فْلِيدْنَر مدير المعهد . فلم تكد تقدم نفسها إلى الرجل حتى أنكر هيئتها الأرستقراطية وأكد لها أنها لن تصبر على مشاق التمريض ومتاعبه بسبب مزاجها الرقيق وكيانها المترف ، فجعلت ترجوه أن يختبرها وأن يمضى معها فى الدرس ليرى ما يكون من أمرها ، فلم يكد الرجل يفعل حتى استبان أنها أقدرُ من رأى على خدمة المرضى وما تفرضه على القائمين بها من أعباء .

فلما فرغت من درسها هذا وعادت إلى إنجلترا حيث عينت مديرة لمصحة خاصة بالنساء فى شارع هَارْلِى فى لندن . وكان القائمون بالأمر فى المصحة أفرادَ طائفة بروتستنتية متعصبة تأبى أن تمرض كاثوليكيا أو يهوديا ، ويزاولون العمل فى تساهل وتهاون ، يحسبون أنهم يتفضلون على المرضى إذا ناولوا أحدهم كوبة ماء ، فلم تكد هذه الإنسانة الجليلة تدخل المصحة حتى غيرت الأمور رأسا على عقب .. تناولت جَرْدل الماء بيد والممسحة باليد الأخرى ، ومضت تمسح الأرض كأنها خادم مأجورة ! فلم تكد المرؤوسات يرينها حتى خجلن من أنفسهن ومضين يتسابقن إلى التفانى فى العمل ، ومضت هى تضرب لهن المثل فى الصبر والاحتمال : تضمد الجروح وتظل ساعات إلى جانب مريضة يائسة تشد عزمها وتقوى نفسها ، وتنهض فى غلس الليل ولما تنم إلا قليلا لتقدم الماء إلى مريضة أجهدها العطش ونامت عنها ممرضتها .

وعرفت فلورانس كيف تكون قاسية حينما تكون القسوة هى المخرج الوحيد ، كانت تلطم المقصر على وجهه وتحرم المهمل من مرتبه وترغم العاصى على احترام النظام . وأرادت

هيئة الإدارة ألا تقبل يهوديا أو كاثوليكيا فصاحت : « أيها القوم ... إننا بشر والبشر إخوة وسواسية ! » ، وما زالت تغالب هذه النفوس المريضة حتى علمتها الإنسانية وأرغمتها على قبول المرضى دون تفريق ، وكتبت إلى صاحبة لها تشرح لها ذلك كله . وتقول فى آخر الخطاب : « اللهم احفظنا من التعصب ومن الخداع السيىء ! » .

وكان رؤساء المستشفى يسخرون منها ويعجبون من إصرارها على التضحية وشغفها بالعمل . كانت تقضى الساعات إلى جانب سيدة فقدت بصرها وفشل الأطباء فى إعادته إليها ، وكانت هذه السيدة مشرفة على الجنون ، وأشار السادة الأطباء بنقلها إلى مستشفى الأمراض العقلية ، ولكن فلورانس أبت ، وأقامت إلى جانب السيدة تهدىء نفسها وتحسن عزاءها وتسرى عنها حتى اطمأنت وثاب إليها الرشد وعاد إلى قلبها البشر . وكانت تمر يوما فى حجرة فإذا قطعة من الحديد الساخن تكاد تنقض على طفل مريض ، فأسرعت واستقبلتها فى يديها غير مبالية بما يصيبها فى سبيل الطفل العليل . ولقد زارتها الروائية المعروفة المسز جاَسْكِل ، فلم تملك إعجابها ومضت تقول : « يبدو أن الله يقودها فى كل خطوة من خطواتها ، كما كان يقود جان دارك » .

ثم أقبلت أنباء حرب القرم تترى ، وأخذت الصحف تنشر التفاصيل عما يرزح الجنود تحته من البلاء . وأخذت العيون تتطلع إلى إنسان ملأ الله قلبه حباً للناس وعطفا عليهم ، وكتب الكاردينال ما نجح فى التَّايمزْ يؤكد أن الحالة تحتاج إلى إنسان شجاع كريم مؤمن ، ثم تساءل : لماذا لا تكرس فلورانس نايتنجيل نفسها لهذا العمل ؟ .

وكانت فلورانس تنتظر مثل هذه الإشارة بصبر نافد ، فقد كانت نفسها تتفرق حسرات لمصاب هؤلاء الجنود المساكين ، وكانت تود لو أتيحت لها فرصة العمل على تخفيف ويلاتها وآلامهم ، ولكنها كانت تخشى رجال الجيش . وهل كان إنسان يجرؤ على أن يتقدم إلى الضباط العظام بمثل هذا الاقتراح ؟ أنْ تذهب آنسة إنجليزية إلى ميدان الحرب المروعة وتعيش بين الجند وتقوم بالخدمة والحراسة فى مستشفياتهم ! هل تأذن وزارة الحربية ذات التقاليد القديمة للمس نايتنجيل بأن تتدخل فى شئون الجيش فتصدر الأوامر وتحشر أنفها فى أمور لا تخص إلا رجال العسكرية وحدهم ؟ .

ولكن إشارة الكردينال شجعتها ، فكتبت إلى السير سيدنى هِرْبَرت وكيل وزارة الحربية- وكان صديقاً لأسرتها - خطابا رقيقاً تعرض فيه خدماتها ، وتؤكد له أنها وصاحباتها اللاتى سيذهبن معها لتمريض الجند سيقمن بنفقات أنفسهن ، وأن الدولة لن تتكلف لهن شيئاً ثم قالت وكأنها ترجو خيرا لنفسها وحدها : « هل تتفضل أنت - أو أى شخص آخر - فتحدث وزارة الحربية عن مؤهلاتى ؟ . أرجو أن تقول لهم : هذه ليست سيدة أرستقراطية بل هى ممرضة حقيقية » . وضحك رجال الوزارة ، وقال بعضهم وهو يفتل الشارب الضخم وينفث الدخان فى الهواء : « دعوا هذه السيدة الصغيرة تمثل دور الممرضة ، ستنتهى المسألة كلها إلى فشل من غير شك ، دعوها تمضى لسبيلها » .

وقد مضت ..

حملتها السفينة فى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٥٤ إلى شبه جزيرة القرم ، وقد لقيت الأمرين طوال رحلتها من عناد زميلاتها الممرضات اللائى أتين معها ، وجعلن يتبرمن من مشاق السفر وأهوال البحر ويتخوفن من مضانك العمل الذى ينتظرهن ، فلم تصل الآنسة الكريمة إلى أشقودرة حتى سقطت مريضة . ونظر الشامتون وأعداء المرأة إلى بعضهم بعضا فى سرور ، ومضوا يهنئون أنفسهم على ما آتاهم الله من بعد النظر والنفاذ إلى أعماق الأمور ، وهز الدكتور هول رئيس الأطباء فى معسكرات القرم رأسه فى عجب وقال: «إن إقدام هذه السيدة على هذا العمل شىء مضحك » ! ومضى ينعتها «بالعصفورة» سخرا وتهكما . وتلقف الضباط والأطباء هذه السخرية منه ومضوا يرددونها ويؤلمون بها سمع الملاك الذى أقبل ليخفف آلامهم .

ولم تكد فلورانس نايتنجيل تبدأ العمل حتى فوجئت بالتعقيدات الإدارية والإجراءات الحكومية تكاد تشل حركتها شللا . كانت قد شحنت سبعة وعشرين ألف قميص للمرضى من لندن وأرادت أن تتسلمها ، فأبى مدير المخازن ، وقرر ألا تفتح الصناديق إلا إذا أذنت له لجنة فى ذلك . وطال الأمر واللجنة لا تنعقد ، والمرضى والجرحى يتألمون من قذارة ما عليهم من الثياب ، وأخذت المس نايتنجيل تطرق الأبواب فلم ينفعها ذلك شيئا ولم تُفتح الصناديق وتوزع الملابس إلا وقد هلك من البرد كثير من المرضى . وضاق صدرها

بتلك التقاليد ، فلم تكد الشحنة التالية تصل حتى أمرت مساعداتها بفتحها دون إذن اللجنة المقدسة ، ففتحنها ، ووزعن الملابس على المرضى ومدير المخازن فاغرٌ فاه دهشة وإنكاراً وهو يقول : « قضى الأمر ! أصبحت مقاليد الأمور بيد الكلاب والنساء ! » .

ثم أقبلت تطالب المسئولين بتحسين طعام المرضى ، لأن « المريض ليس وحشاً ضاريا حتى تلقى له العظام وفتات الطعام .. إنه فى حاجة إلى طعام نظيف حسن الطبخ فاتح الشهية » . فهزت الإدارة رأسها وقالت : « أيتها الآنسة ، إن ميزانية الجيش للذخائر وآلات الحرب لا للحلوى ! » وقال لها أحد الضباط ساخراً : « أيتها العصفورة ، لماذا لاتقدمين الحلوى من مالك الخاص ؟ » فقالت فى هدوء : « ولم لا ؟ » . وأخذت تنفق من مالها إنفاقا، ماضايقتها الإجراءات الإدارية إلا أنفقت ، حتى أفنت مالها أو كادت .

وتحدثت « التايمز » بذلك ، وفتحت باب الاكتتاب فأقبلت التبرعات تترى ، وحاولت إدارة الجيش أن تضع يدها على المال ، فقال مندوب الصحيفة : « أيها الضابط ، هذا المال للآنسة نايتنجيل ، دعوها تفعل به ما تريد ! » . وتسامع اللورد ستافورد رِدكليف سفير إنجلترا فى القسطنطينية بذلك فقال : « وددت لو أنفقوا هذا المال فى مطلب جدير بالإنفاق!» ، فلما سئل عن هذا المطلب الجدير بالإنفاق قال : « نبنى كنيسة أنجليكانية فى القسطنطينية ! » .

وتحسن حال المرضى ، وخفت بلوى الجرحى بفضل هذه الإنسانة الكريمة التى كان الضباط الأصحاء يسخرون منها ويسمونها « العصفورة » ، فإذا جرحوا ولزموا الأسرَّة لم يعدلهم فى الحياة عزاء غيرها ! كان المرضى يعبدونها عبادة ، كانت تقضى الليل كله ساهرة تلبى من يناديها ، وكان الجريح يفيق من نومه فإذا هى تمسح البلاط إلى جانب سريره با لماء والصابون ، ولقد يناديها واحد منهم فتسرع إليه تحسبه فى مشقة ، فإذا أقبلت رجاها أن تجلس ليملى عليها خطابا لأمه ، فلا تزيد فلورانس على الابتسام وتجلس فى صبر وأناة ، وكان كبير الأطباء الدكتور هول لا يفتأ يصيح : « إنها تفسد علينا أجلاف الجند » ، فكانت تقول : « هذا ما أريده .. أريد أن أفسدهم أجلافا لأردهم ناسا » .

وحدث أن طلبت إنشاء مغسلة لملابس المرضى ، فصاح مدير مهمات الجيش : « هذا

أمر يتطلب إنشاء إدارة كاملة . ليغسل القادرون من المرضى ملابس غير القادرين ، ثم لماذا تريدين غسل ملابس الجرحى ؟ إنهم جنود والجنود ذوو خشونة ! » . فلم تحفل به واستأجرت منزلا من مالها ، وأقامت فيه مغسلة كاملة ، فسعد الجرحى بملابس نظيفة دائما، وصاح مدير المهمات : « ومن أين لنا نفقات غلايات الماء والصابون ؟ » فأجابت : «اقتطعها من نفقات البارود ، أنت رجل ذوفَهم ! » ، وأنشأت فرقة لحياكة ما تمزق من الملابس ، فلم يعد الجند يرقدون فى خرق مهلهلة . وكتب سيدنى هربرت وكيل الحرب : «إن فلورانس نايتنجيل تكسو الجيش البريطانى ! » .

وأقبلت جماعة من الفتيات الإنجليزيات من إنجلترا ليعملن معها وهن يحسبن الخدمة معها تشبه الخدمة الاجتماعية التى تعودنها فى بلادهن : بيع زهور فى الحفلات والاستقبالات! فلم يكدن يصلن حتى قالت لهن : « استرحن جيداً الليلة يا آنسات ، فإذا أصبحتن مضيتن معى إلى المغسلة ! » فتصايحن : « إلى المغسلة ؟ » فسكتت وهى تعلم أنها خيبت رجاءهن ، فقد أتين يحسبن عملهن يقتصر على الترفيه عن الضباط ومرافقتهم ، فإذا بهذه الآنسة تسوقهن إلى المغسلة ليقضين اليوم فى أقسى ما تقضى فيه امرأة يومها .

وعجب قادةُ الجيش أن وجدوا جندهم أوفرَ شجاعة وأكثرَ قدرة على متاعب الميدان ، كان أحدهم لا يبالى أين وقع منه رصاص الأعداء ، ما دامت الآنسة نايتنجيل هناك فى المستشفى ، تضمد الجرح وتخفف العلة .. وعجب القادة من ذلك ، وجعلوايكابرون فى فضل هذه الآنسة الشجاعة ، ولكنهم اعترفوا به وأقروه آخر الأمر . وكانت هى تعانى من تثبيط الهمة ما تعانى ، وتلاقى من إنكار الناس قيمة عملها ما تلاقى ، فلا يكاد ذلك يصرفها عن العمل ، بل ربما زادها فيه حباً وعليه إقداما .

وحينما اشتد اللجاج بينها وبين المشرفين على شئون الجيش ، سألت : « كم كانت نسبة الموتى من الجرحى قبل أن نبدأ هذا العمل ؟ » فقيل لها : « اثنان وأربعون فى المائة » . فقالت : « والآن اثنان وعشرون فى الألف ، هل يكفيكم هذا ؟ » .

وكان ذلك حقاً . بعد ستة أشهر من هذا النضال المتصل ساد المستشفى النظام . لم يعد جريح ينام على الأرض أو تتعفن جروحه تغطيها قطع الخيش الغارقة فى الدم ، وأصبح

الطعام لا يقدم وجبات خشنة غير منتظمة ، بل فى أوقات معينة ، وأشرفت المس نايتنجيل بنفسها على توريد الأطعمة فقطعت يد السراق والمستغلين فتضاعفت قيمة المال المخصص للطعام ، وأخذت تدبر للمرضى كتباً يقرأونها فى الأسرة ، وأنشأت للجند صندوق توفير ، فأنكر عليها الرجال ذلك وقالـوا : « إن الجندى حيوان لا يعـرف الاقتصاد!»، فكذبت ظنونهم ، وأرسلت إلى إنجلترا واحداً وسبعين ألفاً من الجنيهات اقتصدها هؤلاء الجنود وأرسلوها إلى أسرهم ! .

وانتهت الحرب ، فلم تعد فلورانس نايتنجيل إلى بلدها . بل بقيت تشرف على مرضاها شهوراً أربعة حتى برىء آخرهم . ثم حزمت متاعها وعادت إلى بلادها قريرة العين بما فعلت ، وقررت الحكومة استقبالها استقبالا عسكرياً ، فتخلفت عن الموعد لتعود إلى بلدها فى سكون وتواضع ، وقالت : « لا أريد أن تكرمونى .. أريد أن تفهمونى » .

عادت إلى إنجلترا فى يوليو سنة ١٨٥٦ ، وأخذت تتحدث عن سوء حال المستشفيات عامة ومستشفيات الجيش خاصة ، فتعجب وزير الحربية الجديد لورد بانمْيُور من هذه الآنسة التى لا تريد أن تهدأ ، وتساءل عما يدفعها إلى هذا الجنون المتعب ، وجعل يرجو الناس أن يطلبوا إليها أن تُخْلد إلى الراحة ، فقد انتهت الحرب وعاد السلام . ووافقه أصحابه على ما قال ، وأقبل الناس عليها يرجونها السكوت ، فقالت : « لقد طار رأسى وقُلمت أظافرى من طول ما كافحت ، فلماذا تهاجموننى بهذه الحدة ؟ » . ويئست من رجال الدولة فمضت تخاطب الشعب ، وكتبت كتابها « ملاحظات عن التمريض » وترجمته بنفسها إلى معظم اللغات ، وأشرفت على طبعه ونشره حتى أوصلته بيدها إلى بعض البيوت، وهكذا أسمعت صوتها العالم كله . وتحرك الناس لصوتها ، وإذْ تحرك الناس أفاق رجال الحكومة وأخذوا الأمر مأخذ الجد ، واضطر اللورد بانمْيُور إلى الموافقة ، فأنشئت مدارس التمريض ، وأنشىء المستشفى العسكرى .

وذهبت مرة تنظر فى مشروع مستشفى جديد كما رسمه المهندسون الحكوميون ، فعجبت واستولى عليها الغضب وصاحت : « هذا ليس مستشفى ، إنه قصر أنيق . نحن لا نريد أن يعجب الناس بمهارة المهندس وتفننه بل نريد أن نريح المرضى ! » ، وكتبت خطاباً تطلب

تغيير الرسم ، فلم يملك اللورد بانميور نفسه أن قال : « ما هذه الآنسة والبناء ؟ إنه شأننا» فقالت : « بل هو شأني ! » وما زالت حتى دخلت على رئيس الوزراء اللورد بالمرستون ، فلبثت معه ساعات طويلة ، وخرجت وقد أقنعته بصحة رأيها ، فكتب من فوره إلى اللورد المغرور يرجوه إيقاف العمل ويؤنبه على الاهتمام بظاهر الأمر دون باطنه ، ويعجب كيف لا يفهم أن أهم ما فى الموضوع هو راحة المرضى لا وجاهة البناء .

وبنى المستشفى كما رسمته فلورانس نايتنجيل ! .

* * *

واستمرت تعمل بعد هذا جاهدة فى تحقيق ما ارتسم فى خيالها من مثل عليا . احتضنت المريض والجريح والمعوز ، ومضت تحارب فى مقدمة جيش التعساء لتفوز لهم من الأغنياء والأصحاء والحاكمين بما يخفف عنهم آلام المرض وشرور الفاقة ، كان لا يمر شهر إلا قام بفضلها مستشفى أو أنشىء ملجأ أو تكونت هيئة للبر والخير . ولم تكن بالطبيبة ، ولكن إحساسها بآلام المرض جعلها خيراً من كل طبيب ، كانت أكثر الناس إحساساً بآلام المرضى وأقدرهم على تخفيفها ، وكانت لا ترفض لمريض طلبا : تضمد له الجرح ، أو تناوله الماء ، أو تقرأ له فى كتاب ، أو تدعو عازفا يعزف له الموسيقى . تقوم بذلك كله فى صبر وحلم وحب حتى لقد ارتفعت فى أعين الناس وفى حساب التاريخ إلى مقام القديسات . وكانت الملكة فكتوريا تتتبع جهدها فى إعجاب بالغ ، وكانت تقول لمن حولها : « كم أود لو تعرفت إلى هذه التى ضربت مثلا رائعا لجنسنا » . وقد أسعدت الظروف الملكة العظيمة بالتعرف إلى المس نايتنجيل ، فقدمت إليها قلادة كريمة تعبيراً عن شكرها وتقديرها ، وأرفقت الملكة بالقلادة براءة قالت فيها : « أنا أعرف أنك على علم بالتقدير الكبير الذى أكنه لروح التفانى المسيحى الذى تجلى فى أعمالك خلال هذه الحرب الكبيرة الدامية ، ولست أحتاج إلى أن أكرر على مسامعك كيف كان إعجابى بك حارا وتقديرى عظيما لخدماتك التى تعدل الخدمات التى قام بها جنودى الأعزة الشجعان ، الذين كان لك شرف التخفيف عنهم على هذا الأسلوب الرحيم » .

ولم تحظ امرأة إنجليزية أخرى من الملكة العظيمة بمثل هذا التقدير .

وناء جسمها تحت الجهد المتصل الذى بذلته أعواماً بعد أعوام . وإن من وقف مثلها وحيداً أمام جبال من العقبات ـ بعضها عدم الفهم ، وبعضها العناد والإصرار على تقاليد يتمسك بها ناس هم أكثر أهل الأرض حرصا على التقاليد ، وبعضها السخرية بامرأة تحاول أن تصلح الرجال وأن تدلهم على الطريق الأحسن ـ إن من وقف يكافح كفاحها لا يكاد يضعف ولا يستريح ، لحقيق أن يدركه التعب يوما ، ويميل إلى راحة ضن بها على نفسه زمانا بعد زمان .

وكان من أغرب خصالها نفورها من الشكر والتكريم وغير ذلك مما تألفه الطبيعة الإنسانية الضعيفة وتميل إليه ، ولقد ظلت طوال حياتها تنفق على عملها من مالها الموروث وتعيش على ما بقى منه ، وكان آخر ما تبقى لها بيت فى شارع ساوث فى لندن ، كانت تعيش فيه بعد أن بطلت حركة ساقيها وعجزتا عن حملها ، كانت تجلس على مقعدها على سطح هذا المنزل تستقبل زوارها ، وما كان أكثرهم بعد أن أدركتها الشهرة وثبت بعد نظرها كان فيهم الوزراء والسياسيون وقادة الجيوش والشعراء والنبلاء ، ثم كان فيهم الفقراء والمعوزون والمرضى ، أولئك الذين تصدت لخدمتهم بكل ما استطاعت من جهد حتى أفنت فى سبيلهم عمرها وصحتها ، وكانت لا تزال النهار كله تقرأ ما يرد عليها من الأوراق وتفحص ما يقدم إليها من المشاريع وما يتوجه به الناس إليها من الشكاوى . وكانت إذا خرجت بها خادمتها إلى الحديقة محمولة على كرسى ذى عجلات ، تهافت الناس عليها وتدافعوا يريدون أن يستطلعوا وجهها الكريم أو يمسوا طرفا من ثيابها . لقد بلغ حب الناس لها مبلغ العبادة .

ولم تفقد أبداً الشعور بمسئولياتها أمام الجنس البشرى المعذب ، وكانت تقول : « Femi-na sum إنما أنا امرأة ! وعلى هذا فأنا معنية بكل ما يمس أبناء الأسرة الإنسانية » . كانت ـ وقد تخطت الثمانين من عمرها ـ لا تزال تعمل بذهنها ، وبما بقى لها من قوة بدنها بنفس الهمة التى كانت تعمل بها فى شبابها وفى أيام اكتمال قواها . كانت لا تزال النهار كله تقرأ ما يرد عليها من الرسائل ، وتملى الردود ، وتسعى جاهدة فى بناء عالم أحسن وأوفر راحة للبشر .

ثم بلغت التسعين وعجزت كل قواها عن العمل . شُلَّتْ يداها ثم هبطت الظلمة على عينيها ، ثم أخذ عقلها يكل عن العمل . وكانت صور الكفاح الطويل لا تزال تعرض فى خيالها ويتحدث بها لسانها ، فكانت لا تفتأ تقول : « أنا هى التى وقفت على مرتفعات القرم».

وسألها أحد معارفها ذات يوم ، قبل وفاتها بقليل ، يريد أن يمتحن بذلك حضور ذهنها: « هل تعرفين من أنت ؟ » . فقالت : « نعم ! إننى أرى مذابح الرجال الذين سالت دماؤهم ، ولن أزال أكافح فى سبيلهم ما حييت ! » .

مجد على التل الكبير

الأميرالاي محمد عبيد

ذلك قرن ازدحمت فيه الأحداث حتى هزت وادينا هزا ، وتواترت خلاله الخطوب على نحو يملأ النفس رهبة وعجبا . فقد استيقظنا فى ختام القرن الثامن عشر على لجب الحملة الفرنسية ، ومضينا ندافعها وتغالبنا حتى مضت عنا ونحن فى يقظة هى أشبه بيقظة النائم أزعجه طارىء بالليل فنهض يغالب النوم ، فلما مضى الطارىء ود لو عاد لينام .. ولم نكد نطمئن قليلا حتى عاد الأتراك بمساءات الماضى وظلمات العصر المنقضى ، يحسبون الأمر على ما كان عليه ، ويحلمون بقيادة الناس ، وهم كانوا أحوج إلى من يخرج بهم من متاهات الجهل والضلالة . ثم لم نلبث أن طرق الإنجليز أبواب بلادنا ـ على عهدهم فى إزعاج الآمنين ومباغتة الناس بليل ـ فرددناهم على أعقابهم ..

وكان علينا أن نزيل فى سنوات ركاما من الجهل والظلام تراكمت مع القرون والأعصر ، فما هى إلا أعوام حتى استقامت فى بلادنا المنشآت والمدارس والمعاهد والمصانع والموانى والجيوش ، وحاربنا حرب الظفر فى بلاد العرب واليونان والشام والسودان ، حتى لم تبق فى نواحى الشرق الأدنى ناحية إلا سالت فيها دماؤنا ورقد فى رمالها شهداؤنا .

ثم أقبلت أيام سعيد ، وبدأت قصة القناة السوداء وما صاحبها من ديون ، وكان ضباع الأجانب أثناء ذلك كله لنا بالمرصاد ، لا يأنسون منا غرة فى مال أو كرامة إلا نهشونا نهش الذئب الطامع . وأقبل من خلفهم الإنجليز ـ أعداء الأبد ! ـ والفرنسيون ، يبتسمون فى وداعة المعَلم تارة ، وفى خبث المرابى تارة ثانية ، وفى خسة الطامع تارة ثالثة..

ولم يكد إسماعيل يعتلى العرش ، حتى بادروه جمعاً واحداً كله طمع وكله خداع . وفى أيامه وصلت جيوشنا المظفرة إلى المحيط الهندى عند « قسمايو » ، وسارت جحافلنا تنشر

النور فى القارة المظلمة وتمحو الرق . وما زال الترك بإسماعيل حتى أمدهم بنفر منا لقوا مصارعهم فى ساحات القرم وعلى حصون سباستبول ، وبلغ من انخداعه فى حسن ظنه بفرنسا وعونها أن أهداها نفراً من جنده أهل بلدنا رَوَت بدمائهم وهاد المكسيك! .

ثم ثقلت على كواهلنا الديون ، وأقبلت الدول ـ الإنسانية الرقيقة ! ـ وفى مقدمتها فرنسا، تطالب برطل اللحم من قلب المدين كما فعل شيلوك ، ومضى إسماعيل يدافع المطامع ويرد الدسائس حتى غُلِبَ على أمره وترك البلاد آسفاً على ما أفرط فى الثقة بالإنجليز والفرنسيين ، وما أسرف فيه من عطاء الأتراك .

وأقبلت أيام توفيق ، وقد أفاق المصرى من تعب الجهد المتواصل والحرب المتصلة . أفاق وانتبه إلى ما كان سادراً فيه من الإفراط فى الثقة بالأجانب والاعتماد على شذاذ الشراكسة ، وعرف أن الله لم يخلقه تراثا أو عقاراً ـ كما قال عرابى فى يوم عابدين ـ وأقسم بالله لا يورث ولا يستعبد بعد اليوم ! واحتدم النزاع بينه وبين من ينكرون عليه هذا الحق ، ونهض الفلاحون من بطون القرى ينتظمون تحت لواء عرابى جيشاً . وما كان عرابى إلا مصريا طيب القلب شهم النفس ، أراد أن يضع يده فى يد أمير ساذج ضعيف الطبع ، وأين لمثل هذين أن ينهضا لذئاب الإنجليز وضباع الشراكسة ؟ فما زال هؤلاء يلقون بينهما البغضاء ، حتى سنحت الفرصة .. فأسفر الإنجليز عن وجه الطامع الفاتك فوثبوا وثبتهم ، مستعينين بكل خائن مزعزع النفس ، حتى فازوا بذلك النصر الزهيد عند التل الكبير .

ولو حَسَبَ الإنسان أعداد من لقى منا مصارعه فى حروب هذا القرن الطويل من وهاد بلادالعرب إلى مجاهل السودان إلى جبال المكسيك ، ومقدار ما أنفقنا من الأموال على ذلك كله طوال تلك السنين ، ثم ذكر إلى جانب ذلك أن عددنا لم يعدُ الملايين الخمسة أو الستة، وأن مواردنا كانت قليلة محدودة ، وأن نصيبنا من العلم بشئون الحضارة الأوروبية كان يسيراً.. مَن عرف هذا وقاسه إلى الجهد العظيم الذى بذلناه ، والخسارة المتوالية التى تحملناها ، لآمن بأننا قمنا خلال ذلك القرن بما يشبه المعجزة ، وأن الهزيمة إن كانت حلت بنا آخرَ الأمر فى ساحة التل الكبير فقد كانت نتيجة لإجهاد متصل وإنفاق فى رأس مال متواضع . ولو قد وقفت إلى جانبنا خلال ذلك كله دولة واحدة لكان الحال غير الحال ،

ولكننا وقفنا ـ عقداً بعد عقد ـ نصارع الأحداث وحدنا بدون صديق : أزمات تتلوها أزمات، وعقبات تؤيدها عقبات ، وعدو يشد أزر عدو ، والكيان بعد ضعيف ، والتجربة قليلة والجهد متصل مرهق .. فكيف تُستغرب الهزيمة بعد ذلك ؟.

من وعَى ذلك كله وحسب حسابه واستقصى تفاصيله ، خفت عن نفسه أوزار هذه الهزيمة وما تلاها من الاحتلال الإنجليزى ، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، وقد بذلنا الوسع وما هو فوق الوسع ، ولو تُركنا لأنفسنا لكان الحال غير الحال ، ولكن هذا الاحتلال الذى نزل بنا منذ سبتمبر سنة ١٨٨٢ شل حركتنا وأعادنا إلى ظلمات عهد المماليك قبل ذلك بقرون .

وقد كان من سوء الطالع أن تولى قيادتنا فى اللحظة الحاسمة رجل طيب قليل الخبرة ولسنا نحاول أن نفصل أحداث القرن ، ولا أحداث الثورة العرابية ، وإنما نريد أن نحمل الأسباب البعيدة والقريبة التى أدت إلى مأساة التل الكبير ، وأن نشهد آخر مشهد للبطولة المصرية الكريمة خلال ذلك القرن المنقضى ، ممثلة فى شخص قائد مصرى ثبت مع جنوده ـ ولم يزيدوا على آلاف ثلاثة ـ وسط نيران متلاحقة ، وطعنات من الخلف ، وجيش مروع .. أردنا أن ننتهى بذلك كله إلى البطل الجليل الأميرالاى محمد عبيد من أبناء كفر الزيات .

وإننا لنورد سيرة هذا البطل المصرى فى هذا المجموع لنصل بينها وبين بطولة أحفاده من أبطال الثورة المصرية الراهنة ، أولئك الذين ردوا اعتبار هذا الوطن الكريم وأزالوا ذلك العدوالدخيل الذى غدر أرضنا فى سبتمبر ١٨٨٢ ولم يستقر عليها إلا بالخيانة والخديعة ، فما زال أبطال ثورة يوليو ١٩٥٢ يواصلون الجهد والنضال حتى كللوا كفاح الشعب المصرى للاستعمار سبعين سنة متوالية وحتى طهروا منه البلاد ، ورفعوا العلم الذى ناءت بحمله يمين البطل المجاهد الذى نتحدث عنه اليوم .. محمد عبيد .

* * *

ليس يستطيع أن يفهم عرابى وإخوانه ويضعهم فى مواضعهم إلا من عرف ظروفهم التى عاشوا فيها وشاركهم إحساسهم خلال تلك الظروف . فقد انتظم عرابى فى سلك

الجيش جندياً صغيراً عادياً ، مثله فى ذلك كمثل غيره من المصريين الذين كان الناس إذ ذاك يعيرونهم بأنهم « فلاحون » .. وعبرت به السنون ، وتوالت خدماته ، وظل على ما هو عليه جنديا صغيراً منسياً . وكان ينبغى - تباعاً لمنطق تلك الأيام - أن يظل هو وأصحابه على ذلك الحال ، لأنه كان مصريا فلاحاً ولم يكن تركياً ولا شركسياً ..

وقد أرادت المقادير أن ينفسح الطريق أمام المصريين فى أخريات أيام سعيد ، فارتقى عرابى فى عصره حتى أصبح قائمقام فى سنة ١٨٦٠ ، وارتقى معه عدد من المصريين إلى مثل هذا المنصب . فأثار ذلك نفوس من كانوا يسمون أنفسهم الشراكسة فى ذلك الحين ، فما زالوا به حتى أدخلوه مجلس تأديب .. فلما برأه المجلس ألحوا عليه بالأذى حتى أخرجوه من الجيش جملة ، وأصبح كاتباً فى دائرة الحلمية . وظل خارج الجيش ثلاث سنوات ، عاد بعدها إليه على رغم هؤلاءالكارهين ، فانتقموا منه بحرمانه من مرتبه خلال السنوات الثلاث التى بقى فيها خارج الجيش .

وما زال على ذلك الحال ، يحارب فى سبيل كيانه ، حتى أقبلت أيام توفيق ، فرقى إلى رتبة الأميرالاى ، بعد أن بقى تسعة عشر عاما فى الرتبة السابقة ، قضاها مظلوما ، مهيض الجانب ، مهددا فى كيانه فى كل حين ، مُحالا بينه وبين فرصة العمل ، أو فراغ الدرس والاستذكار ..

وقد كان لهذه الحال أسوأ الأثر فى مصيره ومصيرنا معه ، لأنه ظل معظم هذه الفترة محروما من فرصة يستطيع فيها أن يجود معارفه العسكرية ، أو معارفه السياسية . ولم يكن الرجل بالخامل النفس ، ولا بالقاعد عن طلب العلم أو المعرفة ، وإنما شغله هؤلاء الدخلاء بهذا الكفاح الصامت ، الذى كان كل مصرى فلاح من أبناء هذا الوادى يشقى بمرارته ويقضى فيه عمره راضيا أو كارها . ولو أتيحت له فرصة الدرس والمران لما أباها، ولكنه شب لا يكاد يعرف من فنون الحرب شيئا يستطيع أن يخوض به غمار معارك ضخمة ولا لوم عليه فى ذلك ، وإنما اللوم على من ملأوا حياته ألما وشقاء ، وأحبوا أن يسودوه وهو أحق منهم بخيرات بلاد هو ربيب ترابها ، فكان عليه قبل كل شىء أن يكسر شرتهم ليرفع المصرى رأسه ..

وقد وفق عرابى فى ذلك توفيقا طيبا ، وزالت دعوى الشراكسة والأتراك ، وارتفع رأس المصرى بفضله إلى مصاف غيره من الناس ، وفى هذا وحده نصر عظيم .. ولو لم تتدخل الدولة البريطانية ، لكان النصر أكمل . ولكن إنجلترا كانت لنا بالمرصاد طوال القرن الماضى كله ، كان بيننا وبينها ثأراً مبيتاً ..

وحينما عاد عرابى من المنفى ـ بعد سنوات من النفى والتشريد ـ لم يعد أحد يسمع بهذا الصراع المؤلم بين المصريين وغير المصريين ، الذى شغل عصرى إسماعيل وتوفيق .. اختفى هذا وأصبح الناس كلهم مصريين سواسية ، والفضل فى ذلك كله لهذا المصرى ، الفلاح ، الشرقاوى ، الأصيل ، أحمد عرابى .. وهو نصر ليس بالقليل .

ولُنضِف إلى حساب الرجل أنه كان بسيطا ، متواضعا طيب القلب ، لا يكاد يحمل ضغينة لأحد . فقد أثار الدنيا وأقعدها ، ووصل إلى زعامة البلاد ، وأصبح معبود الناس ، ومتَّجَه الأنظار ، ولكنه ظل رغم ذلك على بساطته ، لم تذهب الخيلاء برأسه ، ولم يعبث إجلال الناس بوقاره . وظل إلى آخر أيامه زميلا مع أتباعه ، لم يسجل عليه أحد منهم نزعة غرور ، أو ميلا إلى الخيلاء .

بل بالغ فى البساطة إلى حد أضر به وبقضيته ، فقد كان قلبه مفتوحا للناس أجمعين ، لا يكاد يحس أنه يمتاز على أحد بشىء . ومن أمثله ذلك أنه بعد أن انتصر فى يوم عابدين وأدرك ما أراد ، وعاد السكون مجراه ، كان يخطب الناس عن قلب صاف ساذج ، ويقول لمستقبليه فى محطة الزقازيق مثلا : « أنا أخوكم فى الوطنية ، واسمى أحمد عرابى ، ولدت فى بلدة « هرية رزنة » من بلاد الشرقية هذه ، فمن عرفنى منكم فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى عرفته بنفسى ، وها أنا ذا واقف بين الأهل والخلان ، وقد بلغكم ماطلبناه من قطع عرق الاستبداد وتحرير البلاد وأهلها ، وبعناية الله سبحانه منحنا الخديو هذه الأمنية ، فنحن لم نخرج من العاصمة عصيانا ولا تظاهرا بعدوان » ..

وهذا كلام رجل يفهم الحرية ، ويعرف معناها وجدواها على الشعوب ، وهو يقوله فى بساطة وسذاجة تهز القلوب هزا ، ولم يكن مع ذلك قد كَسَب لمواطنيه كسبا يسيرا ، بل كسبا معنويا عظيما ، وخطا بالقومية المصرية والشخصية المصرية خطوات واسعة فى طريق

الكرامة والحرية ، وإليك حديث الإنجليزى الحر المستر ولفرد بْلنت عن هذا الكسب العظيم :

« إن ثلاثة الشهور التى أعقبت هذا الحادث - حادث عابدين ٩ سبتمبر ١٨٨١ - لهى من الوجهة السياسية أسعد الأيام التى شهدتها مصر ، ولقد ساعدنى الحظ بمشاهدة ماجرى فيها بعينى رأسى ، ولم أتلق معلوماتى عنها بطريق السماع ، ولو كان ذلك لشككت فى حقيقتها .. إنى لم أرق حياتى ما يشبه هذه الحوادث ، وأخشى ألا أرى مثلها فى المستقبل . إن كل الأحزاب الوطنية ، وكل أهالى القاهرة قد اتفقت كلمتهم هنيهة من الزمن على تحقيق هذه الغاية الوطنية الكبرى ، لا فرق فى ذلك - كما يظهر - بين الخديو والأمة . وسَرت فى مصر رنة فرح لم يسمع بمثلها على ضفاف النيل منذ قرون ، فكان الناس فى شوارع القاهرة - حتى الغرباء منهم - يستوقف بعضهم البعض ، ليتعانقوا جذلين مستبشرين بعهد الحرية العظيم ، الذى طلع عليهم على حين غفلة طلوع الفجر إثر ليلة مخيفة حالكة الظلام » .

* * *

ولكن هذه العزة لشعب طالت به عهود القهر والظلم لم تكن لترضى أنصار الظلم وطلاب الغايات .. أنكر الشراكسة على المصريين أن يصبحوا مثلهم سواسية ، وأنكر نفر من المصريين على عرابى أن يفوز بهذا الحب والتقدير من الناس على سذاجته وبساطته ، واستبعدوا أن تطوف أفكار الحرية الرفيعة بذهنه ، وهو الفلاح الأصيل الذى لم يصب من العلم إلا نصيبا متواضعا ، وأدرك نفوسهم الحسد .. وويل لنا معاشر الشرقيين من الحسد! إنه يضلنا ويعمينا ويدفعنا إلى ما تأباه النفس الكريمة .. ويل لنا من الحسد الذى يحرق القلوب إذا أدرك صاحب لنا أو واحد من أبناء وطننا ومعارفنا شيئا من العز والجاه ! هذا الحسد الذى ألب قلوب أصحاب شيخنا الجليل عمر مكرم فما زالوا به حتى انتهوا به إلى المنفى ، وأثار نفوس نفر من أصحاب عرابى ومواطنيه ، فانتهى أمرهم وأمره إلى الفشل والهزيمة ، وقلب نفوس الناس على مصطفى وفريد وسعد زغلول ، ومايزال يعبث بنا ويحطم نفوسنا حطما ، ولعلنا لن نتنبه إلى ذلك إلا ونحن فى تراب القبور ! لقد مست الغيرة

نفس رجل كالأستاذ الإمام محمد عبده ، فمضى يعلق على دعوة عرابى إلى الحرية ويقول:

« هذه أحاديث عقل ينبو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابى ، تمثلت له جنايته فى صور أغوال فاغرة الأفواه محددة الأنياب ، ولزمه خيالها فى يقظته ومنامه ، فهو فى فزع دائم يخيل له العزل والموت فى كل شىء يراه ، يلتفت يميناً وشمالاً فلا يرى إلا سيوفاً مسلولة أو حبالاً منصوبة ، ولا يسمع من هواجس نفسه إلا صيحة واحدة : الخلاص الخلاص ! أو الهرب الهرب ! ولم يتمثل فى مخيلته مهرب أوفى له من طلب مجلس النواب على الصورة التى قدرها فى نفسه ... » .

هكذا جرى قلم الإمام الكريم ـ غفر الله له ـ يهبط بالزعيم الذى فاز للأمة بحقها فى الدستور ومجلس النواب . وليس إلى الشك سبيل فى أن آل مصر كلها كانوا قبل ذلك الحين فى خوف دائم وهم متصل وذل مقيم ، يتهددهم الظلم والعسف ولا يكاد يحميهم أحد ، وكان محمد عبده من أولئك المصريين الذين شقوا من استبداد الأجانب وعسف المتجبرين شقاء بالغاً ، وكان هو أولى الناس بالوقوف إلى جانب عرابى وتوجيهه بما حباه الله من فضل العلم وكمال المعرفة ؛ ولكن .. قاتَلَ الله الحسد ! .

بيد أن وصف الأستاذ الإمام لحالة عرابى النفسية قبل إعلان الدستور وعقد المجلس النيابى يصدق عن حالة كل مصرى فى ذلك الحين ؛ فقد كان نفر من ضباط الشراكسة قد استمرءوا طيبة المصريين وذهبوا يفكرون فى إعادة أعصر أجدادهم المماليك ، بل إنه « كثر اجتماع العنصر الشركسى فى منزل خسرو باشا الفريق ، وهم يتذاكرون فى تاريخ دولة المماليك كل ليلة بحضور عثمان باشا رفقى ، ويلعنون خيرى بك لإذعانه وتسليمه للسلطان سليم ، وظنوا أنهم يملكون مصر ويستبدون بها كما فعل أولئك المماليك من قبل » كما قال عرابى فى مذكراته . ومضى زعيمهم عثمان رفقى يضطهد الجنود المصريين ويهدر حقوقهم دون ذنب أو تحقيق ، وأصبحوا جميعاً فى حال من الخوف والرعب ربما زادت على ما وصفه الأستاذ الإمام من حال أحمد عرابى ، وقد كان أهل مصر جميعاً يشهدون ذلك ويرونه ، ولا يكاد أحد منهم يجرؤ على الكلام رغم مرارة الألم وهواجس الخوف .

وكان عرابى قديراً على أن يدع الأمور تجرى فى أعنتها ، فقد كان قد وصل إلى أرفع مراتب الجندية ، ولم يكن ليصيبه من عثمان رفقى وأصحابه شر . ولكنه خلق أبيَّ النفس لايقبل الظلم ولا يُقره ، فأبى أن يؤخذ جنوده الفلاحون ليعملوا فى شق الترع عمل المسخر، وتصدى لعثمان رفقى وأنكر عليه تصرفه المخزى . ولم يكد نفر من الضباط يتوجهون إليه ويشكون إليه آلام أنفسهم ومخاوفهم حتى تصدى لحمايتهم ، وخاطر بنفسه فيما كان يعد فى ذلك الزمان جنوناً : كتب إلى رئيس الوزراء رياض المتجبر يطلب إليه عزل وزير الحربية والإقلاع عن جنون العصبية واحترام أبناء الوادى من الفلاحين ، فأين هذه الشجاعة مما يزعم الأستاذ الإمام من جبن عرابى وخوفه على حياته ؟ .

* * *

كان البكباشى محمد عبيد من ذلك الفريق من المصريين المظلومين الذين كان يُراد لهم الذل ويُدبَّر لهم فى الخفاء ، وكان مصرياً صميماً من أبناء كفر الزيات ، وقد دخل الجيش جندياً صغيراً ، وظل على حاله سنوات طوالاً ، وكان من الممكن أن يظل على هذه الحال لو لم تنصفه المقادير كما أنصفت غيره من المصريين وترفعهم إلى مقام الضباط ، ومضى يرتقى من درجة إلى درجة حتى نجده بكباشياً فى الآلاى السودانى فى مايو سنة ١٨٨٠ . ومن أسَفٍ أننا لا نعرف عن حياته حتى هذا التاريخ شيئاً كثيراً ، ولكننا سنلقاه منذ هذا الحين فى كل مناسبة تحتاج إلى شجاعة وتضحية ويبدو أنه كان من زعماء المصريين فى الجيش ، لأن عثمان رفقى وضع اسمه فى قائمة المغضوب عليهم فى مايو سنة ١٨٨٠ ، وقرر نقله من مركزه وإحلال شركسى محله ، فلم يكد عبيد يسمع بذلك حتى خف مع رئيسه عبدالعال حلمى حكمدار الآلاى السودانى إلى منزل عرابى يبسط أمامه ما يدبر الشراكسة لآل مصر من سوء المصير .

وملأت الحماسة نفس عرابى لمواطنيه ، وتصدى للدفاع عنهم على ما فى ذلك من الجرأة، بل التهور ، فكتب إلى رياض عريضة يطلب إليه فيها عزل وزيره كما رأينا ، وقد وقعها معه عبد العال حلمى وعلى فهمى ، وأقسم الضباط المصريون على الدفاع عن حريتهم وكرامة مواطنيهم حتى الموت .

ووصلت العريضة رياضاً ، فأقامته وأقعدته واعتبرها جرأة لا ينبغى أن تصدر عن أبناء الفلاحين هؤلاء ، وأخذ يتحدث فى مجالسه بما سيصيبهم من عذاب أليم جزاء ما طلبوا من العدل والمساواة . ومضى رفقى وأنصاره يزيدون نفسه غضباً ، ويحقرون المصريين فى نظره ويهونون عليه شأنهم ، حتى قرر محاكمتهم أمام مجلس عسكرى . ولو أنه لجأ فى محاكمتهم إلى أسلوب كريم ، فأعلنهم بالتهمة ودعاهم للمثول أمام المحكمة ، لكان تصرفه معقولاً أو مفهوماً على الأقل ، ولكنه لجأ إلى أسلوب غادر لا يصدر إلا عن نفس تنطوى على سوء النية والخديعة .. دعاهم إلى ديوان الجهادية بقصر النيل بحجة الاستعداد لحفلات زفاف إحدى الأميرات ، وجَبُنَ أن يعلن إليهم أنهم مدعوون للمحاكمة أمام مجلس عسكرى ، وأخفى عنهم أن أمر المحاكمة مطوى تحت يده . وليس أبلغ فى الدلالة على سوء النية من هذا ، ولو لم تبدر من عرابى من بوادر الشجاعة غير ذهابه إلى قصر النيل مع زميليه ـ وهو يعلم ما يدبر له ولهما ـ لكفاه ..

ولم يكد عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى يدخلون قصرَ النيل حتى أطاحت بهم شراذم الشركس الأجلاف يسبُّونهم ويصفُونهم بأنهم فلاحون أقذار ، ونزعوا عنهم سلاحهم وأودعوهم السجن دون محاكمة كأنهم بعض المجرمين ! .

وانتظر محمد عبيد إخوانه أن يعودوا فلم يعودوا ، فجرت المخاوف فى نفسه ، وتوجس الشر من تدبير سيىء يكون قد حاق بهم ، وكان إذ ذاك ضابطاً « بقشلاق الحرس » فى عابدين ، فنادى جنده وصفهم وأمرهم بالمسير إلى قصر النيل . وحاول رئيسه خورشيد بَسْمِى الشركسى أن يرده عن ذلك فلم يحفل به ، ولما وجده يتمادى مع الغيظ ، وينكر عليه إسراعه لنجدة إخوانه أمر به فسجن فى إحدى حجر المعسكر . ومضى فمر بفرقته أمام قصر الخديو توفيق ، وكان توفيق لا يكره أن يثور الجند على رياض ، لأنه كان لا يحبه ولكنه أرسل ياوره راشد حسين ليرد محمد عبيد عما يريد ، فأبى محمد عبيد ، وهو يعلم أنه يخاطر بحياته بهذا الإباء ، ولكنه كان يسعى فى خلاص إخوانه المصريين من هذا الشر الذى يريده بهم الشراكسة الخبثاء ، ومضى شهماً عزيزاً رافع الرأس إلى ثكنات قصر النيل .

ولم يكد محمد عبيد يصل بجنده إلى وزارة الحربية فى قصر النيل ، حتى أدرك الخوفُ هذا

المتجبرَ العاتى عثمان رفقى ومن التف حوله . فتدافعوا يطلبون النجاة فى هرب مخجل ، ودخل محمد عبيد وجنده البواسل الوزارة يبحثون عن إخوانهم السجناء حتى عثروا عليهم وحلوا وثاقهم بأيديهم ، وعاد عرابى وإخوانه إلى الحرية . ولو لم يفعل محمد عبيد ذلك لضاع أمر عرابى وإخوانه ، ولنُفُوا إلى مجاهل السودان أو رفعوا على أعواد المشانق ، ولسكت هذا الصوت النبيل الذى نادى بأن مصر للمصريين . ولو فشل فى حركته ولم يوفق إلى إخراج صاحبيه لعُدَّ ثائراً عاصياً ، ولكان مصيره الهلاك ؛ ولكنه لم يفكر فى ذلك ، لأنه كان مواطناً شهماً ومصرياً كريماً .

ووقف المصريون من جند الجيش وضباطه صفاً واحداً ، وألّفَ الله بينَ قلوبهم ، فلم يلبث رياض أن تزحزح عن موقفه وأجابهم إلى مطالبهم وإن نفسه لتذوب ألماً وحسرة : عُزِل الشركسى وَوُلى محمود سامى البارودى مرشح المصريين ، وطابت أنفس « الفلاحين » ورضيت نفس عرابى ، وهدأت نفس محمد عبيد ، وانتصرت القومية المصرية فى معركتها الأولى بفضل هذا الشهم الكريم .

ثم أعقبت هذا الحادث أشهرٌ سود ، هى أظلم ما مر على قوم أحرار دفعتهم الحمية إلى المطالبة بالحرية ، وأهابت بهم نفوسهم إلى النهوض للدفاع عن وطن مهيض .. ما كاد عرابى وصحبه يخرجون من السجن مظفرين ، وما كاد رياض يتراجع ، وما كاد المظلومون والمهددون فى أموالهم وأرواحهم من أهل مصر يشعرون بنسيم الحرية يهفو إلى نفوسهم ، حتى توجهوا إلى هذا الزعيم عرابى يبثونه الشكوى ويلتمسون عنده الحماية من رياض ومظالم رياض ، بل بلغ عدد المتظلمين ممن كان محكوماً عليهم بالنفى إلى مجاهل السودان تسعمائة ، انفتح أمامهم جميعاً طريق العدل فتوجهوا يطلبون الإنصاف . وجرؤ نفر من كبار أهل البلاد وأوسعهم جاهاً على الإفضاء إلى عرابى بما كان يخالج نفوسهم من المخاوف ومايتوقعون لبلادهم من سوء المصير ، واجتمعت كلمة هؤلاء جميعاً على المطالبة بالدستور وبمجلس النواب ، حتى لا يستبد بالأمر رياض أو غير رياض ، وحتى يعود الأمر إلى هذا الشعب المظلوم .

فلم تكد هذه الأنباء تترامى إلى خصوم الحرية وأعداء مصر من الأجانب الشراكسة ،

حتى بدأوا يحيكون المكائد ويوقعون البغضاء بين المصريين والخديو . ووضع الإنجليز أصبعهم فى الموضوع ، وجروا بالسعاية بين أهل مصر حتى شمل الخوف الجميع ، وأصبحت مصر معسكرين ينطوى أحدهما نحو الآخر على الشر والكراهية .. وزاد الخوف حتى ما كان أحد من الجانبين ليجرؤ على السير وحده فى الليل ، فكان عرابى إذا أراد السير إلى دار عبد العال حلمى استقدم نفراً من جنده مخافة أن يكون الأعداء مترصدين له فى الظلام . وكان محمد عبيد حارساً أميناً لزعمائه : كان لا يسكن الليل غادياً مقبلاً يحمل الرسالات من الزعماء ويتصيد أعداء الحرية ويرديهم فى مكانهم ، حتى خافوه وتهددوه بالموت . وجعلت الإشاعات تتردد بأنه منقول هو وجنده إلى السودان ، وهوجم المرة بعد المرة ، ودست عليه الدسائس فى عمله ، ووجهت إليه التهم فلم يهز ذلك نفسه ، ولم يتزعزع عن أمانته للقضية الكبرى ورجالها ، فظل أوفر ما يكون شجاعة وأقوى قلباً .

مرت هذه الأشهر السبعة على الوطنيين وهم فى حال من الخوف والقلق تعود بالإنسان إلى أظلم أيام الإرهاب ومحاكم التحقيق .. كان الجواسيس فى كل ناحية ، وكان أحد من هؤلاء المصريين لا يطمئن إلى خادمه ، فقد حاول أحد خدم عرابى أن يضع له السم بإيعاز من أحد الشراكسة .

هذا ، ومن غرائب النفس المصرية أن عرابى وإخوانه لم يحاولوا الدس لخصومهم أو التربص لهم فى الظلام على هذا النحو الخسيس ، لأنهم إنما كانوا أنصار حرية ورجال قضية عظمى لا تهبط بهم كرامتهم إلى مثل هذا العمل الوضيع ، أما الشراكسة فهم على مايُعرف من تاريخهم دناءةَ نفس ولؤمَ طباع ، وهم أهل المؤامرات وعنصر الكيد الأسود اللئيم . ولقد شقيت مصر بهم زمناً طويلاً ، ولقيت تركيا من سوء نفوسهم ما أوردها موارد الهلاك .

ولم تَخِفَّ رهبة هذا الرعب الشامل إلا بعد يوم عابدين العظيم ، يوم أجيبت مطالبُ الوطنيين كاملة ، فسقطت الوزارة ، ودعى مجلس النواب إلى الانعقاد ، ولاح للناس فجر من الحرية جديد .

وكان ذلك فى التاسع من سبتمبر سنة ١٨٨١ .

ثم تعاقبت الحوادث يتلو بعضها بعضاً ، أدخل الإنجليز والفرنسيون أنوفهم فى الأمر ومضوا يثيرون رجال الأمة الواحدة بعضهم على بعض ، كأنهم قرروا ألا يرتفع لمصر فى أجواء الحرية علم أبداً ... وأسرع ثعالب الأتراك يتوددون إلى عرابى حيناً وإلى الخديو حيناً حتى مكنوا الخلاف بين الناحيتين من جديد ، ثم مضى كل منهم يستعد من ناحيته للانقضاض على الفريسة إذا تقسمها الخلاف واندلعت بين أهلها نيران الخصومة .

وقد كان ما أرادوا ، وزادت شقة الخلاف ، وأوهم الإنجليزُ الخديو أن حياته فى خطر من هؤلاء الأحرار ، وصوروا له أنهم يحمونه من كل شرٍ يكون ، وأنهم يقومون بهذه الحماية ـ على عهدهم دائماً ! ـ دفاعاً عن الحرية والحق ، لا يطلبون لأنفسهم من وراء ذلك غنماً .. وصَدَّق الخديو دعاوى ثعالب الإنجليز من أمثال كلفن وإدوارد مَالِت وكوكسن ، ومالَت نفسه الضعيفة إلى الاحتماء فيهم ، وركن إليهم .. فتشجعوا وأسرعوا ، كبنات آوى وفهود الغاب وضباع الجحور تسرع نحو الفريسة فى ظلام الليل ، أسرعوا تؤيدهم الخيانة وتعينهم الرشى وفساد النفوس ...

* * *

ظل محمد عبيد خلال هذه السنوات كلها سيفاً من الحركة الوطنية ، وكان ما يزال يعمل فى آلاى السودان الذى يرأسه عبد العال حلمى أحد أعلام الثورة . ولسنا نملك شيئاً من المعلومات المحققة عن أعماله خلال الفترة التى انقضت بين مظاهرة عابدين فى سبتمبر سنة ١٨٨١ ونزول الإنجليز أرض مصر والتحامهم مع رجالها فى المعارك التى انتهت بالاحتلال الإنجليزى بعد ذلك بعام . ولكن أخباراً متناثرة تشهد أنه كان ملازماً رئيسيه عرابى وعبد العال فى كل خطوة ، وأنه كان شديد الحماسة مستعداً للعمل فى كل لحظة ، وأن عرابى كان يُهَدِّى ثائرته ويسكن نفسه كلما جاش كيانه بالغضب على أعداء مصر والمصريين . فمن ذلك ما يحكى من أنه ذهب مع عرابى للقاء شريف باشا فى وزارته الثانية ليتعجلا إصدار الدستور ، وكان الجوُّ كَدراً بين شريف باشا وعرابى ، وكانت الشكوك تملأ قلبيهما فلم يكد عرابى يتحدث فى أمر الدستور حتى رده شريف رداً عنيفاً ، فما كان من محمد عبيد إلا أن وقف وصاح : « والله إن لم تصدر اللائحة لأقطعن رؤوس الحاضرين ! »

ووجم عرابى وأبلس شريف وملكه الخوف ، وبذل عرابى جهده فى إفهام الوزير أن البكباشى عبيد لا ينوى إلا خيراً ، وأن مخاوفه من أعداء الحركة الوطنية هى التى تضعه وأمثاله فى مثل هذه الحال من التهيج والاستعداد للثورة .

ونسمع عنه مرة ثانية فى السابع والعشرين من مايو سنة ١٨٨١ فى دار رئيس مجلس النواب محمد سلطان باشا ، فى ذلك الاجتماع الخطير الذى عقده الوطنيون المصريون عقب وصول المذكرة الإنجليزية الفرنسية الثانية تطلب الدولتان فيها أن يخرج عرابى باشا من مصر مع احتفاظه بلقبه وراتبه ، وأن يبتعد كل من عبد العال حلمى وعلى فهمى إلى داخل القطر ، وأن تستقيل وزارة محمود سامى البارودى من الحكم .. وكان هذا طلباً عجيباً من دولتين أجنبيتين لا تملكان أى حق فى التدخل فى شئون مصر ، ولكنهما كانتا على دأبهما من انتهاز الفرصة فى الضعيف والآمن ، فأقبلتا تتساندان كأنهما شيطانان لا يبغيان بالضعيف خيراً ، فلم تكد المذكرة تصل حتى اجتمع رجال البلاد وعلى رأسهم عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى ومحمد عبيد ، وهنالك قرروا رفض المذكرة رفضاً باتاً وليكن ما يكون .

ثم نراه بعد ذلك مرافقاً لعبد العال حلمى حينما سافر بجنوده إلى دمياط فى الرابع من أكتوبر سنة ١٨٨١ وفاءً لما أخذه الوطنيون على أنفسهم من الابتعاد عن العاصمة إذا دُعى مجلس النواب إلى الانعقاد ، ذهب محمد عبيد إلى دمياط وظل مقيماً فيها حتى قبيل موقعة التل الكبير .

ثم كانت معركة التل الكبير فى الثالث عشر من سبتمبر ١٨٨٢ ، وليس فى تاريخنا الحربى والسياسى كله يومٌ تنكَّبنَا فيه الحظ وباعدنَا الرشادُ كما حدث فى ذلك اليوم الأسود وإن الإنسان ليقرأ التفاصيل فيعجب كيف وقعنا فى هذه الأخطاء كلها ، وكيف مشينا بأقدامنا إلى الهاوية بعيون أضلها الشيطان ، وكان فى ميسورنا أن نتلافى الأخطاء واحداً بعد واحد ، وأن ننجو من الهاوية بشىء من الحكمة وبعد النظر ! .

فقد كان أولى بعرابى وأصحابه أن يوحدوا صفوفهم فى مكان واحد ، وأن يلقوا الإنجليز لقاء رجل واحد فى معركة حاسمة واحدة ؛ ولكنهم تفرقوا فتصيدهم العدو واحداً واحداً .

أقام عبد العال حلمى وجنوده المدربون فى دمياط ، ولم يحضر قتال التل الكبير منهم إلا فرقتان على رأسهما محمد عبيد ..

وظل طُلبة عصمت حامى الإسكندرية وبطل كفر الدوار فى البحيرة ، بعيداً عن الموقعة الحاسمة فى وقت اشتدت الحاجة فيه إلى قائد باسل مثله .

وأسر محمود فهمى المهندس الحربى العظيم فى الخامس والعشرين من أغسطس عند المسخوطة فى مناوشة قصيرة قبيل التل الكبير ...

وجُرح راشد حسنى وعلى فهمى فى واقعة القصاصين الثانية قبل معركة التل الكبير بأربعة أيام فقط ..

وخُدع عرابى بما وعَده به ديلسبس من إقفال القناة فى وجه الإنجليز وتركها مفتوحة خلفه ، ولم يرع ديلسبس وعد الشرف الذى قطعه على نفسه وأجاز الإنجليز ،. فكانت تلك قاصمة الظهر لجيوش مصر . وقد اقتص الله من ديلسبس على هذه الخيانة فحوكم فى بلاده رغم شيبه بتهمة النصب ، وقضى آخر أيامه فى السجن بين ذل الجريمة وعار الشرف الملوث !

ووقف عرابى مع نفر قليل من الجند المدرب ، وبضعة آلاف من المتطوعين ، وعدد لايحصى من الخونة فى خطوط التل الكبير يُعِد العدة للموقعة الأخيرة الحاسمة . وفى استطاعتنا أن نتصور حالته النفسية فى أيام كهذه ، وقد تفرق عنه كبار الأنصار ، ولم يبق إلى جانبه إلا محمد عبيد ! .

ولو اقتصر الأمر على ذلك لكان فى النصر رجاء ، لأن جند مصر كانوا لا يزالون يحتفظون ـ على قلتهم ـ بما عرف فيهم من الحمية والشجاعة ، وكان من الممكن أن ينقذ الموقفُ لو ساعف المقدار ..

ولكن الخونة احتاطوا بعرابى وغدروه : ما أصدر أمراً إلا نقلوه إلى الأعداء ، وما قدر تقديراً إلا انتقل خبره إلى الخصوم ، وأقبل إليه سلطان باشا رئيس مجلس النواب وصديقه القديم يخدعه ويؤكد له أن الإنجليز لن يتقدموا ، وقد غاب عن عرابى أن سلطان باشا

انقلب على وطنه بلَيْل وأنه يتقاضى ثمن الخيانة عشرة آلاف من الجنيهات ، لم يفطن عرابى إلى ذلك وظل يلقى إليه بأذنه ويفتح له قلبه ..

وأقبل نفر من البدو الغادرين يقودهم شيخهم الخائن مسْعُود يضللون جنود مصر ويقودون جنود الإنجليز ، فأضلوا البارودى ورجاله ، فلم يدركوا المعركة ، ولم يساهموا فيها بنصيب ..

ووقف المجرم الغادر على يوسف يرصد الأنباء لينقلها إلى الإنجليز ، حتى لقد أوصل خطة الجيش المصرى مكتوبة ، فكانت تلك هى الطامة الكبرى ؛ ولو أوتى عرابى بعد ذلك خبرةَ نابليون لما وفق إلى النصر .. وأقبل جيش الإنجليز تؤيده الخيانة وتعززه الرشى ليفوز بنصر رخيص ..

وكانت الأمة المصرية تقف إلى جانب جيشها منذ بدء المعارك فى الإسكندرية فى الحادى عشر من يوليو سنة ١٨٨٢ ، فقد كان الناس رجالاً ونساءً يتطوعون فى خدمة المجاهدين ويساعدونهم « بتقديم الذخائر الحربية وإعطائهم المال وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم إلى المستشفيات » كما يقول عرابى فى مذكراته ، بل ذهبت همتهم إلى أبعد من ذلك فيقرر محمود فهمى باشا : « رأيت فى ذلك الوقت بعينى ماحصل من غيرة الأهالى بجهة رأس التين وأم كبيبة وطوابى باب العرب وهمتهم فى مساعدة عساكر الطبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم ، والبعض من الأهالى صار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول » .

وهبت على الأمة كلها نسمات من البطولة ، وتجلى فى أفرادها استعداد رائع للدفاع عن أرض الوطن العزيز ، فقد كان الفلاحون يخرجون من قراهم بالفؤوس قاصدين مواقع القتال لمعاونة الجيش فى أعمال التحصين والدفاع ، ولو كان معهم سلاح لقاتلوا ، ولو كانوا على شىء من الدربة لثبتوا ، ولكن الحرب تجربة ومران ، وما كان هؤلاء غير رجال متحمسين لا تؤيدهم غير حمية القلوب ، وأين لهم الثبات أمام ذئاب الإنجليز الذين حاربوا فى كل قطر وشربوا من دماء كل شهيد ؟ .

وكانت الحرب قد قامت وليس فى خزانة الحكومة درهم واحد ، لأن المراقب الإنجليزى

الخسيس أو كْلاند كَلفِن أخذ الأموال من خزانة الدولة وأنزلها إلى الأسطول الإنجليزى قبل إعلان الحرب بأيام ، ولم يكن أعضاء لجنة صندوق الدَّين أكثر شرفاً من هذا اللص الإنجليزى ، فقد نقلوا ما فى عهدتهم من مال مصر إلى الأسطول الإنجليزى ! .

فى مثل هذه الظروف كان على عرابى أن يقاتل ! .

وأعلن عرابى حاجةَ الجيش إلى المال والعتاد ، فأقبلت التبرعات تترى حتى زادت على الحاجة ، وقد قرر ذلك عرابى فى كتاب أرسله من منفاه يقول فيه : « أرجو أن تُذَكِّر صديقنا المستر بلنت ـ فضلاً عما كتبناه إليه بتاريخ ١٥ الحالى ـ أن جميع النفقات التى لزمت لمائة ألف جندى مصرى أثناء الحرب كانت كلها تبرعات من الأمة المصرية بغير تمييز بين العقائد ، فقد بدأت الحرب ولم يكن هناك أكثر من عشرة آلاف جندى تحت السلاح ، ولا أكثر من ألف ومائة حُلة عسكرية فى المخازن ، وحتى هذه لم تكن كاملة ، ولم يكن لدينا أكثر من ألف وخمسمائة عِدْل من الحبوب ، ولكنه عند نهاية الحرب كان لدينا فى مستودعات الجيش وفى المديريات المختلفة والمخازن ما تزيد قيمته على مليون من الجنيهات من المال والمنتجات الزراعية والبقر والجاموس والغنم والأقمشة ، وكل ذلك قدِّم هدايا من الأمة للجيش المدافع عن وطنها ، ولم ينفق على الجيش أثناء القتال درهم واحد من خزانة الحكومة » .

هذه هى الأمة التى قيل إنها هزمت فى التل الكبير ! .

هذه هى الأمة التى طعنها خليفة المسلمين التركى فى ظهرها ، فأعلن عصيان قائدها وأباح للمسلمين قتاله وأهدر دمه ! .

* * *

ونظر عرابى ومن ثبت للإنجليز معه عند التل الكبير ، فإذا كل شىء يدور على نحو لم يقدروه ، وإذا الإنجليز يعلمون خطط حربهم جملةً وتفصيلاً ويبادرونهم قبل أن يبادرهم فأسقط فى يد عرابى ، وبدا له ـ مع الأسف البالغ ـ أن يتقهقر إلى القاهرة ، علّه يستطيع أن يدبر مع أهلها خطة أحسن للدفاع ، وليته ما فعل ... فإن الجيش إذا انحلت عقدته فى مثل هذا الوقت العصيب كان من العسير عقدها مرة أخرى ! .

ولم يكد عرابى وأصحابه يغادرون مواقع القتال حتى تفرق الجيش أيدى سبا ، ومضى من بقى من الجنود كلٌّ فى سبيله ، وكان معظمهم من المتطوعين : لا خبرة ولا دربة .. وحاول عرابى لمَّ شعثهم وجمعهم حول رايته من جديد فلم يستطع ، لأن مدافع الإنجليز كانت تحصدهم حصداً .

ولكن واحداً منهم ثبت عند التل الكبير ، ثبت مع جنده وكانوا آلافاً ثلاثة ، ثبتوا وأبوا أن يتزحزحوا أمام العدو الغادر ...

كان ذلك هو الأميرالاى محمد عبيد ...

كان قد اعتصم مع فرقته بنَشز من الأرض ثبتوا فيه أقدامهم وأقاموا علم مصر فوق رؤوسهم ، ومضوا يجاهدون جهاد المستميت ، وصوب عليهم الإنجليز مدافعهم وأصلوهم ناراً حامية ، وهم ثبوت لا يدركهم خوف ولا يتسرب إلى نفوسهم اضطراب ، وأخذت النيران تحصدهم حصداً حتى لم يبق إلا قائدهم : وقف دون العلم العزيز وأخذ يرمى ببندقيته يريد لِيَصُدَّ نيران المدافع ، وظل مكانه ممسكاً بالعلم حتى فاضت روحه ولا زال علم مصر الحرة يرفرف ...

ذلك هو الأميرالاى محمد عبيد من أبناء كفر الزيات ! .

جواب الثلوج

روالد أموندسن

بحارٌ واسعة كأنها الآمال ، وثلوج متراكمة كأنها الجبال ، ورياح هوج تسفع وتعصف، وعواصف من دقيق الثلج تثيرها الريح وتصفع بها الوجوه صفعاً ، وفضاء واسع أبيض يرتد عنه البصر كليلاً ، ينتهى إلى بحار يعلو فيها الثبج وتهدر فيها الأمواج هديراً يهز النفس هزاً .. وسفين حائر مضطرب تتقاذفه الأمواج فتعلو به حيناً وتهبط به حيناً ، وتصفو له آناً وتعبس له آناً ، وشراع حيران تعبث به الريح ، لا تسالمه مرة إلا حاربته مرات ، ونفوس أيدها الله بالعزم وأمدها بالصبر وأوسع لها فى رحاب الآمال ، فانحدرت الآلام عنها وصغرت العقبات فى هممها ، فهى ماضية تغالب اليأس وتكافح الموج ، كلما قطعت بحراً تبدى لها من ورائه بحر ، وكلما عبرت بصحراء ثلج تبدت لها من ورائها صحراء ثلج يخيم الموت عليها بظله الرهيب ؛ ونهار شاحب هو إلى الليل أقرب ، هو بضعة متخلفة من أشعة الشمس ، تاهت فى الفضاء الواسع ، وتهافتت تحت جنح الظلام ..

ونفوس أخرى والهة على البعد حَرَّى ، تتطلع إلى السفائن وإنها لتشفق عليها إشفاقاً شديداً ، وتتبع أخبار الذاهبين للقاء الموت وإنها لتذوب خوفاً ، وصُحُف تتنسم الأخبار وتتسقط الأنباء وتطيّرها إلى عالم يرقب هذه الحفنةس من الأبطال الذين استوحشوا من الأمن فى ظلال الخمول ، فمضوا يطلبون المجد فى ظلال المتاعب والآلام ..

ذلك كان حال بعثة أموندسن الثانية إلى القطب الجنوبى .

كان زميله الإيطالى الجنرال أومبرتو نُوبيلى قد رحل منذ أسابيع إلى القطب الشمالى على متن طائرة يريد أن يستكشف هذا القطب السحيق وما حوله من أرضين ، وجعل أموندسن يترقب أخباره حتى انقطعت عنه فجأة ، فأخذ ينتظر أسابيع أخرى على غير طائل ، حتى

ثبت لديه أن شراً قد حاق بصاحبه ، فخف لنجدته ، وقد رأى أن يمضى بالسفينة حتى أقرب موضع من المكان الذى ظن أن صاحبه قد اختفى فيه ، ثم يحلق بالطائرة فى سماء القطب عله يعثر لصاحبه على أثر . فلنخلفه فى مكانه هذا لنلم بطرف من أخباره ، ثم نعود فنمضى معه فى رحلته هذه ..

وُلد رُوَالد أموندسن فى السادس عشر من يوليو سنة ١٨٧٢ فى بلدة بورجه فى النرويج ، وكان أبوه ملاحاً ، فنشأ وفى نفسه حب المخاطرة وهوى البحار ، وأراد أبواه أن يكون طبيباً حتى ينجو بنفسه من متاعب الملاّحين ويهيىء لهما عيشاً مطمئناً ولكن المقادير أرادت له أن يكون بطلاً ، فلم يكد يفرغ من دراسة الطب حتى انصرف إلى الملاحة ، فأخذ يدرسها ويتدرب على مضانكها على أيدى أحسن الملاحين من أبناء النرويج ، ولم يكد يفرغ من الدراسة حتى هفا به القلب الطموح المتطلع إلى القيام برحلة يستكشف خلالها شيئاً مجهولاً ، فأغرى فتى من أصحابه بأن يصاحبه فى رحلة شاقة يطوفان خلالها بسواحل إسكنديناوة ، من أقصى البحر الأبيض الشمالى عند شبه جزيرة كالين إلى أعمق فجوة فى خليج بوثنيا ، عابرين أثناء ذلك بكل رأس وكل خليج خانق ، ليكونا بذلك أولَ من قطع هذه الرحلة الطويلة الشاقّة ، وأولَ من درس سواحل إسكنديناوة دراسة عملية . وكانت الرحلة شاقة عسيرة ، فكاد الفتى الناشىء يهلك فيها إذ كانت الأزواد تنقطع عنه أياماً متوالية فى بعض حلقاتها ، فكان يظل صابراً حتى يصله العون فينقذه إذ هو على حافة القبر .

ثم ارتقى فى سلك الملاحين حتى أصبح الضابط الأول فى السفينة « بلجيكا » التى كان يقودها دى كرلاش لكشف قارة الأنتار كتيكا ، أى القارة المحيطة بالقطب الجنوبى (سنة ١٨٩٧) فتصوّر ـ هداك الله ـ إنساناً يولد على مقربة من القطب الشمالى ، وتأتى الهمة إلا أن تدفعه إلى ارتياد القطب الجنوبى المجهول ! إن التطلع لكشف المجهول والمخاطرة بالنفس فى سبيل معرفة مالم يُعرف خصلة لا توجد إلا فى رجال برأ الله قلوبهم من نور ، فهى لا تطمئن إلى الظلام أبداً ، وتسعى دائبة فى كشف المحجب المغلق الذى تستغلق دونه قلوب الخاملين وقد كسب الرجل من رحلته تلك مرانا نفعه طول حياته فيما بعد ، ذلك أنه

سار فى صحبة نفر من أمهر الملاحين الكاشفين من أمثال دى كرلاش نفسه وأركتوفسكى .

كانت هذه الرحلة ضرباً من البطولة وإن لم يكتب لها النجاح ، تلكأ الرحالون طويلاً فى الجزيرة الواقعة جنوبى أمريكا الجنوبية ـ والمعروفة بجزيرة أرض النار « تيرادل فويجو » ـ ولم يكادوا يقربون من القارة القطبية الجنوبية ، حتى دهمهم الثلج وحصرهم حصراً شديداً . والثلج إذا دهم الناس تساقط كالمطر المنهمر ، ولا يزال يتعالى حتى يغطى الناس ويطمرهم أحياء ، فإذا كان الإنسان فى مركب أو فى مخيم غطاهما الثلج وغيبهما عن الأنظار ، فربما استمر يتساقط حتى بلغ الأمتار علواً ، ولا نجاة لمن يبتلى به إلا أن يدركه الناس قبل أن يدفن حياً . فلما بدأ الثلج ينهمر وقفوا يدفعونه بالليل والنهار ، وكان من حظهم أن كان معهم عدد كبير من الرجال ، كلما هبطت من الثلج طبقة كشفوها بالمجارف ، ولكنهم لم يستطيعوا السير ، فظلوا فى قبضة الثلج عاماً كاملاً ! حتى كتب الله لهم الفِكاك وأقبلت إليهم النجدات ، فعادوا أدراجهم وقد أنهكهم التعب وأضر بهم طول الكفاح ..

وأفاد الفتى أموندسن رغم ذلك فائدة عظمى ، وعرف عن جو القطب وأحواله ومفاجآته ووسائل دفع أخطاره والتحرز منها شيئاً كثيراً . ثم سَمَت نفسه إلى الرحلة بمفرده، وتطلع إلى القيام بمغامرة تقترن باسمه ، ولكن المال أعوزه ، وكم يعوز المال الأبطال ! فمضى يحتال فى جمعه ويدبره ولا يدع مطلباً يصيب منه شيئاً من المال إلا طرقه ، وأصاب منه شيئاً يستعين به على تحقيق الغرض الجليل الذى تصدَّى له ، حتى استطاع بعد جهد أن يشترى سفينة قديمة حمولتها خمسون طناً ، ثم عكف عليها فأصلحها ودبَّر لها العدة لرحلة طويلة مقبلة . وأقلع بها وعَبَر المحيط المتجمد الشمالى وأدرك جرينلاند ـ الأرض الخضراء ـ وهناك أخذ هو ورفاقه يتتبعون خطوات شاكلتون ، المستكشف الأمريكى الذى كان قد سبقهم إلى تلك الجهات يريد أن يكون أول من كشف مجاهلها فلم يعد : أهلكته الثلوج ، أو عَدَت عليه ضوارى القطب ، أو نفد منه القوت ..

مضوا يتتبعون خطوات هذا الشهيد لا يكاد يثنيهم وعثُ صحارى الثلوج ولا مزالق الجليد ، وكلما تتبعوا الأثر شيئاً اختفى منهم وتركهم لا يعرفون كيف يسيرون . ولم يدركهم

اليأس مع ذلك أو يصرفهم عن بلوغ هذا المطلب .. وما بهم إليه حاجة ملحة ، ولكنه تطلع الطامح وإخلاص النفس الكريمة لشهيد من شهداء العلم . ولقد حصرهم الثلج فى الشتاء ، ثم أقبل الصيف فأخلى لهم السبيل ، ثم عاد الشتاء فأحاط بهم الجليد فحبسهم شتاء آخر ، فظلوا ينتظرون الصيف ، حتى إذا أقبل عبروا هذا البحر المتجمد ووصلوا إلى جرينلاند من طريق لم تطرقه قبل ذلك قَدم ، ثم انحدروا مُسَاحلين حتى وصلوا إلى كندا ، وهناك تلقاهم الناس معجبين بهذا الجهد الذى بذلوه ، وتقدم الأمريكيون فدعوا أموندسن إلى بلادهم ، فذهب إلى هناك وحاضر الناس ، وكسب من ذلك ما مكنه من وفاء الديون التى كان قد اقترضها قبل هذه الرحلة وأثناءها .

هنالك أدرك الناس قدر هذا الرجل ، وطمع الأمريكيون فى أن يكسبوه إلى صفهم ، فأعطوه السفينة « فْرام » وأعدوها له بكل ما يلزم للرحلات الكبيرة .

ورحب هو بالفرصة ، وأخذ يتأهب لكشف القطب الجنوبى وإن قلبه ليقفز من جنبيه من فرط التوثب ، ولكن القدر فاجأه وسلبه هذا الأمل : بينما هو يتأهب إذ تواترت الأنباء بأن الكابتن بيرد الأمريكى قد أدرك القطب الجنوبى ورفع عليه الراية الأمريكية ..

إنه لمما يبعث العجب فى النفس أن ترى هؤلاء الناس يستبقون إلى المخاطرة بنفوسهم لكشف شىء مجهول لا تلح عليه الحاجة فى كشفه ، ولا يعلَّل ذلك إلا بأن الله قد برأهم على طبع متطلع يود أن يعرف كل شىء ليسود كل شىء ، فهم فى حركة أبداً وتطلع لاينتهى، كلما كشفوا مجهولاً تطلعوا من ورائه إلى مجهول ، يشعر الواحد منهم شعوراً داخلياً بأن هذه الدنيا ملكه ، وأنه سيدها ، فيدفعه هذا التصور إلى استكناه أسرار هذا الملك الواسع . إن التطلع والسعى للكشف من خُلُقِ السيادة ، والجمود والاطمئنان إلى ما تحت البصر من خلق الذلة ، ولن تجد امْرَأً ذليلاً متطلعاً إلى علم أبداً ..

حدث هذا فى سنة ١٩٠٩ ، ولم يفت فى عضد أموندسن ، وإن كان قد نال من عزائم من كانوا قد تحمسوا له وأوسعوا له فى النفقة وأسباب العمل . مضى الرجل - رغم ذلك - يعد العدة لرحلة بعيدة لم يصارح أحداً من رفاقه بأمرها ، حذرا من أن يسبقه أحد إلى غايته، وخوفاً من أن يقعد الخوف من مهالكها بنفرٍ من رجاله عن المضى معه ، ثم شد

رحاله ولا يعلم أحد وجهته ، واتجه صوب الجنوب ، حتى إذا أدرك جزائر ماديرا فى المحيط الأطلسى ، أفصح لزملائه عن غايته ، وأنبأهم أنه ماض بهم إلى الأنتاركتيكا قارة القطب الجنوبى ، وقال : « إذا كان بيرد قد كشف القطب فأنا أكشف القارة المحيطة بالقطب ، فإن هناك أرضاً واسعة تحتاج إلى عشرات المستكشفين لارتياد مجاهلها » . وكان الناس يظنون ـ إلى هذه اللحظة ـ أنه مُوَلٍّ وجهه شطر مضيق بهرنج ، بين أوروبا وآسيا .

كان أموندسن يعرف أن المستكشف الإنجليزى سكوت قد وصل فى ذلك الحين إلى القارة الجنوبية ، ومضى يعمل فيها ، فأحب أن يستأذنه ، فأرسل له رسالة لاسلكية لم تصله؛ ومضى أموندسن فى صبر يرجو أن يلقى سكوت ، حتى إذا كان الرابع عشر من ديسمبر سنة ١٩١١ أعلن للناس أنه وصل القطب الجنوبى ورفع عليه الراية النرويجية إلى جانب الراية الأمريكية ، ولم يكن رفع الراية فى ذلك الحين معناه الامتلاك ، وإنما كسبُ شرف الوصول . ولكن هذا التوفيق لـم يكتب له خالصاً ، وإنما شابته مرارة ملأت نفسه ألماً : لقد مات صديقه سكوت فى هذه المحاولة وذهب ضحية الثلوج ، فحزن من أجله حزناً شديداً ، وانصرف عن العمل حيناً ، ورغب عن الشهرة حتى لقد رد إلى الجمعية الجغرافية وسامها الذهبى الذى كانت قد منحته إياه . ثم جاءت الحرب العالمية الأولى فأوقفت مشاريعه وحالت بينه وبين الاستمرار فى العمل ، فسخط عليها سخطاً شديداً ، وظل يترقب زوال كابوسها حتى يعود إلى المغامرة من جديد .

فلما انتهت الحرب عاد إلى العمل مُبادراً ، واتجه هذه المرة نحو القطب الشمالى ، وجمع الله عليه مجازفاً أمريكياً اسمه لنكولن إلْزُورث أعانه بطائرته وخبرته حتى استطاع أن يصل إلى خط ٨٨ شمالاً ، وأن يقف على بعد مائة وعشرين ميلا من هذا القطب العنيد ، وهنا حملت عليه الريح حتى شلت حركته وهددته بقطع الأمداد عنه وعن رفيقه ، وكان قد اتخذ جزيرة شْبِتْز برجن مركزاً لأعماله ، فعاد إليها مسرعاً ، ثم بدأ يستعد مع لنكولن من جديد لرحلة مقبلة ، ولكن المقادير عاكسته مرة أخرى ، ذلك أن بيرد الأمريكى عاد إلى المنافسة ، وخف إلى القطب الشمالى فى طائرة ، فأدركه وأعلن للدنيا كلها توفيقه فى الوصول إلى هذا القطب العسير الذى يقع فى منطقة ثلوج وأمواه يضل فى متاهاتها السارى ، وما يكاد

الإنسان يقربه ويوشك أن يدركه حتى تضطرب الإبرة المغناطيسية فلا تكاد تدل على موضعه الصحيح ، حتى شك الناس أن هناك قطبين شماليين . أدرك بيرد هذه الغاية وعاد بشرفها ، فرأى أموندسن أن يتريث فى المضى فى رحلته وأن يتوجه وجهة أخرى ، علّه يكشف كشفاً آخر غير هذا الذى ضيعه عليه الكولونيل بيرد .

فكر أموندسن فى مشروع لا يقل خطورة ولا أهمية عن مشروع رحلته الأولى التى طاف فيها بسواحل إسكنديناوة ذلك الطواف المضنى : ذلك أن يقطع بحار القطب الشمالى أثناء الصيف مستعيناً بالتيار الدافىء الذى يمر بهذا القطب ، وكان الناس لا يعرفون اتجاهه أو مداه ، فقرر السير معه حتى يصل به إلى غايته . وقد سارت الرحلة أول الأمر سيراً طيباً رغم صعوبتها ، ولكن أموندسن لم يلبث أن لاحظ أن هذا التيار القطبى الشمالى مضطرب غير معين الاتجاه ولا منتظم السير ، وانقضى الصيف وهو يحاول ، وأقبل الشتاء فجمد كل شىء من جديد ؛ ولم يجد أموندسن بداً من العودة .

وفى سنة ١٩٢٦ قرر أموندسن أن يقوم بحملة كشفية كبرى يستكشف بها شرقى المحيط المتجمد الشمالى - أى الجزء المحيط بأوروبا وآسيا من الشمال - وكان أقصى ماوصل إليه الناس منه إذ ذاك شبتزبرجن النرويجية وجزائر نوفايا تسمليا الروسية . وقد صاحبه فى هذه الرحلة صديقاه لنكولن ألزورث الأمريكى والجنرال أومبرتو نوبيلى الإيطالى ، وأقلعوا على متن الطائرة الأمريكية المائية « فورجه » من شبتزبرجن وعبروا القطب الشمالى ، وهبطوا فى الجهة الأخرى عند بوينت بارو فى ألاسكا فى مساء ١٢ مايو سنة ١٩٢٦ ، ومن ثم نهضوا مرة أخرى وواصلوا طيرانهم حتى هبطوا عند مضيق بهرنج بين آسيا وأمريكا الشمالية وبهذا حقق أموندسن حلماً بعيداً للإنسانية ، وعبر القطب الشمالى من نصف الكرة الشرقى إلى نصف الكرة الغربى على متن الجو فى اتجاه لو أنك حدثت به أحداً من الناس منذ خمسين سنة لظنه ضرباً من الجنون ، ولكنه الدأب والتطلع والنزوع نحو المعرفة يدفع الناس على تحقيق ما يشبه المعجزات .

وكان أموندسن يستعد لرحلة استكشافية جديدة ذات خطر حينما طرقه خبر مفاجىء : إن صديقه الجنرال أومبرتونوبيلى فى خطر ، لقد نهض فى رحلة كشفية على متن طائرته

«إيطاليا» فلم يكد يسير إلا قليلاً حتى اضطربت به الطائرة وهوت إلى الأرض وتحطمت فى الثلوج ، وانقطعت أخبار المستكشف المغامر عن الناس ، وظل أموندسن ينتظر خبراً فلم يصله شىء ، فأحس أن واجبه يدفعه إلى النهوض لنجدة صديقه ، فربما استطاع أن يدركه حياً . تلك هى الرحلة التى خلفناه عندها فى أول هذا الحديث .

لم يكن يعرف أين سقطت بصاحبه الطائرة ، وفيافى القطب فسيحة والثلج ينهمر ويغطى كل شىء فيها ، فكيف يستطيع العثور على طائرة هبطت على الأرض وربما غطتها الثلوج ؟ .

أقلع أموندسن من ترُومزو مع نفر من أصحابه فى طائرة بحرية ، ومضوا فى سماء القطب يذرعونها وبأيديهم المناظير يفتشون ما يعبرون به بعيون ملؤها الإشفاق ، ولم يدركهم اليأس على طول البحث وتوالى الإخفاق ، وضلوا هم الآخرون سبيلهم وتحطمت طائرتهم وهوت بهم إلى الثلوج ..

وكان ذلك آخر العهد بأموند سن ! .

لقد لقى مصرعه وهو يكافح هذا الكفاح المجيد مع المجهول ، لازال التطلع والنزوع يدفعانه إلى المخاطرة وغلاب الموت ، ومازال يكشف للناس من أسرار الأرض ويرتاد من مجاهلها حتى تخونه التوفيق وعصف به المجهول فتاه فيه .

لقد أنفق حياته فى مطلب جليل ومات فى سبيل كريم ، ولكنه سيظل حياً فى قلب الإنسانية ، لأنه طليعة من طلائعها ورائد من روادها ، وأحدُ هؤلاء القلائل الذين لقوا مصارعهم فى كفاح نبيل فى سبيل العلم والوفاء والعرفان .

مراجــع

فى سهل مجدو . تحتمس الثالث

Alt, A. pharao Thutmosis lll in Palastina, Palastinajahrbuch, X (1914) 53 -- 99 .
BREASTED, J. H. A new chapter in the Life of Thutmose iii, Leipsig, (1902) (in Band ll of SETHE, Untersuchungen) .
MEYER, E. Aegyptische Chronologie. Berlin, 1904 .
NAVILLE, E. Le Père de Thutmes lll. Rec. Trav . xxi, pp. 201 sqq.
NELSON, H. H. The Battle of Magiddo. Beirut, 1913 .
PASSYPTION, E. DE. Les Opérations militaires de Thutmès iii après la prise de Mageddo, Rec. Trav. xxvi, pp. 169 sqq .
SETHE, K, Die Tronwirren unter den Nachfolgern Königs Thutmoses I, ihr Verlauf und ihr Bedeutung. (in Heft l, von SETHE, Untersuchungen zur Geschichte und Altertumskunde Aegyptens). Leipsig, 1896 .

الدكتور سليم حسن : مجدو ، أول معركة حربية فى تاريخ العالم القديم (فصل من الجزء الرابع من كتابه : تاريخ مصر القديمة) نشر فى مجلة المشاة . مجلد ١ ، عدد ٢ ، ص ٨٩ـ٩٧ .

شاعر الأبطال . هوميروس

طبعات الإلياذة والأوديسة فى نصيهما اليونانيين وترجماتها إلى شتى اللغات كثيرة جداً . انظر عن حياة هوميروس ونقد مؤلفاته :

CAUER, P. Grundlagen der Homerkritik. Leipsig, 1921 .
CHADWICK, H. M. Heroic Age. Cambridge, 1912 .
FINSLER, G . Homer. Leipzig, 1924 .
LANG, A. Homer and his age. 1906 .
LEAF, W . Homer and History. 1912 .

بطل من عالم الأساطير . أخيل

مقال فى صحيفة Classical Quarterly, July 1907 . ALLEN, T . W. The Homeridae
-- Lives of Homer, Journal of Hellenic Studies xxxii, 1912 -- xxxiii 1913 .

CROISET, M. Histoire de la litterature grecque, 3 éd. vol . l, 1910 .
JEBB, R.C. An lntroduction to the Illiad and the Odyssey, 3 ed 1933 .
ROTHE, C. Die Ilas Dichtung . Paderborn, 1910 .
SARTIAUX, F. La guerre de Troie et les origines préhistoriques de la Question d'orient.
STAWELL, F.M. Homer and the Illiad, 1909 .

أسد في ثوب إنسان - ليونيداس

BELOCH, K. J. Griechische Geschichte, ii, 2ed. Strassburg, 1914, 1916.
BURY, J. B. The Campaign of Artemisium and Thermopylae, B.S.A. II, 1896, PP. 83 sqq .
HERODOTUS, V . 39 -- 41 . viii, 202 -- 225, 238.
OBST . E. Der Feldzug des Xerxes, Klio xii, 1913 .
STRABO, I. 10 . ix, 429 .
TARFEL, L. R. Greek Hero - eults and the Ideas of In,mortality . Oxford, 1921 .

يوم سلاميس - ثمستوكليس

CUSTANCE, SIR R. War at Sea. Part I, Edinburg .
DELBRÜCK, H. Die Perserkriege und die Burgunderkiege . Berlin, 1887.
GOODWIN, W. W. The Battle of Salamis, Papers of Amer. Sch. at Athens, i, 1885 .
GRUNDY, G. B. The Great Persian War, 1901.

تاريخ رجل - ديموستين

ADAMS, C. D. Demosthenes and his influence, 1927.
CLEMENCEAU, G. Demosthene, paris, 1926.
KENNEDY, C. The Olynthiac and other public oration of Demosthenes (Bohns Classical Library, 1848) .
PICKARD, A. W. Demosthenes and the last days of the Greek freedom. Cambridge, 1914.
SCHAFER, A. D. Demosthenes u. seine Zeit, 1885 -- 1887.
WHISTON, R. Demosthenes, with an English Commentary, 1851.

إسكندر العظيم

BUDGE, A. W. History of Alexander the Great, Cambridge, 1889.

-- Life and Exploits sf Alexander the Great. 1896.
EHRENBERG, V. Alexander in Aegypten. Leipzig, 1926.
FREEMAN, E. A. Alexander the Great, in Historical essays, vol. ii, 1871.
NOLDEKE, TH. Beitrage zur Geschichte des Alexander - romans, Wienn, 1890.
OTTO W. Alexander der Grosse. Marburg, 1916.
WHEELER, B. J. Alexander the Great. London and New York, 1900 .

الدكتور إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عهد البطالمة (القاهرة ١٩٤٦) ج١ ، ص ١٠ وما يليها .

بطليموس الثالث يورجيتيس . واقعة رفح

BEVAN, E. R. A History of Egypt under the Ptolemaic Dynasty. London, 1927.
BOUCHE-LECLERCQ. Histoire des Lagides, 4 vol. Paris, 1903-7.
GSELL, S. Histoire ancienne de L'Afrique du Nord, vol. I. IV. Paris, 1913 -- 1920.
LESQUIER, J. Les institutions militaires de L'Egypte sous les Lagides. Paris, 1911.
SMITH, R. BOSWORTH. Carthage and the Carthaginians, 2ed. London, 1879.
الدكتور إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عهد البطالمة (القاهرة ١٩٤٦) ج١ ، ص ٦٥ ــ ٧٧

شيشيرون ينقذ روما

BOISSIER, G. Ciceron et ses amis. Paris, 1865.
MOMMSEN, TH. Römische Geschichite, 8 Aufl. Berlin, 1889.
PETERSSON, T. Cicero, a Biography. Berkeley, 1920.
ROLFE, J. C. Cicero and his influence. Boston and London, 1923.
STRACHAN-DAVIDSON J. L. Cicero and Fall of the Roman Republic. New-York, 1894.
ZIELINSKI, TH. Cicero im Wandel der Jahrhunderte, 3 Aufl. Leipzig, 1912.

أسد الله وأسد رسوله ـ حمزة بن عبد المطلب

ابن الأثير : أسد الغابة ، الجزء الأول .

ابن حجر العسقلانى : الإصابة فى معرفة أخبار الصحابة ، (طبعة القاهرة) ، جـ١ ، ص ٣٥٣ـ ٣٥٤.

الطبرى : تاريخ الرسل والملوك (طبعة أوروبا) ، انظر فهرس الأعلام .

أبو الفرج الأصفهانى : كتاب الأغانى ، جـ٤ ، جـ ٢٥ ؛ جـ ١٤ ، ص ١٥ ـ ٢٢ ؛ جـ٩ ، ص ٨١ـ٨٢.

محمد بن سعد : كتاب الطبقات الكبير (طبعة سخاو) ، جـ٣ ، كراسة ١ ، ص ٣ ــ ١١ .

محمد بن هشام : السيرة (طبعة المطبعة التجارية ، القاهرة سنة ١٩٣٧) ، انظر فهرس موضوعات الجزءين الأول الثانى .

إيمان رجل ـ أبو حنيفة النعمان بن ثابت

أحمد أمين : ضحى الإسلام .

أبو إسحاق الشيرازى : طبقات الفقهاء .

ابن تيمية : رفع اللثام عن الأئمة الثلاثة الأعلام .

الجهشيارى : الكتاب والوزراء .

الحافظ محمد بن يوسف بن على : عقود الجمان فى مناقب الإمام الأعظم .

اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنفية .

الموفق بن أحمد المكى : مناقب الإمام الأعظم .

صقر قريش ـ عبد الرحمن بن معاوية (الداخل)

ابن الأبار : الحلة السيراء (طبعة دوزى) ، ص ٣٢ ـ ٣٧ .

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (طبعة تورنبرج) ص ٩١ ــ ١٠٧ .

الأخبار المجموعة (طبعة إمليو لافوينتى إى ألكانتارا) ، ص ٤٦ ــ ١٢٠ .

ابن الخطيب : إعلام الأعلام (طبعة ليفى بروفنسال) ، ص ٦ ــ ١٠ .

ابن خلدون : العبر (طبعة القاهرة) ، جـ ٤ ، ص ١٢٠ ــ ١٢٤ .

ابن عبد ربه : العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ، جـ ٢ ، ص ٢٦٨ـ ٢٦٩ .

عبد الواحد المراكشى : المعجب (طبعة دوزى) ، ص ١١ـ ١٢ .

ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب (طبعة دوزى) ، جـ ٢ ، ص ٤٢ـ ٦٢ .

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس (طبعة مدريد ١٨٦٨) ، ص ٢١ـ ٤١ .

محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية ، شرقية وأندلسية (القاهرة ١٩٤٧) ، ص ١٢٣ـ ٢١٥ .

النويرى : نهاية الأرب (طبعة جسبار ريميرو) ، ص ١٥٤ـ ١٧١ .

DOZY. Hist. des Musulmans d'Espagne الطبعة الثانية 1, 188 - 249 .

SAAVEDRA. Abderrahmen 1, Monografia historica.

بحث نشر فى صحيفة Revista de Archivos, Bibliothecas y Museos. Madrid

مجلد ٢٢ ، ص ٣٤١ـ ٣٥٩ ، مدريد ١٩١٠

SIMONET. Historia de les Mozaràbes, pp. 237 - 259 .

رجل ودولة ـ أحمد بن حنبل

أبو إسحاق الشيرازى : طبقات الفقهاء .

ابن تيمية : رفع اللثام عن الأئمة الثلاثة الأعلام .

الذهبى : تذكرة الحفاظ ، الجزء الثانى .

الطبرانى : المعجم الصغير ، الجزء الأول .

أبو الفرج ، عبد الرحمن بن رجب : طبقات الحنابلة .

عبد القادر الجيلى : الغنية لطالبى طريق الحق ، (مكة ١٣١٤) الجزء الأول .

ابن قيم الجوزية : الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ، القاهرة ١٣٢٣ .

BROCKELMANN. Geschichte der arabischen Litteratur, I pp. 181 sq.

GOLDZIHER. Muhammedanische Studien, 1, 257 sqq.

- Zur Geschichte der hanbalitische Bewegungen.

lxii مجلد ZDMG. بحث نشر فى صحيفة الجمعية الشرقية الألمانية

LE STRANGE. Bagdad during the Abbasid Califate. Cambridge, 1900 .

نجدة المعتصم

ابن الأثير : الكامل (طبعة تورنبرج) ، جـ ٦ ، ص ٢٠١ وما يليها .

أحمد بن طاهر طيفور : كتاب بغداد (طبعة كلنر) ، الجزء ٦ .

ابن جرير الطبرى (طبعة دى غوية) ، جـ ٣ ، ص ٧٥٧ وما يليها .

ابن الطقطقا : الفخرى (طبعة دير نبورج) ، ص ٣١٦ـ ٣٢٤ .

ابن قتيبة : كتاب المعارف (طبعة فستنفلد) ، ص ١٩٩ وما يليها .

محمد بن شاكر : فوات الوفيات ، جـ ٢ ، ص ٢٧٠ .

المسعودى : مروج الذهب (طبعة باريس) ، جـ ٧، ص ١٠٢ـ ١٤٥؛ جـ ٩، ص ٤٥، ٥١، ٦٩

اليعقوبى : تاريخ (طبعة هوتسما) ، جـ ٢ ، ص ٥٦٦ـ ٥٧٠ .

BURY. Mutasim's March through Cappodocia; in journal of Hellenic Studies, xxix, 120 - 129 .

MULLER. Der Islam in Morgen und Abendland, 1, 520 sqq.

WEIL. Geschichte der Chalifen, 11. p. 295 - 236 .

عصامى مسلم . محمد بن أبى عامر (المنصور)

ابن الأبار : الحلة السيراء (طبعة دوزى) ، ص ١٤٨ـ ١٥٣ .

ابن حيان : فقرات طويلة فى كتاب الذخيرة لابن بسام ، الجزء الرابع ، مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة .

ابن الخطيب : إعلام الأعلام ، ص ٧٧ـ ٩٦ و ١١٤ ـ ١٢٢ .

— : الإحاطة ، (طبعة القاهرة) ، جـ ٢ ، ص ٦٧ـ ٧٣ .

ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٦٧ـ ٢٩١ .

عبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص ١٧ـ ٢٦ .

المقرى : نفح الطيب (طبعة دوزى ودوجا وكريل ورايت) جـ ١ ، ص ٢٥٧ ـ ٢٧٢ ، ٣٨٠ وما يليها .

النويرى : نهاية الأرب (طبعة جسبار ريميرو) ، جـ ٢، ص ٢١٨ـ ٢٢٢.

DOZY. Histoire des Musulmans d'Espagne, 11 pp 186 - 257 .

LÉVI-PROVENCAL, Histoire de l'Espagne Musulmane (Le Caire, 1944) 1.pp.L 409 sqq.

MENE`NDEZ PIDAL, R. Espana del Cid, I. 79 - 80 .

مسلم عظيم - نور الدين محمود

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ (تورنبرج) ، الجزء التاسع .

ابن خلكان : وفيات الأعيان (فستنفلد) ، ترجمة رقم ٧٢٥.

أبو الفداء : تاريخ (طبعة رايسكه) ، جـ٣و ٤ ز

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق (طبعة أمدروز) ، أنظر الفهرس .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك (طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة) ، أنظر فهرس الأجزاء الثلاثة الأولى .

MÜLLER, A. Der Islam in Morgen und Abendland, 11, pp. 144 sqq.

RÖRICHT. Geschichte des Kõnigreiches Jerusalem.

STEVENSON. Crusaders in the East. Oxford. 1909.

WEIL. Geschichte der Chalifen الجزء الثالث

أبطال دمياط والمنصورة

الدكتور جوزيف نعيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط . القاهرة ١٩٥٦ .

الأميرالاى عبد الرحمن زكى : معارك حاسمة فى تاريخ مصر ـ دمياط والمنصورة .

القاهرة ، مارس ١٩٤٥.

مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية المعروفة باسم :

Recueil des Historiens des Craisades.

القسم الخاص بالمؤرخين الشرقيين ويضم :

المجلد الأول : تاريخ أبى الفدا .

بقية المجلد الأول والجزء الأول من المجلد الثانى : تاريخ ابن الأثير .

المجلد الثانى ، الجزء الثانى : نصوص من جمال الدين محمود العينى وابن الأثير الأتابك .

المجلد الثالث : نصوص من بهاء الدين وابن ميسر وأبى المحاسن وسبط بن الجوزى وكمال الدين .

المجلد الرابع : نصوص من أبى شامة .

المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك (طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة) ، جـ ١ ، القسم الثانى ، ص ٢٢٤ وما يليها .

CROUSSET. Histoire des Croisades

STEVENSON. Crusaders in the East Oxford; 1907, pp. 289 sqq.

فيلسوف شهيد - جيوردانو برونو

BRUINO, GIORDANO : Opere raccolte e puplicate de Adolfo Wagner, 2 vols. Leipzig.

CARRIÈRE, M. Die philosophische Weltanschaung der Reformationszeit. Stuttgart, 1847 .

HAEFFDING. History of Modern Philosophy. vol. 1. London, 1900.

LAVALLÉE. J. Histoire des Inquisitions Religiueses. Paris, 1808.

McCRIE, T. History of the Reformation in Italy. Edinburg, 1856.

SCHULTZE. Geschichte der Philosophie der Renaissance. Jena, 1874.

صقر البحار - فرانسيس دريك

ABREU, PEDRO DE. Historia del Saqeuo de Cadiz por los Ingleses en 1895 . Cadiz, 1866 .

CORBETT, J.S. Drake and the Tudor Navy, with a history of the rise of England as a maritime power. 2 vols. London, 1898.

FROUDE, J.A. History of England from the fall of Wolsey to the defeat of the Spanish Armada. London ; 1856 - 1870.

_ The Spanish story of the Armada. London, 1892.

_ English Seamen in the Sixteenth century. London, 1895.

LEDIARD, T. The Naval History of England. London, 1735.

راهب يهز الدنيا ـ مارتن لوثر

BERGER, A.E. Martin Luther in Kulturgeschichtlicher Darstellung; 2 vols. Berlin, 1895.

ENDERS, L. Dr. Martin Luther Briefwechsel, 5 vols. Frankfurt und Stuttgart, 1884 - 93 .

KOLDE, TH. Martin Luther, eine Biographie. Gotha, 1884 - 93.

KOSTLIN, J. Martin Luther, sein Leben und seine Schriften; 2 Bande, 1875.

LANG, H. Martin Luther, ein religiöses Charakterbild. Berlin, 1890.

LINDSAY, T.M. Luther and the Germar Reformation. Edinbnrgh, 1900 .

أوليفر كرومويل

BALDOCK, T.S. Cromwell as a Soldier. London, 1899.

COOCH, C.P. History of English democratic ideas in the 17 th. Century. Cambridge, 1898 .

GARDINER, S.R. History of the Great Civil War, 1642 - 9; 4 vols. London, 1886.

_ Oliver Cromwell. London, 1899.

HARRISON, F. Oliver Cromwell.. London, 1898.

MORELY, J. Oliver Cromwell. london, 1900.

SANFORD, J.L. Studies and illustrations of the Great Rebellion. London, 1858.

WAYLEN, J. The House of Cromwell. London, 1880.

قصة وزير ـ هاينريخ فريدريك كارل شتاين

ROLOFF, G. Politik und Kriegsfuhrung wahrend des Feldzugs von 1814. Berlin, 1891.

SCHULZE, HERMANN, Der Freiherr van Stein und seine Bedeutung fur Deutschlands Wiedergeburt. Jena, 1850.

STEIN, FREIHERR VON, Ein Schreiben des Freiherr von Stein zur deutschen Frage. وهو بحث نشره P. BAILLEN فى المجلة الألمانية التاريخية (Hist. Zeitschr.) العدد ٨٦٢ رقم ٤٦.

STERN, A, Heinrich Friederich Karl Stein in Allgemeine Deutsche Biographie. Leipzig, 1878 - 97.

على تلال فالمى

BOGISLANSKI, A.V. Das Leben des Generals Kumouriez. Berlin, 1869.

CHASSIN, C.L. L'Armée de la Révolution. La paix et la guerre. Paris, 1876.

CHAQUET, A, Les guerres de la Révolution . Paris, 1886 وما بعدها

FOUCART, P. et FINOT, J. La Detense Nationale dans le Nord, 1792 - 1802; 2 vols. Lilles 1890 - 3.

GUILLEN, E. Les généraux de la République. Paris, 1895.

JOMINI, Baron A.H. de Histoire critique et militaire des Campagnes de la Révolution de 1792 a 1801 ; 5 vols avec atlas. Paris, 1820 - 4.

فى سماء الأنغام : لودفيج فان بيتهوفن

BEETHOVEN, L. VAN. Sämtliche Briefe. 2. Auflage bearbeitet von.

BEETHOVEN JAHRBUCH نشره TH. von FRIMMEL. 2 Bande. München - Leipzig 1908 - 09.

HERRIOT, EDOUARD. La vie de Beethoven. Paris, 1930.

LEITZMANN, ALBERT, Beethovens Persönlichkeit, Urleile der Zeitgenossen. 2 Bände. Leipzig, 1921.

NEUES BEETHOVEN JAHRBUCH نشره A. SANDBERGER

ظهر منه تسعة مجلدت إلى سنة ١٩٣٩

ROLLAND, ROMAIN. Beethoven. Les grandes époques créatrices. Paris, 1928.

SCHIEDERMAIR, SUDWIG. Der junge Beethoven .الطبعة الثانية Leipzig, 1940

SCHWEISHEIMER, WALDEMAR, Beethovens Lieden. Ihr Einfluss auf sein Leben und Schaffen, München, 1922.

THEODOR von FRIMMEL 1919 - 1911 المجموعة الكاملة لمراسلات بيتهوفن

THAYER, ALEXANDER WHEELOCK. The Life of Ludwig v. Beethoven; 2 vol. New - York, 1921.

محرر العبيد ـ أبراهام لنكولن

HERNDON, W.H. Life of Abraham Lincoln; 2 vols. London, 1893.

LAMON, W.H. Recollections of Abarham Lincoln. Chicago, 1895.

MORES, J.T. Lincoln (American Statesmen Series), Boston, 1891.

SCHURZ, C. A. Lincoln. An essay. London, 1891.

WILSON, H. History of the Rise and Fall of the Slave Power in America; 3 vols. Boston, 1872.

أوتوفون بسمارك

BISMARCK, FURUST OTTO VON. Gedanken und Erinnerungen; 2 vols. Stuttgart, 1898.

ويليهما مجلدان عن بسمارك والإمبراطور ولهلم الأول وعن خطابات بسمارك ؛ ستوتجارت ١٩٠١ .

BLUM, H. Das deutsche Reich zur zeit Bismarcks. Leipzig, 1893

Furst Bismarck und seine Zeit; 6 Bände. München, 1895.

BUSCH, M. Bismarck. some secret pages of his History; 3 vols. London, 1898.

Cook, E. Lite of Florence Nightingale; 2 vols. 1913.

HAHN, L. Furst Bismarck. Sein Leben und Wirken; 5 Bände. Berlin, 1878 - 91.

MATTER, P. Bismarck et son temps. Paris, 1809.

الملاك فى صورة إنسان ـ فلورانس نيتنجيل

NUTTING, M.A. and L.L. Dock. History of Nursing. New - York, 1907.

POSCHINGER, H. VON. Furst Bismarck und die Parlamentarier. Breslau, 1894 - 5.

STRACHEY, LYTTON, Eminent Victorians. 1918.

مجد على التل الكبير ـ الأميرالاى محمد عبيد

أحمد عرابى : كشف الستار عن سر الأسرار، القاهرة ١٩٢٥ .

« : صفحات أخرى غير مطبوعة من مذكراته .

محمود الخفيف : أحمد عرابى، القاهرة ١٩٤٧ .

BLUNT, W. Secret history of the British occupation of Egypt.

CROMER. Modern Egypt الجزء الأول

GRUNAU, W. VON. Die Staats und Völkerrechtliche Stellung Aegyptens.

MILNER, A. England in Egypt.

VAN BEMMELEN. L'Egypte et L'Europe.

جواب البحار - روالد أموندسن ١٨٧٢ - ١٩٢٨م

AMUNDSEN, R. My life as an Explorer. 1927 .

PARIRIDGE, B. Amundsen. 1929.

محتويات الكتاب

القسم الثالث

صُوَر من البُطولة فى العَصر الحديث ١٨٩

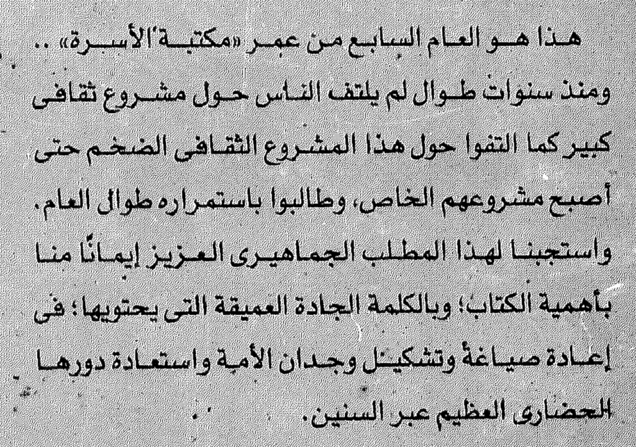

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

رقم الإيداع : ٩٤٨٥/ ٢٠٠٠

I.S.B.N. 977 - 01 - 6716 - 9

طبعة خاصة
تصدرها دار الرشاد
ضمن مشروع مكتبة الأسرة





هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك



٣٠٠ قرش

مكتبة الأسرة 2000
مهرجان القراءة للجميع

